

وَقَفَّائَاتٌ مَعَ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ ﷺ

فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ

الجزء الثاني

(من سورة القصص إلي سورة الناس)



أ.د. عَبْد الْعَزِيزُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ الْعُمَرِي

أُسْتَاذُ الدِّرَاسَاتِ الْعُلْيَا (سَابِقاً)
بِجَامِعَةِ الْإِمَامِ مُحَمَّدٍ بْنِ سَعُودٍ الْإِسْلَامِيَّةِ بِالرِّيَاضِ

١٤٤٨ هـ - ٢٠٢٦ م

وقفات مع النبي محمد ﷺ في القرآن الكريم

وقفات مع النبي محمد ﷺ في القرآن الكريم

الجزء الثاني

(من سورة القصص إلى سورة الناس)

إعداد

أ. د. عبد العزيز بن إبراهيم العُمري

أستاذ الدراسات العليا (سابقاً)

بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض

حقوق الطباعة والنشر محفوظة للمؤلف

الطبعة الأولى

١٤٤٨هـ / ٢٠٢٦م

الرياض: هاتف: ٢٧٤٦٦٧٧ ١١ ٩٦٦ + - ٢٧٤٦٦٨٨ ١١ ٩٦٦ +

E. mail: azizomary@hotmail.com

يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو نقله في أي شكل أو واسطة، سواء
أكانت إلكترونية أم ميكانيكية، بما في ذلك التصوير بالنسخ
(فوتوكوبي)، أو التسجيل، أو التخزين والاسترجاع، بإذن خطي من المؤلف.
والكتاب متوفر بصيغة (PDF) مجاًاً على الموقع الإلكتروني
(http://omaryforum.com).



فهرس المحتويات

الموضوع	الصفحة
سورة القصص	١١
سورة العنكبوت	٢٥
سورة الروم	٣٥
سورة لقمان	٤٥
سورة السجدة	٥١
سورة الأحزاب	٥٥
سورة سبأ	١٠٥
سورة فاطر	١٢١
سورة يس	١٢٩
سورة الصافات	١٣٧
سورة ص	١٤١
سورة الزمر	١٥٥
سورة غافر	١٧٧
سورة فصلت	١٨٥
سورة الشورى	١٩٧
سورة الزخرف	٢٠٧
سورة الدخان	٢١٩
سورة الجاثية	٢٢٣

الموضوع	الصفحة
سورة الأحقاف	٢٢٩
سورة محمد	٢٤١
سورة الفتح	٢٥٢
سورة الحجرات	٢٧٧
سورة ق	٢٨٧
سورة الذاريات	٢٩٣
سورة الطور	٢٩٧
سورة النجم	٣٠١
سورة القمر	٣٠٩
سورة الواقعة	٣١١
سورة الحديد	٣١٥
سورة المجادلة	٣١٩
سورة الحشر	٣٣١
سورة الممتحنة	٣٥١
سورة الصف	٣٥٩
سورة الجمعة	٣٦١
سورة المنافقون	٣٧١
سورة التغابن	٣٧٩
سورة الطلاق	٣٨٣
سورة التحريم	٣٨٧
سورة الملك	٣٩٧

الموضوع	الصفحة
سورة القلم	٤٠١
سورة الحاقة	٤١٣
سورة المعارج	٤١٧
سورة الجن	٤٢١
سورة المزمل	٤٢٧
سورة المدثر	٤٢٥
سورة القيامة	٤٤١
سورة الإنسان	٤٤٣
سورة المرسلات	٤٤٥
سورة النبأ	٤٤٧
سورة النازعات	٤٤٩
سورة عبس	٤٥٣
سورة التكويد	٤٥٥
سورة المطففين	٤٥٩
سورة الانشقاق	٤٦١
سورة البروج	٤٦٥
سورة الأعلى	٤٦٧
سورة الغاشية	٤٦٩
سورة الفجر	٤٧١
سورة البلد	٤٧٥
سورة الضحى	٤٧٧

الموضوع	الصفحة
سورة الشرح	٤٨١
سورة العلق	٤٨٥
سورة البينة	٤٩١
سورة القارعة	٤٩٣
سورة الفيل	٤٩٥
سورة الماعون	٥٠١
سورة الكوثر	٥٠٣
سورة الكافرون	٥٠٧
سورة النصر	٥٠٩
سورة الإخلاص	٥١١
سورة الفلق	٥١٧
سورة الناس	٥٢١
الخاتمة	٥٢٥
المصادر والمراجع	٥٢٥

سورة القصص

تذكيره ﷺ بشيء من نبي موسى عليه السلام:

قال تعالى: ﴿طَسَمَ ۝١ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ۝٢ نَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٣ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ ۚ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ۝٤ وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ۝٥ وَنُكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنَرَى فِرْعَوْنَ وَهَمْلَكَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ ۝٦﴾ [القصص].

قوله تعالى: ﴿تلك﴾ أي هذه ﴿آيات الكتاب المبين﴾ أي الواضح الجلي الكاشف عن حقائق الأمور، وعلم ما قد كان وما هو كائن.

وقوله تعالى: ﴿نتلوا عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق﴾ الآية، أي نذكر لك الأمر على ما كان عليه كأنك تشاهد وكأنك حاضر، ثم قال تعالى: ﴿إن فرعون علا في الأرض﴾ أي تكبر وتجبروا طفلى، ﴿وجعل أهلها شيعاً﴾ أي أصنافاً وجماعات حسب ما يريد من هواه.

وقوله تعالى: ﴿يستضعف طائفة منهم﴾ يعني بني إسرائيل. وكانوا في ذلك الوقت خيار أهل زمانهم، وقد سُلط عليهم هذا الملك الجبار العنيد يستعملهم في أخس الأعمال، ويكدهم ليلاً ونهاراً في أشغاله وأشغال رعيته. ومع هذا يُقتل أبناءهم ويستحيي نساءهم في مزيد إهانة لهم واحتقار، وخوف من أن

يوجد منهم الغلام، الذي كان قد تخوف هو وأهل مملكته أن يكون سبب هلاكه وذهاب دولته على يديه.

وكانت القبط قد تلقوا هذا من بني إسرائيل فيما كانوا يدرسون من قول إبراهيم الخليل عليه السلام.

فكانت القبط تحدث بهذا عند فرعون، فاحترز فرعون من ذلك، وأمر بقتل ذكور بني إسرائيل. ولن ينفع حذر من قدر؛ لأن أجل الله إذا جاء لا يؤخر، ولكل أجل كتاب. ولهذا قال تعالى: ﴿ونريد أن نمنَّ على الذين استضعفوا في الأرض﴾ - إلى قوله تعالى - ﴿يحذرون﴾. وقد فعل تعالى ذلك بهم.

أراد فرعون بحوله وقوته أن ينجو من موسى، فما نفعه ذلك مع قدرة الملك العظيم الذي لا يُخالف أمره القدري ولا يُغلب، بل نفذ حكمه وجرى قلمه في القدم بأن يكون هلاك فرعون على يديه، بل يكون هذا الغلام الذي احترز من وجوده وقتل بسببه ألوف من الولدان، إنما منشؤه ومرباه على فراشه وفي داره، وغذاؤه من طعامه وهو يربيّه ويدلّله، وحتفه وهلاكه وهلاك جنوده على يديه؛ ليعلم أن رب السماوات العلا هو القاهر الغالب العظيم القوي العزيز الشديد المحال، الذي ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن.^(١)

تذكيره ﷺ بعاقبة فرعون وقومه:

قال تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَتَأْتِيَهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١٠/٢٦ - ٢٩؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٤٠٩.

يَهْمَنُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطْلُعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ
الْكَاذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَأَسْتَكْبِرُ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا
يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَاَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ
عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَدْعُونَ إِلَى الْكَارِ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ لَا
يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ [القصص].

يخبر تعالى عن كفر فرعون وطغيانه وافترائه في دعواه الإلهية لنفسه
القبیحة لعنه الله؛ ذلك لأنه دعاهم إلى الاعتراف له بالإلهية، فأجابوه إلى
ذلك بقلّة عقولهم وسخافة أذهانهم، ولهذا قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتَ
لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَأَوْقَدْ لِي يَا هَامَانَ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطْلُعُ
إِلَى إِلَهِ مُوسَى﴾، يعني أمر وزيره هامان ومدير رعيته ومشير دولته أن يوقد له
على الطين، يعني يتخذ له آجرًا لبناء الصرح، وهو القصر المنيف الرفيع
العالي.

وذلك لأن فرعون بنى هذا الصرح الذي لم ير في الدنيا بناءً أعلى منه،
إنما أراد بهذا أن يظهر لرعيته تكذيب موسى فيما زعمه من دعوى إله غير
فرعون، ولهذا قال تعالى على لسان فرعون: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ أي
في قوله: إن ثمّ ربًّا غيري، لا أنه كذبه في أن الله تعالى أرسله؛ لأنه لم يكن
يعترف بوجود الصانع جل وعلا.

وقوله تعالى: ﴿وَأَسْتَكْبِرُ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا
لَا يَرْجِعُونَ﴾ أي طغوا وتجبروا، وأكثروا في الأرض الفساد، واعتقدوا أنه لا
قيامة ولا معاد.

وقال تعالى هاهنا: ﴿فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ﴾ أي أغرقناهم في البحر في صبيحة واحدة. فلم يبق منهم أحد ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ، وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾ توجيه للرسول ﷺ بالاعتبار، أي لمن سلك وراءهم وأخذ بطريقتهم في تكذيب الرسل وتعطيل الصانع، ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يَنْصُرُونَ﴾ أي فاجتمع عليهم خزي الدنيا موصولاً بذل الآخرة.

تذكيره ﷺ بقصة موسى ﷺ في الطور:

قال تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ (٤٤) ﴿وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ (٤٥) ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَتْهُمْ مِّنْ نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (٤٦) ﴿وَلَوْلَا أَن تُصِيبَهُمْ مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٤٧) [القصص].

يقول تعالى منبهًا على برهان نبوة محمد ﷺ، حيث أخبر بالغيوب الماضية خبراً كأنه سامع شاهد وراء لما تقدم، وهو رجل أُمي لا يقرأ شيئاً من الكتب، نشأ بين قوم لا يكادون يعرفون شيئاً من ذلك، أي وما كنت حاضراً لذلك، ولكن الله أوحاه إليك.

وقال تعالى هاهنا بعد ما أخبر عن قصة موسى ﷺ من أولها إلى آخرها، وكيف كان ابتداء إichاء الله إليه وتكليمه له ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ﴾ يعني ما كنت يا محمد بجانب الجبل الغربي الذي كلم الله موسى من الشجرة التي هي شرقية على شاطئ الوادي ﴿وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ لذلك، ولكن الله ﷻ أوحى إليك ذلك؛ ليكون حجة

وبرهاناً على قرون قد تطاول عهدها، ونسوا حجج الله عليهم وما أوحاه إلى الأنبياء المتقدمين.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا﴾ أي وما كنت يا محمد مقيماً في أهل مدين تتلو عليهم آياتنا حين أخبرت عن نبينا شعيب وما قال لقومه وما ردوا عليه، ﴿وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسَلِينَ﴾ أي ولكن نحن أوحينا إليك ذلك وأرسلناك إلى الناس رسولاً، ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا﴾. فقد كنت أنت وأمتك في أصلاب آبائهم أن يؤمنوا بك إذا بعثت.

وقوله تعالى: ﴿وَلَكِن رَّحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾ أي ما كنت مشاهداً لشيء من ذلك، ولكن الله تعالى أوحاه إليك وأخبرك به؛ رحمة منه بك وبالعباد وبإرسالك إليهم؛ ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُمْ مِنْ نَّذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أي لعلهم يهتدون بما جئتهم به من الله ﷻ. ﴿وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيَهُمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا﴾ الآية، أي وأرسلناك إليهم لتقيم عليهم الحجة، ولينقطع عذرهم إذا جاءهم عذاب من الله بكفرهم، فيحتجوا بأنهم لم يأتهم رسول ولا نذير.^(١)

تذكيره ﷺ بشيء من نبا موسى ﷺ وتحذير الكفار:

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلِّ كَافِرُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعُهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِنْ لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنْ

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١٠/٧٦ - ٧٩؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٤١٨ - ١٤٢٠.

اللَّهُ إِنَّكَ اللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ [القصص].

يقول تعالى مخبراً عن القوم الذين لو عذبهم قبل قيام الحجة عليهم لاحتجوا بأنهم لم يأتهم رسول أنهم لما جاءهم الحق من عنده على لسان محمد ﷺ قالوا على وجه التعت وتغافل العناد والكفر والجهل والإلحاد ﴿لولا أوتي مثل ما أوتي موسى﴾ الآية، يعنون من الآيات مثل العصا واليد والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم وتقيص الزروع والثمار، مما يضيق على أعداء الله، وكفلق البحر وتظليل الغمام وإنزال المن والسلوى إلى غير ذلك من الآيات الباهرة والحجج القاهرة، التي أجراها الله تعالى على يدي موسى ﷺ حجة وبرهاناً له على فرعون وملئه وبني إسرائيل.

ومع هذا كله لم ينجع في فرعون وملئه، بل كفروا بموسى وأخيه هارون، ﴿أولم يكفروا بما أوتي موسى من قبل﴾ أي أو لم يكفر البشر بما أوتي موسى من تلك الآيات العظيمة، ﴿قالوا سحران تظاهرا﴾ أي تعاونا ﴿وقالوا إنا بكل كافرون﴾ أي بكل منهما كافرون.

روي أن اليهود أمروا قريشاً أن يقولوا لمحمد ﷺ ذلك، فقال الله تعالى: ﴿أولم يكفروا بما أوتي موسى من قبل قالوا ساحران تظاهرا﴾ قال يعني موسى وهارون صلى الله عليهما وسلم ﴿تظاهرا﴾ أي تعاونا وتناصرنا وصدق كل منهما الآخر؟

وعن ابن عباس ؓ: قالوا ساحران تظاهرا. قال: يعنون موسى ومحمداً ﷺ.

وأما من قرأ ﴿سحران تظاهرا﴾ قيل يعنون التوراة والقرآن الكريم،

كما يعني صدق كل واحد منهما الآخر؛ لأنه قال تعالى بعده: ﴿قُلْ فَاتُوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما أتبعه﴾ وكثيراً ما يقرن الله بين التوراة والقرآن الكريم.

ولهذا قال تعالى: ﴿قُلْ فَاتُوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما أتبعه إن كنتم صادقين﴾ أي فيما تدافعون به الحق وتعارضون به من الباطل، قال الله تعالى: ﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ﴾ أي فإن لم يجيبوك عما قلت لهم ولم يتبعوا الحق ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ﴾ أي بلا دليل ولا حجة. ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بغير هدى من الله﴾ أي بغير حجة مأخوذة من كتاب الله ﴿إِنْ اللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ﴾ أبلغناهم وفصلنا لهم القول. وبيّنا لهم القول. وقد أخبرهم ﷺ كيف صنع بمن مضى، وكيف هو صانع ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾. وهو يعني قريشاً ومن ظاهريهم من يهود، وأمثالهم.^(١)

علم الله ﷻ بالمهتدين:

قال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ (٥٦) وَقَالُوا إِنَّا نَتَّبِعُ الْهُدَى مَعَكَ نُنْخِطِفُ مِنْ أَرْضِنَا أَوْلَمْ نُمْكِنْ لَهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجِئُ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِّنْ لَّدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٥٧) [القصص].

يقول تعالى لرسوله ﷺ: إِنَّكَ يَا مُحَمَّدٌ ﴿لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾، أي ليس إليك ذلك، إنما عليك البلاغ، والله يهدي من يشاء، وله الحكمة البالغة والحجة الدامغة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١٠/٧٩ - ٨٣؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٤١٩ - ١٤٢٠.

يهدي من يشاء وهو أعلم بالمهتدين ﴿﴾، أي هو أعلم بمن يستحق الهداية ممن يستحق الغواية.

وفي الصحيح أنها نزلت في أبي طالب عم رسول الله ﷺ، وقد كان يحوطه وينصره ويقوم في صفه ويحبه حباً شديداً طبعياً لا شرعياً، فلما حضرته الوفاة وحان أجله دعاه رسول الله ﷺ إلى الإيمان والدخول في الإسلام. فسبق القدر فيه واختطف من يده، فاستمر على ما كان عليه من الكفر، ولله الحكمة التامة.^(١)

تذكيره ﷺ بهلاك القرى المعاندة للرسول ﷺ:

قال تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا فَنَلَّكَ مَسْكَنُهُمْ لَمْ تَسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾ (٥٨) وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمَمٍ رَسُولًا يَنْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾ (٥٩) [القصص].

يقول تعالى معرضاً بأهل مكة في قوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا﴾ أي طغت وأشرت وكفرت نعمة الله فيما أنعم به عليهم من الأرزاق. وقال تعالى: ﴿فَنَلَّكَ مَسَاكِنَهُمْ لَمْ تَسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي دثرت ديارهم فلا ترى إلا مساكنهم.

وقوله تعالى: ﴿وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾ أي رجعت خراباً ليس فيها أحد، بل مآلها لله تعالى.

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٨٧/١٠ - ٩٠؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١٤٢١/٢. (والرواية عند البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، سورة القصص، باب (إنك لا تهدي من أحببت، ولكن الله يهدي من يشاء)، ج ١٧/٦ - ١٨.

ثم قال تعالى مخبراً عن عدله وأنه لا يهلك أحداً ظالماً له، وإنما يهلك من أهلك بعد قيام الحجة عليهم: ﴿وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث في أمها﴾ ومنها مكة المكرمة ﴿رسولاً يتلوا عليهم آياتنا﴾ فيه دلالة على أن النبي الأمي وهو محمد ﷺ المبعوث في أم القرى رسول إلى جميع القرى من عرب وأعاجم.

وقد قال تعالى: ﴿وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً﴾ فجعل تعالى بعثة النبي الأمي شاملة لجميع القرى، لأنه رسول إلى أمها وأصلها التي ترجع إليها.

ثبت عنه صلوات الله وسلامه عليه أنه قال: بعثت إلى كل أحمر وأسود، وقيل المراد بقوله تعالى: ﴿حتى يبعث في أمها رسولاً﴾ أي أصلها وعظيمتها الأقاليم.^(١)

تذكيره ﷺ بأن الله له الحكم وإليه المرجع:

قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَنَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (٦٨) وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ (٦٩) وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٧٠)

[القصص].

يخبر تعالى أنه المتفرد بالخلق والاختيار، وأنه ليس له في ذلك منازع ولا معقب، قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾ أي ما يشاء، فما شاء

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١٠/٩٠ - ٩١؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٤٢٢. (والحديث من رواية صحيح مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، مقدمة - كتاب المساجد ومواضع الصلاة، ج ٢/٦٣).

كان وما لم يشأ لم يكن، فالأمور كلها خيرها وشرها بيده، ومرجعها إليه، وقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لَهُمُ الْخَيْرَةُ﴾ نفي، وفيه بيان انفراده تعالى بالخلق والتقدير والاختيار، وأنه لا نظير له في ذلك سبحانه، ولهذا قال تعالى: ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي من الأصنام والأنداد التي لا تخلق ولا تختار شيئاً.

ثم قال تعالى: ﴿وَرَبِّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾، أي يعلم ما تكن الضمائر، وما تنطوي عليه السرائر، كما يعلم ما تبديه الظواهر من سائر الخلائق وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي هو المنفرد بالإلهية، فلا معبود سواه، كما لا رب يخلق ما يشاء ويختار سواه، ﴿لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ﴾ أي في جميع ما يفعله هو المحمود عليه بعدله وحكمته، ﴿وَلَهُ الْحُكْمُ﴾ أي الذي لا معقب له؛ لقهره وغلبته وحكمته ورحمته، ﴿وَالِيهِ تَرْجِعُونَ﴾ أي جميعكم يوم القيامة، فيجزى كل عامل بعمله من خير وشر، ولا يخفى عليه منهم خافية في سائر الأعمال.^(١)

تذكيره ﷺ للناس برحمة الله في الليل والنهار:

قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيَكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ (٧١) ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِاللَّيْلِ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ (٧٢) ﴿وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (٧٣) [القصص].

يقول تعالى ممتناً على عباده بما سخر لهم من الليل والنهار الذين لا قوام

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١٠/٩٥ - ٩٧؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٤٢٣ - ١٤٢٤.

لهم بدونهما أمراً رسوله ﷺ أن يبين أنه لو جعل الليل دائماً عليهم سرمداً إلى يوم القيامة لأضر ذلك بهم، ولستئمته النفوس وانحصرت منه. ولهذا قال تعالى: ﴿من إله غير الله يأتيكم بضياء﴾ أي تبصرون به وتستأنسون بسببه، ﴿أفلا تسمعون﴾؟ ثم أخبر تعالى أنه لو جعل النهار سرمداً، أي دائماً مستمراً إلى يوم القيامة لأضر ذلك بهم، ولتعبت الأبدان وكلت من كثرة الحركات والأشغال. ولهذا قال تعالى: ﴿من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه﴾؟ أي تستريحون من حركاتكم وأشغالكم، ﴿أفلا تبصرون. ومن رحمته﴾ أي بكم ﴿جعل لكم الليل والنهار﴾ أي خلق هذا وهذا ﴿لتسكنوا فيه﴾ أي في الليل ﴿ولتبتغوا من فضله﴾ أي في النهار بالأسفار والترحال، والحركات والأشغال.

وقوله تعالى: ﴿ولعلكم تشكرون﴾ أي تشكرون الله بأنواع العبادات في الليل والنهار. ومن فاته شيء بالليل استدركه بالنهار، أو بالنهار استدركه بالليل والآيات في هذا كثيرة.^(١)

تذكيره ﷺ بأن الله الذي أعطاه القرآن الكريم سيرجعه ﷻ في القيامة:

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾ وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِّنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَافِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا يَصُدُّكَ عَنْ ءَايَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [القصص].

يقول تعالى أمراً رسوله ﷺ ببلاغ الرسالة وتلاوة القرآن على الناس،

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١٠/٩٧ - ٩٨؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٤٠٠ - ١٤٠١.

مخبراً له بأنه سيرده إلى معاد وهو يوم القيامة، فيسأله عما استرعه من أعباء النبوة، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ أي افترض عليك أدائه إلى الناس ﴿لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ أي يوم القيامة، فيسألك عن ذلك وفيها الجنة ثم سألَكَ عن القرآن الكريم.

وفي رواية عن ابن عباس رضي الله عنه: ﴿لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ أي لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَكَّةَ كما أخرجك منها.

وروي: لما خرج النبي ﷺ من مكة المكرمة فبلغ الجحفة اشتاق إلى مكة المكرمة، فأنزل الله عليه: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ إلى مكة.^(١)

وقوله تعالى: ﴿قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ أي قل لمن خالفك وكذبك يا محمد من قومك من المشركين ومن تبعهم على كفرهم، قل لهم: ربِّي أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِي مِنْكُمْ وَمَنِي، وستعلمون لمن تكون له عاقبة الدار، ولن تكون العاقبة والنصرة في الدنيا والآخرة.

ثم قال تعالى مذكراً نبيه ﷺ نعمته العظيمة عليه وعلى العباد، إذ أرسله إليهم: ﴿وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ﴾ أي ما كنت يا محمد تظن قبل إنزال الوحي إليك أن الوحي ينزل عليك، ﴿وَلَكِنْ رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّكَ﴾ أي إنما أنزل الوحي عليك من الله من رحمته بك وبالعباد بسببك. فإذا منحك بهذه النعمة العظيمة ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا﴾ أي معيلاً ﴿لِلْكَافِرِينَ﴾، ولكن فارقهم ونابذهم وخالفهم، ﴿وَلَا يَصْدَنُّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أَنْزَلْتُ إِلَيْكَ﴾،

(١) انظر: رواية البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب سورة القصص (إن الذي فرض عليك القرآن)، ج ٦/ ١٨.

أي لا تتأثر لمخالفتهم لك وصددهم الناس عن طريقك لا تلوي على ذلك ولا تباله، فإن الله مع كل كلمته ومؤيد دينك ومظهر ما أرسلك به على سائر الأديان، ولهذا قال تعالى: ﴿وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ﴾ أي إلى عبادة ربك وحده لا شريك له ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي لا تليق العبادة إلا له، ولا تنبغي الإلهوية إلا لعظمته، وقوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ إخبار بأنه تعالى الدائم الباقي الحي القيوم، الذي تموت الخلائق ولا يموت.

وقوله تعالى: ﴿لَهُ الْحُكْمُ﴾ أي الملك والتصرف ولا معقب لحكمه تعالى ﴿وَالِيهِ تَرْجِعُونَ﴾ أي يوم معادكم، فيجزئكم بأعمالكم إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.^(١)

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١٠/١١٥ - ١١٩؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٤٢٧ - ١٤٢٨.

سورة العنكبوت

الأمر بمعرفة قدرة الله على الخلق:

قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ۝١٩ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٢٠ يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ۝٢١ وَمَا أَنتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ۚ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ۝٢٢ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ ۖ أُولَٰئِكَ يُسَوِّغُ لَكُمْ مِنْ رَّحْمَتِي وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٢٣﴾ [العنكبوت].

يقول تعالى مخبراً عن الخلق أنه أرشدهم إلى إثبات المعاد الذي ينكرونه، بما يشاهدونه في أنفسهم من خلق الله إياهم، بعد أن لم يكونوا شيئاً مذكوراً. ثم وجدوا وصاروا أناساً واعين. فالذي بدأ هذا قادر على إعادته، فإنه سهل عليه يسير لديه، ثم أرشدهم إلى الاعتبار بما في الآفاق من الآيات المشاهدة من خلق الله لكل الأشياء: السماوات وما فيها من الكواكب النيرة الثوابت والسيارات، والأرضين وما فيها من مهاد وجبال، وأودية وبراري وقفار، وأشجار وأنهار، وثمار وبحار، كل ذلك دال على حدوثها في أنفسها، وعلى وجود صانعها الفاعل المختار، الذي يقول للشيء كن فيكون.

ولهذا قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ ثم أمر ﷺ أن يقول للناس ما أمره الله تعالى به في قوله تعالى:

﴿قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشئ النشأة الآخرة﴾ أي يوم القيامة ﴿إن الله على كل شيء قدير﴾.

وقوله تعالى: ﴿يعذب من يشاء ويرحم من يشاء﴾ أي هو الحاكم المتصرف الذي يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، لا معقب لحكمه، ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون. فله الخلق والأمر مهما فعل فعدل؛ لأنه المالك الذي لا يظلم مثقال ذرة. وقال تعالى: ﴿يعذب من يشاء ويرحم من يشاء وإليه تقلبون﴾ أي ترجعون يوم القيامة.

وقوله تعالى: ﴿وما أنتم بمعجزين في الأرض ولا في السماء﴾، أي لا يعجزه أحد من أهل سمواته وأرضه، بل هو القاهر فوق عباده، فكل شيء بيده مهيمن عليه فقير إليه. وهو الغني عما سواه: ﴿وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير والذين كفروا بآيات الله ولقائه﴾ أي جحدوها وكفروا بالمعاد، ﴿أولئك يتسوا من رحمتي﴾ أي لا نصيب لهم فيها ﴿وأولئك لهم عذاب أليم﴾ أي موجع شديد في الدنيا والآخرة.^(١)

أمره ﷻ بالقرآن والصلاة والتكبير والمعروف:

قال تعالى: ﴿خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ۚ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٤٤﴾ أَتُلُّ مَا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ ۚ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ۚ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾ [العنكبوت].

يقول تعالى مخبراً عن قدرته العظيمة أنه خلق السماوات والأرض بالحق، يعني بعيداً عن العبث واللعب. وهو سبحانه لا يُسأل عما يفعل، فكل ما

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١٠/١٣٠ - ١٣٢؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٤٣٢.

يفعله حق: ﴿لتجزى كل نفس بما تسعى﴾. وقوله تعالى: ﴿إن في ذلك لآية للمؤمنين﴾ أي لدلالة واضحة على أنه تعالى المتفرد بالخلق والتدبير والإلهية، ثم أمر رسوله ﷺ والمؤمنين بتلاوة القرآن، وإبلاغه للناس ﴿وأقم الصلاة، إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، ولذكر الله أكبر﴾ أمر ﷺ بإقامة الصلاة، فهي تشتمل على ترك الفواحش والمنكرات، أي المواظبة عليها تحمل على ترك ذلك.

وتشتمل الصلاة على ذكر الله تعالى وهو المطلوب الأكبر. ولهذا قال تعالى: ﴿ولذكر الله أكبر﴾ أي أعظم من الأول، ﴿والله يعلم ما تصنعون﴾ أي يعلم جميع أعمالكم وأقوالكم. وقيل في قوله تعالى: ﴿إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر﴾ قال: إن الصلاة فيها ثلاث خصال، فكل صلاة لا يكون فيها شيء من هذه الخصال فليست بصلاة: الإخلاص، والخشية، وذكر الله تعالى، فالإخلاص يأمره بالمعروف، والخشية تنهيه عن المنكر، وذكر الله ومنه القرآن يأمره وينهاه.

عن ابن عباس ؓ في قوله تعالى: ﴿ولذكر الله أكبر﴾ يقول تعالى: ولذكر الله لعباده أكبر إذا ذكروه من ذكرهم إياه.

﴿ولذكر الله أكبر﴾ لها وجهان، قال: ذكر الله عندما حرمه وفي كل أحواله، قال: وذكر الله إياكم أعظم من ذكركم إياه.

ذكر الله إياكم عندما أمر به أو نهى عنه إذا ذكرتموه أكبر من ذكركم إياه.^(١)

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١٠/١٤٤ - ١٤٨؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٤٣٧ - ١٤٣٨.

تذكيره ﷺ بالإحسان في مجادلة أهل الكتاب:

قال تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ (٤٦) [العنكبوت].

هي باقية محكمة لمن أراد الاستبصار منهم في الدين، فيجادل بالتي هي أحسن ليكون أنجع فيه.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ أي حادوا عن وجه الحق، وعموا عن واضح المحجة، وعاندوا وكابروا، ﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ يعني أهل الحرب. وقوله تعالى: ﴿وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم﴾، يعني إذا أخبروا بما لا نعلم صدقه ولا كذبه، فهذا لا نقدم على تكذيبه؛ لأنه قد يكون حقاً، ولا تصديقه فلعله أن يكون باطلاً، ولكن نؤمن به إيماناً مجملاً معلقاً على شرط وهو أن يكون منزلاً لا مبدلاً ولا مؤولاً.

روى البخاري رحمه الله: قال رسول الله ﷺ: ((لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم، وقولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا)).^(١)

أنزل عليه القرآن مع أميته ﷺ:

قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ ءَايَنَهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ﴾ (٤٧) وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لِآرْتَابِ الْمُبِطِلُونَ (٤٨) بَلْ هُوَ آيَةٌ بَيِّنَةٌ فِي صُورِ

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١٠/١٤٩ - ١٥١؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٤٣٨ - ١٤٣٩. (والحديث رواه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب: (قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا)، ج ٥/١٥٠.

الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَحْكُدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ ﴿٤٩﴾ [العنكبوت].

كما أنزل الله ﷻ الكتب على من قبل محمد ﷺ من الرسل، كذلك أنزل عليه هذا الكتاب وهو القرآن الكريم، وقوله تعالى: ﴿فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَوْمَنُونَ بِهِ﴾ أي الذين أخذوه فتلوه حق تلاوته من أحبارهم العلماء الصادقين، كعبد الله بن سلام وسلمان الفارسي وأشباههما.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يَوْمَنُ بِهِ﴾ يعني العرب من قريش وغيرهم، ﴿وَمَا يَجْعَدُ بآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ﴾ أي ما يكذب بها ويجحد حقها إلا من يستتر الحق بالباطل، ويغطي ضوء الشمس بالوصائل وهيهات.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخْطُهُ بِيَمِينِكَ﴾ أي قد لبثت في قومك يا محمد من قبل أن تأتي بهذا القرآن، عمراً لا تقرأ كتاباً ولا تحسن الكتابة، بل كل أحد من قومك وغيرهم يعرف أنك رجل أُمي لا تقرأ ولا تكتب. وهكذا صفته في الكتب المتقدمة. وكان رسول الله ﷺ لا يحسن الكتابة ولا يخط سطرًا ولا حرفاً بيده، بل كان له كُتَّاب يكتبون بين يديه الوحي والرسائل إلى الأقاليم.

قال الله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا﴾ أي تقرأ ﴿مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ﴾ لتأكيد النفي، ولا تخطه بيمينك تأكيد أيضاً.

وقوله تعالى: ﴿إِذَا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾ أي لو كنت تحسنها لارتاب بعض الجهلة من الناس، فيقول إنما تعلم هذا من كتب قبله مأثورة عن الأنبياء، مع أنهم قالوا ذلك مع علمهم بأنه أُمي لا يحسن القراءة ولا الكتابة.

وقال تعالى هاهنا: ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ أي هذا القرآن آيات بينة واضحة في الدلالة على الحق أمراً ونهيًا وخبراً، يحفظه

العلماء، يسرّه الله عليهم حفظاً وتلاوةً وتفسيراً، فهو محفوظ في الصدور ميسر على الألسنة، مهيم على القلوب، معجز لفظاً ومعنى. ولهذا جاء في الكتب المتقدمة في صفة هذه الأمة أناجيلهم في صدورهم.

والمعنى في قوله تعالى: ﴿بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم﴾ بل العلم بأنك ما كنت تتلو من قبل هذا الكتاب كتاباً، ولا تخطه بيمينك آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم، ولعل من المقصود أيضاً علماء من أهل الكتاب. وقوله تعالى: ﴿وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون﴾ أي ما يكذب بها ويبخس حقها ويردها إلا الظالمون، أي المعتدون المكابرون الذين يعلمون الحق ويحيدون عنه.^(١)

الآيات والوحي من الله ﷻ:

قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ ۖ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ٥٠ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ٥١ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ٥٢﴾ [العنكبوت].

يقول تعالى مخبراً عن المشركين في تعنتهم وطلبهم آيات، يعنون ترشدهم إلى أن محمداً رسول الله كما أتى صالح بناقته، قال الله تعالى: ﴿قل﴾ يا محمد ﴿إنما الآيات عند الله﴾ أي إنما أمر ذلك إلى الله، فإنه لو علم أنكم تهتدون لأجابكم إلى سؤالكم؛ لأن هذا سهل عليه يسير لديه، ولكنه يعلم منكم أنكم إنما قصدتم التعنت والامتحان، فلا يجيبكم إلى ذلك. وقوله

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١٠/١٥١ - ١٥٣؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٤٣٩ - ١٤٤٠.

تعالى: ﴿وإنما أنا نذير مبين﴾ أي إنما بعثت نذيراً لكم بين النذارة، فعلي أن أبلغكم رسالة الله تعالى، ثم قال تعالى مبيناً كثرة جهلهم وسخافة عقولهم، حيث طلبوا آيات تدلهم على صدق محمد ﷺ فيما جاءهم. وقد جاءهم بالكتاب العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، الذي هو أعظم من كل معجزة، إذ عجزت الفصحاء والبلغاء عن معارضته، بل عن معارضة عشر سور من مثله، بل عن معارضة سورة منه. فقال تعالى: ﴿أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم﴾ أي أو لم يكفهم آية أنا أنزلنا عليك الكتاب العظيم الذي فيه خبر من قبلهم، ونبأ من بعدهم، وحكم ما بينهم، وأنت رجل أُمي لا تقرأ ولا تكتب، ولم تخالط أحداً من أهل الكتاب. فجئتهم بأخبار ما في الصحف الأولى، ببيان الصواب مما اختلفوا فيه وبالحق الواضح البين الجلي.

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ ما من الأنبياء من نبي إلا قد أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إلي، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة.^(١)

وقد قال الله تعالى: ﴿إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون﴾ أي إن في هذا القرآن لرحمة أي بياناً للحق وإزاحة للباطل، وذكرى بما فيه حلول النقمات ونزول العقاب بالمكذبين والعاصين لقوم يؤمنون.

ثم قال تعالى: ﴿قل كفى بالله بيني وبينكم شهيداً﴾ أي هو أعلم بما تفيضون فيه من التكذيب، ويعلم ما أقول لكم من إخباري عنه بأنه أرسلني، فلو كنت كاذباً عليه لانتقم مني. وإنما أنا صادق عليه فيما

(١) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ إلى جميع الناس ونسخ الملل بملته، ج ١/ ٩٢ - ٩٣.

أخبرتكم به، ولهذا أيدني بالمعجزات الواضحات والدلائل القاطعات، ﴿يعلم ما في السماوات والأرض﴾ أي لا تخفى عليه خافية، ﴿والذين آمنوا بالباطل وكفروا بالله أولئك هم الخاسرون﴾ أي يوم القيامة سيجزيهم على ما فعلوا ويقابلهم على ما صنعوا في تكذيبهم بالحق واتباعهم الباطل، حيث كذبوا برسول الله مع قيام الأدلة على صدقهم، وآمنوا بالطواغيت والأوثان بلا دليل، فسيجزيهم على ذلك إنه حكيم عليم.^(١)

استعجال الكافرين بالعذاب:

قال تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ٥٣﴾ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ٥٤ يَوْمَ يَغْشَاهُمْ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ٥٥﴾ [العنكبوت].

يقول تعالى مخبراً عن جهل المشركين في استعجالهم عذاب الله أن يقع بهم وبأس الله أن يحل عليهم. فقال تعالى هاهنا: ﴿ويستعجلونك بالعذاب ولولا أجل مسمى لجاءهم العذاب﴾ أي أخبرهم يا محمد لولا ما حتم الله من تأخير العذاب إلى يوم القيامة لجاءهم العذاب قريباً سريعاً كما استعجلوه. ثم قال تعالى: ﴿وليأتينهم بغتة﴾ أي فجأة ﴿وهم لا يشعرون يستعجلونك بالعذاب وإن جهنم لمحيطة بالكافرين﴾، أي يستعجلون العذاب وهو واقع بهم لا محالة.

ثم قال ﷺ: ﴿يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم﴾، فالنار تغشاهم من سائر جهاتهم. وهذا أبلغ في العذاب الحسي.

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١٠/١٥٣ - ١٥٤؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٤٤٠ - ١٤٤١.

وقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ تهديد وتقريع وتوبيخ، وهذا عذاب نفسي.^(١)

تأكيد قدرة الله ﷻ:

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ (٦١) ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (٦٢) ﴿وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ (٦٣) [العنكبوت].

يقول تعالى مقررًا أنه لا إله إلا هو، لأن المشركين الذين يعبدون معه غيره لوسألتهم يا محمد: معترفون بأنه المستقل بخلق السماوات والأرض والشمس والقمر وتسخير الليل والنهار، وأنه الخالق الرازق لعباده ومقدر آجالهم، واختلافها واختلاف أرزاقهم، فتفاوت بينهم، فمنهم الغني والفقير. وهو العليم بما يصلح كلا منهم، ومن يستحق الغنى ممن يستحق الفقر، فذكر أنه المستقل بخلق الأشياء المتفرد بتدبيرها، فإذا كان الأمر كذلك فلم يعبد غيره؟ ولم يتوكل على غيره؟ فكما أنه الواحد في ملكه فليكن الواحد في عبادته، وكثيرًا ما يقرر تعالى مقام الإلهية بالاعتراف بتوحيد الربوبية. وقد كان المشركون يعترفون بذلك، كما كانوا يقولون في تلبيتهم: "لبيك لا شريك لك، إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك".^(٢)

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١٠/١٥٥؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٤٤١.

(٢) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١٠/١٥٨ - ١٥٩؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٤٤٢.

سورة الروم

إقامته ﷺ على الفطرة:

قال تعالى: ﴿فَأَقْمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ مُبِينٍ إِلَيْهِ وَآتَوْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الروم].

يقول تعالى: مخاطباً نبيه ﷺ وأمة معه فسدد وجهك، واستمر على الدين الذي شرعه الله لك من الحنيفية ملة إبراهيم، الذي هداك الله لها وكمّلها لك غاية الكمال. وأنت مع ذلك لازم فطرتك السليمة التي فطر الله الخلق عليها. فإنه تعالى فطر خلقه على معرفته وتوحيده وأنه لا إله غيره.

وقوله تعالى: ﴿لَا تَبْدِيلَ لَخَلْقِ اللَّهِ﴾ قال بعضهم: معناه لا تبدلوا خلق الله فتغيروا الناس عن فطرتهم التي فطرهم الله عليها. كما أن معناه أنه تعالى ساوى بين خلقه كلهم في الفطرة على الجبلية المستقيمة، لا يولد أحد إلا على ذلك. ولا تفاوت بين الناس في ذلك. وفي قوله تعالى: ﴿لَا تَبْدِيلَ لَخَلْقِ اللَّهِ﴾ أي لدين الله، وأنه خلقهم الأولين والآخرين. والدين والعبادة لله. والفطرة الإسلام.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((ما من مولود يولد إلا على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، كما تنتج البهيمة بهيمة

جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء؟ ثم يقول تعالى: ﴿فطرت الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم﴾^(١).

وقوله تعالى: ﴿ذلك الدين القيم﴾ أي التمسك بالشرعية والفطرة السليمة هو الدين القيم المستقيم، ﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾، أي فلهذا لا يعرفه أكثر الناس، فهم عنه ناكبون.

وقوله تعالى: ﴿منيبين إليه﴾ أي راجعين إليه. ﴿واتقوه﴾ أي خافوه وراقبوه، ﴿وأقيموا الصلاة﴾ وهي الطاعة العظيمة، ﴿ولا تكونوا من المشركين﴾ أي بل كونوا من الموحدين المخلصين له العبادة لا يريدون بها سواه.

وقوله تعالى: ﴿من الذين فرّقوا دينهم وكانوا شيعاً كل حزب بما لديهم فرحون﴾ أي لا تكونوا من المشركين الذين قد فرّقوا دينهم أي بدّلوه وغيّروه، وآمنوا ببعض وكفروا ببعض، وهؤلاء كاليهود والنصارى والمجوس وعبدة الأوثان وسائر أهل الأديان الباطلة مما عدا أهل الإسلام الموحدين لله المتمسكين بكتاب الله وسنة نبيه ﷺ.

فأهل الأديان قبلنا اختلفوا فيما بينهم على آراء ومثل باطلة، وكل فرقة منهم تزعم أنهم على شيء. وهذه الأمة اختلفوا فيما بينهم على نحل كلها ضلالة إلا واحدة، وهم أهل السنة والجماعة، المتمسكون بكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ، وبما كان عليه الصدر الأول من الصحابة والتابعين وأئمة المسلمين في قديم الدهر وحديثه، كما روي ما أنا عليه وأصحابي.^(٢)

(١) صحيح مسلم، كتاب القدر، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة، وحكم موت أطفال الكفار وأطفال المسلمين، ج ٨/٥٢؛ صحيح البخاري، كتاب الجنائز، باب: إذا أسلم الصبي فمات، هل يصلى عليه، وهل يعرض على الصبي الإسلام، ج ٢/٩٨.

(٢) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١٠/١٨٢ - ١٨٥؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٤٥٢ - ١٤٥٣.

حقوق ذوي القربى:

قال تعالى: ﴿فَأَتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ، وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (٣٨) وَمَا آتَيْتُم مِّن رَّبٍّ لَّيْبُوا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرِيئُوا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ﴾ (٣٩) [الروم].

يقول تعالى آمراً بإعطاء ذي القربى حقه من البر والصلة، ﴿والمسكين﴾ وهو الذي لا شيء له ينفق عليه أو له شيء لا يقوم بكفايته، ﴿وابن السبيل﴾، وهو المسافر المحتاج إلى نفقة، وما يحتاج إليه في سفره. ﴿ذلك خير للذين يريدون وجه الله﴾ أي النظر إليه يوم القيامة وهو الغاية القصوى. ﴿وأولئك هم المفلحون﴾ أي في الدنيا والآخرة.

ثم قال تعالى: ﴿وما آتيتم من ربا ليربو في أموال الناس فلا يربو عند الله﴾، أي من أعطى عطية يريد أن يرد عليه الناس أكثر مما أهدى لهم فهذا لا ثواب له عند الله. وهذا الصنيع مباح وإن كان لا ثواب فيه إلا أنه قد نهى عنه رسول الله ﷺ.

والثواب عند الله في الزكاة، ولهذا قال تعالى: ﴿وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون﴾ أي الذين يضاعف الله لهم الثواب والجزاء.

جاء في الصحيح: ((وما تصدق أحد بعدل تمرة من كسب طيب إلا أخذها الرحمن بيمينه فيريها لصاحبها، كما يربي أحدكم فلوه أو فصيله حتى

(والحديث من رواية الترمذي في سننه، كتاب الإيمان، باب ما جاء في افتراق هذه الأمة، ج ٢٦/٥، حديث رقم: ٢٦٤١؛ الحاكم، المستدرک، ج ٢١٨/١، كتاب العلم، حديث رقم: ٤٤٤).

تصير التمرة أعظم من أحد)).^(١)

أمره تعالى بالسير في الأرض لمعرفة العواقب:

قال تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (٤١) قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾ [الروم].

المراد بالبر الفيافي. والبر عكس البحر. ويدخل فيه الأمصار والقرى ما كان منهما على جانب نهر أو بحر. والبحر المعروف.

قال تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ قال: فساد البر منه القتل وسائر المعاصي، وفساد البحر أخذ السفينة غصباً. والاعتداء فيه.

وقيل معنى قوله تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾ أي بان النقص في الزروع والثمار؛ بسبب المعاصي. وبالتالي فمن عصى الله في الأرض فقد أفسد في الأرض؛ لأن صلاح الأرض والسماء بالطاعة لله ﷻ. ولهذا جاء في الحديث: ((لحد يقام في الأرض أحب إلى أهلها من أن يمطروا أربعين صباحاً)).^(٢)

والسبب في هذا أن الحدود إذا أقيمت انكف الناس أو أكثرهم أو كثير منهم عن تعاطي المحرمات. وإذا تركت المعاصي كان سبباً في حصول بركات السماء والأرض. وكلما أقيم العدل كثرت البركات والخير. ولهذا

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١٠/١٨٧ - ١٩٠؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٤٥٤. (والحديث من

رواية البخاري في صحيحه، كتاب الزكاة، باب لا يقبل إلا من كسب طيب، ج ٢/١١٣).

(٢) سنن ابن ماجه، كتاب الحدود، باب إقامة الحدود، ج ٢/٨٤٨، حديث رقم: ٢٥٣٨؛ مسند

الإمام أحمد، ج ٢/٤٠٢.

ثبت في الصحيح: ((أن الفاجر إذا مات تستريح منه العباد والبلاد والشجر والدواب)).^(١)

وقوله تعالى: ﴿لِيَذِقَهِمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا﴾ الآية، أي يبتليهم بنقص الأموال والأنفس والثمرات؛ اختباراً منه لهم ومجازاة على صنيعهم، ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي عن المعاصي. ثم قال تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ﴾ أي من قبلكم ﴿كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ﴾، أي فانظروا ما حل بهم من تكذيب الرسل وكفر النعم.^(٢)

إقامته ﷺ لدين الله:

قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِنْ قَبْلُ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ، مِنْ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾^(٤٣) مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ، وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلَا نَفْسَ لَهُمْ يَمْهَدُونَ^(٤٤) لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ^(٤٥) [الروم].

يقول تعالى آمراً نبيه محمداً ﷺ وسائر عباد الله بالمبادرة إلى الاستقامة في طاعته والمبادرة إلى الخيرات: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِنْ قَبْلُ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنْ اللَّهِ﴾ أي يوم القيامة إذا أراد كونه فلا راد له، ﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾ أي يتفرقون، ففريق في الجنة وفريق في السعير. ولهذا قال تعالى: ﴿مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلَا نَفْسَ لَهُ يَمْهَدُونَ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ﴾ أي يجازيهم مجازاة الفضل، الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى ما يشاء الله، ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ

(١) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب سكرات الموت، ج ١٩٢/٧؛ صحيح مسلم، كتاب الجنائز، باب ما جاء في مستريح ومستراح منه، ج ٥٤/٣.

(٢) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١٩٠/١٠ - ١٩٣؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١٤٥٤/٢ - ١٤٥٥.

الكافرين ﴿١﴾، ومع هذا هو العادل فيهم الذي لا يجور. ^(١)

انتقام الله تعالى من الكفرة بالأنبياء ﷺ:

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَأَنقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٤٧) [الروم].

ثم قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَأَنقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا﴾ هذه تسليية من الله تعالى لعبده ورسوله محمد ﷺ بأنه، وإن كذبه كثير من قومه ومن الناس، فقد كُذبت الرسل المتقدمون مع ما جاءوا أممهم به من الدلائل الواضحات.

ولكن انتقم الله ممن كذبهم وخالفهم وأنجى المؤمنين بهم، ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي هو حق أوجبه تعالى على نفسه الكريمة تكرماً وتفضلاً.

عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((ما من امرئ مسلم يرد عن عرض أخيه إلا كان حقاً على الله أن يرد عنه نار جهنم يوم القيام: ثم تلا هذه الآية ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾)). ^(٢)

النظر إلى آثار رحمة الله:

قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيْحَ فَتُنْفِثُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسْفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ ۖ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١٠/١٩٣ - ١٩٤؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٤٥٥.

(٢) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١٠/١٩٥؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٤٥٥. انظر: رواية الترمذي في سننه، كتاب البر والصلة، باب ما جاء في الذب عن عرض المسلم، ج ٤/٣٢٧، حديث رقم: ١٩٣١.

يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْهِمْ مِنَ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾ فَانْظُرْ إِلَى
ءَاثَرِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ
قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ ﴿٥١﴾ [الروم].

يبين تعالى كيف يخلق السحاب الذي ينزل منه الماء، فقال تعالى: ﴿اللَّهُ
الذي يرسل الرياح فتثير سحاباً﴾ إما من البحر كما ذكره غير واحد، أو
مما يشاء الله ﷻ ﴿فيبسطه في السماء كيف يشاء﴾ أي يمدده فيكثره
وينميه، ويجعل من القليل كثيراً، يُنشئ سحابة تُرى رأي العين مثل الترس،
ثم يبسطها حتى تملأ أرجاء الأفق، وتارة يأتي السحاب من نحو البحر ثقلاً
مملوءة.

وكذلك قال تعالى ها هنا ﴿اللَّهُ الذي يرسل الرياح فتثير سحاباً فيبسطه
في السماء كيف يشاء ويجعله كسفاً﴾، يعني قطعاً متراكماً، أسود من
كثرة الماء، تراه مدلهما ثقيلاً قريباً من الأرض.

وقوله تعالى: ﴿فترى الودق يخرج من خلاله﴾ أي فتري المطر وهو القطر،
يخرج من بين ذلك السحاب ﴿فإذا أصاب به من يشاء من عباده إذا هم
يستبشرون﴾، أي إليه يفرحون؛ لحاجتهم بنزوله عليهم ووصوله إليهم.

وقوله تعالى: ﴿وإن كانوا من قبل أن ينزل عليهم من قبله لمبلسين﴾،
المعنى أن هؤلاء القوم الذين أصابهم هذا المطر كانوا قانطين أزليين من نزول
المطر إليهم قبل ذلك، فلما جاءهم جاءهم على فاقة، فوقع منهم موقعاً
عظيماً، وفي قوله تعالى: ﴿من قبل أن ينزل عليهم من قبله لمبلسين﴾ كانوا
محتاجين إليه قبل نزوله، ثم جاءهم بغتة بعد اليأس منه والقنوط. فبعد ما
كانت أرضهم مقشعرة هامة أصبحت وقد اهتزت وربت وأنبتت من كل

زوج بهيج، ولهذا قال تعالى: ﴿فانظر إلى آثار رحمت الله﴾ يعني المطر ﴿كيف يحي الأرض بعد موتها﴾.

ثم نبه تعالى بذلك على إحياء الأجساد بعد موتها، وتفرقها وتمزقها، فقال تعالى: ﴿إن ذلك لمحي الموتى﴾ أي إن الذي فعل ذلك لقادر على إحياء الأموات، ﴿وهو على كل شيء قدير﴾. ثم قال تعالى: ﴿ولئن أرسلنا ريحاً فرأوه مصفرةً لظلوا من بعده يكفرون﴾. يقول تعالى: ﴿ولئن أرسلنا ريحاً﴾ يابسة على الزرع الذي زرعه ونبت وشب واستوى على سوقه، فرأوه مصفرةً، أي قد أصفر وشرع في الفساد لظلوا من بعده، أي بعد هذا الحال، يكفرون، أي يجحدون ما تقدم إليهم من النعم.^(١)

إسماعه ﷺ من يؤمن بآيات الله:

قال تعالى: ﴿فَإِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْوَقْءَ وَلَا تَسْمَعُ الضُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ۖ وَمَا أَنْتَ بِهَادٍ الْعُمِّيِّ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ ۚ إِنَّ تَسْمَعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ ۝٥٣﴾ [الروم].

يقول تعالى: كما أنك ليس في قدرتك يا محمد أن تسمع الأموات في أجداثها، ولا تبلغ كلامك الصم الذين لا يسمعون، وهم مع ذلك مدبرون عنك، كذلك لا تقدر على هداية العميان عن الحق وردهم عن ضلالتهم، بل ذلك إلى الله، فإنه تعالى بقدرته يسمع الأموات أصوات الأحياء إذا شاء، ويهدي من يشاء ويضل من يشاء وليس ذلك لأحد سواه. ولهذا قال تعالى: ﴿إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون﴾ أي خاضعون مستجيبون مطيعون، فأولئك هم الذين يسمعون الحق ويتبعونه وهذا حال المؤمنين، وليسوا مثل

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١٠/ ١٩٥ - ١٩٧؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/ ١٤٥٥ - ١٤٥٦.

الكافرين.^(١)

أمره ﷺ بالصبر:

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ۝٥٨ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۝٥٩ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ۝٦٠﴾ [الروم].

يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾، أي قد بينا لهم الحق، ووضحناه لهم، وضرينا لهم فيه الأمثال ليستبينوا الحق ويتبعوه. ﴿وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ﴾ أي لو جئتهم بأي آية كانت، سواء كانت باقتراحهم أم غيره، لا يؤمنون بها ويعتقدون أنها سحر وباطل، كما قالوا في انشقاق القمر ونحوه. قال تعالى هاهنا: ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ. فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ أي اصبر على مخالفتهم وعنادهم، فإن الله تعالى منجز لك ما وعده من نصره إياك عليهم وجعله العاقبة لك ولمن اتبعك في الدنيا والآخرة. ﴿وَلَا يَسْتَخِفَّنكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ أي بل اثبت على ما بعثك الله به، فإنه الحق الذي لا مرية فيه، ولا تعدل عنه وليس فيما سواه هدى يتبع، بل الحق كله منحصر فيه.^(٢)

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١٠/١٩٧ - ١٩٨؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٤٥٦ - ١٤٥٧.

(٢) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١٠/١٩٩ - ٢٠٠؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٤٥٨ - ١٤٥٩.

سورة لقمان

تبشيره ﷺ الكفار بعذاب الله:

قال تعالى: ﴿وَمَنْ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ (٦) وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَن فِي أُذُنِهِ قِرَاطٌ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (٧) [لقمان].

لما ذكر تعالى حال السعداء، وهم الذين يهتدون بكتاب الله وينتفعون بسماعه، عطف تعالى بذكر حال الأشقياء الذين أعرضوا عن الانتفاع بسماع كلام الله، وأقبلوا على استماع المزامير والغناء بالألحان وآلات الطرب، كما قال ابن مسعود (رضي الله عنه) في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ قال: هو والله الغناء. والله الذي لا إله إلا هو، يرددها ثلاث مرات، كما قاله ابن عباس (رضي الله عنه) وغيره.

وقيل الشرك. والمراد كل كلام يصد عن آيات الله واتباع سبيله. وقوله تعالى: ﴿لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي إنما يصنع هذا لمخالفة الإسلام وأهله، وقوله تعالى: ﴿وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا﴾ ويتخذ سبيل الله هزواً يستهزئ بها.

وقوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ أي كما استهانوا بآيات الله وسبيله أهينوا يوم القيامة في العذاب الدائم المستمر. ثم قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَن فِي أُذُنِهِ قِرَاطٌ﴾، أي هذا المقبل على اللهو واللعب والطرب إذا تليت عليه الآيات القرآنية ولَّى عنها

وأعرض وأدبر وتصامم وما به من صمم، كأنه ما سمعها؛ لأنه يتأذى بسماعها؛ إذ لا انتفاع له بها ولا أرب له فيها، ﴿فبشره بعذاب أليم﴾ أي يوم القيامة، يؤلمه كما تألم بسماع كتاب الله وآياته.^(١)

تذكيره ﷺ بتسخير النعم من الله للإنسان:

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ تَرَوُا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ۚ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ۚ﴾ [القمان].

يقول تعالى منبهاً خلقه على نعمه عليهم في الدنيا والآخرة بأنه سخر لهم ما في السماوات من نجوم يستضيئون بها في ليلهم ونهارهم، وما يخلق فيها من سحب وأمطار وثلج وبرد، وجعله إياها لهم سقفاً محفوظاً، وما خلق لهم في الأرض من قرار وأنهار وأشجار وزروع وثمار، وأسبغ عليهم نعمه الظاهرة والباطنة، من إرسال الرسل وإنزال الكتب وإزاحة الشبه والعلل، ثم مع هذا كله ما آمن الناس كلهم، بل منهم من يجادل في الله، أي في توحيده وإرساله الرسل ومجادلته في ذلك بغير علم، ولا مستند من حجة صحيحة، ولا كتاب ماثور صحيح. ولهذا قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ﴾ أي مبين مضيء. ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ أي على رسوله ﷺ من الشرائع المطهرة ﴿قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ أي لم يكن لهم حجة إلا اتباع الآباء الأقدمين، أي فما ظنكم أيها المحتجون بصنيع آبائهم أنهم

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١٠/ ٢٠٢ - ٢٠٦؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/ ١٤٥٩ - ١٤٦٠.

كانوا على ضلالة، وأنتم خلف لهم فيما كانوا فيه. ولهذا قال تعالى: ﴿أولو كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير﴾^(١).

الإسلام لله وعدم الحزن على الكافرين:

قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾^(٢٢) وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزَنكَ كُفْرُهُ ۖ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ^(٢٣) نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ^(٢٤) [لقمان].

يقول تعالى مخبراً عمن أسلم وجهه لله أي أخلص له العمل وانقاد لأمره واتبع شرعه، ولهذا قال تعالى: ﴿وهو محسن﴾ أي في عمله باتباع ما به أمر، وترك ما عنه زجر، ﴿فقد استمسك بالعروة الوثقى﴾، أي فقد أخذ موثقاً من الله متيناً لا يعذبه، ﴿والى الله عاقبة الأمور ومن كفر فلا يحزنك كفره﴾ أي لا تحزن عليهم يا محمد في كفرهم بالله وبما جئت به، فإن قدر الله نافذ فيهم، وإلى الله مرجعهم فنبئهم بما عملوا، أي فيجزئهم عليه، ﴿إن الله عليم بذات الصدور﴾ فلا تخفى عليه خافية. ثم قال تعالى: ﴿نمتعهم قليلاً﴾ أي في الدنيا ﴿ثم نضطرهم﴾ أي نلجئهم ﴿إلى عذاب غليظ﴾ أي فظيع صعب مشق على النفوس.^(٢)

حمده ﷻ لله الخالق:

قال تعالى: ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(٢٥) لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ^(٢٦)

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١٠/٢١٧ - ٢١٩؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٤٦٧.

(٢) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١٠/٢١٩؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٤٦٧.

[لقمان].

يقول تعالى مخبراً عن هؤلاء المشركين به أنهم يعرفون أن الله خالق السماوات والأرض وحده لا شريك له، ومع هذا يعبدون معه شركاء، يعترفون أنها خلق له وملك له. ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَسَّ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لِيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ أي إذ قامت عليكم الحجة باعترافكم، ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾. ثم قال تعالى: ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي هم خلقه وملكه ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ أي الغني عما سواه. وكل شيء فقير إليه، الحميد في جميع ما خلق، له الحمد في السماوات والأرض على ما خلق وشرع، وهو المحمود في الأمور كلها.^(١)

تذكيره ﷺ بقدره الله الكونية:

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (٢٩) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (٣٠) [لقمان].

يخبر تعالى أنه ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ﴾ يعني يأخذ منه في النهار، فيطول ذاك ويقصر هذا. وهذا يكون زمن الصيف، يطول النهار إلى الغاية، ثم يشرع في النقص فيطول الليل ويقصر النهار، وهذا يكون في الشتاء. كذلك يدخل الليل على النهار والنهار على الليل في الصباح والمساء، ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ إلى غاية محدودة وزمن محدد. كما أن الليل يزحف على النهار والعكس إلى يوم القيامة، ويستشهد للقول الأول بحديث أبي ذر رضي الله عنه الذي في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: ((يا أبا ذر

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١٠/٢٢٠؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٤٦٧.

أتدري أين تذهب هذه الشمس؟ قلت: الله ورسوله أعلم. قال: فإنها تذهب فتسجد تحت العرش، ثم تستأذن ربها فيوشك أن يقال لها ارجعي من حيث جئت^(١).

عن ابن عباس ؓ أنه قال: الشمس بمنزلة الساقية تجري بالنهار في السماء في فلکها، فإذا غربت جرت بالليل في فلکها تحت الأرض، حتى تطلع من مشرقها. قال: وكذلك القمر.

وقوله تعالى: ﴿وَأَن اللّٰهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ ومعنى هذا أنه تعالى الخالق العالم بجميع الأشياء، أي إنما يظهر لكم آياته لتستدلوا بها على أنه الحق، أي الموجود الحق الإله الحق، وأن كل ما سواه باطل، فإنه الغني عما سواه وكل شيء فقير إليه؛ لأن كل ما في السماوات والأرض الجميع خلقه وعبيده، لا يقدر أحد منهم على تحريك ذرة إلا بإذنه. ولو اجتمع كل أهل الأرض على أن يخلقوا ذباباً لعجزوا عن ذلك، ولهذا قال تعالى: ﴿ذلك بأن اللّٰه هو الحق وأن ما يدعون من دونه الباطل وأن اللّٰه هو العلي الكبير﴾ أي العلي الذي لا أعلى منه، الكبير الذي هو أكبر من كل شيء، فكل خاضع حقير بالنسبة إليه^(٢).

تذكيره ﷺ بنعمة جريان السفن:

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِّنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ (٣١) وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ

(١) انظر: صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب: (والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم)، ج ٦/٣٠؛ صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان الزمن الذي لا يقبل فيه الإيمان، ج ١/٩٦.

(٢) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١٠/٢٢٢ - ٢٢٣؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٤٦٨ - ١٤٦٩.

فَلَمَّا نَجَّيْنَاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُّقْنَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾
[لقمان].

(ليريككم من آياته) أي: من قدرته ﴿﴾ إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور ﴿﴾ أي صبار في الضراء شكور في الرخاء، ثم قال تعالى: ﴿﴾ وإذا غشيهم موج كالظلل ﴿﴾ أي كالجبال والغمام ﴿﴾ دعوا الله مخلصين له الدين ﴿﴾، ثم قال تعالى: ﴿﴾ فلما نجاهم إلى البر فمنهم مقتصد ﴿﴾، والمقتصد هاهنا قيل هو المتوسط في العمل. والحديث هنا من باب الإنكار على من شاهد تلك الأحوال والأمور العظام والآيات الباهرات في البحر. ثم بعد ما أنعم الله تعالى عليه بالخلاص لا يقابل ذلك بالعمل التام، والدؤوب في العبادة، والمبادرة إلى الخيرات، فمن اقتصد بعد ذلك كان مقصراً والحالة هذه.

وقوله تعالى: ﴿﴾ وما يجحد بآياتنا إلا كل ختار كفور ﴿﴾ فالختار هو الغدار الذي كلما عاهد نقض عهده، والخترا تم الغدر وأبلغه.

وقوله تعالى: ﴿﴾ كفور ﴿﴾ أي جحد للنعم لا يشكرها، بل يتناساها ولا يذكرها.^(١)

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١٠/ ٢٢٣ - ٢٢٥؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/ ١٤٦٩.

سورة السجدة

تأكيد نذارته ﷺ والحق في القرآن الكريم الذي أنزله رب العالمين ﷻ:

قال تعالى: ﴿الَمْ ۝١ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝٢ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَتْهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِّنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ۝٣﴾ [السجدة].

قوله تعالى: ﴿تنزيل الكتاب لا ريب فيه﴾ أي لا شك فيه ولا مرية أنه منزل ﴿من رب العالمين﴾ ثم قال تعالى مخبراً عن المشركين: ﴿أم يقولون افتراه﴾ أي اختلقه محمد ﷺ من تلقاء نفسه، ﴿بل هو الحق من ربك لتنذر قوماً ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يهتدون﴾ أي يتبعون الحق.^(١)

تأكيد ﷺ الرجوع إلى الله بعد الموت:

قال تعالى: ﴿وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ۚ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَفِرُونَ ۝١٠ قُلْ يَتُوفَّكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ۝١١﴾ [السجدة].

يقول تعالى مخبراً عن المشركين في استبعادهم المعاد حيث قالوا: ﴿إِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي تمزقت أجسامنا وتفرقت في أجزاء الأرض وذهبت ﴿إِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ أي إنا لنعود بعد تلك الحال؟ يستبعدون ذلك. وهذا إنما هو بعيد بالنسبة إلى قدرتهم العاجزة لا بالنسبة إلى قدرة الله ﷻ الذي

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١٠/ ٢٢٩ - ٢٣٠؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/ ١٤٧٢.

بدأهم وخلقهم من العدم، الذي إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون. ولهذا قال تعالى: ﴿بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ﴾. ثم قال تعالى: ﴿قُلْ يَتُوفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ﴾، الظاهر من هذه الآية أن ملك الموت بعينه من الملائكة، وقد سمي في بعض الآثار بعزرائيل.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ أي يوم معادكم وقيامكم من قبوركم لجزائكم.^(١)

تذكيره ﷺ بذلة المجرمين يوم القيامة:

قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ (١٢) ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًى وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ (١٣) ﴿فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (١٤) [السجدة].

يخبر تعالى عن حال المشركين يوم القيامة وقولهم حين يعاينون البعث ويقومون بين يدي الله ﷻ، حقيرين ذليلين ناكسي رؤوسهم، أي من الحياء والخجل، يقولون: ﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا﴾ أي نحن الآن نسمع قولك ونطيع أمرك. وهكذا هؤلاء يقولون: ﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا﴾ أي إلى دار الدنيا ﴿نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ أي قد أيقنا وتحققنا فيها أن وعدك حق ولقاءك حق. وقد علم الرب تعالى منهم أنه لو أعادهم إلى دار الدنيا لكانوا كما كانوا فيها كفاراً يكذبون بآيات الله ويخالفون رسله. وقال تعالى هاهنا: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًى﴾، ﴿وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١٠/٢٣٥ - ٢٣٦؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٤٧٣ - ١٤٧٤.

جهنم من الجنة والناس أجمعين ﴿٢٨﴾ أي من الصنفين، فدارهم النار لا محيد لهم عنها ولا محيص لهم منها، نعوذ بالله وكلماته التامة من ذلك. ﴿فذوقوا بما نسيتم لقاء يومكم هذا﴾ حيث يقال لأهل النار على سبيل التقرير والتوبيخ: ذوقوا هذا العذاب بسبب تكذيبكم به واستبعادكم وقوعه وتناسيكم له، إذ عاملتموه معاملة من هو ناس له، ﴿إنا نسيناكم﴾ أي سنعاملكم معاملة الناسي؛ لأنه تعالى لا ينسى شيئاً ولا يضل عنه شيء، بل من باب المقابل. وقوله تعالى: ﴿وذوقوا عذاب الخلد بما كنتم تعملون﴾ أي بسبب كفركم وتكذيبكم.^(١)

الرد على تساؤل المشركين عن يوم القيامة:

قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٢٨) قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيْمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ (٢٩) فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَظَرُونَ (٣٠) [السجدة].

يقول تعالى مخبراً عن استعجال الكفار ووقوع بأس الله بهم، وحلول غضبه ونقمته عليهم، استبعاداً وتكذيباً وعناداً: ﴿ويقولون متى هذا الفتح﴾ أي متى تُنصر علينا يا محمد؟ كما تزعم أن لك وقتاً علينا وينتقم لك منا، فمتى يكون هذا؟ ما نراك أنت وأصحابك إلا مختفين خائفين ذليلين. قال الله تعالى: ﴿قل يوم الفتح﴾ أي إذا حل بكم بأس الله وسخطه وغضبه في الدنيا وفي الآخرة ﴿لا ينفع الذين كفروا إيمانهم ولا هم ينظرون﴾. والمراد الفتح الذي هو القضاء.

ثم قال تعالى: ﴿فأعرض عنهم وانتظر إنهم منتظرون﴾ أي أعرض يا محمد

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١٠/ ٢٣٦ - ٢٣٧؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/ ١٤٧٤.

عن هؤلاء المشركين، وبلغ ما أنزل إليك من ربك، وانتظر فإن الله سينجز لك ما وعد وسينصرك على من خالفك، إنه لا يخلف الميعاد. وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ مُنْتظِرُونَ﴾ أي أنت منتظر وهم منتظرون، ويتربصون، وسترى أنت عاقبة صبرك عليهم وعلى أداء رسالة الله في نصرتك وتأييدك والفتح لك، وسيجدون غضب ما ينتظرونه فيك وفي أصحابك من ويل عقاب الله لهم، وحلول عذابه بهم دنيا وآخرة، وحسبنا الله ونعم الوكيل.^(١)

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١٠/٢٥٣؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٤٧٩.

سورة الأحزاب

تحذيره ﷺ من الكفار والمنافقين ولزوم الوحي والتوكل على الله:

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝ (١) وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ۝ (٢) وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ۝ (٣)﴾ [الأحزاب].

هذا تنبيه بالأعلى إلى الأدنى، فإنه تعالى إذا كان يأمر عبده ورسوله محمدًا ﷺ بهذا فلأن ياتمر من دونه بذلك بطريق الأولى والأخرى. والتقوى أن تعمل بطاعة الله على نور من الله، ترجو ثواب الله، وأن تترك معصية الله على نور من الله؛ مخافة عذاب الله وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ أي لا تسمع منهم يا محمد ولا تستشرهم، ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ أي فهو أحق أن تتبع أوامره وتطيعه، فإنه عليم بعواقب الأمور، حكيم في أقواله وأفعاله. ولهذا قال تعالى: ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ أي من قرآن وسنة ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ أي فلا تخفى عليه خافية. وتوكل على الله، أي في جميع أمورك وأحوالك، ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ أي وكفى به وكيلاً لمن توكل عليه وأنا اب إليه.^(١)

أمره ﷺ والأمة بإلحاق الأبناء بأبائهم:

قال تعالى: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ النَّسَىٰ

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١٠/٢٥٤؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٤٨٠.

تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكَ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ﴿٤﴾ ادْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ، وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٥﴾ [الأحزاب].

يقول تعالى موطئاً قبل المقصود المعنوي أمراً معروفاً حسياً، وهو أنه كما لا يكون لشخص الواحد قلبان في جوفه ولا تصير زوجته التي يظهر منها بقوله أنت علي كظهر أمي أمماً له، كذلك لا يصير الدعي ولداً للرجل إذا تبناه فدعاه ابناً له، فقال تعالى: ﴿ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه وما جعل أزواجكم اللائي تظاهرون منهن أمهاتكم﴾.

وقوله تعالى: ﴿وما جعل أدعياءكم أبناءكم﴾ هذا هو المقصود بالنفي، فإنها نزلت في شأن زيد بن حارثة رضي الله عنه مولى النبي صلى الله عليه وسلم. كان النبي صلى الله عليه وسلم قد تبناه قبل النبوة، فكان يقال له زيد بن محمد، فأراد الله تعالى أن يقطع هذا الإلحاق وهذه النسبة بقوله تعالى: ﴿وما جعل أدعياءكم أبناءكم﴾ وقال تعالى هاهنا: ﴿ذلكم قولكم بأفواهكم﴾ يعني تبنيكم لهم قول لا يقتضي أن يكون ابناً حقيقياً، فإنه مخلوق من صلب رجل آخر. فما يمكن أن يكون له أبوان، كما لا يمكن أن يكون للبشر الواحد قلبان. والله يقول الحق الحق هو العدل، وهو يهدي السبيل أي الصراط المستقيم.

وقوله صلى الله عليه وسلم: ﴿ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله﴾ هذا أمر ناسخ لما كان في ابتداء الإسلام من جواز ادعاء الأبناء الأجانب وهم الأدعياء، فأمر سبحانه برد نسبهم إلى آبائهم في الحقيقة، وأن هذا هو العدل والقسط والبر.

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: إن زيد بن حارثة رضي الله عنه مولى رسول الله ﷺ ما كنا ندعوه إلا زيد بن محمد حتى نزل القرآن الكريم: ﴿ادعوهم لأبائهم هو أقسط عند الله﴾^(١).

وقد كانوا يعاملونهم معاملة الأبناء من كل وجه في الخلوة بالمحارم، وغير ذلك.

ولهذا لما نُسخَ هذا الحكم أباح سبحانه زوجة الدعي، وتزوج رسول الله ﷺ بزَيْنَب بنت جحش مطلقة زيد بن حارثة رضي الله عنه. وقال ﷺ: ﴿لكي لا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطراً﴾.

وقوله تعالى: ﴿ادعوهم لأبائهم﴾ في شأن زيد بن حارثة ومن مثله رضي الله عنه.

وقوله ﷺ: ﴿فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم في الدين ومواليكم﴾ أمر تعالى برد أنساب الأدعياء إلى آبائهم إن عرفوا، فإن لم يعرفوا فهم إخوانهم في الدين ومواليهم، أي عوضاً عما فاتهم من النسب.

وهذا تشديد وتهديد ووعيد أكيد في التبرئ من النسب المعلوم. ولهذا قال تعالى: ﴿ادعوهم لأبائهم هو أقسط عند الله فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم في الدين ومواليكم﴾.

ثم قال تعالى: ﴿وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به﴾ أي إذا نسبتم بعضهم إلى غير أبيه في الحقيقة خطأ بعد الاجتهاد واستفراغ الوسع، فإن الله تعالى قد وضع الحرج في الخطأ ورفع إثمه.

(١) صحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة رضي الله عنهم، باب فضائل زيد بن حارثة وأسامة بن زيد رضي الله عنهما، ج ٧/١٣١؛ صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب: (ادعوهم لأبائهم هو أقسط عند الله)، ج ٦/٢٢.

وقال سبحانه هاهنا: ﴿وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به، ولكن ما تعمدت قلوبكم وكان الله غفوراً رحيماً﴾ أي وإنما الإثم على من تعمد الباطل.^(١)

الرسول ﷺ ولي للمؤمنين وزوجاته مثل أمهاتهم:

قال تعالى: ﴿الَّتِي أُولَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾ [الأحزاب: ٦].

قد علم الله تعالى شفقة رسوله ﷺ على أمته ونصحة لهم، فجعله أولى بهم من أنفسهم، وحكمه فيهم كان مقدماً على اختيارهم لأنفسهم، فقال تعالى في هذه الآية: ﴿النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم﴾.

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: ما من مؤمن إلا وأنا أولى الناس به في الدنيا والآخرة، اقرؤوا إن شئتم ﴿النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم﴾، فأیما مؤمن ترك مالا فليرثه عصبته من كانوا، وإن ترك ديناً أو ضياعاً فليأتني فأنا مولاه.^(٢)

وقال تعالى: ﴿وأزواجه أمهاتهم﴾ أي في الحرمة والاحترام، والتوقير والإكرام والإعظام، ولكن لا تجوز الخلوة بهن، وهو من باب إطلاق العبارة لا إثبات الحكم.

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١٠/٢٥٥ - ٢٥٨؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٤٨٠ - ١٤٨٢.

(٢) رواه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب: (النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم)، ج ٦/٢٢.

وقوله تعالى: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ أي في حكم الله، ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ﴾ أي القرابات أولى بالتوارث من المهاجرين والأنصار. وهذه الآية ناسخة لما كان قبلها من التوارث بالحلف والمؤاخاة التي كانت بينهم.

عن الزبير بن العوام رضي الله عنه قال: أنزل الله ﷻ فينا خاصة معشر قريش والأنصار: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾، وذلك أنا معشر قريش لما قدمنا ولا أموال لنا، فوجدنا الأنصار نعم الإخوان فواخيناهم ووارثاهم، فأخى أبو بكر رضي الله عنه خارجة بن زيد، وأخى عمر رضي الله عنه فلاناً، وأخى عثمان رضي الله عنه رجلاً من بني زريق بن سعد الزرقي، ويقول بعض الناس غيره. قال الزبير رضي الله عنه: وواخيت أنا كعب بن مالك فجئته فابتعلته، فوجدت السلاح قد ثقله فيما يرى، والله يا بني لو مات يومئذ عن الدنيا ما ورثه غيري، حتى أنزل الله تعالى هذه الآية فينا معشر قريش والأنصار خاصة، فرجعنا إلى موارثنا.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا﴾ أي ذهب الميراث وبقي النصر والبر والصلة والإحسان والوصية.

وقوله تعالى: ﴿كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾ أي هذا الحكم، وهو أن أولي الأرحام بعضهم أولى ببعض، حكم من الله مقدر مكتوب في الكتاب الأول الذي لا يبدل ولا يغير. قاله مجاهد وغير واحد. وإن كان تعالى قد شرع خلافه في وقت لما له في ذلك من الحكمة البالغة سبحانه وهو يعلم أنه سينسخه إلى ما هو جارٍ في قدره الأزلي وقضائه القدري الشرعي، والله أعلم.^(١)

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١٠/٢٥٨ - ٢٦١؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٤٨٢ - ١٤٨٣.

أخذ الميثاق عليه ﷺ كما أخذ على الأنبياء ﷺ قبله:

قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَقًا غَلِيظًا ۖ لَيْسَ لَهُ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ۝﴾ [الأحزاب: ٨].

يقول الله تعالى مخبراً عن أولي العزم الخمسة من الرسل وبقية الأنبياء أنه أخذ عليهم العهد والميثاق في إقامة دين الله تعالى، وإبلاغ رسالته والتعاون والتناصر والاتفاق، فهذا العهد والميثاق أخذ عليهم عند إرسالهم، ونص من بينهم على هؤلاء الخمسة، وهم أولو العزم، وهو من باب عطف الخاص على العام.

فذكر الطرفين، والوسط الفاتح، والخاتم، ومن بينهما على الترتيب، فهذه هي الوصية التي أخذ عليهم الميثاق بها، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾، فبدأ في هذه الآية بالخاتم لشرفه صلوات الله عليه، ثم رتبهم بحسب وجودهم صلوات الله عليهم وسلامه.^(١)

حاله ﷺ والمؤمنون معه في غزوة الأحزاب:

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَ تَكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١٠/٢٦١ - ٢٦٢؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٤٨٣؛

انظر: كتابي "رسول الله وخاتم النبيين"، القسم الثاني - الاضطهاد والهجرة، ج ٢/٤٧٤؛

وقد وضع البخاري ﷺ في صحيحه باب كيف آخى رسول الله ﷺ بين أصحابه، ج ٤/٢٦٧؛

وانظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ج ١/٥٠٥؛ ابن سعد، السيرة النبوية من الطبقات،

ج ١/٢٣٩.

عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا ﴿١٠﴾ [الأحزاب].

يقول تعالى مخبراً عن نعمته وفضله وإحسانه إلى عباده المؤمنين في صرفه أعداءهم وهزمه إياهم عام تألبوا عليهم وتحزبوا، وذلك عام الخندق (الأحزاب)، وذلك في شهر شوال سنة خمس من الهجرة.

وكان سبب قدوم الأحزاب أن نفرًا من أشراف يهود بني النضير، الذين كانوا قد أجلاهم رسول الله ﷺ من المدينة إلى خيبر، منهم سلام بن أبي الحقيق وسلام بن مشكم وكنانة بن الربيع، خرجوا إلى مكة فاجتمعوا بأشراف قريش وألبوهم على حرب النبي ﷺ، ووعدوهم من أنفسهم النصر والإعانة. فأجابوهم إلى ذلك، ثم خرجوا إلى غطفان فدعوهم فاستجابوا لهم.

وخرجت قريش في أحابيشها ومن تابعها وقائدها أبو سفيان صخر بن حرب، وعلى غطفان عيينة بن حصن بن بدر، في قريب من عشرة آلاف مقاتل. فلما سمع رسول الله ﷺ بمسيرهم، أمر المسلمين بحفر الخندق حول المدينة مما يلي الشرق، وذلك بإشارة سلمان الفارسي عليه السلام. فعمل المسلمون فيه واجتهدوا، ونقل معهم رسول الله ﷺ التراب وحفر. وكان في حفره ذلك آيات بينات ودلائل واضحة.

وجاء المشركون فنزلوا شمال شرقي المدينة قريباً من أحد. ونزلت طائفة منهم أعالي أرض المدينة، كما قال الله تعالى: ﴿إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ﴾ وخرج رسول الله ﷺ ومن معه من المسلمين، وهم نحو ثلاثة آلاف، وقيل سبع مئة، فأسندوا ظهورهم إلى جبل، ووجوههم إلى نحو

العدو، والخندق حفير ليس فيه ماء بينهم وبينهم يحجب الخيالة والرجال أن تصل إليهم. وجعل النساء والذراير في آطام [حصون] المدينة. وكانت بنو قريظة، وهم طائفة من اليهود، لهم حصن شرقي المدينة، ولهم عهد من النبي ﷺ وذمة. وهم قريب من ثمان مئة مقاتل.

فذهب إليهم حيي بن أخطب النضري، فلم يزل بهم حتى نقضوا العهد ومالؤوا الأحزاب على رسول الله ﷺ. فعظم الخطب واشتد الأمر وضاق الحال، كما قال الله ﷻ: ﴿هَنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زَلَالًا شَدِيدًا﴾. ومكثوا محاصرين للنبي ﷺ وأصحابه قريباً من شهر. إلا أنهم لا يصلون إليهم ولم يقع بينهم قتال، إلا أن عمرو بن عبد ود العامري، وكان من الفرسان الشجعان المشهورين في الجاهلية، ركب ومعه فوارس، فاقتحموا الخندق وخلصوا إلى ناحية المسلمين. فندب رسول الله ﷺ خيل المسلمين إليه، فيقال إنه لم يبرز أحد فأمر علياً ﷺ، فخرج إليه فتجاولا تبارزا ساعة، ثم قتله علي ﷺ، فكان علامة النصر.

ثم أرسل الله ﷻ على الأحزاب ريحاً شديدة الهبوب قوية، حتى لم يبق لهم خيمة ولا شيء، ولا توقد لهم نار ولا يقر لهم قرار، حتى ارتحلوا خائبين خاسرين، كما قال الله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودُ فَارِسَ لَنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا﴾ هم الملائكة، زلزلتهم وألقت في قلوبهم الرعب والخوف. فكان رئيس كل قبيلة يقول: يا بني فلان إلي، فيجتمعون إليه، فيقول: النجاء، النجاء؛ لما ألقى الله ﷻ في قلوبهم من الرعب.

عن حذيفة ﷺ رأيتنا مع رسول الله ﷺ بالخندق، وصلى رسول

الله ﷻ هويًا [جزءًا] من الليل، ثم التفت فقال: من رجل يقوم فينظر لنا ما فعل القوم؟ - يشترط له النبي ﷺ أن يرجع - أدخله الله الجنة. قال: فما قام رجل. ثم صلى رسول الله ﷺ هويًا من الليل، ثم التفت إلينا فقال مثله، فما قام منا رجل.

ثم صلى رسول الله ﷺ هويًا من الليل، ثم التفت إلينا فقال: من رجل يقوم فينظر لنا ما فعل القوم ثم يرجع؟ - يشترط له رسول الله ﷺ الرجعة - أسأل الله تعالى أن يكون رفيقي في الجنة: فما قام من القوم من شدة الخوف وشدة الجوع وشدة البرد.

فلما لم يقم أحد دعاني رسول الله ﷺ، فلم يكن لي بد من القيام حين دعاني. فقال ﷺ: يا حذيفة اذهب فادخل في القوم فانظر ما يفعلون، ولا تحدثن شيئًا حتى تأتين. قال: فذهبت فدخلت في القوم والريح وجنود الله ﷻ تفعل بهم ما تفعل، لا تقر لهم قرارًا ولا نارًا ولا بناءً.

فقام أبو سفيان فقال يا معشر قريش، لينظر كل امرئ من جلسه، قال حذيفة رضي الله عنه: فأخذت بيد الرجل إلى جنبي فقلت: من أنت؟ فقال: أنا فلان بن فلان، ثم قال أبو سفيان: يا معشر قريش إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام. لقد هلك الكراع والخف، وأخلفتنا بنو قريظة، وبلغنا عنهم الذي نكره، ولقينا من هذه الريح ما ترون، والله ما تطمئن لنا قدر ولا تقوم لنا نار ولا يستمسك لنا بناء، فارتحلوا فإني مرتحل. ثم قام إلى جملة وهو معقول فجلس عليه، ثم ضربه فوثب به على ثلاث، فما أطلق عقاله إلا وهو قائم. ولولا عهد رسول الله ﷺ إلي أن لا تحدث شيئًا حتى تأتيني لو شئت لقتلته بسهم.

قال حذيفة رضي الله عنه: فرجعت إلى رسول الله ﷺ وهو قائم يصلي في مرط لبعض نسائه مرحل. فلما رأي أدخلني بين رجليه وطرح علي طرف المرط، ثم ركع وسجد، وإني لفيه، فلما سلم أخبرته الخبر، وسمعت غطفان بما فعلت قريش، فانشمروا راجعين إلى بلادهم.

عن إبراهيم التيمي عن أبيه قال: كنا عند حذيفة بن اليمان رضي الله عنه فقال له رجال: لو أدركت رسول الله ﷺ قاتلت معه وأبليت، فقال له حذيفة: أنت كنت تفعل ذلك؟ لقد رأيتنا مع رسول الله ﷺ ليلة الأحزاب في ليلة ذات ريح شديدة وقر. فقال رسول الله ﷺ: ((ألا رجل يأتي بخبر القوم يكون معي يوم القيامة)). فلم يجبه منا أحد، ثم الثانية ثم الثالثة مثله. ثم قال ﷺ: ((يا حذيفة قم فأتنا بخبر من القوم)). فلم أجد بداً إذ دعاني باسمي أن أقوم، فقال: ((أتني بخبر القوم ولا تدعهم علي)). قال: فمضيت كأنما أمشي في حمام حتى أتيتهم، فإذا أبو سفيان يصلي ظهره بالنار، فوضعت سهماً في كبد قوسي وأردت أن أرميه، ثم ذكرت قول رسول الله ﷺ، لا تدعهم علي، ولو رميته لأصبته.

قال: فرجعت كأنما أمشي في حمام، فأتيت رسول الله ﷺ، ثم أصابني البرد حين فرغت وقررت. فأخبرت رسول الله ﷺ وألبسني من فضل عباءة كانت عليه يصلي فيها. فلم أزل نائماً حتى الصبح، فلما أصبحت قال رسول الله ﷺ: قم يا نومان.^(١)

وأنزل الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ

(١) صحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب غزوة الأحزاب، ج ٥/١٧٧ - ١٧٨.

بصيراً ﴿١﴾. وأخرج أبو داود في سننه ومنه: وكان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر صلى. ^(١)

وقوله تعالى: ﴿إِذْ جَاؤُكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ﴾ أي الأحزاب، ﴿وَمِنْ أَسْفَلِ مِنْكُمْ﴾ هم بنو قريظة، ﴿وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ﴾ أي شدة الخوف والفرع، ﴿وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظَّنُونَا﴾، ظن بعض من كان مع رسول الله ﷺ أن الدائرة على المؤمنين، ونجم [ظهر] النفاق، حتى قال أحدهم: كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر، وأحدنا لا يقدر على أن يذهب إلى الغائط.

وأيقن المؤمنون أن ما وعد الله ورسوله حق، وأنه سيظهره على الدين كله ولو كره المشركون.

عن أبي سعيد رضي الله عنه قال: قلنا يوم الخندق: يا رسول الله هل من شيء نقول، فقد بلغت القلوب الحناجر؟ قال ﷺ: نعم، قولوا: اللهم استر عوراتنا وآمن روعاتنا. قال: فضرب وجوه أعدائه بالريح، فهزمهم بالريح الله سبحانه. ^(٢)

تكذيب المنافقين لوعده الله ورسوله يوم الأحزاب:

قال تعالى: ﴿هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زَلَالًا شَدِيدًا﴾ ^(١١) وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ^(١٢) وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ

(١) سنن أبي داود، كتاب الصلاة، باب وقت قيام النبي ﷺ من الليل، ح ٢٢٦/١، حديث رقم: ١٣١٩.

(٢) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١٠/٢٦٢ - ٢٦٨؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٤٨٣ - ١٤٨٦؛ (وانظر: حديث مسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب غزوة الأحزاب، ج ٥/١٧٧).

يُثْرِبَ لَا مَقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ
إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ [الأحزاب].

يقول الله تعالى مخبراً عن تلك الحال حين نزلت الأحزاب حول المدينة، والمسلمون محصورون في غاية الجهد والضييق، ورسول الله ﷺ بين أظهرهم، أنهم ابتلوا واختبروا وزلزلوا زلزالاً شديداً، فحينئذ ظهر النفاق، وتكلم الذين في قلوبهم مرض بما في أنفسهم: ﴿وَإِذ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾. أما المنافق فنجم نفاقه، والذي في قلبه شبهة أو حسيكة لضعف حاله فتتنفس بما يجده من الوسواس في نفسه؛ لضعف إيمانه وشدة ما هو فيه من ضيق الحال. وقوم آخرون قالوا كما قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ﴾ يعني المدينة.

كان أصل تسميتها يثرب برجل نزلها من العماليق يقال له يثرب. وروي عن بعضهم أنه قال: إن لها في التوراة أحد عشر اسماً: المدينة وطابة وطيبة والمسكينة والجابرة والمحبة والمحبوبة والقاصمة والمجبورة والعذراء والمرحومة.^(١)

وقوله تعالى: ﴿لَا مَقَامَ لَكُمْ﴾ أي هاهنا يعنون عند النبي ﷺ في مقام المراقبة، ﴿فَارْجِعُوا﴾ أي إلى بيوتكم ومنازلكم ﴿وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ النَّبِيَّ﴾ قالوا: بيوتنا نخاف عليها السراق، فاعتذروا في الرجوع إلى منازلهم بأنها عورة أي ليس دونها ما يحجبها من العدو، فهم يخشون عليها منهم، قال الله تعالى: ﴿وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ﴾ أي ليست كما يزعمون، ﴿إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾ أي هرباً من الزحف.^(٢)

(١) انظر: صالح الرفاعي، الأحاديث الواردة في فضائل المدينة.

(٢) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١٠/٢٦٨ - ٢٧١؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٤٨٦.

الموالة لله وحده يوم الأحزاب:

قال تعالى: ﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَا تَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا فِيهَا إِلَّا بَسِيرًا ۝١٤ وَلَقَدْ كَانُوا عَاهِدُوا لَِّ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ لَا يُولُوكَ إِلَّا ذَبْرًا وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا ۝١٥ قُلْ لَّنْ يَنْفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذَا لَا تُمْنَعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ۝١٦ قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهْم مِّنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ۝١٧﴾ [الأحزاب].

يخبر تعالى عن هؤلاء الذين يقولون إن بيوتنا عورة وما هي بعورة إن يريدون إلا فراراً ﴿أنهم لو دخل عليهم الأعداء من كل جانب من جوانب المدينة وقطر من أقطارها، ثم سئلوا الفتنة وهي الدخول في الكفر لكفروا سريعاً. وهم لا يحافظون على الإيمان ولا يستمسكون به مع أدنى خوف وفزع. وهذا في غاية الذم لهم. ثم قال تعالى يذكرهم بما كانوا عاهدوا الله من قبل هذا الخوف أن لا يولوا الأدبار ولا يفرون من الزحف.﴾ وكان عهد الله مسؤلاً ﴿أي وإن الله تعالى سيسألهم عن ذلك العهد لا بد من ذلك، ثم أخبرهم أن فرارهم ذلك لا يؤخر آجالهم ولا يطول أعمارهم، بل ربما كان سبباً في تعجيل أخذهم غرة. ولهذا قال تعالى: ﴿وإذا لا تمتعون إلا قليلاً﴾ أي بعد هربكم وفراركم.

ثم قال تعالى: ﴿قل من ذا الذي يعصمكم من الله﴾ اسألهم من يمنعكم ﴿إن أراد بكم سوءاً أو أراد بكم رحمة ولا يجدون لهم من دون الله ولياً ولا نصيراً﴾ أي ليس لهم ولا لغيرهم من دون الله مجير ولا مغيث.^(١)

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١٠/ ٢٧١ - ٢٧٣؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/ ١٤٨٦ - ١٤٨٧.

التأكيد على التأسي برسول الله ﷺ:

قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ
الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ۖ وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ
اللَّهُ وَرَسُولُهُ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ۚ﴾ [الأحزاب].

هذه الآية الكريمة أصل كبير في التأسي برسول الله ﷺ في أقواله وأفعاله وأحواله. ولهذا أمر ﷺ الناس بالتأسي بالنبي ﷺ يوم الأحزاب وفي غيره، في صبره ومصابرته ومرابطته ومجاهدته ﷺ وانتظاره الفرج من ربه سبحانه، ولهذا قال تعالى للذين قلقوا وتضجروا وزلزلوا واضطربوا في أمرهم يوم الأحزاب: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ أي هلا اقتديتم به وتأسيتم بشمائله ﷺ. وهذا أمر قائم في سائر أحواله ﷺ، ولهذا قال تعالى: ﴿لِمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾.

ثم قال تعالى مخبراً عن عباده المؤمنين المصدقين بموعد الله لهم وجعله العاقبة لهم في الدنيا والآخرة فقال تعالى: ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ أي هذا ما وعدنا الله ورسوله من الابتلاء والاختبار والامتحان الذي يعقبه النصر القريب. ولهذا قال تعالى: ﴿وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾. وقوله تعالى: ﴿وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾ دليل على زيادة الإيمان وقوته. ومعنى قوله جلت عظمتة: ﴿وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا﴾ أي ذلك الحال والضيق والشدة ﴿إِلَّا إِيمَانًا﴾ بالله ﴿وَتَسْلِيمًا﴾ أي انقياداً لأوامره وطاعة لرسوله ﷺ. ^(١)

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١٠/٢٧٧ - ٢٧٩؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٤٨٧.

تذكير أمهات المؤمنين بالله ورسوله والدار الآخرة:

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِن كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ۖ (٢٨) وَإِن كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالْدارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ۖ (٢٩)﴾ [الأحزاب].

هذا أمر من الله ﷻ لرسوله ﷺ بأن يخير نساءه بين أن يفارقهن، فيذهبن إلى غيره ممن يحصل لهن عنده الحياة الدنيا وزينتها، وبين الصبر على ما عنده من ضيق الحال، ولهن عند الله تعالى في ذلك الثواب الجزيل. فاخترن رضي الله عنهن وأرضاهن الله ورسوله والدار الآخرة. فجمع الله تعالى لهن بعد ذلك بين خيري الدنيا وسعادة الآخرة.

روي أن عائشة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ أخبرت أن رسول الله ﷺ جاءها حين أمره الله تعالى أن يخير أزواجه، قالت: فبدأ بي رسول الله ﷺ فقال: «إني ذاكر لك أمراً فلا عليك أن تستعجلي حتى تستأمرني أبويك». وقد علم أن أبوي لم يكونا يأمراني بفراقه، قالت: ثم قال: «إن الله تعالى قال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ﴾ إلى تمام الآيتين، فقلت له: ففي أي هذا أستأمر أبوي؟ فإني أريد الله ورسوله والدار الآخرة فسر بذلك رسول الله ﷺ. قالت: ثم فعل أزواج النبي ﷺ مثل ما فعلت»^(١).

قال تعالى: ﴿فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ أي أعطيكن حقوقكن وأطلق سراحكن، وكان تحته يومئذ تسع نسوة: خمس من قريش: عائشة وحفصة وأم حبيب وسودة وأم سلمة، وصفية بنت حيي

(١) من رواية صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِن كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا)، ج ٦/٢٣.

النضرية وميمونة بنت الحارث الهلالية، وزينب بنت جحش الأسدية، وجويرية بنت الحارث المصطلقية، رضي الله عنهن جميعاً وأرضاهن.^(١)

تذكير أمهات المؤمنين بالعمل الصالح:

قال تعالى: ﴿يٰۤاَيُّهَا النِّسَاءُ اَلَيْسَ مِنَ يٰۤاَتٍ مِنْكُنَّ بِفٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَعَّفُ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذٰلِكَ عَلَى اللّٰهِ يَسِيْرًا ۝۳۰ وَمَنْ يَّقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلّٰهِ وَرَسُوْلِهِ وَتَعْمَلْ صٰلِحًا نُؤْتِهَآ اَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَاَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيْمًا ۝۳۱﴾ [الأحزاب].

يقول الله تعالى واعظاً نساء النبي ﷺ اللاتي اخترن الله ورسوله والدار الآخرة، واستقر أمرهن تحت رسول الله ﷺ فناسب أن يخبرهن بحكمهن وتخصيصهن دون سائر النساء: بأن من يأت منهن بفاحشة مبينة. قال ابن عباس ؓ: وهي النشوز وسوء الخلق. والأمر لا يقتضي الوقوع. فلما كانت محلتهن رفيعة ناسب أن يجعل الذنب لو وقع منهن مغلظاً؛ صيانة لجنابهن وحجابهن الرفيع، ولهذا قال تعالى: ﴿من يأت منك بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين﴾ في الدنيا والآخرة. ﴿وكان ذلك على الله يسيراً﴾ أي سهلاً هيناً. ثم ذكر عدله وفضله في قوله تعالى: ﴿ومن يقنت منكن لله ورسوله﴾ أي ويستجب ﴿نؤتها أجرها مرتين وأعتدنا لها رزقاً كريماً﴾ أي في الجنة، فإنهن في منازل رسول الله ﷺ في أعلى عليين، فوق منازل جميع الخلائق في الوسيلة التي هي أقرب منازل الجنة إلى العرش.^(٢)

تذكير أمهات المؤمنين بمكانتهن ودورهن في حفظ الكتاب والسنة:

قال تعالى: ﴿يٰۤاَيُّهَا النِّسَاءُ اَلَيْسَ لَكُمْ مِنْ اَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ اِنْ اَتَقَيْنَنَّ فَلَآ تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١٠/٢٨٨ - ٢٩١؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٤٩١ - ١٤٩٣.

(٢) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١٠/٢٩١ - ٢٩٣؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٤٩٥.

فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ
الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ
اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ وَأَذْكُرْنَ مَا
يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾
[الأحزاب].

هذه آداب أمر الله تعالى بها نساء النبي ﷺ، ونساء الأمة تبع لهن في ذلك،
فقال تعالى مخاطباً نساء النبي ﷺ بأنهن إذا اتقين الله ﷻ كما أمرهن فإنه
لا يشبههن أحد من النساء ولا يلحقهن في الفضيلة والمنزلة. ثم قال تعالى:
﴿فلا تخضعن بالقول﴾ يعني بذلك ترقيق الكلام إذا خاطبن الرجال، ولهذا
قال تعالى: ﴿فيطمع الذي في قلبه مرض﴾، فتنة ﴿وقلن قولاً معروفاً﴾ قولاً
حسناً جميلاً معروفاً في الخير، ومعنى هذا أنها تخاطب الأجانب بكلام
ليس فيه ترخيم، أي لا تخاطب المرأة الأجانب كما تخاطب زوجها.

وقوله تعالى: ﴿وقرن في بيوتكن﴾ أي الزمن فلا تخرجن لغير حاجة، ومن
الحوائج الشرعية الصلاة في المسجد بشرطه.

عن أنس رضي الله عنه قال: جاءت النساء إلى رسول الله فقلن: يا رسول الله، ذهب
الرجال بالفضل والجهاد في سبيل الله تعالى، فما لنا عمل ندرك به عمل
المجاهدين في سبيل الله تعالى، فقال رسول الله ﷺ: من قعدت - أو كلمة
نحوها - منكن في بيتها فإنها تدرك عمل المجاهدين في سبيل الله تعالى.^(١)

وقوله تعالى: ﴿ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى﴾ كانت المرأة تخرج تمشي

(١) الهيثمي، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، كتاب النكاح، باب ثواب المرأة على طاعتها
لزوجها وقيامها على ماله وحملها ووضعها، ج ٤/ ٣٠٤.

بين يدي الرجال، فذلك تبرج الجاهلية. وكانت لهن مشية وتكسر وتغنج، فنهى الله تعالى عن ذلك. ﴿ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى﴾ ومن التبرج أنها تلقي الخمار على رأسها ولا تشده، فيواري قلائدها وقرطها وعنقها، ويبدو ذلك كله منها.

وقوله تعالى: ﴿وأقمن الصلاة وآتين الزكاة وأطعن الله ورسوله﴾ نهاهن أولاً عن الشر، ثم أمرهن بالخير من إقامة الصلاة، وهي عبادة الله وحده لا شريك له، وإيتاء الزكاة وهي الإحسان إلى المخلوقين، ﴿وأطعن الله ورسوله﴾. وهذا من باب عطف العام على الخاص. وقوله تعالى: ﴿إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً﴾. وهذا نص في دخول أزواج النبي ﷺ في أهل البيت هاهنا؛ لأنهن سبب نزول هذه الآية، وسبب النزول داخل فيه قولاً واحداً.

عن ابن عباس ؓ في قوله تعالى: ﴿إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت﴾ قال: نزلت في نساء النبي ﷺ خاصة وفي أهل بيته ﷺ عامة.

عن وائلة بن الأسقع. قال: جاء علي وفاطمة وحسن وحسين ؓ، فألقى ﷺ عليهم كساء له ثم قال لهم: اللهم هؤلاء أهل بيتي، اللهم أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً. قلت: يا رسول الله وأنا؟ قال ﷺ: وأنت. قال: فوالله إنها لأوثق عمل عندي.

والذي لا شك فيه من تدبر القرآن أن نساء النبي ﷺ داخلات في قوله تعالى: ﴿إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً﴾، فإن سياق الكلام معهن، ولهذا قال تعالى بعد هذا كله: ﴿واذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة﴾، أي واعملن بما ينزل الله ﷻ على رسوله ﷺ في بيوتكن من الكتاب والسنة.

واذكرن هذه النعمة التي خُصّصن بها من بين الناس، أن الوحي ينزل في بيوتكن دون سائر الناس. وعائشة الصديقة بنت الصديق ﷺ أولاهن بهذه النعمة، وأحظاهن بهذه الغنيمة، وأخصهن من هذه الرحمة العميمة، فإنه لم ينزل على رسول الله ﷺ الوحي في فراش امرأة سواها، ولم يتزوج بكرة سواها، ولم ينم معها رجل في فراشها سواه ﷺ، ورضي الله عنها، فناسب أن تخصص بهذه المزية، وأن تفرد بهذه المرتبة العليا، ولكن إذا كان أزواجه من أهل بيته، فقرابته أحق بهذه التسمية.

قال علي بن الحسين ﷺ لرجل من الشام: أما قرأت في الأحزاب ﴿إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً﴾؟ فقال: نعم، ولأنتم هم؟ قال: نعم.

وقوله تعالى: ﴿إن الله كان لطيفاً خبيراً﴾ أي بلطفه بكن، بلغن هذه المنزلة، وبخبرته بكن وأنكن أهل لذلك أعطاكم ذلك وخصكن بذلك. واذكرن نعمة الله عليكم بأن جعلكن في بيوت تتلى فيها آيات الله والحكمة، فاشكرن الله تعالى على ذلك واحمدنه. ﴿إن الله كان لطيفاً خبيراً﴾ أي ذا لطف بكن، إذ جعلكن في البيوت التي تتلى فيها آيات الله والحكمة، وهي السنة. خبيراً بكن إذ اختاركن لرسوله. قال تعالى: ﴿واذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة﴾ يمتن عليهن ﷺ بذلك.^(١)

تذكر الأمة باتباع ما يقضي الله ورسوله ﷺ:

قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١٠/ ٢٩٣ - ٢٩٩؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/ ١٤٩٦ - ١٤٩٩.

مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعِصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾ [الأحزاب].

عن ابن عباس رضي الله عنه قوله تعالى: ﴿وما كان لمؤمن ولا مؤمنة﴾ الآية، وذلك أن رسول الله ﷺ انطلق ليخطب على فتاه زيد بن حارثة، فدخل على زينب بنت جحش الأسدية رضي الله عنها فخطبها، فقالت: لست بناكحتك، فقال رسول الله ﷺ: ((بلى فانكحيه)) قالت: يا رسول الله أوأمر في نفسي؟ فبينما هما يتحدثان أنزل الله هذه الآية على رسول الله ﷺ: ﴿وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً﴾ الآية، قالت: قد رضيته لي يا رسول الله منكحاً؟ قال رسول الله ﷺ نعم. قالت: إذاً لا أعصي رسول الله ﷺ قد أنكحتك نفسي.

عن أنس رضي الله عنه قال: خطب النبي ﷺ على جلييب امرأة من الأنصار إلى أبيها، فقال: حتى أستأمر أمها، فقال النبي ﷺ: "فنعم إذاً" قال: فانطلق الرجل إلى امرأته فذكر ذلك لها، قالت: لاها الله ذا ما وجد رسول الله ﷺ إلا جلييباً وقد منعناها من فلان وفلان، قال: والجارية في سترها تسمع، قال: فانطلق الرجل يريد أن يخبر رسول الله ﷺ بذلك، فقالت الجارية: أتريدون أن تردوا على رسول الله ﷺ أمره، إن كان قد رضيه لكم فأنكحوه، قال: فكأنها جلت عن أبيها، وقالوا: صدقت فذهب أبوها إلى رسول الله ﷺ فقال: إن كنت رضيته فقد رضيناها، قال ﷺ: فإني قد رضيته. قال: فزوجها، ثم فزع أهل المدينة فركب جلييب، فوجدوه قد قتل وحوله ناس من المشركين قد قتلهم، قال أنس رضي الله عنه: فلقد رأيتها وإنها لمن أنفق بيت بالمدينة.^(١)

(١) انظر: مسند الإمام أحمد، ج ٤/٢٢٢؛ الهيثمي، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، باب ما جاء في جلييب رضي الله عنه، ج ٩/٣٦٨.

وقد روي أنه دعا لها رسول الله ﷺ؟ فقال: "اللهم صب عليها الخير صباً ولا تجعل عيشها كدا! وكذا كان، فما كان في الأنصار أيم أنفق منها".^(١)

وذكر أن الجارية لما قالت في خدرها: أتردون على رسول الله ﷺ أمره؟ نزلت هذه الآية ﴿وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم﴾.

والآية عامة في جميع الأمور، وذلك أنه إذا حكم الله ورسوله بشيء فليس لأحد مخالفته، ولا اختيار لأحد هنا، ولا رأي ولا قول، ولهذا شدد في خلاف ذلك، فقال تعالى: ﴿ومن يعص الله ورسوله فقد ضلّ ضلالاً مبيناً﴾.^(٢)

بيان موقفه ﷺ من طلاق زيد رضي الله عنه لزَيْنَب بنت جحش:

قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾ [الأحزاب].

يقول تعالى مخبراً عن نبيه ﷺ أنه قال لمولاه زيد بن حارثة رضي الله عنه وهو الذي أنعم الله عليه أي بالإسلام ومتابعة الرسول ﷺ ﴿وأنعمت عليه﴾ أي بالعتق من الرق، وكان سيداً كبير الشأن جليل القدر حبيباً إلى النبي ﷺ يقال له الحب، ويقال لابنه أسامة الحب ابن الحب، قالت عائشة رضي الله عنها: ما بعثه رسول

(١) من رواية الإمام أحمد في مسنده، ج ٤/٤٢٢.

(٢) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١٠/٣٠٠ - ٣٠٢؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٥٠١ - ١٥٠٢.

الله ﷻ في سرية إلا أمره عليهم، وإن بقي بعده لاستخلفه.^(١)

وكان رسول الله ﷺ قد زوجه بابنة عمته زينب بنت جحش الأسدية ﷺ، وأما أميمة بنت عبد المطلب، فمكثت عنده قريباً من سنة أو فوقها، ثم وقع بينهما، فجاء زيد يشكوها إلى رسول الله ﷺ، فجعل رسول الله ﷺ يقول له: أمسك عليك زوجك واتق الله.

قال الله تعالى: ﴿وتخفي في نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه﴾.

روي أن الله تعالى أعلم نبيه ﷺ أنها ستكون من أزواجه قبل أن يتزوجها، فلما أتاه زيد ﷺ ليشكوها إليه قال: اتق الله وأمسك عليك زوجك. فقال: قد أخبرتك أنني مزوجكها ﴿وتخفي في نفسك ما الله مبديه﴾.

عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: لو كتم محمد ﷺ شيئاً مما أوحى إليه من كتاب الله تعالى لكتم ﴿وتخفي في نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه﴾.

وقوله تعالى: ﴿فلما قضى زيد منها وطراً زوجناكها﴾ الوطر هو الحاجة والأرب، أي لما فرغ منها وفارقها زوجناكها، وكان الذي ولي تزويجها منه هو الله ﷻ، بمعنى أنه أوحى إليه أن يدخل عليها بلا ولي ولا عقد ولا مهر ولا شهود من البشر.

عن أنس رضي الله عنه قال: لما انقضت عدة زينب رضي الله عنها. قال رسول الله ﷺ لزيد بن حارثة: اذهب فاذكرها علي. فانطلق حتى أتاه وهي تخمر عجينها، قال:

(١) مسند الإمام أحمد، ج ٦/٢٥٤.

فلما رأيتها عظمت في صدري حتى ما أستطيع أن أنظر إليها وأقول: إن رسول الله ﷺ ذكرها، فوليتها ظهري ونكصت على عقبي، وقلت: يا زينب أبشري أرسلني رسول الله ﷺ يذكرك، قالت: ما أنا بصانعة شيئاً حتى أوامر ربي، فقامت إلى مسجدها، ونزل القرآن. وجاء رسول الله ﷺ فدخل عليها بغير إذن.

ولقد رأيتنا حين دخلت على رسول الله ﷺ وأطعمنا عليها الخبز واللحم، فخرج الناس وبقي رجال يتحدثون في البيت بعد الطعام، فخرج رسول الله ﷺ واتبعته، فجعل ﷺ يتتبع حجر نسائه يسلم عليهن ويقلن: يا رسول الله كيف وجدت أهلك؟ فما أدري أنا أخبرته أن القوم قد خرجوا أو أخبر، فانطلق حتى دخل البيت فذهبت أدخل معه، فألقى الستر بيني وبينه، ونزل الحجاب ووعظ القوم بما وعظوا به ﴿لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم﴾ الآية كلها.^(١)

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: إن زينب بنت جحش رضي الله عنها كانت تفخر على أزواج النبي ﷺ فتقول: زوجكن أهاليكن وزوجني الله تعالى من فوق سبع سموات.^(٢)

وقوله تعالى: ﴿لكي لا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطراً﴾ أي إنما أبحنا لك تزويجها، وفعلنا ذلك لئلا يبقى حرج

(١) صحيح مسلم، كتاب النكاح، باب زواج زينب بنت جحش، ونزول الحجاب، وإثبات وليمة العرس، ج ٤/١٤٨ - ١٤٩.

(٢) رواه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب: (وكان عرشه على الماء)، ج ٨/١٧٥ - ١٧٦، وانظر: سنن الترمذي، كتاب تفسير القرآن، باب (ومن سورة الأحزاب)، ج ٥/٣٥٤ - ٣٥٥، حديث رقم: ٣٢١٣.

على المؤمنين في تزويج مطلقات لأدعياء، وذلك أن رسول الله ﷺ كان قبل النبوة قد تبنى زيد بن حارثة رضي الله عنه، فكان يقال له زيد بن محمد - كما مر ذكره -، فلما قطع الله تعالى هذه النسبة بقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ﴾ - إلى قوله تعالى - ﴿ادْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ [الأحزاب: ٤ - ٥]. ثم زاد ذلك ببياناً وتأكيده بوقوع تزويج رسول الله ﷺ بزَيْنَب بنت جحش رضي الله عنها، لما طلقها زيد بن حارثة رضي الله عنه. مما يؤكد أن دعوى التبني لا تحرم الحلال.

﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾ أي وكان هذا الأمر الذي وقع قد قدره الله تعالى وحتمه وهو كائن لا محالة، كانت زينب في علم الله ستصير من أزواج النبي ﷺ. ^(١)

تذكيره ﷺ بما أباح الله له:

قال تعالى: ﴿مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا﴾ [الأحزاب: ٣٨].

يقول تعالى: ﴿مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ﴾ أي فيما أحل له وأمره به من تزويج زينب رضي الله عنها، التي طلقها دعيه زيد بن حارثة رضي الله عنه. وقوله تعالى: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ﴾ أي هذا حكم الله تعالى في الأنبياء قبله لم يكن ليأمرهم بشيء وعليهم في ذلك حرج، وهذا رد على من توهم من المنافقين نقصاً في تزويجه امرأة زيد مولاه ودعيه الذي كان قد تبناه ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا﴾ أي وكان أمره الذي يقدره كائنًا لا محالة وواقعاً لا محيد عنه ولا معدل، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن. ^(٢)

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١٠/٣٠٢ - ٣٠٣؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٥٠٢ - ١٥٠٤.

(٢) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١٠/٣٠٤؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٥٠٤.

أداؤه الرسالة وختم النبوة به ﷺ وعدم أبوته للرجال:

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَبْلُغُونَ رَسُولَ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ، وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ (٣٩) مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (٤٠) [الأحزاب].

يمدح الله تعالى: ﴿الذين يبلغون رسالات الله﴾ أي إلى خلقه ويؤدونها بأماناتها، ﴿ويخشونه﴾ أي يخافونه ولا يخافون أحداً سواه، فلا تمنعهم سطوة أحد عن إبلاغ رسالات الله تعالى، ﴿وكفى بالله حسيباً﴾ أي وكفى بالله ناصراً ومعيناً. وسيد الناس في هذا المقام، بل وفي كل مقام محمد رسول الله ﷺ فإنه قام بأداء الرسالة وإبلاغها إلى أهل المشارق والمغارب وإلى جميع بني آدم. وأظهر الله تعالى كلمته ودينه وشرعه على جميع الأديان والشرائع، فإنه قد كان النبي قبله إنما يبعث إلى قومه خاصة، وأما هو ﷺ فإنه بعث إلى جميع الخلق عربهم وعجمهم. ثم ورث مقام البلاغ عنه أمته من بعده. فكان أعلى من قام بها بعده أصحابه - رضوان الله عليهم - بلغوا عنه كما أمرهم به في جميع أقواله وأفعاله وأحواله، في ليله ونهاره، وحضره وسفره، وسره وعلا نيته، رضي الله عنهم، ثم ورثه كل خلف عن سلفهم إلى زماننا هذا.

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((لا يحقرن أحدكم نفسه أن يرى أمر الله فيه مقال ثم لا يقوله، فيقول الله ما يمنعك أن تقول فيه؟ فيقول رب خشيت الناس، فيقول: فأنا أحق أن يُخشى)).^(١)

(١) سنن ابن ماجه، كتاب الفتن، باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ج ٢/١٣٢٨، حديث رقم: ٤٠٠٨؛ الإمام أحمد في مسنده، ج ٣/٤٧ - ٤٨.

وقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ﴾ نهي أن يقال بعد هذا: زيد بن محمد، أي لم يكن أباه وإن كان قد تبناه، فإنه ﷺ لم يعيش له ولد ذكر حتى بلغ الحلم، فإنه ﷺ ولد له القاسم والطيب والطاهر من خديجة، فماتوا صغاراً وولد له ﷺ إبراهيم من مارية القبطية، فمات أيضاً رضيعاً. وكان له ﷺ من خديجة أربع بنات: زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة ؓ، فمات في حياته ﷺ ثلاث منهن، وتأخرت فاطمة ؓ حتى أصيبت به ﷺ، ثم ماتت بعده بستة أشهر ؓ.

وقوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾، هذه الآية نص في أنه لا نبي بعده، وإذا كان لا نبي بعده فلا رسول بعده بالطريق الأولى والأخرى؛ لأن مقام الرسالة أخص من مقام النبوة، فإن كل رسول نبي ولا ينعكس، وبذلك وردت الأحاديث المتواترة عن رسول الله ﷺ.

روى الإمام أحمد ؓ عن أنس بن مالك ؓ قال: قال رسول الله ﷺ: ((إن الرسالة والنبوة قد انقطعت فلا رسول بعد ولا نبي)) قال: فشق ذلك على الناس، فقال: ولكن المبشرات. قالوا: يا رسول الله وما المبشرات؟ قال: رؤيا الرجل المسلم.

عن جابر بن عبد الله ؓ قال: قال رسول الله ﷺ: ((مثلي ومثل الأنبياء كمثلي رجل بنى داراً فأكملها وأحسنها إلا موضع لبنة، فكان من دخلها فنظر إليها قال: ما أحسنها إلا موضع هذه اللبنة، فأنا موضع اللبنة، ختم بي

الأنبياء عليهم الصلاة والسلام)).^(١)

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: ((فُضِّلْتُ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ بِسِتٍ: أُعْطِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ، وَنَصَرْتُ بِالرَّعْبِ وَأَحْلَيْتُ لِي الْغَنَائِمَ، وَجَعَلْتُ لِي الْأَرْضَ مَسْجِدًا وَطَهُورًا، وَأَرْسَلْتُ إِلَى الْخَلْقِ كَافَةً، وَخُتِمَ بِي النَّبِيُّونَ)).^(٢)

عن جبير بن مطعم رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((إِنْ لِي أَسْمَاءٌ أَنَا مُحَمَّدٌ، وَأَنَا أَحْمَدُ، وَأَنَا الْمَاحِي الَّذِي يَمْحُو اللَّهُ تَعَالَى بِي الْكُفْرَ، وَأَنَا الْحَاشِرُ الَّذِي يَحْشُرُ النَّاسَ عَلَى قَدَمِي، وَأَنَا الْعَاقِبُ الَّذِي لَيْسَ بَعْدَهُ نَبِيٌّ)).^(٣)

والأحاديث في هذا كثيرة.

ومن رحمة الله تعالى بالعباد إرسال محمد ﷺ إليهم، ثم من تشريفه له ولهم ختم الأنبياء والمرسلين به وإكمال الدين الحنيف له. وقد أخبر الله في كتابه ورسوله ﷺ في السنة المتواترة عنه أنه لا نبي بعده، ليعلموا أن كل من ادعى هذا المقام بعده فهو كذاب ودجال ضال مضل.^(٤)

نذارته ﷺ وبشارته وشهادته وتوكله على الله:

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ

(١) صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب: خاتم النبيين ﷺ، ج ٤/١٦٢ - ١٦٣؛ صحيح مسلم، كتاب الفضائل، باب ذكر كونه ﷺ خاتم النبيين، ج ٧/٦٤.

(٢) صحيح مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، مقدمة - كتاب المساجد ومواضع الصلاة، ج ٢/٦٤.

(٣) صحيح مسلم، كتاب الفضائل، باب في أسمائه ﷺ، ج ٧/٨٩؛ صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب ما جاء في أسماء رسول الله ﷺ، ج ٤/١٦٢.

(٤) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١٠/٣٠٥؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٥٠٤ - ١٥٠٦.

بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴿٤٦﴾ وَيَشِيرُ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾ وَلَا نُطِيعُ
الْكَافِرِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَدَعَّ أَذْنَهُمْ وَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ ۖ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾
[الأحزاب].

عن عطاء بن يسار قال: لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه، فقلت: أخبرني عن صفة رسول الله ﷺ في التوراة، قال: أجل والله إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن، ﴿يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً﴾ وحرزاً للأمينين، أنت عبدي ورسولي، سميتك المتوكل، لست بفظ ولا غليظ ولا سخاب في الأسواق، ولا يدفع السيئة بالسيئة، ولكن يعفو ويصفح ويغفر، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء، بأن يقولوا لا إله إلا الله، فيفتح بها أعينا عمياً، وآذاناً صماً، وقلوباً غلفاً.^(١)

عن ابن عباس رضي الله عنه قال: لما نزلت ﴿يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً﴾ وقد كان أمر علياً ومعاداً أن يسيرا إلى اليمن، فقال: انطلقا فبشرا ولا تنفرا، ويسرا ولا تعسرا، إنه قد أنزل عليّ ﴿يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً﴾.

شاهداً على أمتك ومبشراً بالجنة ونذيراً من النار، وداعياً إلى شهادة أن لا إله إلا الله بإذنه، وسراجاً منيراً بالقرآن الكريم. فقله تعالى: ﴿شاهداً﴾ أي لله بالوحدانية، وأنه لا إله غيره، وعلى الناس بأعمالهم يوم القيامة.

وقوله ﷺ: ﴿ومبشراً ونذيراً﴾ أي محمداً ﷺ بشيراً للمؤمنين بجزيل الثواب، ونذيراً للكافرين من وبيل العقاب. جلت عظمتة: ﴿وداعياً إلى الله بإذنه﴾ أي داعياً للخلق إلى عبادة ربهم عن أمره لك بذلك، ﴿وسراجاً منيراً﴾

(١) صحيح البخاري، كتاب البيوع، باب: كراهية السخب في السوق، ج ٣/٢١.

أي وأمرك ظاهر فيما جئت به من الحق كالشمس في إشراقها وإضاءتها لا يجحدها إلا معاند. وقوله جل وعلا ﴿ولا تطع الكافرين والمنافقين ودع أذاهم﴾ أي لا تطعمهم وتسمع منهم في الذي يقولونه، ﴿ودع أذاهم﴾ أي اصفح وتجاوز عنهم، وكل أمرهم إلى الله تعالى، فإن فيه كفاية لهم، ولهذا قال ﷺ: ﴿وتوكل على الله وكفى بالله وكيلاً﴾^(١).

ما يحل له ﷺ من النساء:

قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَ الَّتِي ءَاتَيْتَ أَجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عِمَمِكَ وَبَنَاتِ خَالَكَ وَبَنَاتِ خَلَّتِكَ الَّتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [الأحزاب].

يقول تعالى مخاطباً نبيه محمداً ﷺ بأنه قد أحل له من النساء أزواجه اللاتي أعطاهن مهورهن وهي الأجور هاهنا، وقد كان مهره لنسائه اثنتي عشرة أوقية ونشاً وهو نصف أوقية، فالجميع خمس مئة درهم، إلا أم حبيبة بنت أبي سفيان رضي الله عنها، فإنه أمهرها عنه النجاشي - رحمه الله تعالى - أربع مئة دينار وصفية بنت حيي فإنه اصطفاها من سبي خيبر، ثم أعتقها رضي الله عنها وجعل عتقها صداقها. كذلك جويرية بنت الحارث المصطلقية أدى عنها كتابتها إلى ثابت بن قيس بن شماس، وتزوجها رضي الله عنها.

وقوله تعالى: ﴿وما ملكت يمينك مما أفاء الله عليك﴾ أي وأباح لك

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١٠/٣٠٧ - ٣٠٨؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٥٠٧ - ١٥٠٨.

التسري مما أخذت من المغانم. وقد ملك صفية وجويرية فأعتقهما وتزوجهما ﷺ، وملك مارية القبطية ﷺ، أم ابنه إبراهيم ﷺ، وكانت من السراي ﷺ.

وقوله تعالى: ﴿وَبَنَاتُ عَمِّكَ وَبَنَاتُ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتُ خَالَكَ وَبَنَاتُ خَالَاتِكَ﴾ الآية، هذا عدل وسط بين الإفراط والتفريط. وكان بعض أهل الكتاب يتزوج أحدهم بنت أخيه وبنت أخته، فجاءت هذه الشريعة الكاملة الطاهرة بهدم ذلك. وأباحت بنت العم والعمة، وبنت الخال والخالة، حيث قال: ﴿وَبَنَاتُ عَمِّكَ وَبَنَاتُ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتُ خَالَكَ وَبَنَاتُ خَالَاتِكَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿اللاتي هاجرن معك﴾ المراد من هاجرن معه إلى المدينة. وفي رواية ﴿اللاتي هاجرن معك﴾ وأسلمن.

وقوله تعالى: ﴿وَامْرَأَةٌ مُؤْمِنَةٌ إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَكْحَا خَالَصَ لَكَ﴾ الآية، أي ويحل لك المرأة المؤمنة إن وهبت نفسها لك يا محمد ﷺ أن تتزوجها بغير مهر، إن شئت ذلك.

عن سهل بن سعد الساعدي ﷺ أن رسول الله ﷺ جاءته امرأة فقالت: يا رسول الله إني قد وهبت نفسي لك، فقامت قياماً طويلاً، فقام رجل فقال: يا رسول الله زوجنيها إن لم يكن لك بها حاجة، فقال رسول الله ﷺ: "هل عندك من شيء تصدقها إياه؟ فقال: ما عندي إلا إزاري هذا، فقال رسول الله ﷺ: إن أعطيتها إزارك جلست لا إزار لك، فالتمس شيئاً. فقال: لا أجد شيئاً، فقال: التمس ولو خاتماً من حديد، فالتمس فلم يجد شيئاً، فقال له النبي ﷺ: هل معك من القرآن شيء؟ قال: نعم سورة كذا وسورة كذا -

السور يسميها - فقال له النبي ﷺ: زوجتكها بما معك من القرآن.^(١)

والغرض من هذا أن اللاتي وهبن أنفسهن للنبي ﷺ متعدّدات.

عن عائشة رضي الله عنها قالت: كنت أغار من اللاتي وهبن أنفسهن للنبي ﷺ وأقول: أتهب المرأة نفسها؟ فلما أنزل الله تعالى: ﴿ترجي من تشاء منهم وتؤوي إليك من تشاء ومن ابتغيت ممن عزلت فلا جناح عليك﴾ قلت: ما أرى ربك إلا يسارع في هواك.^(٢)

كان ذلك مباحاً له ومخصوصاً به؛ لأنه مردود إلى مشيئته، كما قال الله تعالى: ﴿إن أراد النبي أن يستكحها﴾، أي إن اختار ذلك.

وقوله تعالى: ﴿خالصة لك من دون المؤمنين﴾ أي لا تحل الموهوبة لغيرك، ولو أن امرأة وهبت نفسها لرجل لم تحل له حتى يعطيها شيئاً، أي أنها إذا فوضت المرأة نفسها إلى رجل فإنه متى دخل بها وجب عليه لها مهر مثلها، كما حكم به رسول الله ﷺ. وقوله تعالى: ﴿قد علمنا ما فرضنا عليهم في أزواجهم وما ملكت أيمانهم﴾. أي من حصرهم في أربع نسوة حرائر، وما شأوا من الإماء واشتراط الولي والمهر والشهود عليهم، وهم الأمة، وقد رخصنا لك في ذلك فلم نوجب عليك شيئاً منه؛ ﴿لكيلا يكون عليك حرج وكان الله غفوراً رحيماً﴾.^(٣)

(١) صحيح البخاري، كتاب النكاح، باب إذا كان الولي هو الخاطب، ج ٣/١٣٤؛ صحيح مسلم، كتاب النكاح، باب الصداق وجواز كونه تعليم قرآن وخاتم حديد، وغير ذلك من قليل وكثير. واستحباب كونه خمسمائة درهم لمن لا يجحف به، ج ٣/١٤٣.

(٢) صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب قوله: (ترجي من تشاء منهم وتؤوي إليك من تشاء ومن ابتغيت ممن عزلت فلا جناح عليك)، ج ٦/٢٤.

(٣) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١٠/٣٠٩ - ٣١٢؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٥٠٩ - ١٥١١.

تعامله ﷺ مع نسائه:

قال تعالى: ﴿تُرْجَىٰ مِنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوَىٰ إِلَيْكَ مِنْ تَشَاءُ وَمِنْ ابْتِغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَنْ تَقْرَءَ عَيْنَهُنَّ وَلَا تَحْزَنَ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلَّهُنَّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ٥١﴾ [الأحزاب].

المراد بقوله: ﴿ترجي﴾ أي تؤخر ﴿من تشاء منهن﴾ أي من الواهبات، ﴿وتؤوي إليك من تشاء﴾ أي من شئت قبلتها ومن شئت رددتها. ومن رددتها فأنت فيها أيضاً بالخيار بعد ذلك إن شئت عدت فيها فأويتها، ولهذا قال تعالى: ﴿ومن ابتغيت ممن عزلت فلا جناح عليك﴾.

وقد رد قوله تعالى: ﴿ترجي من تشاء منهن﴾ الآية، كن نساء وهبن أنفسهن للنبي ﷺ، وقال آخرون: بل المراد بقوله ﴿ترجي من تشاء منهن﴾ الآية، أي من أزواجك لا حرج عليك أن تترك القسم لهن، فتقدم من شئت وتؤخر من شئت، وتجامع من شئت وتترك من شئت، هكذا روي عن ابن عباس رضي الله عنهما وغيره ومع هذا كان النبي ﷺ يقسم لهن.

عن عائشة رضي الله عنها: أن رسول الله ﷺ: كان يستأذن في يوم المرأة منا بعد أن أنزلت هذه الآية ﴿ترجي من تشاء منهن وتؤوي إليك من تشاء ومن ابتغيت ممن عزلت فلا جناح عليك﴾ فقلت لها: ما كنت تقولين؟ فقالت: كنت أقول: إن كان ذلك إلي فإني لا أريد يا رسول الله أن أؤثر عليك أحداً.

قال تعالى: ﴿ذلك أدنى أن تقر أعينهن ولا يحزن ويرضين بما آتيتهن كلهن﴾، أي إذا علمن أن الله قد وضع عنك الحرج في القسم. فإن شئت قسمت وإن شئت لم تقسم، لا جناح عليك في أي ذلك فعلت. ثم مع هذا أن تقسم لهن اختياراً منك، لا أنه على سبيل الوجوب، فرحن بذلك واستبشرن

به، وحملن جميلك في ذلك، واعترفن بمنتك عليهن في قسمتك لهن وتسويتك بينهن وإنصافك لهن وعدلك فيهن.

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾ أي من الميل إلى بعضهن دون بعض مما لا يمكن دفعه. عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ يقسم بين نسائه فيعدل، ثم يقول: ((اللهم هذا فعلي فيما أملك، فلا تلمني فيما تملك ولا أملك))^(١) يعني القلب. ولهذا عقب ذلك بقوله تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا﴾ أي بضمائر السرائر ﴿حَلِيمًا﴾ أي يحلم ويغفر.^(٢)

اكتفاؤه بما عنده من النساء:

قال تعالى: ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا﴾ [الأحزاب].

عن ابن عباس رضي الله عنهما وغيره أن هذه الآية نزلت مجازاة لأزواج النبي ﷺ ورضا عنهن على حسن صنيعهن في اختيارهن الله ورسوله والدار الآخرة، لما خيرهن رسول الله ﷺ كما تقدم. فلما اخترن رسول الله ﷺ كان جزاؤهن أن الله تعالى قصره عليهن، وحرّم عليه أن يتزوج بغيرهن أو يستبدل بهن أزواجاً غيرهن، ولو أعجبه حسنهن، إلا الإماء والسرايري فلا حرج عليه فيهن. ثم إنه تعالى رفع عنه الحرج في ذلك ونسخ حكم هذه الآية، وأباح له التزوج، ولكن لم يقع منه بعد ذلك تزوج؛ لتكون المنّة لرسول الله ﷺ عليهن.

(١) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب النكاح، باب في القسم بين النساء، ص ٣٧٠، حديث رقم: ٢١٣٤؛ والترمذي في سننه، كتاب النكاح، باب ما جاء في التسوية بين الضرائر، ج ٤٤٦/٣، حديث رقم: ١١٤٠؛ وابن ماجه في سننه، كتاب النكاح، باب القسمة بين النساء، ج ٦٣٤/١، حديث رقم: ١٩٧١.

(٢) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٣١٢/١ - ٣١٦؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١٥١١/٢.

عن عائشة رضي الله عنها قالت: ((ما توفي رسول الله ﷺ حتى أحل الله له أن يتزوج من النساء ما شاء)).^(١)

عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: لم يميت رسول الله ﷺ حتى أحل الله له أن يتزوج من النساء ما شاء إلا ذات محرم، وذلك قول الله تعالى: ﴿ترجي من تشاء منهن﴾ الآية فجعلت هذه ناسخة للتي بعدها في التلاوة.

وقال آخرون: بل معنى الآية ﴿لا يحل لك النساء من بعد﴾ أي من بعد ما ذكرنا لك من صفة النساء اللاتي أحللنا لك من نسائك، اللاتي آتيت أجورهن وما ملكت يمينك وبنات العم والعمات والخال والخالات والواهبية، وما سوى ذلك من أصناف النساء فلا يحل لك.

قيل لأبي بن كعب: أرأيت لو أن أزواج النبي ﷺ توفين أما كان له أن يتزوج؟ فقال: وما يمنعه من ذلك؟ قال: قلت قول الله تعالى: ﴿لا يحل لك النساء من بعد﴾ فقال: إنما أحل الله له ضرباً من النساء، فقال تعالى: ﴿يا أيها النبي إنا أحللنا لك أزواجك﴾ إلى قوله تعالى: ﴿إن وهبت نفسها للنبي﴾، ثم قيل له: ﴿لا يحل لك النساء من بعد﴾.

وقال عكرمة: ﴿لا يحل لك النساء من بعد﴾ أي التي سمى الله.

وجزم البعض أن الآية إنما دلت على أنه لا يتزوج بمن عدا اللواتي في عصمته وأنه لا يستبدل بهن غيرهن، ولا يدل ذلك على أنه لا يطلق واحدة منهن من غير استبدال. فالله أعلم.

(١) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب تفسير القرآن، ج ٥/٣٥٦، باب (ومن سورة الأحزاب)، حديث رقم: ٣٢١٦؛ مسند الإمام أحمد، ج ٦/١٨٠. (وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة، ق ٢ ج ٦٧٧/٧ برقم: ٣٢٢٤).

وقوله تعالى: ﴿وَلَا أَنْ تَبْدُلَ بِهِنَ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حَسَنَهُنَّ﴾، فنهاه عن الزيادة إن طلق واحدة منهن، واستبدال غيرها بها، إلا ما ملكت يمينه.^(١)

حياء النبي ﷺ والأدب في بيوته:

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَظِيرٍ لَهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَعْسِفِينَ لِحَدِيثٍ إِنْ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيَ مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيَ مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾ إِنْ تَبَدُّوا شَيْئًا أَوْ خَفَوْهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٥٤﴾﴾ [الأحزاب].

هذه آية الحجاب. وفيها أحكام وآداب شرعية. وهي مما وافق تنزيلها قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

عن عمر رضي الله عنه أنه قال: وافقت ربي في ثلاث، قلت: يا رسول الله لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلی، فأنزل الله تعالى: ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مِثْلًا﴾، وقلت: يا رسول الله إن نساءك يدخل عليهن البر والفاجر فلو حجبتهن، فأنزل الله آية الحجاب. وقلت لأزواج النبي ﷺ لما تما لأن عليه في الغيرة ﴿عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجاً خيراً منكن مسلمات﴾ الآية فنزلت كذلك.^(٢)

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١٠/٣١٦ - ٣٢١؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٥١١ - ١٥١٣.

(٢) انظر: رواية صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب قوله تعالى: (قوله واتخذوا من مقام إبراهيم مصلی)، ج ٥/١٤٩ - ١٥٠.

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: يا رسول الله يدخل عليك البر والفاجر، فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب، فأنزل الله آية الحجاب.^(١)

وكان وقت نزولها في صبيحة عرس رسول الله ﷺ بزینب بنت جحش الأسدية رضي الله عنها التي تولى الله تعالى تزويجها بنفسه.

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: لما تزوج رسول الله ﷺ زينب بنت جحش دعا القوم فطعموا، ثم جلسوا يتحدثون، فإذا هو يتهيأ للقيام فلم يقوموا. فلما رأى ذلك قام. فلما قام قام من قام وقعد ثلاثة نفر. فجاء النبي ﷺ ليدخل، فإذا القوم جلوس، ثم إنهم قاموا فانطلقوا، فجئت فأخبرت النبي ﷺ أنهم قد انطلقوا فجاء حتى دخل، فذهبت أدخل فألقى الحجاب بيني وبينه، فأنزل الله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إناه ولكن إذا دعيتم فادخلوا فإذا طعمتم فانتشروا﴾.

وكان ﷺ أشد الناس حياء، ولو علموا كان ذلك عليهم عزيزاً، فقام رسول الله ﷺ، فخرج فسلم على حجره وعلى نسائه، فلما رأوه قد جاء ظنوا أنهم قد ثقلوا عليه، ابتدروا الباب فخرجوا.

وجاء رسول الله ﷺ حتى أرخى السترو ودخل البيت ... فمكث رسول الله ﷺ في بيته يسيرا وأنزل الله عليه القرآن، فخرج وهو يتلو هذا الآية ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي﴾ الآيات.^(٢)

(١) صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب قوله تعالى: (لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إناه ...)، ج ٦/٢٤.

(٢) صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب قوله تعالى: (لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إناه ...)، ج ٦/٢٤ - ٢٥.

عن أنس رضي الله عنه قال: لما انقضت عدة زينب قال رسول الله ﷺ لزيد: ((اذهب فاذكرها علي)). قال: فانطلق زيد حتى أتاها قال وهي تخمر عجينها، فلما رأيتها عظمت في صدري، وذكر تمام الحديث قوله تعالى: ﴿فلما قضى زيد منها وطراً﴾، وزاد في آخره بعد قوله: ووعظ القوم بما وعظوا به.^(١)

عن عائشة رضي الله عنها قالت: إن أزواج النبي ﷺ كن يخرجن بالليل إذا تبرزن إلى المناصع - وهو صعيد أفيح وكان عمر يقول لرسول الله ﷺ: احجب نساءك، فلم يكن رسول الله ﷺ ليفعل، فخرجت سودة بنت زمعة زوج رسول الله ﷺ، وكانت امرأة طويلة، فنادها عمر بصوته الأعلى: قد عرفناك يا سودة حرصاً على أن ينزل الحجاب، قالت: فأنزل الله الحجاب.^(٢)

وقوله تعالى: ﴿لا تدخلوا بيوت النبي﴾ حظر على المؤمنين أن يدخلوا منازل رسول الله ﷺ بغير إذن، كما كانوا قبل ذلك يصنعون في بيوتهم في الجاهلية وابتداء الإسلام، حتى غار الله لهذه الأمة فأمرهم بذلك، وذلك من إكرامه تعالى هذه الأمة ولهذا قال رسول الله ﷺ: "إياكم والدخول على النساء".

ثم استثنى من ذلك فقال تعالى: ﴿إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إناه﴾ أي غير متحينين نضجه واستواءه، أي لا ترقبوا الطعام إذا طبخ حتى إذا قارب الاستواء تعرضتم للدخول، فإن هذا مما يكرهه الله ويذمه. كراهية أن يكون الإنسان طفيلياً.

(١) صحيح مسلم، كتاب النكاح، باب زواج زينب بنت جحش، ونزول الحجاب، وإثبات وليمة العرس، ج ٤/١٤٨ - ١٤٩.

(٢) انظر: صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب: قوله: ﴿لا تدخلوا بيوت النبي﴾ إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إناه (...)، ج ٦/٢٦.

ثم قال تعالى: ﴿ولكن إذا دعيتم فادخلوا فإذا طعمتم فانتشروا﴾ عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: إذا دعا أحدكم أخاه فليجب عرساً كان أو غيره.^(١)

وفي الصحيح أيضاً عن رسول الله ﷺ: ((لو دعيت إلى ذراع لأجبت، ولو أهدي إلي كراع لقبلت، فإذا فرغتم من الذي دعيتم إليه فخففوا عن أهل المنزل وانتشروا في الأرض)).^(٢) ولهذا قال تعالى: ﴿ولا مستأنسين لحديث﴾ أي كما وقع لأولئك النفر الثلاثة الذين استرسل بهم الحديث، ونسوا أنفسهم حتى شق ذلك على رسول الله ﷺ. كما قال تعالى: ﴿إن ذلكم كان يؤذي النبي فيستحيي منكم﴾. وقيل المراد إن دخولكم منزله بغير إذنه كان يشق عليه ويتأذى به، ولكن كان يكره أن ينهاهم عن ذلك من شدة حيائه ﷺ حتى أنزل الله عليه النهي عن ذلك. ولهذا قال تعالى: ﴿والله لا يستحيي من الحق﴾ أي ولهذا نهاكم عن ذلك وزجركم عنه.

ثم قال تعالى: ﴿وإذا سألتموهن متاعاً فسئلهن من وراء حجاب﴾، ولو كان لأحدكم حاجة يريد تناولها منهن، فلا ينظر إليهن ولا يسألهن حاجة إلا من وراء حجاب. ونزل الحجاب، ﴿ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن﴾ أي هذا الذي أمرتكم به وشرعته لكم من الحجاب أطهر وأطيب.

وقوله تعالى: ﴿وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تتكحوا أزواجه من بعده أبداً إن ذلكم كان عند الله عظيماً﴾.

قيل: نزلت في رجل هم أن يتزوج بعض نساء النبي ﷺ بعده. فنزل التنبيه

(١) صحيح مسلم، كتاب النكاح، باب الأمر بإجابة الداعي إلى دعوة، ج ٤/١٥٢.

(٢) صحيح البخاري، كتاب النكاح، باب: من أجاب إلى كراع، ج ٦/١٤٤.

على تحريم ذلك، ولهذا اجمع العلماء على أن من توفي عنها رسول الله ﷺ من أزواجه يحرم على غيره تزوجها من بعده؛ لأنهن أزواجه في الدنيا والآخرة وأمهات المؤمنين، وتأكد ذلك في قوله تعالى: ﴿من بعده﴾.

وقد عظم الله ﷻ ذلك، وشدد فيه وتوعد عليه بقوله تعالى: ﴿إن ذلكم كان عند الله عظيمًا﴾. ثم قوله تعالى: ﴿إن تبدوا شيئًا أو تخفوه فإن الله كان بكل شيء عليماً﴾ أي مهما تكنه ضمائرکم وتتطوي عليه سرائرکم، فإن الله يعلمه، فإنه لا تخفى عليه خافية.^(١)

أمر أمهات المؤمنين بالتقوى:

قال تعالى: ﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِيءِ آبَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءَ أَخَوَاتِهِنَّ وَلَا نِسَائِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ وَاتَّقِينَ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾ [الأحزاب].

لما أمر الله ﷻ النساء بالحجاب من الأجانب، بين أن هؤلاء الأقارب لا يجب الاحتجاب منهم، واستثناهم وفي سورة النور زيادات على هذه.

وقد سأل بعض السلف فقال: لم لم يذكر العم والخال في هاتين الآيتين؟ فأجاب: بأنهما لم يذكر لانهما قد يصفان ذلك لبنيهما.

وقوله تعالى: ﴿ولا نسائهن﴾ يعني بذلك عدم الاحتجاب من النساء المؤمنات. وقوله تعالى: ﴿ولا ما ملكت أيماهن﴾ يعني به أرقائهن الإناث.

وقوله تعالى: ﴿واتقين الله إن الله كان على كل شيء شهيداً﴾ أي واخشينه في الخلوة والعلانية، فإنه شهيد على كل شيء، لا تخفى عليه

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١٠/٣٢١ - ٣٢٧؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٥١٣ - ١٥١٥.

خافية فهو الرقيب.^(١)

صلاة الله وملائكته على النبي ﷺ. وأمر المؤمنين بذلك:

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦].

صلاة الله تعالى رحمته له، وثناؤه عليه عند الملائكة، وصلاة الملائكة يدعون ويبركون ويستغفرون له.^(٢)

والمقصود من هذه الآية أن الله ﷻ أخبر عباده بمنزلة عبده ونبيه عنده في الملأ الأعلى بأنه يثني عليه عند الملائكة المقربين، وأن الملائكة تصلي عليه. ثم أمر تعالى أهل الإيمان بالصلاة والتسليم عليه؛ ليجتمع الثناء عليه من أهل السماء والأرض.

عن ابن عباس رضي الله عنهما أن بني إسرائيل قالوا لموسى عليه السلام: هل يصلي ربك؟ فناداه ربه ﷻ: يا موسى سألوكم هل يصلي ربك، فقل: نعم أنا أصلي وملائكتي على أنبيائي ورسلي، فأنزل الله ﷻ على نبيه ﷺ: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾.

وقد أخبر ﷻ بأنه يصلي على عباده المؤمنين في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ﴾ [الأحزاب: ٤١ - ٤٣].

وقد جاءت الأحاديث المتواترة عن رسول الله ﷺ بالأمر بالصلاة عليه،

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١٠/ ٣٢٧ - ٣٢٩؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/ ١٥١٥ - ١٥١٦.

(٢) انظر: تفصيلات ذلك في كتابي: "موسوعة الشمائل النبوية"، القسم الأول، ج ١/ ٢٠٦.

وكيفية الصلاة عليه. وقد وضع البخاري في صحيحه باب ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾^(١).

عن كعب بن عجرة رضي الله عنه قال: خرج علينا رسول الله ﷺ فقلنا: يا رسول الله قد علمنا أو عرفنا كيف السلام عليك، فكيف الصلاة؟ فقال ﷺ: قولوا اللهم صل على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على آل إبراهيم، إنك حميد مجيد، اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد، كما باركت على آل إبراهيم، إنك حميد مجيد.^(٢)

مع وجوب ذلك والأمر بالصلاة على رسول الله ﷺ في الصلاة، كما هو ظاهر الآية. فلا صلاة لمن لم يصل على النبي ﷺ.

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: إذا صليتم على رسول الله ﷺ فأحسنوا الصلاة عليه، فإنكم لا تدرون لعل ذلك يعرض عليه.

عن عامر بن ربيعة رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: من صلى علي صلاة لم تزل الملائكة تصلي عليه ما صلى علي، فليقل عبد من ذلك أو ليكثر.^(٣)

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: أولى الناس بي يوم

(١) صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب: (إن الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليماً)، ج ٢٧/٦.

(٢) صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب: (إن الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليماً)، ج ٢٧/٦؛ صحيح مسلم، كتاب الصلاة، باب الصلاة على النبي ﷺ بعد التشهد، ج ١٦/٢.

(٣) رواه الإمام أحمد في مسنده، ج ٤٤٥/٣؛ سنن ابن ماجه، كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها، باب الصلاة على النبي ﷺ، ج ٢٩٤/١، حديث رقم: ٩٠٧.

القيامة أكثرهم علي صلاة.^(١)

عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: من صلى علي صلاة واحدة صلى الله عليه عشر صلوات، وحط عنه عشر خطيئات.^(٢)

عن علي رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: البخيل من ذكرت عنده ثم لم يصل علي.^(٣)

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: رغم أنف رجل ذكرت عنده فلم يصل علي.^(٤)

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: ما جلس قوم مجلساً لم يذكروا الله فيه، ولم يصلوا على نبيهم إلا كان عليهم ترة يوم القيامة، فإن شاء عذبهم وإن شاء غفر لهم.^(٥)

عن أبي سعيد رضي الله عنه قال: ما من قوم يقعدون ثم يقومون ولا يصلون على النبي ﷺ إلا كان عليهم يوم القيامة حسرة وإن دخلوا الجنة لما يرون من الثواب.

(١) سنن الترمذي، أبواب الصلاة، باب ما جاء في فضل الصلاة على النبي ﷺ، ج ٢/٣٥٤، حديث رقم: ٤٨٤.

(٢) مسند الإمام أحمد، ج ٣/١٠٢.

(٣) سنن الترمذي، كتاب الدعوات، باب قول رسول الله ﷺ (رغم أنف رجل)، ج ٥/٥٥١، حديث رقم: ٣٥٤٦.

(٤) سنن الترمذي، كتاب الدعوات، باب قول رسول الله ﷺ (رغم أنف رجل)، ج ٥/٥٥٠، حديث رقم: ٣٥٤٥.

(٥) سنن الترمذي، كتاب الدعاء، باب في القوم يجلسون ولا يذكرون الله، ج ٥/٤٦١، حديث رقم: ٣٣٨٠.

عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: ((إذا سمعتم مؤذناً فقولوا مثلما يقول، ثم صلوا علي فإنه من صلى علي صلى الله عليه بها عشراً، ثم سلوا الله لي الوسيلة، فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله، وأرجو أن أكون أنا هو، فمن سأل لي الوسيلة حلت عليه الشفاعة)).^(١)

والسنة في الصلاة على الجنازة أن يكبر الإمام، ثم يقرأ بفاتحة الكتاب بعد التكبيرة الأولى سرّاً في نفسه، ثم يصلي على النبي ﷺ، ويخلص الدعاء للجنازة، وفي التكبيرات لا يقرأ في شيء منها، ثم يسلم سرّاً في نفسه.^(٢) كما أنه يستحب عند الدعاء بالصلاة عليه ﷺ، وقد علم ﷺ الصحابة كيف يصلون عليه.^(٣)

كما أنه يستحب الإكثار من الصلاة عليه يوم الجمعة وليلة الجمعة. عن أوس الثقفي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((من أفضل أيامكم يوم الجمعة، فيه خلق آدم وفيه قبض، وفيه النفخة، وفيه الصعقة، فأكثروا علي من الصلاة فيه، فإن صلاتكم معروضة علي ...)) الحديث.^(٤) ومن ذلك أنه يستحب الصلاة والسلام عليه عند زيارة قبره ﷺ.

(١) صحيح مسلم، كتاب الصلاة، باب استحباب القول مثل قول المؤذن لمن سمعه ثم يصلي على النبي ﷺ ثم يسأل الله له الوسيلة، ج ٢/٤.

(٢) انظر: علوي بن عبد القادر السقاف، ملخص فقه العبادات، ص ٤٢٨ - ٤٣١.

(٣) انظر: ما ورد عند صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب: (إن الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليماً)، ج ٦/٢٧: صحيح مسلم، كتاب الصلاة، باب الصلاة على النبي ﷺ بعد التشهد، ج ٢/١٦.

(٤) سنن أبي داود، كتاب الصلاة، باب فضل يوم الجمعة وليلة الجمعة، ص ١٨٢، حديث رقم: ١٠٤٧.

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: ((ما منكم من أحد يسلم علي إلا رد الله علي روحي حتى أرد عليه السلام)).^(١)

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((لا تجعلوا بيوتكم قبوراً، ولا تجعلوا قبري عيداً، وصلوا علي، فإن صلاتكم تبلغني حيثما كنتم)).^(٢)

عن الحسن بن علي رضي الله عنه عن أبيه رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: ((صلوا علي حيثما كنتم، فإن صلاتكم تبلغني)).^{(٣) (٤)}

لعن الله من آذى الله سبحانه ورسوله ﷺ والمؤمنين:

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا ٥٧﴾ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدْ احْتَمَلُوا بُهْتَنًا وَإِثْمًا مُبِينًا ﴿٥٨﴾ [الأحزاب].

يقول تعالى متهدداً ومتوعداً من عصاه بمخالفة أوامره وارتكاب زواجره وإصراره على ذلك وإيذاء رسوله ﷺ بغيب أو بنقص - عيادا بالله من ذلك -.

عن ابن عباس رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ نزلت في الذين طعنوا في النبي ﷺ في تزويجه صفية بنت حيي بن أخطب. والآية عامة في كل من آذاه بشيء في كل الأزمنة والعصور والأماكن، ومن آذاه فقد آذى الله كما أن من أطاعه فقد أطاع الله.

عن عبد الله بن المغفل المزني، قال: قال رسول الله ﷺ: الله الله في أصحابي لا تتخذوهم غرضاً بعدي فمن أحبهم فبحبي أحبهم، ومن أبغضهم

(١) سنن أبي داود، كتاب المناسك، باب زيارة القبور، ص ٣٥٣، حديث رقم: ٢٠٤١.

(٢) سنن أبي داود، كتاب المناسك، باب زيارة القبور، ص ٣٥٣، حديث رقم: ٢٠٤٢.

(٣) ابن أبي شيبة، المصنف، كتاب الصلوات، في الصلاة عند قبر النبي ﷺ وإتيانه، ج ٢/٣٧٥.

(٤) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١٠/٣٢٩ - ٣٣٠؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٥١٦ - ١٥٢٥.

فببغضي أبغضهم، ومن آذاهم فقد آذاني ومن آذاني فقد آذى الله، ومن آذى الله يوشك أن يأخذه.^(١)

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا﴾ أي ينسبون إليهم ما هم برآء منه لم يعملوه ولم يفعلوه ﴿فَقَدْ احْتَمَلُوا بِهِتَانًا وَإِثْمًا مَبِينًا﴾. وهذا هو البهت الكبير أن يحكى أو ينقل عن المؤمنين والمؤمنات ما لم يفعلوه على سبيل العيب والتنقص لهم. ومن أكثر من يدخل في هذا الوعيد الذين يتنقصون الصحابة ويعيبونهم بما قد برأهم الله منه، ويصفونهم بنقيض ما أخبر الله عنهم، فإن الله ﷻ قد أخبر أنه قد رضي عن المهاجرين والأنصار ومدحهم. وهؤلاء الجهلة الأغبياء يسبونهم وينتقصونهم ويذكرون عنهم ما لم يكن وما فعلوه أبداً. فهم في الحقيقة منكسو القلوب يذمون الممدوحين ويمدحون المذمومين.

عن أبي هريرة رضي الله عنه: أنه قيل: يا رسول الله ما الغيبة؟ قال: ذكرك أخاك بما يكره. قيل: أفرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال: إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته.^(٢)

عن عائشة رضي الله عنها: قالت: قال رسول الله ﷺ لأصحابه ((أي الربا أربى عند الله؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: أربى الربا عند الله استحلال عرض امرئ مسلم. ثم قرأ ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدْ احْتَمَلُوا بِهِتَانًا وَإِثْمًا مَبِينًا﴾)).^(٣)

(١) سنن الترمذي، كتاب المناقب، باب ٥٩، ج ٥/٦٩٦، حديث رقم: ٣٨٦٢.

(٢) سنن أبي داود، أول كتاب الأدب، باب في الغيبة، ص ٨٨٢، حديث رقم: ٤٨٧٤.

(٣) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١٠/٣٣٠ - ٣٣١: ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٥٢٥ - ١٥٢٦.

وانظر: أبو يعلى في مسنده، مسند عائشة رضي الله عنها، ج ٦/٥٩٠، حديث رقم: ٤٦٨٩.

أمر زوجاته وبناته ﷺ والمؤمنات بالحجاب:

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ۚ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ۚ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ٥٩﴾ لَّيْن لَمْ يَنْهَ الْمُنْفِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُحَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ٦٠﴾ مَلْعُونِينَ ۖ أَيَنَّمَا تُقَفُّوا أُخْذُوا وَقُتِلُوا تَقْتِيلًا ٦١﴾ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ٦٢﴾ [الأحزاب].

يقول تعالى أمراً رسوله ﷺ أن يأمر النساء المؤمنات - بادئاً بأزواجه وبناته لشرفهن - بأن يدنين عليهن من جلابيبهن؛ لئتميزن عن سمات نساء الجاهلية وسمات الإماء، والجلباب هو الرداء فوق الخمار، الجلباب الملحفة.

عن ابن عباس ؓ: أمر الله نساء المؤمنين إذا خرجن من بيوتهن في حاجة أن يغطين وجوههن من فوق رؤوسهن بالجلابيب ويبدن عينا واحدة.

قال تعالى: ﴿يَدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ﴾ سؤال أحد السلف فغطى وجهه ورأسه وأبرز عينه اليسرى، وقال عكرمة تغطي ثغرة نحرها بجلبابها تدنيه عليها.

عن أم سلمة ؓ، قالت: لما نزلت هذه الآية ﴿يَدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ﴾ خرج نساء الأنصار كأن على رؤوسهن الغربان من السكينة، وعليهن أكسية سود يلبسنها.^(١)

(١) رواه أبو داود في سننه، كتاب اللباس، باب في لباس النساء، ص ٧٣٣، حديث رقم:

وقوله تعالى: ﴿ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين﴾ أي إذا فعلن ذلك عرفن أنهن حرائر، لسن بإماء ولا عواهر.

في قوله تعالى: ﴿يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين﴾ قال: كان ناس من فساق أهل المدينة يخرجون بالليل حين يختلط الظلام إلى طرق المدينة، يتعرضون للنساء. وكانت مساكن أهل المدينة ضيقة. فإذا كان الليل خرج النساء إلى الطرق يقضين حاجتهن. فكان أولئك الفساق يبتغون ذلك منهن، فإذا رأوا المرأة عليها جلباب قالوا: هذه حرة، فكفوا عنها، فلا يتعرض لهن فاسق بأذى ولا ريبة.

وقوله تعالى: ﴿وكان الله غفوراً رحيماً﴾ أي لما سلف في أيام الجاهلية، حيث لم يكن عندهم علم بذلك، ثم قال تعالى متوعداً المنافقين، وهم الذين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر: ﴿والذين في قلوبهم مرض﴾ هم أهل الفتنة ﴿والمرجفون في المدينة﴾ يعني الذين يوقعون الخلل فيها لم ينتهوا عن ذلك ويرجعوا إلى الحق ﴿لنغرينك بهم﴾ أي لنسلطنك عليهم. بعد أن نعلمك بهم، ﴿ثم لا يجاورونك فيها﴾ أي في المدينة ﴿إلا قليلاً﴾ ملعونين ﴿حال منهم في مدة إقامتهم في المدينة مدة قريبة مطرودين مبعدين، ﴿أيئما ثقفوا﴾ أي وجدوا ﴿أخذوا﴾ لذلتهم وقتلهم ﴿وقتلتوا تقتيلاً﴾ ثم قال تعالى: ﴿سنة الله في الذين خلوا من قبل﴾ أي هذه سنته في المنافقين إذا تمردوا في نفاقهم وكفرهم ولم يرجعوا عما هم فيه أن أهل الإيمان يسلطون عليهم ويقهرونهم، ﴿ولن تجد لسنة الله تبديلاً﴾ أي وسنة الله في ذلك لا تبدل ولا تغير.^(١)

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١٠/ ٣٣١ - ٣٣٤؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/ ١٥٢٦.

عدم علمه ﷺ بالساعة مع علمه بمصير الكافرين:

قال تعالى: ﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ (٦٣) **﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا﴾** (٦٤) **﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾** (٦٥) **﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَلَيْتَنَّا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ﴾** (٦٦) **﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّنَا السَّبِيلَا﴾** (٦٧) **﴿رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنَهُمُ لَعْنًا كَبِيرًا﴾** (٦٨) [الأحزاب].

يقول تعالى مخبراً رسوله ﷺ أنه لا علم رسوله بالساعة وإن سأله الناس عن ذلك، وأرشده تعالى أن يرد علمها إلى الله ﷻ، لكن أخبره أنها قريبة بقوله تعالى: ﴿وما يدريك لعل الساعة تكون قريباً﴾ ثم قال تعالى: ﴿إن الله لعن الكافرين﴾ أي أبعدهم من رحمته ﴿وأعد لهم سعيراً﴾ أي في الدار الآخرة ﴿خالدين فيها أبداً﴾ أي ماكثين مستمرين، فلا خروج لهم منها ولا زوال لهم عنها، ﴿لا يجدون ولياً ولا نصيراً﴾ أي وليس لهم مغيث ولا معين ينقذهم مما هم فيه.

ثم قال تعالى: ﴿يوم تقلب وجوههم في النار يقولون يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسول﴾ أي يسحبون في النار على وجوههم وتلوى وجوههم على جهنم، يقولون وهم كذلك يتمنون أن لو كانوا في الدار الدنيا ممن أطاع الله وأطاع الرسول ﷺ، كما أخبر عنهم في حالهم هذه أنهم يودون أن لو كانوا أطاعوا الله وأطاعوا الرسول في الدنيا، ﴿وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلاً﴾ يعني الأشراف وكبراءنا، يعني الزعماء والعلماء. وخالفنا الرسل، واعتقدنا أن عندهم شيئاً وأنهم على شيء، فإذا هم ليسوا على شيء، ﴿ربنا آتهم ضعفين من العذاب﴾ أي بكفرهم وإغوائهم

إيانا، ﴿والعنهم لعناً كبيراً﴾.^(١)

الأمر بطاعة الرسول ﷺ:

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ۖ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾^(٧٠) [الأحزاب].

يقول تعالى آمراً عباده المؤمنين بتقواه وأن يعبدوه عبادة مَنْ كأنه يراه، وأن يقولوا ﴿قولاً سديداً﴾ أي مستقيماً لا اعوجاج فيه ولا انحراف. ووعدهم أنهم إذا فعلوا ذلك أثابهم عليه بأن يصلح لهم أعمالهم أي يوفقهم للأعمال الصالحة، وأن يغفر لهم الذنوب الماضية، وما قد يقع منهم في المستقبل يلهمهم التوبة منها. ثم قال تعالى: ﴿ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيماً﴾ طاعة رسول الله ﷺ فوز عظيم، وذلك أنه يُجار من نار الجحيم ويصير إلى النعيم المقيم.

عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: صلى بنا رسول الله ﷺ صلاة الظهر، فلما انصرف أوماً إلينا بيده فجلسنا، فقال ﷺ: إن الله تعالى أمرني أن أمركم أن تتقوا الله وتقولوا قولاً سديداً، ثم أتى النساء فقال: إن الله أمرني أن أمركم أن تتقين الله وتقلن قولاً سديداً.^(٢)

وروي عن عائشة رضي الله عنها: ما قام رسول الله ﷺ على المنبر إلا سمعته يقول: ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولاً سديداً﴾ الآية.

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١٠/٣٣٥ - ٣٣٦؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٥٢٦ - ١٥٢٧.

(٢) انظر: الهيثمي، مجمع الزوائد، ج ٧/٩٤، ج ١٠/٢٣٣، نقلاً عن الإمام أحمد.

عن ابن عباس رضي الله عنهما موقوفاً: "من سره أن يكون أكرم الناس فليتق الله.
وروي القول السديد لا إله إلا الله" والسديد الصدق والحق.^(١)

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١٠/٣٣٨؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٥٢٨ - ١٥٢٩.

سورة سبأ

الرد على منكري البعث:

قال تعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عِلْمُ الْغَيْبِ لَا يُعْزِبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٢﴾ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رَّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿٥﴾ وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٦﴾ ﴾ [سبأ].

هذه الآية مما أمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يقسم بربه العظيم على وقوع: المعاد؛ لما أنكره من أنكره من أهل الكفر والعناد، فقال تعالى: ﴿قل بلى وربى لتأتينكم﴾ ثم وصفه بما يؤكد ذلك ويقرره، فقال تعالى: ﴿عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين﴾.

لا يعزب عنه لا يغيب عنه، أي الجميع مندرج تحت علمه، فلا يخفى عليه شيء، فالعظام وإن تلاشت وتفرقت وتمزقت فهو عالم أين ذهبت، وأين تفرقت، ثم يعيدها كما بدأها أول مرة، فإنه بكل شيء عليم. ثم بين تعالى حكمته في إعادة الأبدان وقيام الساعة بقوله تعالى: ﴿ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة ورزق كريم والذين سعوا في آياتنا معاجزين﴾ أي سعوا في الصد عن سبيل الله تعالى وتكذيب رسله، ﴿أولئك

لهم عذاب من رجز أليم ﴿أي لينعم السعداء من المؤمنين ويعذب الأشقياء من الكافرين.

وقوله تعالى: ﴿ويرى الذين أوتوا العلم الذي أنزل إليك من ربك هو الحق﴾ هذه حكمة أخرى معطوفة على التي قبلها، وهي أن المؤمنين بما أنزل على الرسل إذا شاهدوا قيام الساعة ومجازاة الأبرار والفجار بالذي كانوا قد علموه من كتب الله تعالى في الدنيا رأوه حينئذ عين اليقين. العزيز هو المنيع الجنب الذي لا يغالب ولا يمانع، بل قد قهر كل شيء وغلبه، الحميد في جميع أقواله وأفعاله وشرعه وقدره، وهو المحمود في ذلك كله جل وعلا.^(١)

بيان قدرة الله على البعث:

قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يَنْبِئُكُمْ إِذَا مُرِّقْتُمْ كُلَّ مُمَرِّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٧﴾ أَفَتَرَىٰ عَلَىٰ اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ ﴿٨﴾ أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِن نَّشَاءُ نَحْصِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطَ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٩﴾﴾ [سبأ].

هذا إخبار من الله ﷻ عن استبعاد الكفرة الملحدين قيام الساعة، واستهزائهم بالرسول ﷺ في إخباره بذلك. ﴿وقال الذين كفروا هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مزقتم كل ممزق﴾ أي تفرقت أجسادكم في الأرض وذهبت فيها كل مذهب، وتمزقت كل ممزق ﴿إنكم﴾ أي بعد هذا الحال ﴿لفي خلق جديد﴾ أي تعودون أحياء ترزقون بعد ذلك، حيث لبس عليه كما يلبس على المعتوه والمجنون.

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١٠/ ٣٤٥ - ٣٤٧؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/ ١٥٣١ - ١٥٣٢.

ولهذا قالوا: ﴿أفترى على الله كذباً أم به جنة﴾، قال الله ﷻ راداً عليهم: ﴿بل الذين لا يؤمنون بالآخرة في العذاب والضلال البعيد﴾ أي ليس الأمر كما زعموا، ولا كما ذهبوا إليه، بل محمد ﷺ هو الصادق البار الراشد، الذي جاء بالحق. وهم الكذبة الجهلة الأغبياء ﴿في العذاب﴾ فالكفر يفضي بهم إلى عذاب الله تعالى ﴿والضلال البعيد﴾ عن الحق في الدنيا.

ثم قال تعالى منبها لهم على قدرته في خلق السماوات والأرض: ﴿أفلم يروا إلى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض﴾ أي حيثما توجهوا وذهبوا، فالسمااء مظلة عليهم، والأرض تحتهم، فإنك إن نظرت عن يمينك، أو عن شمالك، أو من بين يديك، أو من خلفك، رأيت السماء والأرض.

وقوله تعالى: ﴿إن نشأ نخسف بهم الأرض أو نسقط عليهم كسفاً من السماء﴾ أي لو شئنا لفعلنا بهم ذلك؛ بظلمهم وقدرتنا عليهم، ولكن نؤخر ذلك لحلمنا وعفونا.

ثم قال: ﴿إن في ذلك لآية لكل عبد منيب﴾. ﴿منيب﴾ تائب مقبل إلى الله تعالى، وفي النظر إلى خلق السماوات والأرض دلالة لكل عبد فطن لبيب رجاء إلى الله، يعرف قدرة الله تعالى على بعث الأجساد ووقوع المعاد؛ لأن من قدر على خلق هذه السماوات في ارتفاعها واتساعها، وهذه الأرضين في انخفاضها، وأطوالها وأعراضها، فإنه لقادر على إعادة الأجسام ونشر الرميم من العظام.^(١)

تأكيد عدم ملك المعبودين من دون الله شيء:

قال تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١٠/٣٤٧ - ٣٤٩؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٥٣٢.

فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍَ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ، حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾ [سبأ].

بين ﷺ أنه الإله الواحد الأحد الفرد الصمد، الذي لا نظير ولا شريك له، بل هو المستقل بالأمر وحده من غير مشارك ولا منازع ولا معارض، فقال تعالى: ﴿قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي من الآلهة التي عبدتم من دونه ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾. وقوله تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍَ﴾ أي لا يملكون شيئاً استقلالاً ولا على سبيل الشراكة، ﴿وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ﴾ أي وليس لله من هذه الأنداد من ظهير يستظهر به في الأمور، بل الخلق كلهم فقراء إليه عبيد لديه. وفي قوله تعالى: ﴿وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ﴾ من عون يعينه بشيء.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ أي لعظمته وجلاله وكبريائه لا يجترئ أحد أن يشفع عنده تعالى في شيء إلا بعد إذنه له في الشفاعة.

وثبت في الصحيحين من غير وجه عن رسول الله ﷺ وهو سيد ولد آدم، وأكبر شافع عند الله تعالى أنه حين يقوم المقام المحمود ليشفع في الخلق كلهم أن يأتي ربهم لفصل القضاء. قال ﷺ: ((فأسجد لله تعالى فيدعني ما شاء الله أن يدعني، ويفتح علي بمحامد لا أحصيها الآن، ثم يقال: يا محمد ارفع رأسك وقل تسمع، وسل تعطه، واشفع تشفع))... الحديث^(١).

(١) سبق تخريجه.

وقوله تعالى: ﴿حتى إذا فُزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق﴾ وهذا أيضاً مقام رفيع في العظمة، وهو أنه تعالى إذا تكلم بالوحي فسمع أهل السماوات كلامه أرعدوا من الهيبة ﴿حتى إذا فُزع عن قلوبهم﴾ أي زال الفزع عنها، وجُلَى عن قلوبهم، فإذا كان كذلك سأل بعضهم بعضاً: ماذا قال ربكم؟ فيخبر بذلك حملة العرش للذين يلونهم ثم الذين يلونهم لمن تحتهم، حتى ينتهي الخبر إلى أهل السماء الدنيا. ولهذا قال تعالى: ﴿قالوا الحق﴾ أي أخبروا بما قال من غير زيادة ولا نقصان ﴿وهو العلي الكبير﴾.

وقال آخرون: بل معنى قوله تعالى: ﴿حتى إذا فُزع عن قلوبهم﴾ يعني المشركين عند الاحتضار ويوم القيامة إذا استيقظوا مما كانوا فيه من الغفلة في الدنيا، ورجعت إليهم عقولهم يوم القيامة قالوا: ماذا قال ربكم؟ فقيل لهم الحق، وأخبروا به مما كانوا عنه لاهين في الدنيا، حين يكشف عنها الغطاء يوم القيامة. وقيل يعني ما فيها من الشك والتكذيب، وفارقتهم أمانيتهم وما كان يضلهم ﴿قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق وهو العلي الكبير﴾، وقيل هذا عند الموت، أقرروا حين لا ينفعهم الإقرار.

روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه يقول: ((إن نبي الله ﷺ قال: إذا قضى الله تعالى الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعانا لقوله كأنه سلسلة على صفوان، فإذا فُزع عن قلوبهم قالوا: ماذا قال ربكم؟ قالوا للذي قال الحق وهو العلي الكبير، فيسمعها مسترق السمع. ومسترق السمع هكذا بعضه فوق بعض، فيسمع الكلمة فيلقيها إلى من تحته، ثم يلقيها الآخر إلى من تحته، حتى يلقيها على لسان الساحر أو الكاهن. فربما أدركه الشهاب قبل أن يلقيها، وربما ألقاها قبل أن يدركه، فيكذب معها مئة كذبة، فيقال أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا كذا وكذا؟ فيصدق

بتلك الكلمة التي سمعت من السماء)).^{(١) (٢)}

ضعف المشركين وما يعبدون:

قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ٢٤﴾ قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ٢٥ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ٢٦﴾ قُلْ أَرُونِي الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ٢٧﴾ [سبا].

يقول تعالى مقررًا تفردّه بالخلق والرزق وانفردّه بالإلهية أيضًا، فكما كانوا يعترفون بأنهم لا يرزقهم من السماء والأرض، أي بما ينزل من المطر وينبت من الزرع إلا الله، فكذلك فليعلموا أنه لا إله غيره.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ أي واحد من الفريقين محق، والآخر مبطل لا سبيل إلى أن تكونوا أنتم ونحن على الهدى أو على الضلال، فواحد منا مصيب، ونحن قد أقمنا البرهان على التوحيد، فدل على بطلان ما أنتم عليه من الشرك بالله تعالى، ولهذا قال تعالى: ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾. وقد قال ذلك محمد ﷺ وأصحابه للمشركين: "والله ما نحن وإياهم على أمر واحد إن أحد الفريقين لمهتد".

وقوله تعالى: ﴿قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ معناه التبرؤ منهم، أي لستم منا ولا نحن منكم، بل ندعوكم إلى الله تعالى وإلى توحيدة وإفراد العبادة له، فإن أجبتهم فأنتم منا ونحن منكم، وإن كذبتهم

(١) صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب قوله تعالى: (إلا من استرق السمع فأتبعه شهاب مبين)، ج ٢٢١/٥.

(٢) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١٠/٣٧١ - ٣٧٥؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٥٤٠ - ١٥٤٢.

فنحن بُرَاء منكم وأنتم برآء منا. وقوله تعالى: ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا﴾ أخبرهم يا محمد أن الله يوم القيامة يجمع بين الخلائق في صعيد واحد، ثم يفتح بيننا بالحق، أي يحكم بيننا بالعدل، فيجزي كل عامل بعمله إن خيراً فخير وإن شراً فشر، وستعلمون يومئذ لمن العزة والنصر والسعادة الأبدية. ﴿وهو الفتاح العليم﴾ أي الحاكم العادل العالم بحقائق الأمور.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرُونِي الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ﴾ أي أروني هذه الآلهة التي جعلتموها لله أنداداً وصيرتموها له عدلاً، ﴿كَلَّا﴾ أي ليس له نظير ولا ند ولا شريك ولا عدل. ولهذا قال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ اللَّهُ﴾ أي الواحد الأحد الذي لا شريك له ﴿العزيز الحكيم﴾ ذو العزة الذي قد قهر بها كل شيء وغلبت كل شيء، الحكيم في أفعاله وأقواله وشرعه وقدره، وتقدس عما يقولون علواً كبيراً، والله أعلم.^(١)

رسالته ﷺ لكافة الناس:

قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٢٨) وَيَقُولُونَ مَتَى هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٩﴾ قُلْ لَّكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لَا تَسْتَجِزُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾ [سبأ].

يقول تعالى لعبده ورسوله محمد ﷺ تسليماً: ﴿وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً﴾ إلى جميع الخلائق من المكلفين تبشر من أطاعك بالجنة وتنذر من عصاك بالنار ﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ يعني إلى الناس عامة. حيث أرسل الله تعالى نبيه محمداً ﷺ إلى العرب والعجم، فأكرمهم على الله ﷻ أطوعهم لله تعالى.

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١٠/٣٧٥ - ٣٧٧؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٥٤٢.

عن ابن عباس رضي الله عنه يقول: إن الله تعالى فضل محمدًا ﷺ على أهل السماء وعلى الأنبياء. قالوا: يا ابن عباس فيم فضله على الأنبياء؟ قال ﷺ: إن الله تعالى قال: ﴿وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم﴾، وقال للنبي ﷺ: ﴿وما أرسلناك إلا كافة للناس﴾ فأرسله الله تعالى إلى الجن والإنس.

عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((أعطيت خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي: نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، فأَيُّما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل، وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي، وأعطيت الشفاعة. وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة)).^(١)

وفي الحديث أن رسول الله ﷺ قال: ((بعثت إلى كل أحرر وأسود)).^(٢)

ثم قال تعالى مخبراً عن الكفار في استبعادهم قيام الساعة: ﴿ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين﴾، ثم قال تعالى: ﴿قل لكم ميعاد يوم لا تستأخرون عنه ساعة ولا تستقدمون﴾ أي لكم ميعاد مؤجل معدود محرر لا يزداد ولا ينقص، فإذا جاء فلا يؤخر ساعة ولا يقدم.^(٣)

المترفون وجحودهم:

قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِء

(١) صحيح البخاري، كتاب الصلاة، باب: قول النبي ﷺ (جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً)، ج ١١٣/١؛ وانظر: صحيح مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، مقدمة - كتاب المساجد ومواضع الصلاة، ج ٦٣/٢.

(٢) والحديث من رواية صحيح مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، مقدمة - كتاب المساجد ومواضع الصلاة، ج ٦٣/٢؛ مسند الإمام أحمد، ج ١٦١/٥ - ١٦٢.

(٣) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١٠/٣٧٧ - ٣٧٨؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٥٤٢ - ١٥١٣.

كُفِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَن ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضَّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾ وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي ءَايَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِن عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ، وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ، وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٣٩﴾ [سبأ].

يقول تعالى مسلماً لنبيه ﷺ وأمرًا بالتأسي بمن قبله من الرسل، ومخبره بأنه ما بعث نبياً في قرية إلا كذبه مترفوها واتبعه ضعفاؤهم. ﴿وما أرسلنا في قرية من نذير﴾ أي نبي أو رسول ﴿إلا قال مترفوها﴾ وهم أولو النعمة والحشمة والثروة والرياسة، من جبابرتهم وقادتهم ورؤوسهم في الشر ﴿إنا بما أرسلتم به كافرون﴾ أي لا نؤمن به وهكذا قال هرقل لأبي سفيان حين سأله عن تلك المسائل قال فيها: وسألتك أضعفاء الناس يتبعه أم أشرافهم؟ فزعمت بل ضعفاؤهم وهم أتباع الرسل.^(١)

وقال تعالى إخباراً عن المترفين المكذبين: ﴿وقالوا نحن أكثر أموالاً وأولاداً وما نحن بمُعذِّبين﴾ أي افتخروا بكثرة الأموال والأولاد، واعتقدوا أن ذلك دليل على محبة الله تعالى لهم واعتنائه بهم، وأنه ما كان ليعطيهم هذا في الدنيا ثم يعذبهم في الآخرة. وهيهات لهم ذلك.

ولهذا قال ﷺ ها هنا: ﴿قل إن ربي يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر﴾ أي يعطي المال لمن يحب ومن لا يحب، فيفقر من يشاء ويغني من يشاء. وله الحكمة التامة البالغة والحجة القاطعة الدامغة ﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾.

(١) انظر: رواية البخاري في صحيحه، كتاب بدء الوحي، كتاب النبي ﷺ إلى هرقل، ج ٥/١.

ثم قال تعالى: ﴿وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقرّبكم عندنا زلفى﴾^(١) أي ليست هذه دليلاً على محبتنا لكم ولا اعتنائنا بكم.

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: ((إن الله تعالى لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن إنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم)).^(٢)

ولهذا قال الله تعالى: ﴿إلا من آمن وعمل صالحاً﴾ أي إنما يقربكم عندنا زلفى الإيمان والعمل الصالح، ﴿فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا﴾ أي تضاعف لهم الحسنة بعشر أمثالها إلى سبع مئة ضعف، ﴿وهم في الغرفات آمنون﴾ أي في منازل الجنة العالية آمنون من كل بأس وخوف وأذى، ومن كل شر يحذر منه.

ويقول تعالى: ﴿والذين يسعون في آياتنا معاجزين﴾ أي يسعون في الصدّ عن سبيل الله واتباع رسله والتصديق بآياته ﴿فأولئك في العذاب محضرون﴾ أي جميعهم مجزيون بأعمالهم فيها بحسبهم.

وقوله تعالى: ﴿قل إن ربي يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له﴾ أي بحسب ماله في ذلك من الحكمة، يبسط على هذا من المال كثيراً. ويضيق على هذا ويقتصر على رزقه. وله في ذلك من الحكمة ما لا يدركها غيره.

قال ﷺ: ((قد أفلح من أسلم ورزق كفافاً وقنعه الله بما آتاه)).^(٣)

وقوله تعالى: ﴿وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه﴾ أي مهما أنفقتم من شيء فيما أمركم به وأباحه لكم، فهو يخلفه عليكم في الدنيا بالبدل، وفي

(١) صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره ودمه وعرضه وماله، ج ٨/١١.

(٢) صحيح مسلم، كتاب الزكاة، باب في الكفاف والقناعة، ج ٣/١٠٢.

الآخرة بالجزاء والثواب. وثبت في الحديث يقول الله تعالى: أنفق أنفق عليك.^(١)

وفي الحديث أن ملكين يصبحان كل يوم يقول أحدهما: ((اللهم أعط ممسكاً تلفاً، ويقول الآخر: اللهم أعط منفقاً خلفاً)).^(٢)

وقال رسول الله ﷺ: ((أنفق بلائاً، ولا تخشى من ذي العرش إقللاً)).^(٣)

وعن حذيفة رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((ألا إن بعد زمانكم هذا زمان عضوض، يعض الموسر على ما في يده حذار الإنفاق)).^(٤)

قال الله تعالى: ﴿وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه وهو خير الرازقين﴾.

وفي الأثر: إذا كان عند أحدكم ما يقيمه، فليقصد فيه، فإن الرزق مقسوم.^(٥)

صدهم عن رسول الله ﷺ وما جاء به:

قال تعالى: ﴿وَإِذَا نَتَلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانُ يَعْبُدُونَ آبَاءَكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِفْكٌ مُّفْتَرٍ ۚ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۚ﴾^(٤٣) وَمَا آتَيْنَهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ

(١) صحيح مسلم، كتاب الزكاة، باب الحث على النفقة وتبشير المنفق بالخلف، ج ٣/ ٧٧.

(٢) صحيح البخاري، كتاب الزكاة، باب قول الله تعالى: (فأما من أعطى واتقى. وصدق بالحسنى. فسنيسره لليسرى) (اللهم أعط منفق مال خلفاً)، ج ٢/ ١٢٠؛ صحيح مسلم، كتاب الزكاة، باب في المنفق والممسك، ج ٣/ ٨٣ - ٨٤.

(٣) الحديث صححه الألباني وأورده في السلسلة الصحيحة برقم: ٢٦٦١.

(٤) انظر: ابن كثير، تفسيره، ج ٢/ ١٥٤٥؛ سنن أبي داود، باب في بيع المضطر، ص ٦٠٩، حديث رقم: ٣٣٨٢.

(٥) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١٠/ ٣٨٠ - ٣٨٢؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/ ١٥٤٤ - ١٥٤٥.

نَذِيرٌ ﴿٤٤﴾ وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَّغُوا مِعْشَارَ مَا ءَاتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾ [سبأ].

يخبر الله تعالى عن الكفار أنهم يستحقون منه العقوبة والأليم من العذاب؛ لأنهم كانوا إذا تتلى عليهم آياته بينات يسمعونها غضة طرية من لسان رسوله ﷺ ﴿قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ﴾، يعنون أن دين آبائهم هو الحق، وأن ما جاءهم به الرسول عندهم باطل، عليهم وعلى آبائهم المشركون لعائن الله تعالى. ﴿وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِفْكٌ مُفْتَرٍ﴾ يعنون القرآن ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مَبِينٌ﴾. قال الله تعالى: ﴿وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ كِتَابٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ﴾ أي ما أنزل الله على العرب من كتاب قبل القرآن وما أرسل إليهم نبي قبل محمد ﷺ وقد كانوا يودون ذلك ويقولون: لو جاءنا نذير أو أنزل علينا كتاب لكنا أهدي من غيرنا. فلما من الله عليهم بذلك كذبوه وجحدوه وعاندوه.

ثم قال تعالى: ﴿وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي من الأمم، ﴿وَمَا بَلَّغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ﴾ من القوة في الدنيا. ولهذا قال تعالى: ﴿فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾، أي فكيف كان عقابي ونكالي وانتصاري لرسلي.^(١)

الدفاع عن رسول الله ﷺ:

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلَ خِيَلِكُمْ وَمِنْ فَرْدٍ ثُمَّ تَنْفَكُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ ﴿٤٦﴾ [سبأ].

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١٠/ ٣٨٣ - ٣٨٤؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/ ١٥٤٥ - ١٥٤٦.

يقول تعالى: قل يا محمد لهؤلاء الكافرين الزاعمين أنك مجنون: ﴿إنما أعظكم بواحدة﴾ أي إنما أمركم بواحدة، وهي ﴿أن تقوموا لله مثنى وفردى ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جنة﴾ أي تقوموا قياماً خالصاً لله سبحانه من غير هوى ولا عصبية، فيسأل بعضكم بعضاً: هل بمحمد من جنون. فينصح بعضكم بعضاً. وقوله تعالى: ﴿إن هو إلا نذير لكم بين يدي عذاب شديد﴾.

عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: ((صعد النبي ﷺ الصفا ذات يوم فقال: يا صباحاه، فاجتمعت إليه قريش، فقالوا: ما لك؟ فقال ﷺ: أرايتم لو أخبرتكم أن العدو يصبحكم أو يمسيكم أما كنتم تصدقوني. قالوا: بلى، قال ﷺ: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد. فقال أبو لهب: تباً لك ألهذا جمعتنا. فأنزل الله تعالى ﴿تبت يدا أبي لهب وتب﴾^(١)).

نزاهة الرسول ﷺ وصدقه:

قال تعالى: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنَّ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾^(٤٧) قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَٰمُ الْغُيُوبِ^(٤٨) قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِيُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ^(٤٩) قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فِيمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ^(٥٠) [سبأ].

يقول تعالى أمراً رسوله ﷺ أن يقول للمشركين: ﴿ما سألتكم من أجر فهو لكم﴾ أي لا أريد منكم جُعلاً ولا عطاءً على أداء رسالة

(١) صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب قوله تعالى: (إن هو إلا نذير لكم بين يدي عذاب شديد)، ج ٢٩/٦.

(٢) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١٠/٣٨٤ - ٣٨٥؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٥٤٦.

الله تعالى إليكم ونصحي إياكم وأمركم بعبادة الله، ﴿إن أجري إلا على الله﴾ أي إنما أطلب ثواب ذلك من عند الله، ﴿وهو على كل شيء شهيد﴾ أي عالم بجميع الأمور بما أنا عليه من إخباري عنه بإرساله إياي إليكم وما أنتم عليه.

وقوله ﷺ: ﴿قل إن ربي يقذف بالحق علام الغيوب﴾ أي يبطل الباطل، وهو علام الغيوب فلا تخفى عليه خافية في السماوات ولا في الأرض.

وقوله ﷺ: ﴿قل جاء الحق وما يبدئ الباطل وما يعيد﴾ أي جاء الحق من الله والشرع العظيم، وذهب الباطل وزهق واضمح.

لما دخل رسول الله ﷺ المسجد الحرام يوم الفتح، ووجد تلك الأصنام منصوبة حول الكعبة جعل يطعن الصنم منها بسية قوسه [أطرافه] ويقرأ ﴿وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً﴾ [الإسراء: ٨١] ﴿قل جاء الحق وما يبدئ الباطل وما يعيد﴾^(١) أي لم يبق للباطل مقالة ولا رئاسة ولا كلمة.

وقوله تعالى: ﴿قل إن ضللت فإنما أضل على نفسي وإن اهتديت فبما يوحي إلي ربي﴾ أي الخير كله من عند الله، وفيما أنزل الله ﷻ من الوحي والحق المبين فيه الهدى والبيان والرشاد. ومن ضل فإنما يضل من تلقاء نفسه. وقوله تعالى: ﴿إنه سميع قريب﴾ أي سميع لأقوال عباده قريب يجيب دعوة الداعي إذا دعاه.

(١) انظر: صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب: (وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً)، ج ٢٢٨/٥؛ وانظر: ابن أبي شيبة، المغازي، ص ٣٣٣؛ كتابي "رسول الله وخاتم النبيين"، ج ٨٠٣/٣.

عن أبي موسى رضي الله عنه: ((إنكم لا تدعون أصم ولا غائباً، إنما تدعون سميعاً قريباً مجيباً)).^{(١) (٢)}

وصف الله له ﷻ وللأمة حال الكفار يوم القيامة:

قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَزَعُوا فَلَا قُوَّةَ وَأُخِذُوا مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ ۖ وَقَالُوا ءَامَنَّا بِهِ ؕ وَأَنَّىٰ لَهُمُ التَّنَاقُشُ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ ۖ وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ ؕ مِنْ قَبْلُ وَيَقْدِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ ۖ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ ۖ﴾ [سبأ].

يقول تعالى: ولو ترى يا محمد إذ فزع هؤلاء المكذبون يوم القيامة فلا قوت أي فلا مفر لهم ولا وزر لهم ولا ملجأ ﴿وأخذوا من مكان قريب﴾ أي لم يمكنوا أن يمعنوا في الهرب، بل أخذوا من أول وهلة. المراد بذلك حين خروجهم من قبورهم ليوم القيامة، وهو الطامة العظمى.

﴿وقالوا آمنا به﴾ أي يوم القيامة، يقولون: آمنا بالله وملائكته وكتبه ورسله، قال تعالى: ﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ التَّنَاقُشُ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ أي وكيف لهم تعاطي الإيمان وقد بعدوا عن محل وزمن قبوله منهم، وصاروا إلى الدار الآخرة، وهي دار الجزاء لا دار الابتلاء، فلو كانوا آمنوا في الدنيا لكان ذلك نافعهم، ولكن بعد مصيرهم إلى الدار الآخرة لا سبيل لهم إلى قبول الإيمان، كما لا سبيل إلى حصول الشيء لمن يتناوله من بعيد.

(١) صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب ما يكره من رفع الصوت في التكبير، ج ١٦/٤؛ صحيح مسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب استحباب خفض الصوت بالذكر، ج ٧٣/٨.

(٢) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٣٨٥/١٠ - ٣٨٦؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١٥٤٦/٢ - ١٥٤٧.

قال مجاهد: ﴿وَأَنى لَهُم التَّناوُشُ﴾ تناولهم الإيمان وهم في الآخرة، وقد انقطعت عنهم الدنيا.

قال ابن عباس رضي الله عنه: طلبوا الرجعة إلى الدنيا والتوبة مما هم فيه، وليس بحين رجعة ولا توبة.

وقوله تعالى: ﴿وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ﴾ أي كيف يحصل لهم الإيمان في الآخرة وقد كفروا بالحق في الدنيا وكذبوا الرسول، ﴿وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ بالظن، فتارة يقولون شاعر، وتارة يقولون كاهن، وتارة يقولون ساحر، وتارة يقولون مجنون، إلى غير ذلك من الأقوال الباطلة. ويكذبون بالبعث والنشور والمعاد يرحمون بالظن بأنه لا بعث ولا جنة ولا نار.

وقوله تعالى: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ يعني التوبة الإيمان. وما في هذه الدنيا من مال وزهرة وأهل، فمنعوا منه. والكفار كلهم يتوفون وأرواحهم متعلقة بالحياة الدنيا.

وقوله تعالى: ﴿كَمَا فَعَلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ﴾ أي كما جرى للأمم الماضية المكذبة بالرسول لما جاءهم بأس الله تمنوا أن لو آمنوا فلم يقبل منهم. وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ﴾ أي كانوا في الدنيا في شك وريبة. فلهذا لم يتقبل منهم الإيمان عند معاينة العذاب. فمن مات على شك بعث عليه، ومن مات على يقين بعث عليه.^(١)

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١٠/٣٨٦ - ٣٩٢؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٥٤٦ - ١٥٤٨.

سورة فاطر

الدفاع عنه ﷺ أمام المكذبين:

قال تعالى: ﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ۝٤ يَتَأْتِيَ النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ ۝٥ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ۝٦﴾ [فاطر].

يقول ﷺ: وإن يكذبك يا محمد هؤلاء المشركون بالله يُخالفوك فيما جئتهم به من التوحيد فلك فيمن سلف قبلك من الرسل أسوة، فإنهم كذلك جاءوا قومهم بالبينات وأمروهم بالتوحيد فكذبوهم وخالفوهم، ﴿والى الله ترجع الأمور﴾ أي وسنجزئهم على ذلك جزاء الحق.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ أي المعاد كائن لا محالة ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ أي العيشة الدنيئة بالنسبة إلى ما أعد الله لأوليائه وأتباع رسله من الخير العظيم، فلا تتلهوا عن ذلك الباقي بهذه الزهرة الفانية ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾ وهو الشيطان، قاله ابن عباس ؓ، أي لا يفتننكم الشيطان ويصرفنكم عن اتباع رسول الله ﷺ وتصديق كلماته، فإنه غرَّار كذاب أفاك.

ثم بين تعالى عداوة إبليس لابن آدم فقال: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ أي هو مبارز لكم بالعداوة فعادوه أنتم أشد العداوة وخالفوه وكذبوه فيما يغركم به، ﴿إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾

أي إنما يقصد أن يضلّكم حتى تدخلوا معه إلى عذاب السعير. فهذا هو العدو المبين نسأل الله القوي العزيز أن يجعلنا أعداء الشيطان وأن يرزقنا اتباع كتاب الله، والاقتفاء بطريق رسله، إنه على ما يشاء قدير وبالإجابة جدير.^(١)

إنذاره ﷺ لمن يخشى الله بالغيب:

قال تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ جَمِلِهَا لَا يَحْمِلُ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۚ إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ ۚ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ (١٨) [فاطر].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ أي يوم القيامة ﴿وإن تدع مثقلة﴾ إلى حملها ﴿أي وإن تدع نفس مثقلة بأوزارها﴾ إلى أن تساعد على حمل ما عليها من الأوزار أو بعضه ﴿لا يحمل منه شيء ولو كان ذا قربى﴾ أي وإن كان قريباً إليها حتى ولو كان أباهاً أو ابنها، كل مشغول بنفسه وحاله. فيقول: يا رب سل هذا لِمَ كان يغلق بابي دوني، وإن الكافر ليتعلق بالمؤمن يوم القيامة، فيقول له: يا مؤمن إن لي عندك يداً قد عرفت كيف كنت لك في الدنيا وقد احتجت إليك اليوم، فلا يزال المؤمن يشفع له عند ربه حتى يرده إلى منزل دون منزله، وهو في النار.

وإن الوالد ليتعلق بولده يوم القيامة فيقول: يا بني أي والد كنت لك، فيثني خيراً، فيقول له: يا بني إنني قد احتجت إلى مثقال ذرة من حسناتك أنجو بها مما ترى، فيقول له ولده: يا أبت ما أيسر ما طلبت، ولكنني أتخوف مثل ما تتخوف فلا أستطيع أن أعطيك شيئاً ... الحديث.

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١٠/٣٩٥ - ٣٩٦؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٥٤٩ - ١٥٥٠.

ثم قال ﷺ: ﴿إنما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب وأقاموا الصلاة﴾ أي إنما يتعظ بما جئت به يا محمد أولو البصائر والنهي، الخائفون من ربهم، الفاعلون ما أمرهم به ﴿ومن تزكى فإنما يتزكى لنفسه﴾ أي ومن عمل صالحاً فإنما يعود نفعه على نفسه ﴿والى الله المصير﴾ أي وإليه المرجع والمآب، وهو سريع الحساب، وسيجزى كل عامل بعمله إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.^(١)

هو ﷺ منذر كمن سبقه والله يسمع من يشاء:

قال تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ ۖ (١١) وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ۖ (١٢) وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ ۖ (١٣) وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ ۚ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ ۖ (١٤) إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ۖ (١٥) إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ۖ (١٦) وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ ۖ وَالزُّبُرِ ۖ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ۖ (١٧) ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ۖ (١٨)﴾ [فاطر].

كما لا تستوي هذه الأشياء المتباينة المختلفة كالأعمى والبصير لا يستويان، بل بينهما فرق وبون كثير، وكما لا تستوي الظلمات، ولا النور ولا الظل ولا الحرور كذلك لا يستوي الأحياء ولا الأموات، فالؤمن بصير سميع في نور يمشي على صراط مستقيم في الدنيا والآخرة حتى يستقر به الحال في الجنات ذات الظلال والعيون، والكافر أعمى وأصم في ظلمات يمشي لا خروج له منها، بل هو يتيه في غيه وضلاله في الدنيا والآخرة حتى يفضي به ذلك إلى الحرور والسموم والحميم.

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١٠/٤٠٥ - ٤٠٦؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٥٥٣.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَسْمَعُ مَنْ يَشَاءُ﴾ أي يهديهم إلى سماع الحجة وقبولها والانقياد لها. ﴿وَمَا أَنْتَ بِمَسْمُوعٍ مِنَ فِي الْقُبُورِ﴾ أي كما لا ينتفع الأموات بعد موتهم وصيرورتهم إلى قبورهم وهم كفار بالهداية والدعوة إليها، كذلك هؤلاء المشركون الذين كتب عليهم الشقاوة لا حيلة لك فيهم، ولا تستطيع يا محمد هدايتهم ﴿إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ أي إنما عليك البلاغ والإنذار، والله يضل من يشاء ويهدي من يشاء، ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ أي بشيرًا للمؤمنين ونذيرًا للكافرين، ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ أي وما من أمة خلت من بني آدم إلا وقد بعث الله تعالى إليهم النذر، وأزاح عنهم العلل، والآيات في هذا كثيرة.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَكْذِبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ وهي المعجزات الباهرات والأدلة القاطعات ﴿وَبِالْزُبُرِ﴾ وهي الكتب ﴿وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾ أي الواضح البين ﴿ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي ومع هذا كله كذب أولئك رسلهم فيما جاءوهم به، فأخذتهم أي بالعقاب والنكال ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ أي فكيف رأيت إنكاري عليهم عظيمًا شديدًا بليغًا.^(١)

تذكيره ﷺ بأيات الله في الكون:

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيَضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ۚ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَأَلْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ، كَذَلِكَ ۖ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ۝﴾ [فاطر].

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١٠/٤٠٦ - ٤٠٨؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٥٥٣ - ١٥٥٤.

يقول تعالى منبهاً على كمال قدرته في خلقه الأشياء المتنوعة المختلفة من الشيء الواحد، وهو الماء الذي ينزله من السماء، يخرج به ثمرات مختلفاً ألوانها من أصفر وأحمر وأخضر وأبيض، إلى غير ذلك من ألوان الثمار، كما هو المشاهد من تنوع ألوانها وطعومها وروائحها.

وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيْضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا﴾ أي وخلق الجبال كذلك مختلفة الألوان، كما هو المشاهد من بيض وحمر، وفي بعضها طرائق وهي الجدد جمع جدة، مختلفة الألوان أيضاً. قال ابن عباس (رضي الله عنه): الجدد الطرائق، ومنها غرابيب سود. الجبال الطوال السود، والعرب إذا وصفوا الأسود بكثرة السواد قالوا: أسود غريب.^(١)

تأكيد ما أنزل إليه:

قال تعالى: ﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ (٣١) [فاطر].

يقول تعالى: ﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ يا محمد من الكتاب وهو القرآن ﴿هو الحق مصدقاً لما بين يديه﴾ أي من الكتب المتقدمة بصدقها، كما شهدت له بالتتويه، وأنه منزل من رب العالمين ﴿إن الله بعباده لخبير بصير﴾ أي هو خير بهم بصير بمن يستحق ما يفضله به على من سواه، ولهذا فضل الأنبياء والرسل على جميع البشر، وفضل النبيين بعضهم على بعض، ورفع بعضهم درجات وجعل منزلة محمد ﷺ فوق جميعهم، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.^(٢)

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١٠/٤٠٨ - ٤٠٩؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٥٥٤.

(٢) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١٠/٤١٠ - ٤١١؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٥٥٥.

تأكيد بطلان الشرك وأهله:

قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَمْ آتَيْنَهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْهُ بَلْ إِنَّ عِدَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا﴾ (٤٠) [فاطر].

يقول تعالى لرسوله ﷺ أن يقول للمشركين: ﴿أرأيتم شركاءكم الذين تدعون من دون الله﴾ أي من الأصنام والأنداد ﴿أروني ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك في السماوات﴾ أي ليس لهم شيء من ذلك ما يملكون من قاطمير.

وقوله تعالى: ﴿أم آتيناهم كتاباً فهم على بينة منه﴾ أي أم أنزلنا عليهم كتاباً بما يقولونه من الشرك والكفر؟ ليس الأمر كذلك، ﴿بل إن يعد الظالمون بعضهم بعضاً إلا غروراً﴾ أي بل إنما اتبعوا في ذلك أهواءهم وآراءهم وأمانيتهم التي يمنوها لأنفسهم وهي غرور وباطل وزور.^(١)

تذكيره ﷺ بتكبر الكفار ومكرهم:

قال تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ (٤٢) ﴿أَسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرُ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئِ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَن تَجْدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجْدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ (٤٣) [فاطر].

يخبر تعالى عن قريش والعرب أنهم أقسموا بالله جهد أيمانهم قبل إرسال الرسول إليهم: ﴿لئن جاءهم نذير لَيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ﴾، أي من جميع الأمم الذين أرسل إليهم الرسل. قال الله تعالى: ﴿فلما جاءهم نذير﴾

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١٠/٤٢٠؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٥٦٠.

وهو محمد ﷺ بما أنزل معه من الكتاب العظيم، وهو القرآن المبين ﴿ما زادهم إلا نفوراً﴾ أي ما ازدادوا إلا كفرًا إلى كفرهم. ثم بين ذلك بقوله تعالى: ﴿استكبارا في الأرض﴾ استكبروا عن اتباع آيات الله ﴿ومكر السيئ﴾ أي ومكروا بالناس في صدهم إياهم عن سبيل الله ﴿ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله﴾ أي وما يعود وبال ذلك إلا عليهم أنفسهم دون غيرهم.

﴿إنما بغيكم على أنفسكم﴾. ﴿فهل ينظرون إلا سنت الأولين﴾ يعني عقوبة الله لهم على تكذيبهم رسله ومخالفتهم أمره ﴿فلن تجد لسنت الله تبديلاً﴾ أي لا تغير ولا تبدل، بل هي جارية كذلك في كل مكذب ﴿ولن تجد لسنت الله تحويلاً﴾.^(١)

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١٠/٤٢١ - ٤٢٢؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٥٦١.

سورة يس

تأكيد رسالته ﷺ وندارته:

قال تعالى: ﴿يَسَّ ١﴾ وَالْقُرْآنَ الْحَكِيمَ ٢ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ٣ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ٤ تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ٥ لِنُنْذِرَ قَوْمًا مَا أَنْذَرْنَا آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ٦ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ٧﴾ [يس].

روي عن ابن عباس ؓ أن يس بمعنى يا إنسان في لغة الحبشة، ﴿والقرآن الحكيم﴾ أي المحكم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ﴿إنك﴾ أي يا محمد ﴿لن المرسلين على صراط مستقيم﴾ أي على منهج ودين قويم وشرع مستقيم ﴿تنزيل العزيز الرحيم﴾ أي هذا الصراط والمنهج والدين الذي جئت به تنزيل من رب العزة الرحيم بعباده المؤمنين.

وقوله تعالى: ﴿لتنذر قوماً ما أنذر آباؤهم فهم غافلون﴾ يعني بهم العرب، فإنه ما أتاهم من نذير من قبله، وذكرهم وحدهم لا ينفي من عداهم، كما أن ذكر بعض الأفراد لا ينفي العموم.^(١)

إنذاره ﷺ لمن يخشى الله:

قال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِيْ أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُّقْمَحُونَ ٨ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ٩ وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ١٠﴾ إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١٠/٤٢٤ - ٤٢٦؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٥٦٢ - ١٥٦٣.

الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ فَبَشَّرَهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتِ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَرَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿١٢﴾ [يس].

يقول تعالى: إنا جعلنا هؤلاء المحتوم عليهم بالشقاء نسبتهم إلى الوصول إلى الهدى كنسبة من جعل في عنقه غل، فجمع يديه مع عنقه تحت ذقنه، فارتفع رأسه فصار مقمحا. ولهذا قال تعالى: ﴿فهم مقمحون﴾ والمقمح هو الرافع رأسه، كما قالت العرب وأرفع رأسي تهنيئا وترويا.

واكتفى بذكر الغل في العنق عن ذكر اليدين وإن كانتا مرادتين، وهكذا هذا لما كان الغل إنما يعرف فيما جمع اليدين مع العنق، اكتفى بذكر العنق عن اليدين. ويعني بذلك أن أيديهم موثقة إلى أعناقهم لا يستطيعون أن يبسطوها بخير.

﴿فهم مقمحون﴾ رافعي رؤوسهم، وأيديهم موضوعة على أفواههم، فهم مغلولون عن كل خير.

وقوله تعالى: ﴿وجعلنا من بين أيديهم سدا﴾ قالوا عن الحق: ﴿ومن خلفهم سدا﴾ عن الحق فهم يترددون. وقوله تعالى: ﴿فأغشيناهم﴾ أي أغشينا أبصارهم عن الحق ﴿فهم لا يبصرون﴾ أي لا ينتفعون بخير ولا يهتدون إليه. وقد جعل الله تعالى هذا السد بينهم وبين الإسلام والإيمان، فهم لا يخلصون إليه، والمقصود أبو جهل ومن على شاكلته.

وهو الذي قال: لئن رأيت محمدًا لأفعلن ولأفعلن، فأنزلت ﴿إنا جعلنا في أعناقهم أغلالاً﴾ - إلى قوله - ﴿فهم لا يبصرون﴾ وكانوا يقولون له هذا محمد، فيقول: أين هو أين هو؟ لا يبصره.

روي أن أبا جهل قال وهم جلوس: إن محمدًا يزعم أنكم إن تابعتموه

كنتم ملوكاً فإذا متم بعثتم بعد موتكم، وكانت لكم جنان خير من جنان الأردن، وأنكم إن خالفتموه كان لكم منه ذبح، ثم بعثتم بعد موتكم، وكانت لكم نار تعذبون بها.

وخرج عليهم رسول الله ﷺ عند ذلك وفي يده حفنة من تراب. وقد أخذ الله تعالى على أعينهم دونه، فجعل يذرهما على رؤوسهم ويقرأ ﴿يس والقرآن الحكيم﴾ - حتى انتهى إلى قوله تعالى -: ﴿وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً فأغشيناهم فهم لا يبصرون﴾ وانطلق رسول الله ﷺ لحاجته، وباتوا رسداً على بابه، حتى خرج عليهم بعد ذلك خارجاً من الدار، فقال: ما لكم؟ قالوا: ننتظر محمداً، قال: قد خرج عليكم فما بقي منكم من رجل إلا وضع على رأسه تراباً، ثم ذهب لحاجته، فجعل كل رجل منهم ينفذ ما على رأسه من التراب.^(١)

وقد بلغ النبي ﷺ قول أبي جهل فقال: وأنا أقول ذلك إن لهم مني لذبحاً وإنه أحدهم.

وقوله تعالى: ﴿وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون﴾ أي فقد ختم الله عليهم بالضلالة فما يفيد فيهم الإنذار ولا يتأثرون به. ﴿إنما تنذر من اتبع الذكر﴾ أي إنما ينتفع بإنذارك المؤمنون الذين يتبعون الذكر وهو القرآن العظيم، ﴿وخشي الرحمن بالغيث﴾ أي حيث لا يراه أحد إلا الله تعالى، يعلم أن الله مطلع عليه وعالم بما يفعل، ﴿فبشره بمغفرة﴾ أي لذنوبه ﴿وأجر كريم﴾ أي كثير واسع حسن جميل.

ثم قال ﷺ: ﴿إنا نحن نحي الموتى﴾ أي يوم القيامة، وفيه إشارة إلى أن الله

(١) انظر: كتابي "رسول الله وخاتم النبيين"، ج ٢/ ٤١٤.

تعالى يحيي قلب من يشاء من الكفار، الذين قد ماتت قلوبهم بالضلالة فيهديهم بعد ذلك إلى الحق. قال تعالى: ﴿ونكتب ما قدموا﴾ أي من الأعمال.

وفي قوله تعالى: ﴿وآثارهم﴾ نكتب أعمالهم التي باشروها بأنفسهم، وآثارهم التي آثروها من بعدهم، فتجزئهم على ذلك أيضاً إن خيراً فخير وإن شراً فشر، كقوله ﷺ: من سن في الإسلام سنة حسنة كان له أجرها، وأجر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيئاً. ومن سن في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيئاً.^(١)

وفي قوله تعالى: ﴿إنا نحن نحي الموتى ونكتب ما قدموا وآثارهم﴾ قال: ما أورثوا من الضلالة يعني ما أثروا، وما سنوا من سنة فعمل بها قوم من بعد موتهم، فإن كانت خيراً فلهم مثل أجورهم لا ينقص من أجر من عمل به شيئاً، وإن كانت شراً فعليهم مثل أوزارهم ولا ينقص من أوزار من عمل بها شيئاً. ومن آثار خطاهم إلى الطاعة أو المعصية، فالله يحصى على ابن آدم أثره وعمله كله فيما هو من طاعة الله تعالى أو من معصيته.

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: خلت البقاع حول المسجد، فأراد بنو سلمة أن ينتقلوا قرب المسجد، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فقال لهم: إنه بلغني أنكم تريدون أن تنتقلوا قرب المسجد؟ قالوا: نعم يا رسول الله قد أردنا ذلك، فقال ﷺ: "يا بني سلمة، دياركم تكتب آثاركم، دياركم تكتب

(١) صحيح مسلم، كتاب العلم، باب من سن سنة حسنة أو سيئة، ومن دعا إلى هدى أو ضلالة، ج ٦١/٨.

آثاركم".^(١)

وقوله تعالى: ﴿وكل شيء أحصيناه في إمام مبين﴾ أي وجميع الكائنات مكتوب في كتاب مسطور مضبوط في لوح محفوظ، والإمام المبين هاهنا هو أم الكتاب.^(٢)

ضرب مثلاً له ﷺ بأصحاب القرية:

قال تعالى: ﴿وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُم لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿١٧﴾ قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُوا طَيَّرْنَاكُمْ مَعَكُمْ أَيْنَ ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾﴾ [يس].

ويقول تعالى: واضرب يا محمد لقومك الذين كذبوك ﴿مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ﴾. عن ابن عباس ؓ: إنها مدينة أنطاكية. وكان بها ملك يعبد الأصنام، فبعث الله إليه ثلاثة من الرسل فكذبهم.

وقوله تعالى: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا﴾ أي بادروهما بالكذب، ﴿فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ﴾ أي قويناهما وشددنا إزهرهما برسول ثالث، ﴿فَقَالُوا﴾ أي لأهل تلك القرية ﴿إِنَّا إِلَيْكُم مَّرْسَلُونَ﴾ أي من ربكم الذي خلقكم يأمركم بعبادته وحده لا شريك له.

(١) صحيح مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب فضل كثرة الخطا إلى المساجد، ج ١٣١/٢.

(٢) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١٠ ٤٢٦ - ٤٣٠؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢ ١٥٦٣ - ١٥٦٥.

وقيل: إنهم كانوا رسل المسيح عليه السلام إلى أهل أنطاكية. ﴿قالوا ما أنتم إلا بشر مثلنا﴾ أي فكيف أوحى إليكم وأنتم بشر ونحن بشر، فلم لا أوحى إلينا مثلكم؟ ولو كنتم رسلاً لكنتم ملائكة. وهذه شبهة كثير من الأمم المكذبة أي استعجبوا من ذلك وأنكروه.

بالله تطيرتم بنا ، بل أنتم قوم مسرفون مفرطون.^(١)

الرد على منكري البعث:

قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ، قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظْمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ۗ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ۖ (٧٨) الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِّنْهُ تُوقَدُونَ ۗ﴾ [يس].

جاء أبي بن خلف - لعنه الله - إلى رسول الله ﷺ وفي يده عظم رميم، وهو يفته ويذروه في الهواء، وهو يقول: يا محمد أتزعم أن الله يبعث هذا؟ قال ﷺ: نعم يميئك الله تعالى ثم يبعثك ثم يحشرك إلى النار. ونزلت هذه الآيات من آخر يس ﴿أولم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة﴾ إلى آخر الآيات.^(٢)

وعن ابن عباس ؓ قال: إن العاص بن وائل أخذ عظاماً من البطحاء ففته بيده، ثم قال لرسول الله ﷺ: أحيي الله هذا ما بعد أرى؟ فقال رسول الله ﷺ: نعم يميئك الله ثم يحييك ثم يدخلك جهنم. ونزلت الآيات من آخر يس.^(٣)

ويمكن أن تذكر الحادثة من أكثر من واحد.

وسواء أكانت هذه الآيات قد نزلت في أبي بن خلف أم العاص بن وائل أم فيهما، فهي عامة في كل من أنكر البعث.

في قوله تعالى: ﴿أولم ير الإنسان﴾ للجنس يعم كل منكر للبعث ﴿أنا

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١٠/٤٣٠ - ٤٣٣؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٥٦٥ - ١٥٦٦.

(٢) انظر: ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٥٧٧ - ١٥٧٨.

(٣) انظر: الحاكم، المستدرک على الصحيحين، ج ٢/٤٦٦، حديث رقم: ٣٦٠٦.

خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين ﴿ أي أو لم يستدل من أنكر البعث بالبدء على الإعادة. أي: من نطفة من أخلاط متفرقة ، فالذي خلقه من هذه النطفة الضعيفة قادر على إعادته بعد موته.

قال تعالى: ﴿ وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم ﴾ ، أي استبعد إعادة الله تعالى ذي القدرة العظيمة التي خلقت السماوات والأرض للأجسام والعظام الرميمة ونسي نفسه ، وأن الله تعالى خلقه من العدم إلى الوجود ، فعلم من نفسه ما هو أعظم مما استبعده وأنكره وجحدته ، ولهذا قال ﷺ: ﴿ قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم ﴾ أي يعلم العظام في سائر أقطار الأرض وأرجائها ، أين ذهبت وأين تفرقت وتمزقت.

وقوله تعالى: ﴿ الذي جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فإذا أنتم منه توقدون ﴾ أي الذي بدأ.

خلق هذا الشجر من ماء حتى صار خضراً نضراً ذا ثمر وينع ، ثم أعاده إلى أن صار حطباً يابساً توقد به النار ، كذلك هو فعال لما يشاء سبحانه ، قادر على ما يريد لا يمنعه شيء.

وفي قوله تعالى: ﴿ الذي جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فإذا أنتم منه توقدون ﴾ يؤكد أن الذي أخرج هذه النار من هذا الشجر قادر على أن يبعثه. وقال الحكماء: في كل شجر نار.^(١)

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١٠/٤٦٣ - ٤٦٥؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٥٧٧ - ١٥٧٨.

سورة الصافات

الرد على الساخرين به ﷺ المنكرين للبعث:

قال تعالى: ﴿فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ ۝۱۱﴾
 بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ۝۱۲ وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ ۝۱۳ وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ ۝۱۴ وَقَالُوا إِن
 هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ۝۱۵ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا إِذْنَا لَمَبْعُوثُونَ ۝۱۶ أَوَءَابَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ۝۱۷ قُلْ
 نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ ۝۱۸ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ ۝۱۹﴾ [الصافات].

المعنى فسل يا محمد هؤلاء المنكرين للبعث أيهم أشد خلقاً هم أم السماوات والأرض وما بينهما من الملائكة والشياطين والمخلوقات العظيمة؟ فإنهم يقرون أن هذه المخلوقات أشد خلقاً منهم، وإذا كان الأمر كذلك فلم ينكروا البعث؟ وهم يشاهدون ما هو أعظم مما أنكروا. ثم بين أنهم خلقوا من شيء ضعيف، فقال تعالى: ﴿إنا خلقناهم من طين لازب﴾ اللزج الجيد، الذي يلزق باليد.

وقوله ﷺ: ﴿بل عجبك ويسخرون﴾ أي، بل عجبك يا محمد من تكذيب هؤلاء المنكرين للبعث، وأنت موقن مصدق بما أخبر الله تعالى من الأمر العجيب وهو إعادة الأجسام بعد فنائها، وهم بخلاف أمرك من شدة تكذيبهم، ويسخرون مما تقول لهم من ذلك.

﴿وإذا رأوا آية﴾ أي دلالة واضحة على ذلك ﴿يستسخرون﴾ يستهزئون ﴿وقالوا إن هذا إلا سحر مبين﴾ أي إن هذا الذي جئت به إلا سحر مبين ﴿إذا﴾

متنا وكنا تراباً وعظاماً إنا لمبعوثون أو أبأؤنا الأولون؟ ﴿يستبعدون ذلك ويكذبون به، ﴿قل نعم وأنتم داخرون﴾ أي قل لهم يا محمد نعم تبعثون يوم القيامة بعد ما تصيرون تراباً وعظاماً. وأنتم داخرون أي حقيرون تحت القدرة، ثم قال جلت عظمتها: ﴿فإنما هي زجرة واحدة فإذا هم ينظرون﴾ أي فإنما هو أمر واحد من الله سبحانه، يدعوهم دعوة واحدة أن يخرجوا من الأرض، فإذا هم بين يديه ينظرون إلى أهوال يوم القيامة. والله تعالى أعلم.^(١)

صدقه ﷺ:

قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ إِنَّا لَنَارِكُوا إِلَهَ تِنَا لَشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ﴾ (٣٦) ﴿بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَقَ الْمُرْسَلِينَ﴾ (٣٧) ﴿إِنَّكُمْ لَذَائِقُوا الْعَذَابِ الْأَلِيمِ﴾ (٣٨) [الصافات].

﴿ويقولون إنا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون﴾ أي أنحن نترك عبادة آلهتنا وآلهة آبائنا عن قول هذا الشاعر المجنون يعنون رسول الله ﷺ. قال الله تعالى تكذيباً لهم ورداً عليهم: ﴿بل جاء بالحق﴾ يعني رسول الله ﷺ جاء بالحق في جميع ما شرعه الله تعالى له من الأخبار والطلب، ﴿وصدق المرسلين﴾ أي صدقهم فيما أخبروا عنه من الصفات الحميدة، والمناهج السديدة. وأخبر عن الله تعالى في شرعه وأمره كما أخبروا، وسيكون العذاب لمن يتمسك بالكفر بالله ورسوله ﷺ.^(٢)

إعراضه عن المشركين وانتظاره ﷺ عليهم:

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ﴾ (١٧١) ﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ﴾ (١٧٢) ﴿وَلَإِنْ جُنَدْنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ (١٧٣) ﴿فَقَوْلَ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ (١٧٤) ﴿وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصَرُونَ﴾ (١٧٥) ﴿أَفِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ (١٧٦)

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١٠/٤٧٤ - ٤٧٨؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٥٨١.

(٢) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١٠/٤٨٣ - ٤٨٤؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٥٨٢ - ١٥٨٣.

فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ ﴿١٧٧﴾ وَتَوَلَّى عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصَرَ فَسَوْفَ يُبْصَرُونَ ﴿١٧٩﴾ [الصافات].

يقول تعالى: ﴿ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين﴾ أي تقدم في الكتاب الأول أن العقابة للرسول وأتباعهم في الدنيا والآخرة. ولهذا قال ﷺ: ﴿ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين إنهم لهم المنصورون﴾ أي في الدنيا والآخرة، كما تقدم بيان نصرتهم على قومهم ممن كذبهم وخالفهم، وكيف أهلك الله الكافرين ونجى عباده المؤمنين. ﴿وإن جندنا لهم الغالبون﴾ أي تكون لهم العقابة. وقوله ﷺ: ﴿فتول عنهم حتى حين﴾ أي اصبر على أذاهم لك وانتظر إلى وقت مؤجل، فإننا سنجعل لك العقابة والنصرة والظفر.

وقوله جلت عظمتة: ﴿وأبصرهم فسوف يبصرون﴾ أي أنظرهم وارقب ماذا يحل بهم من العذاب والنكال بمخالفتك وتكذيبك. ولهذا قال تعالى على وجه التهديد والوعيد: ﴿فسوف يبصرون﴾ ثم قال ﷺ: ﴿أفبعذابنا يستعجلون﴾ أي هم إنما يستعجلون العذاب؛ لتكذيبهم وكفرهم بك، فإن الله تعالى يغضب عليهم بذلك ويعجل لهم العقوبة، حيث كانوا من كفرهم وعنادهم يستعجلون العذاب والعقوبة.

قال الله تعالى: ﴿فإذا نزل بساحتهم﴾ بدارهم ومحلهم ﴿فساء صباح المنذرين﴾ فبئس ذلك الصباح وبئس ذلك اليوم يومهم بإهلاكهم ودمارهم.

عن أنس رضي الله عنه قال: صبح رسول الله ﷺ خيبر، فلما خرجوا بفؤوسهم ومساحيهم ورأوا الجيش رجعوا وهم يقولون: محمد والله محمد والخميس، فقال النبي ﷺ: ((الله أكبر خربت خيبر إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح

المنذرين)).^(١) (٢)

التسبيح لله ربه ﷻ ورب العالمين:

قال تعالى: ﴿سُبْحَنَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾^(١٨٠) وَسَلَّمَ عَلَى الْمُرْسَلِينَ^(١٨١) وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ^(١٨٢) [الصافات].

ينزه سبحانه نفسه ويقدهسها ويبرئها عما يقول الظالمون المكذبون المعتدون تعالى وتنزهه وتقدهس عن قولهم علواً كبيراً ولهذا قال سبحانه: ﴿سبحان ربك رب العزة﴾ أي ذي العزة التي لا ترام ﴿عما يصفون﴾ أي عن قول هؤلاء المعتدين المفتريين. ﴿وسلام على المرسلين﴾ أي سلام الله عليهم في الدنيا والآخرة لسلامة ما قالوه في ربهم وصحته وحقيقته.

﴿والحمد لله رب العالمين﴾ أي له الحمد في الأولى والآخرة في كل حال، وقرن بين التسبيح والحمد في هذا الموضع وفي مواضع كثيرة من القرآن الكريم. ولهذا قال ﷺ: ﴿سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين﴾.

عن أبي طلحة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((إذا سلمتم علي فسلموا علي المرسلين)).^(٣)

(١) صحيح البخاري، كتاب الأذان، باب: ما يحقن بالأذان من الدماء، ج ١/١٥١ - ١٥٢.

(٢) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١٠/٥٤١ - ٥٤٣؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٥٩٨.

(٣) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١٠/٥٤٣؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٥٩٨ - ١٥٩٩.

سورة ص

الرد على من استغفروا إرساله ﷺ:

قال تعالى: ﴿وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سِحْرٌ كَذَابٌ ۖ﴾ (٤) ﴿أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ۖ﴾ (٥) ﴿وَانْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنْ آمَسُوا وَاصِبُوا عَلَىٰ هَالِكٍ ۖ﴾ (٦) ﴿هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ۖ مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقٌ نَقِيسٌ ۖ﴾ (٧) ﴿أَنْزِلْ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا ۚ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي ۖ بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ ۖ﴾ (٨) ﴿أَمِنْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ ۖ﴾ (٩) ﴿أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ ۖ﴾ (١٠) ﴿جُنْدٌ مَا هَٰؤُلَاءِ مَهْزُومٌ مِّنَ الْأَحْزَابِ ۖ﴾ (١١) [ص].

يقول تعالى مخبراً عن المشركين في تعجبهم من بعثة رسول الله ﷺ بشيراً ونذيراً: ﴿وعجبوا أن جاءهم منذر منهم﴾ أي بشر مثلهم، وقال الكافرون: ﴿هذا ساحر كذاب أجعل الآلهة إلهاً واحداً﴾ أي أزعجهم أن المعبود واحد لا إله إلا هو؟ أنكر المشركون ذلك قبحهم الله تعالى، وتعجبوا من ترك الشرك بالله فإنهم كانوا قد تلقوا عن آبائهم عبادة الأوثان، وأشربته قلوبهم. فلما دعاهم الرسول ﷺ إلى خلع ذلك من قلوبهم وإفراد الله بالوحدانية أعظموا ذلك وتعجبوا وقالوا: ﴿أجعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشيء عجاب وانطلق الملأ منهم﴾، وهم ساداتهم وقاداتهم ورؤساؤهم وكبرائهم قائلين: ﴿امشوا﴾ أي استمروا على دينكم ﴿واصبروا على آلهتكم﴾، ولا تستجيبوا لما يدعوكم إليه محمد من التوحيد.

وقوله تعالى: ﴿إن هذا لشيء يراد﴾ إن هذا الذي يدعونا إليه محمد ﷺ من

التوحيد لشيء يريد به الشرف عليكم والاستعلاء، وأن يكون له منكم أتباع، ولسنا نجيبه إليه.

وذكر في سبب نزول الآية أن نفرًا من مشيخة قريش قال بعضهم لبعض: انطلقوا بنا إلى أبي طالب فلنكلمه فيه، فلينصفنا منه فليكيف عن شتم آلهم، وندعه وإله الذي يعبد، فإننا نخاف أن يموت هذا الشيخ فيكون منا إليه شيء فتعيرنا به العرب، يقولون تركوه حتى إذا مات عنه تناولوه. فبعثوا رجالاً منهم يقال له المطلب، فاستأذن لهم علي بن أبي طالب فقال هؤلاء: مشيخة قومك وسراتهم يستأذنون عليك قال: أدخلهم فلما دخلوا عليه قالوا: يا أبا طالب أنت كبيرنا وسيدنا فأنصفنا من ابن أخيك، فمره فليكيف عن شتم آلهم وندعه وإله. قال: فبعث إليه أبو طالب فلما دخل عليه رسول الله ﷺ قال: يا ابن أخي هؤلاء مشيخة قومك وسراتهم وقد سألك أن تكف عن شتم آلهم ويدعوك وإلهك. قال ﷺ: يا عم أفلا أدعوهم إلى ما هو خير لهم؟ قال: وإلام تدعوهم؟ قال ﷺ: أدعوهم أن يتكلموا بكلمة تدين لهم بها العرب ويملكون بها العجم. فقال أبو جهل لعنه الله من بين القوم: ما هي وأبيك لنعطينكها وعشرًا أمثالها. قال ﷺ: تقولون لا إله إلا الله. فنفروا وقالوا: سلنا غيرها، قال ﷺ: لو جئتموني بالشمس حتى تضعوها في يدي ما سألتكم غيرها. فقاموا من عنده غضابًا، وقالوا: والله لنشتك وإلهك الذي أمرك بهذا. وانطلق الملائكة منهم أن امشوا واصبروا على آلهم إن هذا لشيء يراد^(١).

(١) انظر: ابن سعد، السيرة النبوية من الطبقات، ج ٢/١: ٢٠٢؛

كتابي "رسول الله وخاتم النبيين" ج ٣/٢٨٤.

وقولهم: ﴿ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة﴾ أي ما سمعنا بهذا الذي يدعونا إليه محمد من التوحيد في الملة الآخرة.

عن ابن عباس ؓ: ﴿ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة﴾ يعني النصرانية قالوا: لو كان هذا القرآن حقاً لأخبرتنا به النصارى، ﴿إن هذا إلا اختلاق﴾ تخرص. وقولهم: ﴿أنزل عليه الذكر من بيننا﴾، يعني أنهم يستبعدون تخصيصه ﷺ بإنزال القرآن عليه من بينهم.

قال الله تعالى: ﴿بل لما يذوقوا عذاب﴾ أي إنما يقولون هذا لأنهم ما ذاقوا إلى حين قولهم ذلك عذاب الله تعالى ونقمته سيعلمون نتيجة ما قالوا وما كذبوا به يوم يدعون إلى نار جهنم ويذوقونها.

ثم قال تعالى مبيناً أنه المتصرف في ملكه الفعال لما يشاء الذي يعطي من يشاء ما يشاء ويعز من يشاء ويذل من يشاء ويهدي من يشاء ويضل من يشاء، وينزل الروح من أمره على من يشاء من عباده، ويختتم على قلب من يشاء، فلا يهديه أحد من بعد الله. وأن العباد لا يملكون شيئاً من الأمر، وليس إلیهم من التصرف في الملك ولا مثقال ذرة وما يملكون من قطمير.

ولهذا قال تعالى منكرًا عليهم: ﴿أم عندهم خزائن ربك العزيز الوهاب﴾ أي العزيز الذي لا يرام جنابه، الوهاب الذي يعطي ما يريد لمن يريد. ولذلك بعد الحكاية عن الكفار أنهم أنكروا بعثة الرسول البشري ﷺ.

وقوله تعالى: ﴿أم لهم ملك السماوات والأرض وما بينهما فليترقا في الأسباب﴾ أي إن كان لهم ذلك فليصعدوا في الأسباب. يعني طرق السماء، ليصعدوا إليها.

ثم قال تعالى: ﴿جند ما هنالك مهزوم من الأحزاب﴾ أي هؤلاء الجند المكذبون الذين هم في عزة وشقاق سيهزمون ويغلبون ويكبتون كما كبت الذين من قبلهم من الأحزاب المكذبين.^(١)

الرد على المكذبين به ﷺ:

قال تعالى: ﴿كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْنَادِ ۖ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ لَيْكَةِ ۚ أُولَٰئِكَ الْأَحْزَابُ ۖ﴾ (١٣) **إِنْ كُلُّ إِلَّا كَذَبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابٌ ۖ** (١٤) **وَمَا يَنْظُرُ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهُمْ مِنْ فَوَاقٍ ۖ** (١٥) **وَقَالُوا رَبَّنَا عَجَلْ لَّنَا قِطْنًا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ** (١٦) [ص].

يقول تعالى مخبراً عن هذه القرون الماضية وما حل بها من العذاب والنكال والنقمات في مخالفة الرسل وتكذيب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام . وقصصهم مبسوطه في أماكن متعددة. وقوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الْأَحْزَابُ﴾ أي كانوا أكثر منكم وأشد قوة وأكثر أموالاً وأولاداً، فما دفع ذلك عنهم من عذاب الله من شيء لما جاء أمر ربك. ولهذا قال تعالى: ﴿إِنْ كُلُّ إِلَّا كَذَبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابٌ﴾ فجعل علة إهلاكهم هو تكذيبهم بالرسول، فليحذر المخاطبون من ذلك أشد الحذر.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَنْظُرُ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهُمْ مِنْ فَوَاقٍ﴾، أي ما ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة فقد اقتربت ودنت وأزفت. وهذه الصيحة هي نفخة الفزع التي يأمر الله تعالى بها إسرافيل، فلا يبقى أحد من أهل السماوات والأرض إلا فزع، إلا من استثنى الله.

وقوله ﷺ: ﴿وقالوا ربنا عجل لنا قطنًا قبل يوم الحساب﴾ هذا إنكار من

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١٠/ ٥٥٠ - ٥٥٥؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/ ١٦٠٠ - ١٦٠١.

الله تعالى على المشركين في دعائهم على أنفسهم بتعجيل العذاب، فإن القط هو الكتاب والحساب والحظ والنصيب فقد سألوا تعجيل العذاب لهم.^(١)

أمره ﷺ بالصبر كالأنبياء قبله:

قال تعالى: ﴿أَصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَادْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ (١٧) [ص].

يأمر الله ﷻ نبيه ﷺ بالصبر على قول الكفار. ويذكر تعالى عن عبده ورسوله داود عليه السلام أنه كان ذا أيد، والأيد القوة في العلم والعمل والطاعة والخير. فقد أعطي داود عليه السلام قوة في العبادة وفقها في الإسلام.

في الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: ((أحب الصلاة إلى الله تعالى صلاة داود، وأحب الصيام إلى الله ﷻ صيام داود. كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه، وكان يصوم يوماً ويفطر يوماً،^(٢) ولا يفر إذا لاقى))، وأنه كان أواباً - وهو الرجاء إلى الله - في جميع أموره وشؤونه.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا سَخَرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعُشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴾ أي أنه تعالى سخر الجبال تسبح معه عند إشراق الشمس وآخر النهار، كما قال ﷻ: ﴿يَا جِبَالُ أُوْبِي مَعَهُ وَالطَّيْرُ﴾. وكذلك كانت الطير تُسَبِّح بتسبيحه وترجع بترجيعه إذا مر به الطير وهو سابح في الهواء، فسمعه وهو يترنم

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١٠/٥٥٦ - ٥٦٠؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٦٠١ - ١٦٠٢.

(٢) انظر: رواية البخاري في صحيحه، كتاب الأنبياء، باب: أحب الصلاة إلى الله صلاة داود، وأحب الصيام إلى الله ﷻ صيام داود: كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه، وينام سدسه. ويصوم يوماً ويفطر يوماً، ج ٤/١٣٤؛ ومسلم في صحيحه، كتاب الصيام، باب النهي عن صوم الدهر لمن تضرر به أو فوت به حقاً أو لم يفطر العيدين والتشريق، وبيان تفضيل صوم يوم وإفطار يوم، ج ٣/١٦٢.

بقراءة الزبور لا يستطيع الذهاب، بل يقف في الهواء، ويسبح معه وتجيبه الجبال الشامخات ترجع معه وتسبح تبعاً له.

عن ابن عباس رضي الله عنه وهو يقول: لقد قرأت ما بين اللوحين ما عرفت صلاة الضحى إلا الآن ﴿يسبحن بالعشي والإشراق﴾. وكنت أقول: أين صلاة الإشراق. وكان بعد يقول صلاة الإشراق ولهذا قال تعالى: ﴿والطير محشورة﴾ أي محبوسة في الهواء، ﴿كل له أواب﴾ أي مطيع يسبح تبعاً له، أي مطيع ومردد معه.

وقوله تعالى: ﴿وشددنا ملكه﴾ أي جعلنا له ملكاً كاملاً من جميع ما يحتاج إليه الملوك. فقد كان أشد أهل الدنيا سلطاناً.

اشتدت هيبتة في بني إسرائيل، وهو الذي يقول الله ﴿فيه﴾ ﴿وشددنا ملكه﴾.

وقوله عز وعلا: ﴿وآتيناه الحكمة﴾ يعني الفهم والعقل والفتنة، والعدل، والصواب، باتباع كتاب الله وما فيه. و﴿الحكمة﴾ أحاديث النبوة وسنن الأنبياء.

وقوله ﴿﴾: ﴿وفصل الخطاب﴾ فصل الخطاب الشهود والأيمان في الكلام والوضوح، فيه وفي الحكم. وأول من قال: أما بعد داود.^(١)

تذكيره بقصة ﴿﴾ وتوبته:

قال تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصَمِ إِذْ سَوَّرُوا الْمِحْرَابَ ۖ إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَأَحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سُبُلِكَ﴾

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١٠/٥٦١ - ٥٦٥؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٦٠٢ - ١٦٠٣.

سَوَاءَ الصَّرِطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَجَّةً وَلِيَ نَجَّةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَجَّتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ ۖ وَإِنْ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ ۖ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَّعَآبٍ ﴿٢٥﴾ [ص].

قد ذكر المفسرون هاهنا قصة أكثرها مأخوذ من الأسرائيليات، ولم يثبت فيها عن المعصوم حديث يجب اتباعه. ويرد علمها إلى الله ﷻ، فإن القرآن الكريم حق، وما تضمن فهو حق أيضاً، والأدب مع أنبياء الله واجب. وقوله تعالى: ﴿فَفَزَعْنَاهُمْ﴾ إنما كان ذلك لأنه كان في محرابه وهو أشرف مكان في داره. وكان قد أمر ألا يدخل عليه أحد ذلك اليوم، فلم يشعر إلا بشخصين قد تسورا عليه المحراب، أي أحاطا به يسألانه عن شأنهما.

وقوله ﷻ: ﴿وعزني في الخطاب﴾ أي غلبني، يقال: عز يعز إذا قهر وغلب. وقوله تعالى: ﴿وظن داود أنما فتناه﴾ أي اختبرناه.

وقوله تعالى: ﴿وخر راكعاً﴾ أي ساجداً ﴿وأنا ب﴾ ويحتمل أنه ركع أولاً ثم سجد بعد ذلك. ﴿فغفرنا له ذلك﴾ أي ما كان منه.

عن ابن عباس ؓ قال: إن النبي ﷺ سجد في ﴿ص﴾ وقال ﷻ: سجدها داود المنيلاً توبةً ونسجدها شكراً.^(١)

وقوله تعالى: ﴿وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب﴾ أي وإن له يوم القيامة لقربةً يقربه الله ﷻ بها وحسن مرجع، وهو الدرجات العالية في الجنة؛ لتوبته

(١) رواه النسائي في سننه، كتاب الافتتاح، باب سجود القرآن، السجود في ص، ج ٢/١٥٩.

وعدله التام في ملكه، روي في قوله تعالى: ﴿وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب﴾ قال: يقام داود يوم القيامة عند ساق العرش مقاماً حميداً.^(١)

تذكيره ﷺ بأيوب وصبره وعافيته ورزقه:

قال تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ أَرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾﴾ [ص].

يذكر تعالى نبيه محمدًا ﷺ بعبدته ورسوله أيوب عليه السلام وما كان ابتلاه تعالى به من الضر في جسده وماله وولده. ولم يبق له من حال الدنيا شيء يستعين به على مرضه وما هو فيه، غير أن زوجته حفظت وده؛ لإيمانها بالله تعالى ورسوله. فكانت تخدم الناس بالأجرة وتطعمه، وتخدمه لسنوات. وقد كان قبل ذلك، في مال جزيل وسعة طائلة في الدنيا وأهل وولد، فسلب جميع ذلك حتى آل به الحال أن أُلقي على مزبلة من مزابل البلدة ورفضه القريب والبعيد سوى زوجته، فإنها كانت لا تفارقه صباحاً ولا مساءً إلا بسبب خدمة الناس، ثم تعود إليه قريباً. فلما طال المطال، واشتد الحال، وانتهى القدر المقدور، وتم الأجل المقدر تضرع إلى رب العالمين وإله المرسلين، فقال: ﴿أني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين﴾. وفي هذه الآية الكريمة قال تعالى: ﴿واذكر عبدنا أيوب إذ نادى ربه أني مسني الشيطان بنصب وعذاب﴾، قيل بنصب في بدني وعذاب في مالي وولدي. فعند ذلك استجاب له أرحم الراحمين، وأمره أن يقوم من مقامه وأن يركض الأرض برجله، ففعل، فأنبع الله تعالى عيناً وأمره أن يغتسل منها، فأذهبت جميع ما كان في بدنه من الأذى. ثم أمره فضرب الأرض في مكان آخر فأنبع له عيناً أخرى

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١٠/٥٦٦ - ٥٧٥؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٦٠٣ - ١٦٠٤.

وأمره أن يشرب منها ، فأذهبت جميع ما كان في باطنه من السوء وتكاملت العافية ظاهراً وباطناً. ولهذا قال ﷺ: ﴿اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب﴾.

وحين رفضه القريب والبعيد كان رجلاً من أخص إخوانه يغدوان إليه ويروحان ، فقال أحدهما لصاحبه: تعلم والله لقد أذنب أيوب ذنباً ما أذنبه أحد من العالمين. قال له صاحبه: وما ذاك؟ قال منذ ثماني عشرة سنة لم يرحمه الله فيكشف ما به ، فلما راحا إليه لم يصبر الرجل حين ذكر ذلك له ، فقال أيوب عليه السلام: لا أدري ما تقول غير أن الله ﷻ يعلم أنني كنت أمر على الرجلين يتنازعان فيذكران الله تعالى ، فأرجع إلى بيتي فأكفر عنهما؛ كراهية أن يذكر الله تعالى إلا في حق. قال: وكان يخرج إلى حاجته ، فإذا قضاها أمسكت امرأته بيده حتى يبلغ. فلما كان ذات يوم أبطأ عليها فأوحى الله ﷻ إلى أيوب عليه السلام أن ﴿اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب﴾ فاستبطأته ، فالتفتت تنظر فأقبل عليها وقد أذهب الله ما به من البلاء وهو على أحسن ما كان.

فلما رآته قالت: أي بارك الله فيك هل رأيت نبي الله هذا المبتلى؟ فوالله على ذلك ما رأيت رجلاً أشبه به منك إذ كان صحيحاً. قال: فإني أنا هو ، قال وكان له أندران [الكدس أو الكوم] ، أندر للقمح وأندر للشعير ، فبعث الله تعالى سحابتين. فلما كانت إحدهما على أندر القمح أفرغت فيه الذهب حتى فاض ، وأفرغت الأخرى في أندر الشعير حتى فاض.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((بينما أيوب يغتسل عرياناً خر عليه جراد من ذهب ، فجعل أيوب عليه السلام يحثو في ثوبه ، فناداه ربه ﷻ: يا أيوب ألم أكن أغنيتك عما ترى؟ قال عليه السلام: بلى يا رب ولكن لا غنى بي عن

بركتك)).^(١)

وقال ﷺ: ﴿ووهبنا له أهله ومثلهم معهم رحمة منا وذكرى لأولي الألباب﴾، قالوا: أحياهم الله تعالى له بأعيانهم وزادهم مثلهم معهم.

وقوله ﷺ: ﴿رحمة منا﴾ أي به على صبره وثباته وإنابته وتواضعه واستكانته، ﴿وذكرى لأولي الألباب﴾ أي لذوي العقول؛ ليعلموا أن عاقبة الصبر الفرج والمخرج والراحة.

وقوله جلت عظمتة: ﴿وخذ بيدك ضغثاً فاضرب به ولا تحنث﴾، وذلك أن أيوب عليه السلام كان قد غضب على زوجته ووجد عليها حين باعت ضفيرتها بخبز، فأطعمته إياه، فلامها على ذلك، وحلف إن شفاه الله تعالى ليضربها مئة جلدة. وقيل لغير ذلك من الأسباب فلما شفاه الله ﷺ وعافاه ما كان جزاؤها مع هذه الخدمة التامة والرحمة والشفقة والإحسان أن تقابل بالضرب. فأمره الله سبحانه أن يأخذ ضغثاً، وهو العرجون فيه مئة قضيب - شماریخ -، فيضربها به ضربة واحدة ويكون بر يمينه، وخرج من حنثه ووفى بنذره. وهذا من الفرج والمخرج منه ﷺ لأيوب، ولهذا قال جل وعلا: ﴿إنا وجدناه صابراً نعم العبد إنه أواب﴾ أي رجاع منيب. كما أثنى الله تعالى عليه ومدحه بأنه ﴿نعم العبد إنه أواب﴾^(٢)

تذكيره ﷺ بإبراهيم وغيره من الأنبياء ﷺ:

قال تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولَى الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ ۖ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ ۖ وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ ۖ وَأَذْكُرْ

(١) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الأنبياء، باب قوله تعالى: (وأيوب إذ نادى ربه إنني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين)، ج ٤/ ١٢٤.

(٢) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١٠/ ٥٨٨ - ٥٩١؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/ ١٦١٠.

إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾ [ص].

يقول تعالى: مخبراً نبيه محمدًا ﷺ عن فضائل عباده المرسلين وأنبيائه العابدين ﴿واذكر عبادنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب أولي الأيدي والأبصار﴾، يعني بذلك العمل الصالح والعلم النافع والقوة في العبادة والبصيرة النافذة. ﴿أولي الأيدي والأبصار﴾ يقول: أولي القوة والعبادة. ﴿والأبصار﴾ يقول: الفقه في الدين والحق.

وقوله تعالى: ﴿إنا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار﴾ أي جعلناهم يعملون للآخرة، ليس لهم هم غيرها. فقد نزع الله تعالى من قلوبهم حب الدنيا وذكرها، وأخلصهم بحب الآخرة وذكرها. ويعني بالدار الجنة يقول: أخلصناها لهم بذكرهم لها.

وقوله تعالى: ﴿وإنهم عندنا لمن المصطفين الأخيار﴾ أي لمن المختارين المجتبيين الأخيار.

ثم ذكره ﷺ بعدد من الأنبياء في قوله تعالى: ﴿واذكر إسماعيل واليسع وذا الكفل وكل من الأخيار﴾.

وقوله تعالى: ﴿هذا ذكر﴾ أي هذا فصل فيه ذكر لمن يتذكر، يعني القرآن العظيم وما فيه من قصص.

يوحى إليه ﷺ من الله رب السماوات والأرض لينذر خلقه:

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ وَمَا مِن إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ ﴿٦٦﴾ قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَأِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِنْ يُوحَىٰ إِلَىٰ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾﴾ [ص].

يقول تعالى آمراً رسوله ﷺ أن يقول للكفار بالله المشركين به المكذبين لرسوله إنما أنا منذر، ولست كما تزعمون، ﴿وما من إله إلا الله الواحد القهار﴾ أي هو وحده قد قهر كل شيء وغلبه، ﴿رب السماوات والأرض وما بينهما﴾ أي هو مالك جميع ذلك ومتصرف فيه ﴿العزیز الغفار﴾ أي غفار مع عظمته وعزته. ﴿قل هو نبي عظيم﴾ أي خبر عظيم وشأن بليغ، وهو إرسال الله تعالى إياي إليكم ﴿أنتم عنه معرضون﴾ أي غافلون، في قوله ﷻ: ﴿قل هو نبي عظيم﴾ يعني القرآن الكريم وما فيه من آيات بينات.

وقوله تعالى: ﴿ما كان لي من علم بالملا الأعلى إذ يختصمون﴾ أي لولا الوحي من أين كنت أدري باختلاف الملا الأعلى؟ يعني في شأن آدم عليه السلام وامتناع إبليس من السجود له ومحاججته ربه في تفضيله عليه.

وقد فسر بعد هذا وهو في قوله تعالى: ^(١)

﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِّن طِينٍ ۖ (٧١) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ، وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ۖ (٧٢) فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ۖ (٧٣) إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ۖ (٧٤) قَالَ يَبْنَؤُا بِلَيْسَ مَا مَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِدْيَاسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ ۖ (٧٥) قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ۖ (٧٦) قَالَ فَخَرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ۖ (٧٧) وَإِنَّ عَلَيْكَ لعَذَابَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ۖ (٧٨) قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمٍ يُبْعَثُونَ ۖ (٧٩) قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ۖ (٨٠) إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ۖ (٨١) قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۖ (٨٢) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلَصِينَ ۖ (٨٣) قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقُّ أَقُولُ ۖ (٨٤) لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ۖ (٨٥)﴾ [ص].

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١٠/٦٠٣ - ٦٠٥؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٦١٢ - ١٦١٣.

هذه القصة ذكرها الله تعالى هنا مشيراً لنبيه ﷺ، وقد ورد الحديث عنها في سور مختلفة. وهاهنا وهي أن الله ﷻ أعلم الملائكة قبل خلق آدم عليه السلام بأنه سيخلق بشراً من صلصال من حمأ مسنون. وتقدم إليهم بالأمر متى فرغ من خلقه وتسويته فليسجدوا له إكراماً وإعظماً واحتراماً وامثالاً لأمر الله ﷻ، فامتثل الملائكة كلهم ذلك، سوى إبليس ولم يكن منهم جنساً لكنه معهم في الأمر.

كان من الجن فخانه طبعه وجبلته، فاستكبر عن السجود لآدم وخاصم ربه ﷻ فيه، وادعى أنه خير من آدم، فإنه مخلوق من نار وآدم خلق من طين، والنار خير من الطين في زعمه. وقد أخطأ في ذلك وخالف أمر الله. ^(١)

نزاهته ﷺ:

قال تعالى: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ ^(٨٦) إِنَّهُ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ^(٨٧) وَلَنَعْلَمَنَّ بَأْهَ بَعْدَ حِينٍ ^(٨٨) [ص].

يقول تعالى قل يا محمد لهؤلاء المشركين: ما أسألكم على هذا البلاغ وهذا النصح أجراً تعطوني، من عرض الحياة الدنيا، ﴿وما أنا من المتكلفين﴾ أي وما أريد على ما أرسلني الله تعالى به ولا أبتغي زيادة عليه، بل ما أمرت به أديته، لا أزيد عليه ولا أنقص منه، وإنما أبتغي بذلك وجه الله سبحانه والدار الآخرة.

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: يا أيها الناس من علم شيئاً فليقل به، ومن لم يعلم فليقل الله أعلم، فإن من العلم أن يقول الرجل لما لا يعلم: الله أعلم، فإن الله ﷻ قال لنبيكم ﷺ: ﴿قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١٠/٦٠٥ - ٦٠٨؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٦١٣.

من المتكلفين^(١).

وقوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ يعني القرآن الكريم ذكر لجميع المكلفين به من الإنس والجن. وقوله تعالى: ﴿وَلَتَعْلَمُنَ نَبَأَهُ﴾ أي خبره وصدقه ﴿بعد حين﴾ أي عن قريب بعد الموت عند القيامة. ولا منافاة بين القولين فإن مات فقد دخل في حكم القيامة^(٢).

(١) صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب: قوله: (وما أنا من المتكلفين)، ج ٦/٣٢.

(٢) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١٠/٦٠٨ - ٦٠٩؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٦١٣ - ١٦١٤.

سورة الزمر

إنزل الله له ﷻ القرآن بالحق:

قال تعالى: ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ (١) ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾ (٢) ﴿أَلِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ (٣) ﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَأَصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَنَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ (٤) [الزمر].

يخبر تعالى أن تنزيل هذا الكتاب وهو القرآن العظيم من عنده سبحانه. فهو الحق الذي لا مرية فيه ولا شك. وقال جل وعلا هاهنا: ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ﴾ أي المنيع الجنب ﴿الحكيم﴾ أي في أقواله وأفعاله وشرعه وقدره. ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾ تأكيد للرسول ﷺ فاعبد الله وحده لا شريك له، وادع الخلق إلى ذلك وأعلمهم أنه لا تصلح العبادة إلا لله وحده، وأنه ليس له شريك ولا عدیل ولا نديد ولهذا قال تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ أي لا يقبل من العمل إلا ما أخلص فيه العمل لله وحده لا شريك له. مع شهادة أن لا إله إلا الله. ثم أخبر تعالى عن عبادة الأصنام من المشركين أنهم يقولون: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ أي إنما يحملهم على عبادتهم لهم أنهم عمدوا إلى أصنام اتخذوها فعبدوا تلك الصور تنزيلاً ليشفعوا لهم عند الله تعالى في نصرهم ورزقهم وما ينوبهم من أمور الدنيا.

فأما المعاد فكانوا جاحدين له كافرين به. وهذه الشبهة هي التي اعتمدها المشركون قديم الدهر وحديثه، وجاءتهم الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين بردها والنهي عنها، والدعوة إلى أفراد العبادة لله وحده لا شريك له، وأن هذا شيء اخترعه المشركون من عند أنفسهم لم يأذن الله فيه ولا رضي به، بل أبغضه ونهى عنه، تعالى الله علواً كبيراً.

وقوله ﷺ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ أي يوم القيامة ﴿فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ أي سيفصل بين الخلائق يوم معادهم ويجزي كل عامل. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ أي لا يرشد إلى الهداية من قصده الكذب والافتراء على الله تعالى، وقلبه كافر بآياته وحججه وبراهينه.

ثم بين تعالى أنه لا ولد له كما يزعمه جهلة المشركين في الملائكة والمعاندون من اليهود والنصارى في العزيز وعيسى عليه السلام، فقال سبحانه: ﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ أي لكان الأمر على خلاف ما يزعمون. وهذا شرط لا يلزم وقوعه ولا جوازه، بل هو محال وإنما قصد تجهيلهم فيما ادَّعوه.

وقوله تعالى: ﴿سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ أي تعالى وتتنزه وتقدس عن أن يكون له ولد، فإنه الواحد الأحد الفرد الصمد، الذي كل شيء عبد لديه فقير إليه وهو الغني عما سواه الذي قد قهر الأشياء فدانت وذلت وخضعت له. تعالى عما يقول الظالمون والجاحدون علواً كبيراً^(١).

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١٠/٦١٠ - ٦١٢؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٦١٤ - ١٦١٥.

دعوته ﷺ المؤمنين للتقوى:

قال تعالى: ﴿قُلْ يٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمُ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَسِعَةٌ ۚ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ۖ﴾ (١٠) ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ ءَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ ٱلْدِينَ﴾ (١١) ﴿وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ (١٢) [الزمر].

أمر الله تعالى من محمد ﷺ أن يقول كما أمره تعالى لعباده المؤمنين بالاستمرار على طاعته وتقواه، ﴿قل يا عباد الذين آمنوا اتقوا ربكم للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة﴾ أي لمن أحسن العمل في هذه الدنيا حسنة في دنياهم وأخراهم، وقوله تعالى: ﴿وأرض الله واسعة﴾ فهاجروا فيها وتنقلوا وجاهدوا واعتزلوا الأوثان. وإذا دعيتم إلى معصية فاهربوا.

﴿إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب﴾ لا يحسب عليهم ثواب عملهم قط، ولكن يزدون على ذلك من فضل الله وفي الجنة.

وقوله تعالى: ﴿قل إنني أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ ٱلْدِينَ﴾ أي إنما أُمِرْتُ بإخلاص العبادة لله وحده لا شريك له، ﴿وأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ يعني من أمته ﷺ. (١)

إخلاصه ﷺ العبادة لله والخوف منه:

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (١٣) ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي﴾ (١٤) ﴿فَأَعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْخٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَءَٰهْلِيَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ (١٥) ﴿لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِ ۚ عِبَادَهُ ۖ يٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ﴾ (١٦) [الزمر].

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١٠/٦٢٢ - ٦٢٣؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٦٦.

ويقول تعالى: قل يا محمد وأنت رسول الله: ﴿إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم﴾ وهو يوم القيامة. ﴿قل الله أعبد مخلصاً له ديني فاعبدوا ما شئتم من دونه﴾، وهذا أيضاً تهديد وتبرؤ منهم. ﴿قل إن الخاسرين﴾ أي إنما الخاسرون كل الخسران ﴿الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة﴾ أي تفارقوا فلا التقاء لهم أبداً، وسواء ذهب أهلوههم إلى الجنة وقد ذهبوا هم إلى النار أم أن الجميع أسكنوا النار، ولكن لا اجتماع لهم ولا سرور. ﴿ألا ذلك هو الخسران المبين﴾ أي هذا هو الخسران البين الظاهر الواضح. ثم وصف تعالى حالهم في النار فقال تعالى: ﴿لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل﴾.

وقوله ﷻ: ﴿ذلك يخوف الله به عباده﴾ أي إنما يقص خبر هذا الكائن لا محالة؛ ليخوف به عباده؛ لينزجروا عن فعل المحارم والمآثم.

وقوله تعالى: ﴿يا عباد فاتقون﴾ أي اخشوا بأسى وسطوتي وعذابي ونقمتي.^(١)

تبشيره ﷻ للعباد الذين يتبعون القرآن:

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ عِبَادِ ۖ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ۚ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ أُولُوا الْأَلْبَابِ ۚ﴾ [الزمر].

ورد عن قوله ﷻ: ﴿والذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها﴾ نزلت في زيد بن عمرو بن نفيل، وأبي ذر، وسلمان الفارسي ﷺ، وهي شاملة لهم ولغيرهم ممن اجتنب عبادة الأوثان وأناب إلى عبادة الرحمن. فهؤلاء هم الذين لهم

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١٠/٦٢٣ - ٦٢٤؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٦١٦ - ١٦١٧.

البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة. ثم قال سبحانه: ﴿فبشر عباد الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه﴾ أي يفهمونه ويعملون بما أمروا به، ﴿أولئك الذين هداهم الله﴾ أي المتصفون بهذه الصفة هم الذين هداهم الله في الدنيا والآخرة، ﴿وأولئك هم أولوا الألباب﴾ أي ذو العقول الصحيحة والفطر المستقيمة.^(١)

تذكيره ﷺ بمن يستحق النار ومن ينجو:

قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ ۝١٩ لَكِنَّ الَّذِينَ أَنْقَرُوا رَهْمَ لَهْمُ عُرْفٍ مِّنْ فَوْقَهَا عُرْفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعَدَ اللَّهُ لَا يَخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ ۝٢٠﴾ [الزمر].

يقول تعالى مخاطباً نبيه ﷺ: أفمن كتب الله أنه شقي هل تقدر أن تنقذه مما هو فيه من الضلال والهلاك؟ أي لا يهديه أحد من بعد الله؛ لأنه من يضل الله فلا هادي له ومن يهده فلا مضل له.

ثم أخبر تعالى عن عباده السعداء أن لهم غرفاً في الجنة، وهي القصور الشاهقة ﴿من فوقها غرف مبنية﴾ أي طباق فوق طباق مبنيات محكمات مزخرفات عالياً.

عن علي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((إن في الجنة لغرفاً يرى بطونها من ظهورها وظهورها من بطونها))، فقال أعرابي: لمن هي يا رسول الله؟ قال ﷺ: ((لمن أطاب الكلام وأطعم الطعام وصلى بالليل والناس نيام)).^{(٢) (٣)}

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١٠/٦٢٤ - ٦٢٥؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٦١٧.

(٢) سنن الترمذي، كتاب البر والصلة، باب ما جاء في قول المعروف، ج ٤/٣٥٤، حديث رقم:

١٩٨٤.

(٣) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١٠/٦٢٥ - ٦٢٦؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٦١٧.

تذكيره ﷺ بإنزال المطر ونباتية في الأرض وإخراج الزرع:

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنْبِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَنُهُ ثُمَّ يَهِيْجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿٢١﴾ أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ ۖ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِّنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾﴾ [الزمر].

يخبر تعالى أنه إذا أنزل الماء من السماء كمن في الأرض، ثم يصرفه تعالى في أجزاء الأرض كما يشاء، وينبعه عيوناً ما بين صغار وكبار بحسب الحاجة إليها. ولهذا قال ﷺ: ﴿فسلكه ينابيع في الأرض﴾.

عن ابن عباس ؓ في قوله تعالى: ﴿ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فسلكه ينابيع في الأرض﴾ قال: ليس في الأرض ماء إلا نزل من السماء، ولكن عروق في الأرض تغيّره، فذلك قوله تعالى: ﴿فسلكه ينابيع في الأرض﴾ كما أن الثلج يتراكم على الجبال فيسكن في قرارها فتنبع العيون من أسافلها.

وقوله تعالى: ﴿ثم يخرج به زرعاً مختلفاً ألوانه﴾ أي ثم يخرج بالماء النازل من السماء والنباع من الأرض زرعاً مختلفاً ألوانه أي أشكاله وطعومه وروائح ومنافعه، ﴿ثم يهيج﴾ أي بعد نضارته وشبابه يكتهل فتراه مصفراً قد خالطه اليبس، ﴿ثم يجعله حطاماً﴾ أي ثم يعود يابساً يتحطم، ﴿إن في ذلك لذكرى لأولي الأبواب﴾ أي الذين يتذكرون بهذا فيعتبرون أن الدنيا هكذا تكون خضرة نضرة حسنة ثم تعود عجوزاً شوهاء والشباب يعود شيخاً هرمًا كبيراً ضعيفاً.^(١)

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١٠/ ٦٢٦ - ٦٢٨؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/ ١٦١٨.

تأكيد الموت له ﷺ ولغيره من البشر:

قال تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ (٣٠) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخَصُّمُونَ ﴿٣١﴾ [الزمر].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ هذه الآية من الآيات التي استشهد بها الصديق ﷺ عند موت الرسول ﷺ حتى تحقق الناس من موته مع آية أخرى.

ومعنى هذه الآية أنكم ستنتقلون من هذه الدار لا محالة، وستجتمعون عند الله تعالى في الدار الآخرة وتختصمون فيما أنتم فيه في الدنيا من التوحيد والشرك بين يدي الله ﷻ، فيفصل بينكم ويفتح بالحق وهو الفتح العليم، فينجي المؤمنين المخلصين الموحدين. ويعذب الكافرين الجاحدين المشركين المكذبين.

ثم إن هذه الآية، وإن كان سياقها في المؤمنين والكافرين وذكر الخصومة بينهم في الدار الآخرة، فإنها شاملة لكل المتنازعين في الدنيا، فإنه يفصل بينهم سبحانه يوم القيامة.

عن الزبير بن العوام ﷺ قال: لما نزلت هذه السورة على رسول الله ﷺ ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون﴾ قال الزبير ﷺ: أي رسول الله أيكرر علينا ما كان بيننا في الدنيا مع خواص الذنوب؟ قال ﷺ: ((نعم ليكررن عليكم حتى يؤدي إلى كل ذي حق حقه)). قال الزبير ﷺ: والله إن الأمر لشديد.^(١)

(١) سنن الترمذي، كتاب تفسير القرآن، باب (ومن سورة الزمر)، ج ٣٧٠/٥، حديث رقم:

عن ابن عباس رضي الله عنه ﴿ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون﴾ يقول: "يخاصم الصادق الكاذب، والمظلوم الظالم، والمهتدي الضال، والضعيف المستكبر".^(١)

جاء ﷺ بالصدق وثواب المصدقين به:

قال تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ۚ﴾ (٣٢) ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ ۖ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ۚ﴾ (٣٣) ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ۚ﴾ (٣٤) ﴿لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ۚ﴾ (٣٥) [الزمر].

يقول تعالى مخاطباً المشركين الذين افتروا على الله وجعلوا معه آلهة أخرى وادعوا أن الملائكة بنات الله، وجعلوا لله ولداً تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً، ومع هذا كذبوا بالحق إذ جاءهم على السنة رُسل الله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين. ولهذا قال ﷺ: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ﴾ أي لا أحد أظلم من هذا، لأنه جمع بين طريقي الباطل كذب على الله، وكذب رسول الله، قالوا الباطل وردوا الحق، ولهذا قال جلت عظمتة متوعداً لهم: ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾ وهم الجاحدون المكذبون. ثم قال جل وعلا: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ﴾ الذي جاء بالصدق هو الرسول ﷺ وقيل هو جبريل عليه السلام، ﴿وَصَدَّقَ بِهِ﴾ يعني محمداً ﷺ.

وعن ابن عباس رضي الله عنه ﴿والذي جاء بالصدق﴾ قال: من جاء بلا إله إلا الله

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١١/٣ - ٤؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٦٢٠.

﴿وصدق به﴾، يعني رسول الله ﷺ ومن تبعه وصدق بالقرآن الكريم وما جاء به ويشمل كل المؤمنين فإن المؤمنين يقولون الحق ويعملون به. والرسول ﷺ أولى الناس بالدخول في هذه الآية، فإنه جاء بالصدق وصدق المرسلين وآمن بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله ﴿لهم ما يشاؤون عند ربهم﴾، يعني في الجنة، مهما طلبوا وجدوا، ﴿ذلك جزاء المحسنين ليكفر الله عنهم أسوأ الذي عملوا ويجزيهم أجرهم بأحسن الذي كانوا يعملون﴾^(١).

كفاية الله له ﷻ:

قال تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ۖ وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ ۚ﴾^(٣٧) وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّيهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هِيَ مُمْسِكَةٌ بِرَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ۚ﴾^(٣٨) قُلْ يَلْقَؤُمْ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ۖ﴾^(٣٩) [الزمر].

يقول تعالى: ﴿أليس الله بكاف عبده﴾ يعني أنه تعالى يكفي من عبده وأولهم محمد ﷺ وتوكل عليه.

عن فضالة بن عبيد الأنصاري رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: ((أفلح من هُدي إلى الإسلام وكان عيشه كفافاً وقنع به)).^(٢)

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١١/٤ - ٦؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٦٢١.

(٢) سنن الترمذي، كتاب الزهد، باب ما جاء في الكفاف والصبر عليه، ج ٤/٥٧٦، حديث

رقم: ٢٣٤٩.

﴿ويخوفونك بالذين من دونه﴾ يعني المشركين يخوفون الرسول ﷺ ويتوعدونه بأصنامهم وآلهتهم، التي يدعونها من دون الله جهلاً، منهم وضلالاً. ولهذا قال تعالى: ﴿ومن يضل الله فما له من هاد ومن يهد الله فما له من مضل أليس الله بعزيز ذي انتقام﴾ أي منيع الجنب لا يضام من استند إلى جنبه ولجأ إلى بابه فإنه العزيز الذي لا أعز منه ولا أشد انتقاماً منه، ممن كفر به وأشرك وعاند رسوله ﷺ. وقوله تعالى: ﴿ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله﴾ يعني المشركين كانوا يعترفون بأن الله سبحانه هو الخالق للأشياء كلها، ومع هذا يعبدون معه غيره مما لا يملك لهم ضراً ولا نفعاً. ولهذا قال تبارك وتعالى: ﴿قل أفرأيتم ما تدعون من دون الله إن أرادني الله بضر هل هن كاشفات ضره أو أرادني برحمة هل هن ممسكات رحمته﴾ أي لا تستطيع شيئاً من الأمر.

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: ((احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يكتبه الله عليك لم يضروك، ولو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لم يكتبه الله لك لم ينفعوك، جفت الصحف ورفعت الأقلام، واعمل لله بالشكر في اليقين. واعلم أن في الصبر على ما تكره خيراً كثيراً. وأن النصر مع الصبر وأن الفرج مع الكرب وأن مع العسر يسراً)).^(١)

(١) ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٦٢٢؛ وانظر: وصية الرسول ﷺ لابن عباس رضي الله عنهما، سنن الترمذي، كتاب صفة القيامة، باب (٥٩)، ج ٤/٦٦٧، حديث رقم: ٢٥١٦؛ مسند الإمام أحمد، ج ١/٢٩٣.

﴿قل حسبى الله﴾ أي الله كافي، عليه توكلت و ﴿عليه يتوكل المتوكلون﴾.

روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: ((من أحب أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله تعالى. ومن أحب أن يكون أغنى الناس فليكن بما في يد الله ﷻ أوثق منه بما في يديه. ومن أحب أن يكون أكرم الناس فليثق بالله)).^(١)

وقوله تعالى: ﴿قل يا قوم اعملوا على مكانتكم﴾ أي على طريقتكم. وهذا تهديد ووعيد، ﴿إني عامل﴾ أي على طريقتي ومنهجى، ﴿فسوف تعلمون﴾ أي ستعلمون غيب ذلك ووباله، ﴿من يأتيه عذاب يخزيه﴾ أي في الدنيا، ﴿ويحل عليه عذاب مقيم﴾ أي دائم مستمر لا محيد له عنه وذلك يوم القيامة. أعاذنا الله منها.^(٢)

نزول القرآن عليه ﷺ بالحق والهداية:

قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ ضَلَّٰ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ [الزمر].

يقول تعالى مخاطباً رسوله محمداً ﷺ: ﴿إنا أنزلنا عليك الكتاب﴾ يعني القرآن ﴿للناس بالحق﴾ أي لجميع الخلق من الإنس والجن؛ لتذرهم به. ﴿فمن اهتدى فلنفسه﴾ أي فإنما يعود نفع ذلك إلى نفسه، ﴿ومن ضل فإنما يضل عليها﴾ أي إنما يرجع وبال ذلك على نفسه. ﴿وما أنت عليهم بوكيل﴾

(١) انظر: الحاكم، المستدرک، ج ٤/٣٠١، حديث رقم: ٧٧٠٧.

(٢) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٧/١١ - ٩؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٦٢١ - ١٦٢٢.

أي بموكل.^(١)

تذكيره ﷺ بأن الأمر والشفاعة لله وحده:

قال تعالى: ﴿أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أُولَئِكَ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ﴾ (٤٣) قُلْ لِلَّهِ الشَّفَعَةُ جَمِيعًا لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٤٤) وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (٤٥) [الزمر].

يقول تعالى ذاماً للمشركين في اتخاذهم شفعاء من دون الله، وهي الأصنام والأنداد، التي اتخذوها من تلقاء أنفسهم بلا دليل ولا برهان، وهي لا تملك شيئاً من الأمر، بل وليس لها عقل تعقل به ولا سمع تسمع به ولا بصر تبصر به، بل هي جمادات أسوأ من الحيوان بكثير. ثم قال: قل أي يا محمد لهؤلاء الزاعمين أن ما اتخذوه من شفعاء لهم عند الله تعالى: أن الشفاعة لا تنفع عند الله إلا لمن ارتضاه وأذن له، فمرجعها كلها إليه. ﴿له ملك السماوات والأرض﴾ أي هو المتصرف في جميع ذلك ﴿ثم إليه ترجعون﴾ أي يوم القيامة فيحكم بينكم بعدله ويجزي كلا بعمله.

ثم قال تعالى ذاماً للمشركين أيضاً: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ﴾ أي إذا قيل لا إله إلا الله وحده ﴿اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾. اشْمَأَزَّتْ انقبضت ونفرت وكفرت واستكبرت. ثم قال تبارك وتعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾ أي من الأصنام والأنداد، قاله مجاهد: ﴿إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ أي يفرحون ويُسررون.^(٢)

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٩/ ١١ - ١٠؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/ ١٦٢٢.

(٢) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١٠/ ١١ - ١١؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/ ١٦٢٢.

دعاؤه بالحق ﷺ:

قال تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَلِيمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ (٤٦) وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ، لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ (٤٨) [الزمر].

يقول ﷺ بعد ما ذكر عن المشركين ما ذكر من المذمة لهم في حبهيم الشرك ونفرتهم عن التوحيد: ﴿قل اللهم فاطر السماوات والأرض عالم الغيب والشهادة﴾ أي ادع أنت الله وحده لا شريك له، الذي خلق السماوات والأرض وفطرها وابتدعها وجعلها على غير مثال سبق، ﴿عالم الغيب والشهادة﴾ أي السر والعلانية، ﴿أنت تحكم بين عبادك في ما كانوا فيه يختلفون﴾ أي في دنياهم ستفصل بينهم يوم معادهم ونشورهم وقيامهم من قبورهم.

سألت عائشة رضي الله عنها بأي شيء كان رسول الله ﷺ يفتح صلاته إذا قام من الليل؟ قالت رضي الله عنها: كان رسول الله ﷺ إذا قام من الليل افتتح صلاته: ((اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل فاطر السماوات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم)).^(١)

(١) رواه أبو داود في سننه، كتاب الصلاة، باب ما يُستفتحُ به الصلاة من الدعاء، ص ١٣٦، حديث رقم: ٧٦٧؛ سنن الترمذي، كتاب الدعوات، باب ما جاء في الدعاء عند افتتاح الصلاة بالليل، ج ٥/٤٨٤، حديث رقم: ٣٤٢٠؛ سنن ابن ماجه، كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها، باب ما جاء في الدعاء إذا قام به الرجل من الليل، ج ١/٤٣١ - ٤٣٢، حديث رقم: ١٣٥٧.

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: إن رسول الله ﷺ قال: ((من قال اللهم فاطر السماوات والأرض عالم الغيب والشهادة إني أعهد إليك في هذه الدنيا أني أشهد أن لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك وأن محمداً عبدك ورسولك فإنك إن تكلني إلى نفسي تقربني من الشر وتباعدني من الخير، وإني لا أثق إلا برحمتك فاجعل لي عندك عهداً توفينيهِ يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد، إلا قال ﷻ لملائكته يوم القيامة: إن عبدي قد عهد إلي عهداً فأوفوه إياه فيدخله الله الجنة)).^(١)

عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه: كان رسول الله ﷺ يعلمنا يقول: ((اللهم فاطر السماوات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت رب كل شيء وإله كل شيء أشهد أن لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك وأن محمداً عبدك ورسولك والملائكة يشهدون. أعوذ بك من الشيطان وشركه. وأعوذ بك من أن أقترف على نفسي إثماً أو أجره إلى مسلم)).^(٢)

قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: أمرني رسول الله ﷺ أن أقول إذا أصبحت وإذا أمسيت وإذا أخذت مضجعي من الليل: اللهم فاطر السماوات والأرض .. إلخ.^(٣)

وقوله تعالى: ﴿ولو أن للذين ظلموا﴾ وهم المشركون ﴿ما في الأرض جميعاً ومثله معه﴾ أي ولو أن جميع ما في الأرض وضعفه معه ﴿لافتدوا به من سوء﴾

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده، ج ١/٤١٢.

(٢) رواه الإمام أحمد في مسنده، ج ٢/١٩٦؛ سنن الترمذي، كتاب الدعوات، باب (٩٥)، ج ٥/٥٤٢، حديث رقم: ٣٥٢٩.

(٣) رواه الإمام أحمد في مسنده، ج ١/١٤؛ سنن الترمذي، كتاب الدعوات، باب (١٤)، ج ٥/٤٦٧، حديث رقم: ٣٣٩٢.

العذاب) أي الذي أوجبه الله تعالى لهم يوم القيامة، ومع هذا لا يقبل منهم الفداء ولو كان ملء الأرض ذهباً، كما في آية أخرى. ﴿وبدا لهم سيئات ما كسبوا﴾ أي وظهر لهم جزاء ما اكتسبوا في الدار الدنيا من المحارم والمآثم ﴿وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون﴾ أي وأحاط بهم من العذاب والنكال ما كانوا يستهزئون به في الدار الدنيا.^(١)

أمره ﷺ بالرجوع إلى الله وعدم القنوط من رحمة الله ﷻ:

قال تعالى: ﴿قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (٥٣) ﴿وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلُمُوا لَهُ، مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ (٥٤) ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ (٥٥) ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ بِحَسْرَتِي عَلَىٰ مَا فَرَطْتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّخِرِينَ﴾ (٥٦) ﴿أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ (٥٧) ﴿أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (٥٨) ﴿بَلَىٰ قَدْ جَاءَ تَكَ ءَايَتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ (٥٩) [الزمر].

هذه الآية الكريمة دعوة لجميع العصاة من الكفرة وغيرهم إلى التوبة والإنابة، وإخبار بأن الله ﷻ يغفر الذنوب جميعاً لمن تاب منها ورجع عنها، وإن كانت مهما كانت وإن كثرت. والشرك لا يغفر لمن لم يتب منه.

عن ابن عباس رضي الله عنهما أن ناساً من أهل الشرك كانوا قد قتلوا فأكثروا، وزنوا فأكثروا، فأتوا محمداً ﷺ فقالوا: إن الذي تقول وتدعو إليه لحسن لو

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١١/ ١١ - ١٢؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/ ١٦٢٣.

تخبرنا أن لما عملنا كفارة، فنزل قوله تعالى: ﴿قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله﴾.^(١)

عن عمرو بن عبسة رضي الله عنه قال: ((جاء رجل إلى النبي ﷺ شيخ كبير يدعم على عصا له، فقال: يا رسول الله لي غدرات وفجرات فهل يغفر لي؟ فقال ﷺ: أأست تشهد أن لا إله إلا الله؟ قال: بلى وأشهد أنك رسول الله، فقال ﷺ: قد غفر لك غدراتك وفجراتك)).^(٢)

والأحاديث كلها دالة على أن المراد أنه يغفر جميع الذنوب مع التوبة، ولا يقنطن عبد من رحمة الله وإن عظمت ذنوبه وكثرت، فإن باب الرحمة والتوبة واسع.

عن ابن عباس رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً﴾ إلى آخر الآية، قال: قد دعا الله تعالى إلى مغفرته من زعم أن المسيح هو الله، ومن زعم أن المسيح هو ابن الله، ومن زعم أن عزيزاً ابن الله، ومن زعم أن الله فقير، ومن زعم أن يد الله مغلولة، ومن زعم أن الله ثالث ثلاثة. يقول الله تعالى لهؤلاء: ﴿أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه والله غفور رحيم﴾. ثم دعا إلى توبته من هو أعظم قولاً من هؤلاء، من قال أنا ربكم الأعلى وقال: ﴿ما علمت لكم من إله غيري﴾ قال ابن عباس رضي الله عنه: من آيس عباد الله من التوبة بعد

(١) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب كون الإسلام يهدم ما قبله وكذا الهجرة والحج، ج ١/ ٧٩؛ والبخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب قوله تعالى: (يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ...)، ج ٦/ ٣٣.

(٢) رواه الإمام أحمد في مسنده، ج ٤/ ٣٨٥.

هذا فقد جحد كتاب الله ﷻ. ولكن لا يقدر العبد أن يتوب حتى يتوب الله عليه.

عن ابن مسعود ﷺ يقول: إن أكثر آية في القرآن فرجاً في سورة الزمر ﴿قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله﴾. وقد مر عبد الله يعني ابن مسعود ﷺ على قاص وهو يذكر الناس فقال: يا مذكر لم تقنط الناس من رحمة الله؟ ثم قرأ ﴿قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله﴾.

عن أبي هريرة ﷺ قال رسول الله ﷺ: ((والذي نفسي بيده لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون الله فيغفر لهم)).^(١)

ثم استحث تعالى عباده إلى المسارعة إلى التوبة فقال: ﴿وأنبيوا إلى ربكم وأسلموا له﴾ إلخ، أي ارجعوا إلى الله واستسلموا له ﴿من قبل أن يأتاكم العذاب ثم لا تنصرون﴾ أي بادروا بالتوبة والعمل الصالح قبل حلول النقمة، ﴿واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم﴾ وهو القرآن العظيم، ﴿من قبل أن يأتكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون﴾ أي من حيث لا تعلمون ولا تشعرون. ثم قال سبحانه: ﴿أن تقول نفس يا حسرتى على ما فرطت في جنب الله﴾ أي يوم القيامة يتحسر المجرم المفرط في التوبة والإنابة، ويود لو كان من المحسنين المخلصين المطيعين لله ﷻ.

وقوله تعالى: ﴿وإن كنتُ لمن الساخرين﴾ أي إنما كان عملي في الدنيا عمل ساخر مستهزئ غير موقن مصدق، ﴿أو تقول لو أن الله هداني لكنت

(١) انظر: صحيح مسلم، كتاب التوبة، باب سقوط الذنوب بالاستغفار توبة، ج ٨/٩٤.

من المتقين أو تقول حين ترى العذاب لو أن لي كرة فأكون من المحسنين ﴿١﴾،
أي تود أن لو أعيدت إلى الدنيا لتحسن العمل.

عن ابن عباس ؓ أخبر الله سبحانه ما العباد قائلون قبل أن يقولوه،
وعملهم قبل أن يعملوه: ﴿أن تقول نفس يا حسرتي على ما فرطت في جنب
الله وإن كنت لمن الساخرين أو تقول لو أن الله هداني لكنت من المتقين أو
تقول حين ترى العذاب لو أن لي كرة فأكون من المحسنين﴾.

عن أبي هريرة ؓ قال: قال رسول الله ﷺ: ((كل أهل النار يرى مقعده
من الجنة فيقول: لو أن الله هداني فتكون عليه حسرة، قال: وكل أهل
الجنة يرى مقعده من النار فيقول: لولا أن الله هداني قال: فيكون له
الشكر)).^(١)

قال الله تعالى: ﴿بلى قد جاءتك آياتي فكذبت بها واستكبرت وكنت
من الكافرين﴾ أي قد جاءتك أيها العبد النادم على ما كان منه آياتي في
الدار الدنيا وقامت حججي عليك، فكذبت بها واستكبرت عن اتباعها
وكنت من الكافرين بها الجاحدين لها.^(٢)

تذكيره ﷺ بمصير الكفار ونجاة المتقين يوم القيامة:

قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ
فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ ﴿٦٠﴾ وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ
وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾ [الزمر].

(١) رواه أحمد في مسنده، ج ٥١٢/٢.

(٢) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١٤/١١ - ٢١؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١٦٢٤/٢ - ١٦٢٦.

يخبر تعالى عن يوم القيامة أنه تسود فيه وجوه وتبيض فيه وجوه. تسود وجوه أهل الفرقة والاختلاف. وتبيض وجوه أهل السنة والجماعة. قال تعالى هاهنا: ﴿ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله﴾ أي في دعواهم له شريكاً وولداً ﴿وجوههم مسودة﴾ أي بكذبهم وافترائهم. وقوله تعالى: ﴿أليس في جهنم مثوى للمتكبرين﴾ أي أليست جهنم كافية لهم سجنًا وموتلاً لهم فيها الخزي والهوان بسبب تكبرهم وتجبرهم وإبائهم عن الانقياد للحق؟

وقوله تعالى: ﴿وينجي الله الذين اتقوا بمفازتهم﴾ أي بما سبق لهم من السعادة والفوز عند الله، ﴿لا يمسهم سوء﴾ أي يوم القيامة، ﴿ولا هم يحزنون﴾ أي ولا يحزنهم الفزع الأكبر، بل هم آمنون من كل فزع مزحزون عن كل شر مؤملون كل خير.^(١)

توحيدہ ﷻ لله ورفضه للشرك والتحذير منه:

قال تعالى: ﴿اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٣﴾ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِعَايَنَةِ اللَّهِ أَوَلَيْكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٦٤﴾ قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ ﴿٦٥﴾ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ اللَّهُ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [الزمر].

يخبر تعالى أنه خالق الأشياء كلها وربها ومليكتها والمتصرف فيها، وكل تحت تدبيره وقهره وكلاءته. وقوله تعالى: ﴿له مقاليد السماوات والأرض﴾ أي خزائن السماوات والأرض والتحكم فيها وفي كل أمورها. له

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١١/٢١؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٦٢٦ - ١٦٢٧.

الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير. ولهذا قال جل وعلا: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ أي حججه وبراهينه ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَغْفِرُ اللَّهُ تَأْمُرُونِي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ﴾، ذكروا في سبب نزولها عن ابن عباس رضي الله عنه أن المشركين من جهلهم دعوا رسول الله ﷺ إلى عبادة آلهتهم، ويعبدون معه إلهه. فنزلت: ﴿قُلْ أَغْفِرُ اللَّهُ تَأْمُرُونِي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ. وَلَقَدْ أَوْحَى إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَنْ أَشْرَكَتَ لِيَحْبِطَنَّ عَمَلُكَ وَلِتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ ورسول الله ﷺ معصوم بنعم الله وتوحيده.

وقوله تعالى: ﴿بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ أي أخلص العبادة لله وحده لا شريك له **أَنْتَ** ومن معك ممن اتبعك وصدقك.^(١)

تذكيره ﷺ بحال الملائكة حول عرش الرحمن سبحانه:

قال تعالى: ﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُمُ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الزمر].

لما ذكر تعالى حكمه في أهل الجنة والنار، وأنه نزل كلاً في المحل الذي يليق به ويصلح له، وهو العادل في ذلك الذي لا يجور، أخبر تعالى عن ملائكته أنهم محدقون من حول العرش المجيد، يسبحون بحمد ربهم ويمجدونه ويعظمونه ويقدسونه وينزهونه عن النقائص والجور. وقد فصل القضية وقضي الأمر وحكم بالعدل. ولهذا قال سبحانه وتعالى: ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ أي بين الخلائق **بالحق**. ثم قال تعالى: ﴿وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١١/ ٢٢ - ٢٣؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/ ١٦٢٧.

العالمين ﴿أي ونطق الكون أجمعه لله رب العالمين بالحمد ، في حكمه وعدله فدلّ على أن جميع المخلوقات شهدت له بالحمد في البداية واختتم بالحمد في قوله ﷻ : ﴿وقضي بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين﴾.^(١)

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١١/٣٥ - ٣٦؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٦٣٣.

سورة غافر

تذكيره ﷺ بحال المكذبين:

قال تعالى: ﴿ مَا يُجَدِّلُ فِي ءَايَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرُكَ تَقْلِبُهُمْ فِي الْإِلْدَادِ ﴿٤﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾ وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴿٦﴾ ﴾ [غافر].

يقول تعالى ما يدفع الحق ويجادل فيه بعد البيان وظهور البرهان ﴿إلا الذين كفروا﴾ أي الجاحدون لآيات الله وحججه وبراهينه، ﴿فلا يغررك تقلبهم في البلاد﴾ أي في أموالها ونعيمها وزهرتها. ثم قال تعالى مسلماً نبيه محمداً ﷺ في تكذيب من كذبه من قومه بأن له أسوة فيمن سلف من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فإنه قد كذبهم أممهم وخالفوهم وما آمن بهم منهم إلا قليل، فقال تعالى: ﴿كذبت قبلهم قوم نوح﴾ وهو أول رسول بعثه الله ينهى عن عبادة الأوثان، ﴿والأحزاب من بعدهم﴾ أي من كل أمة، ﴿وهمت كل أمة برسولهم ليأخذوه﴾ أي حرصوا على قتله بكل ممكن، ومنهم من قتل رسوله، ﴿وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق﴾ بالشبهة والضلال ليردوا الحق الواضح الجلي.

عن ابن عباس ؓ عن النبي ﷺ قال: من أعان باطلاً ليدحض به حقاً فقد برئت منه ذمة الله تعالى وذمة رسوله ﷺ.

وقوله جلت عظمته: ﴿فَأَخَذْتَهُمْ﴾ أي أهلكتهم على ما صنعوا من هذه الآثام والذنوب العظام، ﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابُ﴾ أي فكيف بلغك عذابي لهم ونكالي بهم قد كان شديداً موجعاً مؤلماً. وقوله ﷻ: ﴿وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ أي كما حققت كلمة العذاب على الذين كفروا من الأمم السالفة كذلك حققت على المكذبين من هؤلاء الذين كذبوك وخالفوك يا محمد بطريق الأولى والأحرى؛ لأن من كذبك فلا وثوق له بتصديق غيرك، والله أعلم.^(١)

إنذاره ﷺ للمخالفين:

قال تعالى: ﴿وَأَنذَرَهُمْ يَوْمَ الْأَرْزَفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَظْمِينَ مَّا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ (١٨) يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ (١٩) وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (٢٠) [غافر].

يوم الأرفة اسم من أسماء يوم القيامة، وسميت بذلك لاقترابها. وقوله تعالى: ﴿إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَظْمِينَ﴾ وقفت القلوب في الحناجر من الخوف، فلا تخرج ولا تعود إلى أماكنها، ومعنى كظمين أي ساكتين لا يتكلم أحد إلا بإذنه ﴿كَظْمِينَ﴾ أي باكين.

وقوله سبحانه: ﴿مَّا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ أي ليس للذين ظلموا أنفسهم بالشرك بالله من قريب منهم ينفعهم ولا شفيع يشفع فيهم، بل قد تقطعت بهم الأسباب من كل خير.

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١١/ ٣٩ - ٤١؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/ ١٦٣٥.

وقوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ يخبر تعالى عن علمه التام المحيط بجميع الأشياء جليلها وحقيرها، صغيرها وكبيرها، دقيقها ولطيفها؛ ليحذر الناس علمه فيهم، فيستحيوا من الله تعالى حق الحياء ويتقوه حق تقواه، ويراقبوه مراقبة من يعلم أنه يراه فإنه تعالى يعلم العين الخائنة وإن أبدت أمانة ويعلم ما تتطوي عليه خبايا الصدور من الضمائر والسرائر.

قال ابن عباس ؓ في قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ هو الرجل يدخل على أهل البيت ببيتهم وفيهم المرأة الحسناء أو تمر به وبهم المرأة الحسناء فإذا غفلوا لحظ إليها، فإذا فطنوا غض بصره عنها، فإذا غفلوا لحظ، فإذا فطنوا غض. وقد اطلع الله تعالى من قلبه أنه ود أن لو اطلع على فرجها. وقيل: ﴿خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ﴾ هو الغمز، وقول الرجل رأيت ولم ير. أو لم أر وقد رأى.

وقال ابن عباس ؓ: يعلم الله تعالى من العين في نظرها هل تريد الخيانة أم لا؟ وقال في قوله تعالى: ﴿وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾: يعلم إذا أنت قدرت عليها هل تزني بها أم لا؟ وقال السدي: ﴿وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ من الوسوسة.

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ﴾ أي يحكم بالعدل. عن ابن عباس ؓ في قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ﴾ قادر على أن يجزي بالحسنة الحسنه وبالسئئة السئئة، ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾. وقوله جل وعلا: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ﴾ أي من الأصنام والأوثان والأنداد ﴿لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ﴾ أي لا يملكون شيئاً ولا يحكمون بشيء، ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ أي سميع لأقوال خلقه بصير بهم، فيهدي من يشاء ويضل من يشاء، وهو الحاكم

العادل في جميع ذلك.^(١)

دعوته ﷺ للصبر والاستغفار والتسبيح:

قال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ۖ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادِّثُونَ فِيءِ آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ ۖ إِنَّ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُمْ بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [غافر: ٥٦].

قوله تعالى: ﴿فاصبر﴾ أي يا محمد ﴿إن وعد الله حق﴾ أي وعدناك أنا سنعلي كلمتك ونجعل العاقبة لك ولمن اتبعك، والله لا يخلف الميعاد وهذا الذي أخبرناك به حق لا مرية فيه ولا شك. وقوله سبحانه: ﴿واستغفر لذنبي﴾ هذا تهيج له وللأمة على الاستغفار ﴿وسبح بحمد ربك بالعشي﴾ أي في أواخر النهار وأوائل الليل، ﴿والإبكار﴾ وهي أوائل النهار وأواخر الليل.

وقوله تعالى: ﴿إن الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم﴾ أي يدفعون الحق بالباطل ويردون الحج الصحيحة بالشبه الفاسدة، بلا برهان ولا حجة من الله، ﴿إن في صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه﴾ أي ما في صدورهم إلا كبر عن اتباع الحق واحتقار لمن جاءهم به، وليس ما يرومونه من إخماد الحق وإعلاء الباطل بحاصل لهم. بل الحق هو المرفوع وقولهم وقصدهم هو الموضوع، ﴿فاستعذ بالله﴾ أي من حال مثل هؤلاء وشرهم ﴿إنه هو السميع البصير﴾ هو أعلم بهم يسمعهم ويراهم.

وقيل نزلت هذه الآية في اليهود ﴿إن الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم﴾ إن في صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه، وذلك أنهم ادعوا

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١١/٤٩ - ٥١؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٦٣٨ - ١٦٣٩.

أنهم يملكون به الأرض، فقال الله تعالى لنبيه ﷺ أمراً له أن يستعيز منهم ومن فتنهم: ﴿فاستعذ بالله إنه هو السميع البصير﴾^(١).

توحيد الله ﷻ:

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَ فِي الْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [غافر].

يقول تعالى: قل يا محمد لهؤلاء المشركين إن الله ﷻ ينهى أن يُعبد أحد سواه من الأصنام والأنداد والأوثان. وقد بين سبحانه: أنه لا يستحق العبادة أحد سواه في قوله جلت عظمتة: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا﴾ [غافر: من الآية ٦٧].^(٢)

وصف حال المكذبين بآيات الله:

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنْ يُصْرِفُونَهَا^(٦٩) الَّذِينَ كَذَبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ^(٧٠) إِذِ الْأَغْلُلُ فِيَّ أَعْنَقِهِمْ وَالسَّلْسِلُ يُسْحَبُونَ^(٧١) فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ^(٧٢) ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَتَيْنَ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ^(٧٣) مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئًا كَذَلِكَ يَضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ^(٧٤) ذَلِكَ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ^(٧٥) ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ^(٧٦)﴾ [غافر].

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١١/٧٠ - ٧١؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٦٤٥.

(٢) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١١/٧٥ - ٧٦؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٦٤٨.

يقول تعالى: ألا تعجب يا محمد من هؤلاء المكذبين بآيات الله، ويجادلون في الحق بالباطل كيف تصرف عقولهم عن الهدى إلى الضلال، ﴿الذين كذبوا بالكتاب وبما أرسلنا به رسلنا﴾ أي من الهدى والبيان، ﴿فسوف يعلمون﴾ هذا تهديد شديد ووعيد أكيد من الرب ﷻ لهؤلاء. وقوله تعالى: ﴿إذ الأغلال في أعناقهم والسلاسل﴾ أي متصلة بالأغلال بأيدي الزبانية يسحبونهم على وجوههم تارة إلى الحميم وتارة إلى الجحيم. وقوله تعالى: ﴿ثم قيل لهم أين ما كنتم تشركون من دون الله﴾ أي قيل لهم: أين الأصنام التي كنتم تعبدونها من دون الله، هل ينصرونكم اليوم؟ ﴿قالوا ضلوا عنا﴾ أي ذهبوا فلم ينفعونا، ﴿بل لم نكن ندعوا من قبل شيئاً﴾ أي جحدوا عبادتهم، ولهذا قال تعالى: ﴿كذلك يضل الله الكافرين﴾.

وقوله تعالى: ﴿ذلكم بما كنتم تفرحون في الأرض بغير الحق وبما كنتم تمرحون﴾ أي تقول لهم الملائكة: هذا الذي أنتم فيه جزاء على فرحكم في الدنيا بغير حق ومرحكم وأشركم وبطركم، ﴿ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين﴾ أي فبئس المنزل والمقيل الذي فيه الهوان والعذاب الشديد لمن استكبر عن آيات الله واتباع دلائله وحججه. والله أعلم.^(١)

تثبيته ﷺ وقصص الأنبياء عليه:

قال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَكَأَيُّ مَآثِرِينَكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ تَوَفَّيْنَاكَ فَإِنَّا يَرْجِعُونَ ٧٧﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِثَابِتَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ فُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [غافر].

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١١/٧٦ - ٧٩؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٦٤٨.

يقول تعالى آمراً رسوله ﷺ بالصبر على تكذيب من كذّبه من قومه، فإن الله تعالى سينجز لك ما وعدك من النصر والظفر على قومك، وجعل العاقبة لك ولمن اتبعك في الدنيا والآخرة، ﴿فإما نرينك بعض الذي نعدهم﴾ أي في الدنيا وكذلك وقع، فإن الله تعالى أقر أعينهم من كبرائهم وعظمائهم أبيدوا في يوم بدر. ثم فتح الله عليه مكة المكرمة وسائر جزيرة العرب في حياته ﷺ. وقوله سبحانه: ﴿أو نتوفينك فإلينا يرجعون﴾ ولو توفيناك أي ذلك فنذيقهم العذاب الشديد في الآخرة.

وقوله تعالى: ﴿وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله﴾ أي ولم يكن لواحد من الرسل أن يأتي قومه بخارق للعادات إلا أن يأذن الله له في ذلك، فيدل على صدقه فيما جاءهم به. ﴿فإذا جاء أمر الله﴾ وهو عذابه ونكاله المحيط بالمكذبين ﴿قضي بالحق﴾ فينجي المؤمنين ويهلك الكافرين. ولهذا قال ﷺ: ﴿وخسر هنالك المبطلون﴾.^(١)

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١١/٧٩ - ٨٠؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٦٤٨ - ١٦٤٩.

سورة فصلت

الرد على المكذبين بالقرآن:

قال تعالى: ﴿حَمْدٌ تَنْزِيلُ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ۝٢ كُنْتُ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ، قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٣ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ۝٤ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا نَدْعُونَ إِلَيْهِ فِيءِ آذَانِنَا وَقُرْ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنَكَ حِجَابٌ فَأَعْمَلْ إِنَّا عَمِلُونَ ۝٥﴾ [فصلت].

يقول تعالى: ﴿حم تنزيل من الرحمن الرحيم﴾ يعني القرآن منزل من الرحمن الرحيم.

وقوله تعالى: ﴿كتاب فصلت آياته﴾ أي بينت معانيه وأحكمت أحكامه ﴿قرآنًا عربيًّا﴾ أي في حال كونه قرآنًا عربيًّا بينًا واضحًا، فمعانيه مفصلة وألفاظه واضحة غير مشككة، فهو معجز من حيث لفظه ومعناه.

وقوله تعالى: ﴿لقوم يعلمون﴾ أي إنما يعرف هذا البيان والوضوح العلماء الراسخون. ﴿بشيرًا ونذيرًا﴾ أي تارة يبشر المؤمنين وتارة ينذر الكافرين. ﴿فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون﴾ أي أكثر قريش، فهم لا يفهمون منه شيئًا مع بيانه ووضوحه. ﴿وقالوا قلوبنا في أكِنَّةٍ﴾ أي في غلف مغطاة ﴿مما تدعوننا إليه وفي آذاننا وقر﴾ أي صمم عما جئنا به يا محمد، ﴿ومن بيننا وبينك حجاب﴾ فلا يصل إلينا شيء مما تقوله ﴿فاعمل إننا عاملون﴾ أي اعمل أنت على طريقتك، ونحن على طريقتنا لا نتابعك.

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: اجتمعت قريش يوماً فقالوا انظروا أعلمكم بالسحر والكهانة والشعر، فليأت هذا الرجل الذي فرق جماعتنا وشتت أمرنا وعاب ديننا فليكلمه ولننظر ماذا يرد عليه.

فقالوا: ما نعلم أحداً غير عتبة بن ربيعة. فقالوا: أنت يا أبا الوليد فأناه عتبة فقال: يا محمد أنت خير أم عبد الله؟ فسكت رسول الله ﷺ فقال: أنت خير أم عبد المطلب؟ فسكت رسول الله ﷺ، فقال إن كنت تزعم أن هؤلاء خير منك فقد عبدوا الآلهة التي عُبدت. وإن كنت تزعم أنك خير منهم فتكلم حتى نسمع قولك، إنا والله ما رأينا سخلة قط أشأم على قومك منك، فرقت جماعتنا وشتت أمرنا، وعبت ديننا وفضحتنا في العرب، حتى لقد طار فيهم أن في قريش ساحراً وأن في قريش كاهناً. والله ما ننتظر إلا مثل صيحة الحبل أن يقوم بعضنا إلى بعض بالسيوف حتى نتفانى.

أيها الرجل إن كان بك الحاجة جمعنا لك حتى تكون أغنى قريش رجلاً واحداً، وإن كان بك الباءة فاخترأي نساء قريش شئت فلنزوجك عشراً. فقال رسول الله ﷺ: فرغت؟ قال: نعم، فقال رسول الله ﷺ: ﴿بسم الله الرحمن الرحيم حم تنزيل من الرحمن الرحيم﴾ - حتى بلغ - ﴿فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود﴾. فقال عتبة: حسبك حسبك! ما عندك غير هذا؟ فقال رسول الله ﷺ: لا! فرجع إلى قريش فقالوا ما وراءك؟ قال ما تركت شيئاً أرى أنكم تكلمونه به إلا كلمته، قالوا فهل أجابك؟ قال: لا والذي نصبها بنية ما فهمت شيئاً مما قاله، غير أنه أنذركم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود. قالوا ويلك! يكلمك الرجل بالعربية

لا تدري ما قال؟ قال: لا والله ما فهمت شيئاً مما قال غير ذكر الصاعقة.^(١)

وفي رواية أخرى فلما قرأ إلى قوله تعالى: ﴿فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود﴾ فأمسك عتبة على فيه وناشده بالرحم. ورجع إلى أهله، ولم يخرج إلى قريش واحتبس عنهم، فقال أبو جهل يا معشر قريش والله ما نرى عتبة إلا قد صبأ إلى محمد وأعجبه طعامه، وما ذاك إلا من حاجة أصابته، فانطلقوا بنا إليه. فانطلقوا إليه، فقال أبو جهل: يا عتبة ما حبسك عنا إلا أنك صبأت إلى محمد وأعجبك طعامه، فإن كانت بك حاجة جمعنا لك من أموالنا ما يغنيك عن طعام محمد. فغضب عتبة وأقسم أن لا يكلم محمد أبداً. وقال والله لقد علمتم أني من أكثر قريش مالاً ولكنني أتيتهم وقصصت عليه القصة فأجابني بشيء والله ما هو بشعر ولا كهانة ولا سحر. وقرأ السورة إلى قوله تعالى: ﴿فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود﴾. فأمسكت بففيه وناشدته بالرحم أن يكف. وقد علمتم أن محمد إذا قال شيئاً لم يكذب، فخشيت أن ينزل بكم العذاب.^(٢)

وفي رواية حتى إذا فرغ عتبة ورسول الله ﷺ يستمع منه قال: أفرغت يا أبا الوليد؟ قال: نعم. قال: فاستمع مني. قال: أفعل. قال: ﴿بسم الله الرحمن الرحيم حم تنزيل من الرحمن الرحيم كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون بشيراً ونذيراً فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون﴾، ثم مضى رسول

(١) انظر: رواية ابن هشام، السيرة النبوية، ج ١/٢٩٤؛ وكتابي "رسول الله وخاتم النبيين"، ج ٢/٢٨٦.

(٢) انظر: رواية ابن هشام، السيرة النبوية، ج ١/٢٩٤؛ وكتابي "رسول الله وخاتم النبيين"، ج ٢/٢٨٦.

الله ﷻ فيها وهو يقرؤها عليه. فلما سمع عتبة أنصت لها وألقى يديه خلف ظهره معتمداً عليهما يسمع منه، حتى انتهى رسول الله ﷺ إلى السجدة منها فسجد. ثم قال: قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت فأنت وذاك! فقام عتبة إلى أصحابه فقال بعضهم لبعض: نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به. فلما جلس إليهم قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد قال: ورائي أني سمعت قولاً والله ما سمعت مثله قط. والله ما هو بالسحر ولا بالشعر ولا بالكهانة. يا معشر قريش أطيعوني واجعلوها لي خلوا بين الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت نبأ، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم وعزه عزكم، وكنتم أسعد الناس به. قالوا سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه، قال هذا رأيي فيه فاصنعوا ما بدا لكم.^{(١) (٢)}

بشريته ﷺ:

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ﴾ (٦) [فصلت].

يقول تعالى: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء المكذبين المشركين: ﴿إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ ۖ لَا أَدْعُو لِعِبَادَةٍ غَيْرِهِ. لَا كَمَا تَعْبُدُونَهُ مِنَ الْأَصْنَامِ وَالْأَنْدَادِ وَالْأَرْبَابِ الْمُتَفَرِّقِينَ إِنَّمَا إِلَهُ الْوَاحِدُ، فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ﴾ أي أخلصوا له العبادة على منوال ما أمركم به على السنة

(١) انظر: رواية ابن هشام، السيرة النبوية، ج ١/ ٢٩٤؛ وكتابي "رسول الله وخاتم النبيين"، ج ٢/ ٢٨٦.

(٢) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١١/ ٨٤ - ٨٥؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/ ١٦٥٠ - ١٦٥١.

الرسول، ﴿واستغفروه﴾ أي لسالف الذنوب، ﴿وويل للمشركين﴾ أي دمار لهم وهلاك عليهم الذين لا يشهدون أن لا إله إلا الله.

تذكيره ﷺ بقدرته الله ﷻ:

قال تعالى: ﴿قُلْ أَنتَ كُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ١﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رُوسَى مِنْ فَوْقِهَا وَبَرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلْسَّائِلِينَ ١٠ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ١١ فَفَضَّلَهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْصِيحٍ وَحَفَظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ١٢﴾ [فصلت].

هذا إنكار من الله تعالى على المشركين الذين عبدوا معه غيره، وهو الخالق لكل شيء، القاهر لكل شيء المقتدر على كل شيء فقال تعالى: ﴿قل أنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أنداداً﴾ أي نظراء وأمثالاً تعبدونها معه، ﴿ذلك رب العالمين﴾ أي الخالق للأشياء هو رب العالمين كلهم.

وقوله تعالى: ﴿خلق الأرض في يومين﴾ جعلها مباركة قابلة للخير والبذر والغراس، وقدر فيها أقواتها، وهو ما يحتاج أهلها إليه من الأرزاق والأماكن التي تزرع وتغرس كما قال تعالى: ﴿وقدر فيها أقواتها﴾ جعل في كل أرض ما يصلح فيها.

قوله تعالى: ﴿سواء للسائلين﴾ أي لمن أراد السؤال عن ذلك. وقيل: معناه ﴿وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين﴾ أي على وفق مراد من له حاجة إلى رزق أو حاجة فإن الله تعالى قدر له ما يشاء مما هو محتاج إليه.

وقوله سبحانه: ﴿ثم استوى إلى السماء وهي دخان﴾ وهو بخار الماء

المتصاعد منه حين خلقت الأرض، ﴿فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً﴾ أي استجبيا لأمرى وانفعلا لفعلي طائعتين أو مكرهتين.

عن ابن عباس رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً﴾ قال: قال الله ﷻ للسموات: أطلعي شمسي وقمري ونجمي، وقال للأرض: شققي أنهارك وأخرجي ثمارك، ﴿قالتا أتيننا طائعتين﴾ أي بل نستجيب لك مطيعين، بما فينا مما تريد خلقه من الملائكة والجن والإنس جميعاً مطيعين لك.

﴿ففضاهن سبع سماوات في يومين﴾ أي ففرغ من تسويتهن سبع سماوات في يومين ﴿وأوحى في كل سماء أمرها﴾ أي ورتب في كل سماء ما تحتاج إليه من الملائكة وما فيها من الأشياء التي لا يعلمها إلا هو سبحانه، ﴿وزينا السماء الدنيا بمصابيح﴾ وهي الكواكب المنيرة المشرقة على أهل الأرض ﴿وحفظاً﴾ أي حرساً من الشياطين أن تستمع إلى الملائكة الأعلى، ﴿ذلك تقدير العزيز العليم﴾ أي العزيز الذي قد عز كل شيء فغلبه وقهره العليم بجميع حركات المخلوقات.

قال تعالى: ﴿قل إنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أنداداً ذلك رب العالمين وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين﴾.^(١)

إنذاره ﷻ لقريش بما حدث لمن قبلهم:

قال تعالى: ﴿فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صيحة مثلكم صيحة عاد وثمود﴾ (١٣) ﴿إذ جاءتهم الرسل من بين أيديهم ومن خلفهم ألا تعبدوا إلا الله قالوا لو شاء ربنا لأنزل ملكاً فإنا

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١١/ ٨٧ - ٩٣؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/ ١٦٥٢ - ١٦٥٣.

بِمَا أَرْسَلْتُمْ بِهِ كُفِرُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَحْحَدُونَ ﴿١٥﴾ [فصلت].

يقول تعالى: قل يا محمد لهؤلاء المشركين المكذبين بما جئتهم به من الحق: إن أعرضتم عما جئكم به من عند الله تعالى فإني أنذركم حلول نقمة الله بكم، كما حلت بالأمم الماضية من المكذبين بالمرسلين، ﴿صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود﴾ أي ومن شاكلها ممن فعل كفعلهما، ﴿إذ جاءتهم الرسل من بين أيديهم ومن خلفهم﴾ أي في القرى المجاورة لبلادهم بعث الله إليهم الرسل يأمرهم بعبادة الله وحده لا شريك له ومبشرين ومنذرين، ورأوا ما أحل الله بأعدائه من النقم، وما ألبس أوليائه من النعم. ومع هذا ما آمنوا ولا صدقوا، بل كذبوا وجحدوا وقالوا: ﴿لو شاء ربنا لأنزل ملائكة﴾ أي لو أرسل الله رسلاً لكانوا ملائكة من عنده، ﴿فإننا بما أرسلتم به﴾ أي أيها البشر ﴿كافرون﴾ أي لا نتبعكم وأنتم بشر مثلنا.

قال الله تعالى: ﴿فأما عاد فاستكبروا في الأرض﴾ أي بغوا وعتوا وعصوا، ﴿وقالوا من أشد منا قوة﴾ أي ظنوا بشدة تركيبيهم وقواهم أنهم يمتنعون بها من بأس الله. ﴿أولم يروا أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة﴾ أي أفما يتفكرون فيمن يبارزون بالعداوة فإنه العظيم الذي خلق الأشياء وركب فيها قواها الحاملة لها، وأن بطشه شديد.^(١)

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١١/٩٣ - ٩٨؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٦٥٣ - ١٦٥٤.

آيات الله في إحياء الأرض:

قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِ الْمَوْتِ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٣٩) [فصلت].

وقوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ﴾ في قدرته على إعادة الموتى ﴿أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً﴾ أي هامدة لا نبات فيها، بل هي ميتة، ﴿فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ أي أخرجت من جميع ألوان الزروع والثمار، ﴿إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِ الْمَوْتِ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^(١).

علم الله ﷻ بحال الملحدين الجاحدين بالقرآن:

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخَفُونَ عَلَيْنَا أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِيَ آمَنًا يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (٤٠) ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكَنُذْرٌ عَزِيزٌ﴾ (٤١) ﴿لَا يَأْنِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ (٤٢) ﴿مَا يَقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ (٤٣) [فصلت].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا﴾ الإلحاد وضع الكلام على غير مواضعه. ومنه الكفر والعناد، وقوله ﷻ: ﴿لَا يَخَفُونَ عَلَيْنَا﴾ فيه تهديد شديد ووعيد أكيد، أي إنه تعالى عالم بمن يلحد في آياته وأسمائه وصفاته، وسيجزيه على ذلك بالعقوبة والنكال. ولهذا قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِيَ آمَنًا يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ أي أيستوي هذا وهذا؟ لا يستويان.

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١١/ ١١٣ - ١١٤؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/ ١٦٠.

ثم قال تعالى تهديداً للكفرة: ﴿اعملوا ما شئتم﴾ وهذا وعيد، أي من خير أو شر إنه عالم بكم وبصير بأعمالكم ولهذا قال تعالى: ﴿إنه بما تعملون بصير﴾.

ثم قال ﷺ: ﴿إن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم﴾ وهو القرآن الكريم ﴿وإنه لكتاب عزيز﴾ أي منيع الجنب لا يرام أن يأتي أحد بمثله، ﴿لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه﴾ أي ليس للبطلان إليه سبيل؛ لأنه منزل من رب العالمين. ولهذا قال تعالى: ﴿تنزيل من حكيم حميد﴾ أي حكيم في أقواله وأفعاله حميد بمعنى محمود أي في جميع ما يأمر به وينهى عنه الجميع محمود عواقبه وغاياته.

ثم قال تعالى: ﴿ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك﴾ ما يقال لك يا محمد من التكذيب إلا كما قد قيل للرسل من قبلك. فكما كُذِّبَتْ كُذِّبُوا، وكما صبروا على أذى قومهم لهم فاصبر أنت على أذى قومك لك.

وقوله تعالى: ﴿إن ربك لذو مغفرة﴾ أي لمن تاب إليه، ﴿وذو عقاب أليم﴾ أي لمن استمر على كفره وطغيانه وعناده وشقاقه ومخالفته.

عن سعيد بن المسيب رضي الله عنه قال لما نزلت هذه الآية: ﴿إن ربك لذو مغفرة﴾ قال رسول الله ﷺ: ((لولا عفو الله وتجاوزه ما هنا أحدًا العيش، ولولا وعيده وعقابه لا تكل كل أحد)).^(١)

تأكيد هدي القرآن وأنه شفاء:

قال تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١١/ ١١٤ - ١١٧؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/ ١٦٠.

هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَٰئِكَ يُنَادُونَكَ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾ [فصلت].

لما ذكر تعالى القرآن وفصاحته وبلاغته وإحكامه في لفظه ومعناه، ومع هذا لم يؤمن به المشركون، نبه تعالى على أن كفرهم به كفر عناد وتغنت. وكذلك لو أنزل القرآن كله بلغة العجم لقالوا على وجه التغنت والعناد: ﴿لولا فصلت آياته أأعجمي وعربي﴾ أي لقالوا: هلا أنزل مفصلاً بلغة العرب، ولأنكروا ذلك فقالوا أعجمي وعربي أي كيف ينزل كلام أعجمي على مخاطب عربي لا يفهمه؟ وقيل المراد بقولهم: ﴿لولا فصلت آياته أأعجمي وعربي﴾ أي هل أنزل بعضها بالأعجمي وبعضها بالعربي؟ وهو في التغنت والعناد أبلغ.

ثم قال تعالى: ﴿قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء﴾ أي قل يا محمد: هذا القرآن لمن آمن به هدى لقلبه وشفاء لما في الصدور من الشكوك والريب، ﴿والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر﴾ أي لا يفهمون ما فيه، ﴿وهو عليهم عمى﴾ أي لا يهتدون إلى ما فيه من البيان.

وقال تعالى: ﴿أولئك ينادون من مكان بعيد﴾ كأن من يخاطبهم يناديهم من مكان بعيد لا يفهمون ما يقول.^(١)

ضلال الكافرين بالقرآن:

قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مِنْ أَضَلِّ مَعَنٍ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ سُرِّيهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾﴾ [فصلت].

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١١/ ١١٨ - ١٢١؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/ ١٦٦٠ - ١٦٦١.

يقول تعالى: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين المكذبين بالقرآن: ﴿أرأيتم إن كان﴾ هذا القرآن ﴿من عند الله ثم كفرتم به﴾ أي كيف ترون حالكم عند الذي أنزله على رسوله ﷺ؟ ولهذا قال تعالى: ﴿من أضل ممن هو في شقاق بعيد﴾ أي في كفر وعناد ومشاقة للحق ومسلك بعيد من الهدى. ثم قال ﷻ: ﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم﴾ أي سنظهر لهم دلالاتنا وحججنا على كون القرآن حقاً منزلاً من عند الله على رسوله ﷺ بدلائل خارجية، ﴿في الآفاق﴾ من الفتوحات وظهور الإسلام على الأقاليم وانتشاره وسائر الأديان ومن ذلك وقعة بدر وفتح مكة، ونحو ذلك من الوقائع التي حلت بهم نصر الله فيها رسوله محمدًا ﷺ وصحبه، وخذل فيها الباطل وحزبه.

ويحتمل أن يكون المراد من ذلك ما الإنسان مركب منه وفيه، وعليه من المواد والأخلاق والهيئات العجيبة كما هو مبسوط في علم التشريح الدال على حكمة الصانع. وفي بعض المكتشفات الحديثة في الآفاق في الفلك والتقنية وغيرها ما يدل على عظمة الله وقدرته، ويدفع لمزيد من الإيمان به.

وقوله تعالى: ﴿حتى يتبين لهم أنه الحق أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد﴾ أي كفى بالله شهيداً على أفعال عباده وأقوالهم. وهو يشهد أن محمدًا ﷺ صادق فيما أخبر به عنه، وعلم بما يعملون ويصنعون.^(١)

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١١/ ١٢٥ - ١٢٦؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/ ١٦٦٢.

سورة الشورى

وحي الله له ﷺ كالأنبياء السابقين ﷺ:

قال تعالى: ﴿حَمْدٌ (١) عَسَقَ (٢)﴾ كَذَلِكَ يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٣) [الشورى].

﴿كذلك يوحى إليك وإلى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم﴾ أي كما أنزل إليك هذا القرآن الكريم كذلك أنزل الكتب والصحف على الأنبياء قبلك.

وقوله تعالى: ﴿الله العزيز﴾ أي في انتقامه ﴿الحكيم﴾ في أقواله وأفعاله. عن عائشة رضي الله عنها قالت: إن الحارث بن هشام سأل رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله كيف يأتيك الوحي؟ فقال رسول الله ﷺ: أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس، وهو أشده علي فيفصم عني وقد وعيت ما قال، وأحياناً يأتيني الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول. قالت عائشة رضي الله عنها: فلقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ﷺ ليتفصد عرقاً. (١)

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١١/ ١٢٧ - ١٢٩؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/ ١٦٦٣. (والحدريث رواه البخاري في صحيحه كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ، ج ١/ ٢ - ٣؛ ومسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب عرق النبي ﷺ في البرد، وحين يأتيه الوحي، ج ٧/ ٨٢).

ليس وكيلاً على الخلق ﷺ بل الله هو الحفيظ:

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيفٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ (الشورى: ٦).

﴿والذين اتخذوا من دونه أولياء﴾ يعني المشركين ﴿اللَّهُ حَفِيفٌ عَلَيْهِمْ﴾ أي شهيد على أعمالهم يحصيها ويعدّها عدّاً ، وسيجزّيهم بها أوفر الجزاء ﴿وما أنت عليهم بوكيل﴾ أي إنما أنت نذير والله على كل شيء وكيل.^(١)

إنذاره ﷺ لأم القرى (مكة المكرمة):

قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِنُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَنُنْذِرَ يَوْمَ الْجُمُعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فِرْقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفِرْقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ (الشورى: ٧).

يقول تعالى: وكما أوحينا إلى الأنبياء قبلك ﴿أوحينا إليك قرآنًا عربيًّا﴾ أي واضحاً جلياً بيناً ﴿لتنذر أم القرى﴾ وهي مكة المكرمة ﴿ومن حولها﴾ أي من سائر البلاد شرقاً وغرباً ، وسميت مكة المكرمة أم القرى؛ لأنها أشرف من سائر البلاد لأدلة كثيرة منها قوله ﷺ: والله إنك لخير أرض الله. وأحب أرض الله إلى الله ولولا أني أخرجت منك ما خرجت.^(٢)

وقوله تعالى: ﴿وتنذر يوم الجمعة﴾ وهو يوم القيامة ، يجمع الله تعالى الأولين والآخرين في صعيد واحد. وقوله تعالى: ﴿لا ريب فيه﴾ أي لا شك في وقوعه ، وأنه كائن لا محالة.

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١١/ ١٢٧ - ١٢٩؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/ ١٦٦٣.

(٢) انظر: الترمذي، صحيحه، ج ٥/ ٧٢٢، برقم ٣٩٢٥؛

ابن حبان، صحيحه - بترتيب ابن لبان -، ج ٩/ ٢٢، برقم ٣٧٠٨؛

انظر: كتابي "رسول الله وخاتم النبيين"، القسم الثاني "الاضطهاد والهجرة"، ص ٤٣٦.

وقوله جل وعلا: ﴿فريق في الجنة وفريق في السعير﴾ فهم قسمان بأمر الله الذي علم ما سيعملون.^(١)

دينه دين الأنبياء ﷺ قبله:

قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا نَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾ (١٣) ﴿وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَعِيًا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةُ سُبْحَتٍ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكُتُبَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مِرْيٌ﴾ (١٤) [الشورى].

يقول تعالى لهذه الأمة: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ فذكر أول الرسل بعد آدم ﷺ، وهو نوح ﷺ وآخرهم محمد ﷺ، ثم ذكر من بين ذلك من أولي العزم وهم إبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم ﷺ. وهذه الآية انتظمت ذكر الخمسة.

وفي الحديث الشريف: نحن معشر الأنبياء أولاد علات ديننا واحد.^(٢)

فالقدر المشترك بينهم هو عبادة الله وحده لا شريك له، وحمل النبوة ورسالته للناس، وإن اختلفت شرائعهم. وقال تعالى هاهنا: ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ أي وصى الله تعالى جميع الأنبياء ﷺ بالائتلاف والجماعة. ونهاهم عن الافتراق والاختلاف.

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١١/ ١٢٩ - ١٣١؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/ ١٦٦.

(٢) انظر: صحيح البخاري، كتاب الأنبياء، باب: (واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها)، ج ٤/ ١٤٢؛ صحيح مسلم، كتاب الفضائل، باب فضائل عيسى ﷺ، ج ٧/ ٩٧. وسبق تخريجه.

وقوله تعالى: ﴿كبر على المشركين ما تدعوهم إليه﴾ أي شق عليهم وأنكروا ما تدعوهم إليه يا محمد من التوحيد. ثم قال ﷺ: ﴿اللَّهُ يجتبي إليه من يشاء ويهدي إليه من ينيب﴾ أي هو الذي يقدر الهداية لمن يستحقها ويكتب الضلالة على من آثرها على طريق الرشد. ولهذا قال ﷺ: ﴿وما تفرقوا إلا من بعد ما جاءهم العلم﴾ أي إنما كانت مخالفتهم للحق بعد بلوغه إليهم وقيام الحجة عليهم، وما حملهم على ذلك إلا البغي والعناد والمشقة. ثم قال ﷺ: ﴿ولولا كلمة سبقت من ربك إلى أجل مسمى﴾ أي لولا الكلمة السابقة من الله تعالى بإنظار العباد بإقامة حسابهم إلى يوم المعاد لعجل عليهم العقوبة في الدنيا سريعاً.

وقوله جلت عظمتة: ﴿وإن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم﴾ يعني الجيل المتأخر بعد القرن الأول المكذَّب للحق ﴿لفي شك منه مريب﴾ أي ليسوا على يقين من أمرهم وإيمانهم، وإنما هم مقلدون لأبائهم وأسلافهم، بلا دليل ولا برهان. وهم في حيرة من أمرهم وشك مريب وشقاق بعيد.^(١)

استقامته ﷺ ودعوته لذلك:

قال تعالى: ﴿فَلِذَلِكَ فَادُعُ وَاَسْتَقِمَّ كَمَا أُمِرْتُ وَلَا تَبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ [الشورى].

﴿فلذلك فادع﴾ أي فللذي أوحينا إليك من الدين الذي وصينا به جميع المرسلين قبلك، أصحاب الشرائع الكبار المتبعة كأولي العزم وغيرهم فادع الناس إليه.

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١١/ ١٣٤ - ١٣٧؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/ ١٦٤٨ - ١٦٤٩.

وقوله تعالى: ﴿وَاسْتَقِمْ كَمَا أَمَرْتُ﴾ أي واستقم يا محمد أنت ومن اتبعك على عبادة الله تعالى، كما أمركم الله ﷻ. وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ يعني المشركين فيما اختلفوا فيه وكذبوه وافتروه من عبادة الأوثان.

وقوله جل وعلا: ﴿وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ﴾ أي صدقت بجميع الكتب المنزلة من السماء على الأنبياء لا نفرق بين أحد منهم.

وقوله تعالى: ﴿وَأَمَرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ﴾ أي في الحكم كما أمرني الله. وقوله جلت عظمتة: ﴿اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ أي هو المعبود لا إله غيره فنحن نقر بذلك اختياراً، وأنتم وإن لم تفعلوه اختياراً فله يسجد من في العالمين طوعاً واختياراً.

وقوله تعالى: ﴿لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ﴾ أي نحن برآء منكم. وقوله تعالى: ﴿لَا حِجَةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ أي لا خصومة ولا جدال. وقوله ﷻ: ﴿اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا﴾ أي يوم القيامة، كقوله تعالى: ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ﴾. وقوله جل وعلا: ﴿وَالِيهِ الْمَصِيرُ﴾ أي المرجع والمآب يوم الحساب.^(١)

وصف حال الظالمين الكفرة يوم القيامة وبشرى المؤمنين:

قال تعالى: ﴿تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُمْ وَاقِعٌ بِهِمْ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ۝٢٢﴾ ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ وَمَن يَقْرِضْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١١/١٣٧ - ١٣٨؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٦٦٥ - ١٦٦٦.

شُكُورٌ ﴿٢٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِنْ يَشَأِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمُ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٢٤﴾ [الشورى].

يقول تعالى لما ذكر روضات الجنات لعباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات: ﴿ذلك الذي يبشر الله عباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ أي هذا حاصل لهم كائن لا محالة ببشارة الله تعالى لهم به.

وقوله تعالى: ﴿قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى﴾، أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين من كفار قريش لا أسألكم على هذا البلاغ والنصح لكم ما لا تعطوني، وإنما أطلب منكم أن تكفوا شركم عني، وتذروني أبلغ رسالات ربي. إن لم تتصروني فلا تؤذوني بما بيني وبينكم من القرابة.

وقوله تعالى: ﴿إلا المودة في القربى﴾ المقصود آل محمد ﷺ.

قال ابن عباس ؓ: عجلت إن النبي ﷺ لم يكن بطن من قريش إلا كان له فيهم قرابة فقال: إلا أن تصلوا ما بيني وبينكم من القرابة.

عن ابن عباس ؓ أن النبي ﷺ قال: ((لا أسألكم على ما آتيتكم من البينات والهدى أجراً إلا أن توادوا الله تقربوا إليه بطاعته)).^(١)

كما أن من معنى ذلك أن تودوني في قرابتي، أي تحسنوا إليهم وتبروهم. وتؤكد الإحسان والمودة لقربى النبي ﷺ.

ولا تنكر الوصاة بأهل البيت والأمر بالإحسان إليهم واحترامهم وإكرامهم، فإنهم من ذرية طاهرة من أشرف بيت وجد على وجه الأرض

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده، ج ١/٢٦٨.

فخراً وحسباً ونسباً، ولا سيما إذا كانوا متبعين للسنّة النبوية الصحيحة الواضحة الجليلة، كما كان عليه سلفهم.

عن زيد بن أرقم رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((إني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي: أحدهما أعظم من الآخر: كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض، والآخر عترة أهل بيتي. ولن يفترقا حتى يردا علي الحوض، فانظروا كيف تخلفوني فيهما)).^(١)

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَقْتِرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حَسَنًا﴾ أي ومن يعمل حسنة ﴿نزد له فيها حسناً﴾ أي أجراً وثواباً.

وقوله ﷺ: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِنْ يَشِإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ﴾ أي لو افتريت عليه يا محمد كذباً كما يزعم هؤلاء الجاهلون، ﴿يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ﴾ أي يطبع على قلبك ويسلبك ما كان آتاك من القرآن الكريم.

﴿وَيَمَحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ﴾ أي يحققه ويثبتته ويبينه ويوضحه بكلماته، أي بحججه وبراهينه، ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أي بما تكنه الضمائر وتتطوي عليه السرائر.^(٢)

هو ﷺ مبلغ وليس حفيظاً:

قال تعالى: ﴿اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِّنَ اللَّهِ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَأٍ يَّوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكَيرٍ ۝٤٧﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنَّ

(١) سنن الترمذي، كتاب المناقب، باب مناقب أهل بيت النبي ﷺ، ج ٥/٦٦٣، حديث رقم:

٣٧٨٨.

(٢) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١١/١٤١ - ١٤٦؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٦٧ - ١٦٦٩.

عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلْعُ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَحَرَّهَا وَإِنْ نُصِيبُهُمْ سَيْئَةً يُمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾ [الشورى].

لما ذكر تعالى ما يكون في يوم القيامة من الأهوال والأمور العظام الهائلة حذر منه وأمر بالاستعداد له، فقال تعالى: ﴿استجيبوا لربكم من قبل أن يأتي يوم لا مرد له من الله﴾ أي إذا أمر بكونه فإنه كلمح البصر يكون، وليس له دافع ولا مانع.

وقوله تعالى: ﴿ما لكم من ملجأ يومئذ وما لكم من نكير﴾ أي ليس لكم حصن تتحصنون فيه ولا مكان يستركم وتتكرون فيه فتغيبون عنه وعن قدرته، بل هو محيط بكم بعلمه وبصره وقدرته، فلا ملجأ منه إلا إليه.

وقوله تعالى: ﴿فإن أعرضوا﴾ يعني المشركين ﴿فما أرسلناك عليهم حفيظاً﴾ أي لست عليهم بمسيطر. وقال جل وعلا هاهنا: ﴿إن عليك إلا البلاغ﴾ أي إنما كلفناك يا محمد أن تبلغهم رسالة الله إليهم.

ثم قال تعالى: ﴿وإننا إذا أذقنا الإنسان منا رحمة فرح بها﴾ أي إذا أصابه رخاء ونعمة فرح بذلك، ﴿وإن تصيبهم﴾ يعني الناس ﴿سيئة﴾ أي جذب وبلاء وشدة ﴿فإن الإنسان كفور﴾ أي يجحد ما تقدم من النعمة ولا يعرف إلا الساعة الراهنة، فإن أصابته نعمة أشرب ويطر، وإن أصابته محنة يئس وقنط.^(١)

الوحي من الله لرسوله ﷺ:

قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَشْرِ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحِيًّا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١١/١٦٠ - ١٦١؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٦٧٤ - ١٦٧٥.

رَسُولًا فَيُوحِي بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلَىٰ حَكِيمٍ ﴿٥١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا
مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ
لَتَهْدَىٰ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ أَلَا إِلَىٰ
اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ﴿٥٣﴾ [الشورى].

هذه مقامات الوحي بالنسبة إلى جنات الله تعالى، وهو أنه ﷺ تارة يقذف
في روع النبي ﷺ شيئاً لا يتماهى فيه أنه من الله سبحانه.

جاء عن رسول الله ﷺ أنه قال: أيها الناس اتقوا الله وأجملوا في الطلب،
فإن نفساً لن تموت حتى تستوفي رزقها وإن أبطأ عنها، فاتقوا الله وأجملوا
في الطلب. خذوا ما حل ودعوا ما حرم.^(١)

وقوله تعالى: ﴿أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ كما كلم موسى عليه السلام، فإنه سأل
الرؤية بعد التكليم فحجب عنها.

وقوله تعالى: ﴿أَوْ يَرْسَلْ رَسُولًا فَيُوحِي بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ﴾ كما ينزل
جبريل عليه السلام وغيره من الملائكة على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ﴿إِنَّهُ
عَلَىٰ حَكِيمٍ﴾ فهو علي عليم خبير حكيم.

وقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ يعني القرآن
الكريم ﴿مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ﴾ أي على التفصيل الذي
شرع لك في القرآن الكريم ﴿وَلَكِن جَعَلْنَاهُ﴾ أي القرآن الكريم ﴿نُورًا
نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ﴾ أي يا محمد ﴿لَتَهْدَىٰ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ وهو

(١) رواه ابن ماجه في سننه، كتاب التجارات، باب الاقتصاد في طلب المعيشة، ج ٢/٧٢٥،
حديث رقم: ٢١٤٤.

التوحيد والخلق القويم. ثم فسرته تعالى بقوله تعالى: ﴿صراط الله﴾ أي شرعه الذي أمر به الله ﴿الذي له ما في السماوات وما في الأرض﴾ أي ربهما ومالكهما والمتصرف فيهما والحاكم الذي لا معقب لحكمه. ﴿ألا إلى الله تصير الأمور﴾ أي ترجع الأمور، فيفصلها سبحانه ويحكم فيها سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون والجاحدون علواً كبيراً.^(١)

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١١/ ١٦٢ - ١٦٤؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/ ١٦٧٥.

سورة الزخرف

امتحان الكفار للإقرار بقدرته الله:

قال تعالى: ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ٩﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ١٠﴾ وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً يَقْدَرُ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ١١﴾ وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ١٢﴾ لَّيْسَتُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَنَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ١٣﴾ وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ ١٤﴾ [الزخرف].

يقول تعالى: ولئن سألت يا محمد هؤلاء المشركين بالله، العابدين معه غيره ﴿من خلق السماوات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم﴾ أي ليعترفن بأن الخالق لذلك هو الله وحده لا شريك له. وهم مع هذا يعبدون معه غيره من الأصنام والأنداد. ثم قال تعالى: ﴿الذي جعل لكم الأرض مهدياً﴾ أي فراشاً قراراً ثابتة تسيرون عليها وتقومون وتنامون وتتصرفون، مع أنها مخلوقة على تيار الماء، لكنه أرساها بالجبال لئلا تميد هكذا ولا هكذا. ﴿وجعل لكم فيها سبلاً﴾ أي طرقاً بين الجبال والأودية، ﴿لعلكم تهتدون﴾ أي في سيركم من بلد إلى بلد، وقطر إلى قطر، وإقليم إلى إقليم. ﴿والذي نزل من السماء ماء بقدر﴾ أي بمقدار لزروعكم وثماركم وشربكم لأنفسكم ولأنعامكم.

وقوله تعالى: ﴿فأنشَرنا به بلدة ميتة﴾ أي أرضاً ميتة. فلما جاءها الماء

اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج. ثم نبه تعالى بإحياء الأرض على إحياء الأجساد يوم المعاد بعد موتها. فقال: ﴿كذلك تخرجون﴾.

ثم قال سبحانه: ﴿والذي خلق الأزواج كلها﴾ أي مما تثبت الأرض من سائر الأصناف من نبات وزروع وثمار وأزاهير، وغير ذلك من الحيوانات على اختلاف أجناسها وأصنافها، ﴿وجعل لكم من الفلك﴾ أي السفن والمراكب ﴿والأنعام ما تركبون﴾ أي ذللها لكم وسخرها ويسرها لأكلكم لحومها وشربكم ألبانها وركوبكم ظهورها. ولهذا قال جل وعلا: ﴿لتستووا على ظهوره﴾ أي لتستووا متمكنين مرتفقين ﴿على ظهوره﴾ أي على ظهور هذا الجنس من سفن ومراكب وحيوانات، ﴿ثم تذكروا نعمة ربكم﴾ أي فيما سخر لكم ﴿إذا استويتم عليه وتقولوا سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين﴾ أي مقاومين مطيقين مستفيدين. ولولا تسخير الله لنا هذا ما قدرنا عليه ﴿وإنا إلى ربنا لمنقلبون﴾ أي لصاترون إليه بعد مماتنا وإليه سيرنا الأكبر. وهذا من باب التنبية بسير الدنيا على سير الآخرة.^(١)

أذى رسول الله ﷺ من المترفين كغيره من الأنبياء:

قال تعالى: ﴿أَمْ أَنَبِئْتُهُمْ كَتَبْنَا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ﴾ (٢١) ﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّهْتَدُونَ﴾ (٢٢) ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ﴾ (٢٣) ﴿قُلْ أُولَٰئِكَ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ (٢٤) ﴿فَانقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَنْظَرُكُمْ كَيْفَ كَانَ عِقَابُ الْمُكْذِبِينَ﴾ (٢٥) [الزخرف].

يقول تعالى منكرًا على المشركين في عبادتهم غير الله بلا برهان ولا

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١١/ ١٦٩ - ١٧٢؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/ ١٦٧٧.

دليل ولا حجة: ﴿أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ﴾ أي من قبل القرآن الكريم ﴿فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ﴾ أي فيما هم فيه ليس الأمر كذلك، أي لم يكن ذلك.

ثم قال تعالى: ﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ﴾ أي ليس لهم مستند فيما هم فيه من الشرك سوى تقليد الآباء والأجداد بأنهم كانوا على أمة. والمراد بها الدين هاهنا، وقولهم: ﴿وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ﴾ أي وراءهم ﴿مُهْتَدُونَ﴾ دعوى منهم بلا دليل.

ثم بين جل وعلا أن مقالة هؤلاء قد سبقهم إليها أشباههم ونظراؤهم من الأمم السالفة المكذبة للرسول.

﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ﴾.

ثم قال ﷺ قل يا محمد لهؤلاء المشركين: ﴿أَوَلَوْ جِئْتَكُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ أي ولو علموا وتيقنوا صحة ما جئتهم به لما انقادوا لذلك؛ لسوء قصدهم ومكابرتهم للحق وأهله. قال الله تعالى: ﴿فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ أي من الأمم المكذبة بأنواع من العذاب، كما فصله سبحانه في قصصهم ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ أي كيف بادوا وهلكوا وكيف نجى الله المؤمنين^(١).

توحيد الله وقدرته على من عاند الله ﷻ والرسول ﷺ:

قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ۖ وَإِنَّهُمْ

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١١/ ١٧٥ - ١٧٨؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/ ١٦٧٩.

لِيَصُدُّوهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ ﴿٣٨﴾ وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْى وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّمَا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾ فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴿٤٤﴾ وَسْأَلُ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهًا يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾ [الزخرف].

يقول تعالى: ﴿ومن يعش﴾ أي يتعمى ويتغافل ويعرض ﴿عن ذكر الرحمن﴾. والعشا في العين ضعف بصرها. والمراد هاهنا عشا البصيرة ﴿نقيض له شيطاناً فهو له قرين﴾.

ثم قال تعالى: ﴿وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون حتى إذا جاءنا﴾ أي هذا الذي تغافل عن الهدى نقيض له من الشياطين من يضلّه ويهديه إلى صراط الجحيم.

فإذا وافى الله ﷻ يوم القيامة يتبرم بالشیطان الذي وكل به ﴿قال يا ليت بيني وبينك بعد المشرقين فبئس القرين﴾.

والمراد بالمشرقين هاهنا هو ما بين المشرق والمغرب.

ثم قال تعالى: ﴿ولن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم أنكم في العذاب مشتركون﴾ أي لا يغني عنكم اجتماعكم في النار واشتراككم في العذاب الأليم.

وقوله جلت عظمتة: ﴿أفأنت تسمع الصم أو تهدي العمي ومن كان في ضلال مبين﴾ أي ليس ذلك إليك إنما عليك البلاغ، وليس عليك

هداهم، ولكن الله يهدي من يشاء ويضل من يشاء، وهو الحكم العدل في ذلك.

قال تعالى: ﴿فإما نذهبن بك فإننا منهم منتقمون﴾ أي لا بد أن ننتقم منهم ونعاقبهم ولو ذهب أنت يا محمد ﷺ ﴿أو نرينك الذي وعدناهم فإنا عليهم مقتدرون﴾ أي نحن قادرون على هذا وعلى هذا، ولم يقبض الله تعالى رسوله ﷺ حتى أقر عينه من أعدائه وحكمه في نواصيهم، وملكه ما تضمنته صياصيتهم!

قال أحد السلف: ذهب النبي ﷺ وبقيت النعمة، ولن يري الله سبحانه نبيه ﷺ في أمته شيئاً يكرهه حتى مضى، ولم يكن نبي قط إلا وقد رأى العقوبة في أمته إلا نبيكم ﷺ.

وفي الحديث: النجوم أمانة للسماء، فإذا ذهب النجوم أتى السماء ما توعد. وأنا أمانة لأصحابي، فإذا ذهب أتى أمتي ما يوعدون.^(١)

ثم قال تعالى: ﴿فاستمسك بالذي أوحى إليك إنك على صراط مستقيم﴾ أي: خذ بالقرآن المنزل على قلبك، فإنه هو الحق وما يهدي إليه هو الحق المفضي إلى صراط الله المستقيم الموصل إلى جنات النعيم والخير الدائم المقيم.

ثم قال ﷺ: ﴿وإنه لذكر لك ولقومك﴾ قيل معناه: لشرف لك ولقومك؛ من حيث إنه أنزل بلغتهم، فهم أفهم الناس له فينبغي أن يكونوا أقوم الناس به وأعملهم بمقتضاه. وهكذا كان خيارهم وصفوتهم من الخالص من

(١) رواه مسلم في صحيحه، فضائل الصحابة ﷺ، باب بيان أن بقاء النبي ﷺ أمان لأصحابه، وبقاء أصحابه أمان للأمة، ج ٧/١٨٣.

المهاجرين السابقين الأولين ومن شابههم وتابعهم. وقيل: معناه ﴿وإنه لذكر لك ولقومك﴾ أي لتذكير لك ولقومك، وتخصيصهم بالذكر لا ينفي من سواهم. ﴿وسوف تسئلون﴾ أي عن هذا القرآن الكريم، وكيف كنتم في العمل به والاستجابة له.

وقوله تعالى: ﴿وسئل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجمعنا من دون الرحمن آلهة يعبدون﴾ أي جميع الرسل دعوا إلى ما دعوت الناس إليه من عبادة الله وحده لا شريك له، ونهوا عن عبادة الأصنام والأنداد.^(١)

الرد على جدل المشركين في عيسى عليه السلام:

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا ضَرَبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ۚ وَقَالُوا يَا إِلَهُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ۚ إِنَّ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ ۚ وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُقُونَ ۚ وَإِنَّهُ لَعَلَّمَ لِلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُكُ بِهَا وَاتَّبِعُونَ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ۚ وَلَا يَصُدَّنَّكُمْ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ۚ وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلَفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ۚ فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابٍ يَوْمَ الْيَوْمِ ۚ﴾ [الزخرف].

يقول تعالى مخبراً عن تغت قريش في كفرهم وتعمدهم العناد والجدل: ﴿ولما ضرب ابن مريم مثلاً إذا قومك منه يصدون﴾ يضحكون ويصرفون عنه الناس.

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١١/ ١٨٨ - ١٩٣؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/ ١٦٨٠ - ١٦٨١.

روي أنه جلس رسول الله ﷺ يوماً مع الوليد بن المغيرة في المسجد، فجاء النضر بن الحارث، حتى جلس معهم، وفي المجلس غير واحد من رجال قريش، فتكلم رسول الله ﷺ، فعرض له النضر بن الحارث فكلمه رسول الله ﷺ حتى أفحمه، ثم تلا عليه ﴿إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون﴾ [الأنبياء: ٩٨].

ثم قام رسول الله ﷺ وأقبل عبدالله بن الزبير التميمي حتى جلس، فقال الوليد بن المغيرة له: والله ما قام النضر بن الحارث لابن عبدالمطلب وما قعد، وقد زعم محمد أنا وما نعبد من آلهتنا هذه حصب جهنم. فقال عبدالله بن الزبير: أما والله لو وجدته لخصمته، سلوا محمداً أكل ما يعبد من دون الله في جهنم مع من عبده، فنحن نعبد الملائكة واليهود تعبد عزيزاً، والنصارى تعبد المسيح عيسى ابن مريم. فعجب الوليد ومن كان معه في المجلس من قول عبدالله بن الزبير، ورأوا أنه قد احتج وخاصم. فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فقال ﷺ: "كل من أحب أن يعبد من دون الله فهو مع من عبده. فإنهم إنما يعبدون الشيطان ومن أمرهم بعبادته". فأنزل الله تعالى: ﴿إن الذين سبقوا لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون﴾ [الأنبياء: ١٠١] أي عيسى وعزيز ومن عبد معهما من الأحرار والرهبان، الذين مضوا على طاعة الله تعالى، فاتخذهم من يعبدهم من أهل الضلالة أرباباً من دون الله. وهذا قائم إلى يوم القيامة. فمن عبد من آل البيت وهو كاره مبعود من النار بإذن الله.

ونزل فيما يذكر من أمر عيسى عليه السلام وأنه يعبد من دون الله. وعجب الوليد ومن حضر من حجته وخصومته. ﴿ولما ضرب ابن مريم مثلاً إذا قومك منه يصدون﴾ أي يصدون عن أمرك بذلك من قوله.

ثم ذكر عيسى عليه السلام فقال: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْد أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مِثْلًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلِفُونَ وَإِنَّهُ لَعَلِمَ لِلسَّاعَةِ﴾ أي ما وضعت على يديه من الآيات من إحياء الموتى وإبراء الأسقام فكفى به دليلاً على علم الساعة يقول: ﴿فَلَا تَمْتَرْنَ بِهَا وَاتَّبِعُونْ هَذَا صِرَاطَ مُسْتَقِيمٍ﴾.

عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا ضَرَبَ ابْنُ مَرْيَمَ مِثْلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُون﴾ قال: يعني قريشاً، قالت لرسول الله ﷺ: فما ابن مريم؟ قال ﷺ: ذاك عبد الله ورسوله. فقالوا: والله ما يريد هذا إلا أن نتخذه رباً كما اتخذت النصراني عيسى ابن مريم عليه السلام رباً، فقال الله سبحانه: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾.

﴿وَإِنَّهُ لَعَلِمَ لِلسَّاعَةِ﴾ قال: هو خروج عيسى ابن مريم عليه السلام قبل يوم القيامة.^(١)

وقوله تعالى: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا﴾ أي مرأى.

وفي رواية. قال: قال رسول الله ﷺ ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل. ثم تلا رسول الله ﷺ هذه الآية ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾.^(٢)

وقوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْد أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾ يعني عيسى عليه السلام ما هو إلا عبد من عباد الله ﷻ أنعم الله عليه بالنبوة والرسالة.

(١) انظر: البخاري في صحيحه، كتاب الأنبياء، باب نزول عيسى بن مريم، ج ٤/١٤٢: ابن

كثير، الفتن والملاحم، ج ١/١٨٢؛ وانظر: كتابي، معالم في حياة الأنبياء، ص ٤٠٨.

(٢) سنن الترمذي، كتاب تفسير القرآن، باب (ومن سورة الزخرف)، ج ٥/٣٧٨، حديث رقم:

﴿وجعلناه مثلاً لِّبنِي إِسْرَآئِيلَ﴾ أي دلالة وحجة وبرهاناً على قدرتنا على ما نشاء.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَجْعَلْنَا مِنْكُمْ﴾ أي بدلكم ﴿مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلَفُونَ﴾ يخلفونكم فيها. وقيل: يخلف بعضهم بعضاً كما يخلف بعضكم بعضاً ويعمرون الأرض بدلكم.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ﴾ قيل المراد بذلك نزول عيسى عليه السلام قبل يوم القيامة، فذلك أمانة ودليل على وقوع الساعة. أي آية للساعة خروج عيسى ابن مريم عليه السلام قبل يوم القيامة. وقد تواترت الأحاديث عن رسول الله ﷺ أنه أخبر بنزول عيسى عليه السلام قبل يوم القيامة إماماً عادلاً وحكماً مقسطاً.^(١)

وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَمْتَرْنَ بِهَا﴾ أي لا تشكوا فيها، وأنها واقعة وكائنة لا محالة، ﴿وَاتَّبِعُون﴾ أي فيما أخبركم به، ﴿هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ وَلَا يَصْدَنْكُمْ الشَّيْطَانُ﴾ أي عن اتباع الحق، ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ﴾ أي بالنبوة، ﴿وَلَأَبِينَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلَفُونَ فِيهِ﴾ من الأمور الدينية لا الدنيوية.

وقوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي فيما أمركم به، ﴿وَأَطِيعُوا﴾ فيما جئكم به، ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ أي أنا

(١) انظر: روايات البخاري في صحيحه، كتاب الأنبياء، باب نزول عيسى بن مريم، ج ٤/١٤٢؛ كتابي، "معالم في حياة الأنبياء"، ص ٤٠٨؛ ابن كثير، الفتن والملاحم، ج ١/١٨٢؛ وانظر: كتابي، "معالم في حياة الأنبياء"، ص ٤٠٨.

وأنتم عبيد له فقراء مشتركون في عبادته وحده لا شريك له. ﴿هذا صراط مستقيم﴾ أي هذا الذي جئكم به هو الصراط المستقيم. وفيه عبادة الرب جل وعلا وحده.

وقوله تعالى: ﴿فاختلف الأحزاب من بينهم﴾ أي اختلفت الفرق وصاروا شيعاً فيه. منهم من يقر بأنه عبد الله ورسوله وهو الحق. ومنهم من يدعي أنه ولد الله. ومنهم من يقول إنه الله. تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً. ولهذا قال تعالى: ﴿قويل للذين ظلموا من عذاب يوم أليم﴾^(١).

الله سبحانه واحد لا شريك له ولا ولد:

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَبِيدِ﴾^(٨١) سُبْحَنَ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ^(٨٢) فَذَرَهُمْ يَحْضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ^(٨٣) وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌُ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ^(٨٤) وَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ^(٨٥) وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفْعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ^(٨٦) وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ^(٨٧) وَقِيلَ لَهُ يَرْبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ^(٨٨) فَأَصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلِّمْ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ^(٨٩) ﴿الزخرف﴾.

يقول تعالى: ﴿قل﴾ يا محمد ﴿إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين﴾ أي لو فرض هذا لعبده على ذلك؛ لأنني عبد من عبيده مطيع لجميع ما يأمرني به ليس عندي استكبار ولا إباء عن عبادته. فلو فرض هذا لكان هذا، ولكن هذا ممتنع في حقه تعالى. في قوله تعالى: ﴿فأنا أول العابدين﴾ لله وحده لا شريك له ولأوامره ﷻ.

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١١/ ١٩٩ - ٢٠٨؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/ ١٦٨٣ - ١٦٨٥.

وعن ابن عباس ؓ في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ﴾ يقول: لم يكن للرحمن ولد، فأنا أول الشاهدين، أي إن ذلك لم يكن فلا ينبغي، وأول من وحده، وقيل: لو كان له ولد كنت أول من عبده بأن له ولداً، ولكن لا ولد له. تعالى وتقدس وتنزه خالق الأشياء عن أن يكون له ولد فإنه فرد أحد صمد، لا نظير له ولا كفاء له فلا ولد له.

وقوله تعالى: ﴿فَذَرِهِمْ يَخْضُوا﴾ أي في جهلهم وضلالهم، ﴿وَيَلْعَبُوا﴾ في دنياهم ﴿حَتَّى يَلْقَا يَوْمَهُمُ الَّذِي يَوْعَدُونَ﴾، وهو يوم القيامة أي فسوف يعلمون كيف يكون مصيرهم ومآلهم وحالهم في ذلك اليوم.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ﴾ أي هو إله من في السماء وإله من في الأرض يعبداه أهلها. وكلهم خاضعون له بين يديه ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾ إله في السماوات والأرض ﴿وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مَلِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أي هو خالقهما ومالكهما، والمتصرف فيهما بلا مدافعة ولا ممانعة، فسبحانه وتعالى عن الولد وتبارك، أي استقر له السلامة من العيوب والنقائص؛ لأنه الرب العلي العظيم المالك للأشياء الذي بيده أزمة الأمور نقضاً وإبراماً.

﴿وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ أي لا يجليها لوقتها إلا هو، ﴿وَالِيهِ تَرْجِعُونَ﴾ أي فيجازي كلاً بعمله إن خيراً فخييراً وإن شراً فشرّاً.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ﴾ أي من الأصنام والأوثان ﴿الشَّفَاعَةَ﴾ أي لا يقدر على الشفاعة لهم ﴿إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أي لكن من شهد بالحق على بصيرة وعلم فإنه تنفع شفاعته عنده بإذنه له.

ثم قال تعالى: ﴿وَلئن سألْتهم من خلقهم ليقولن الله فأنى يؤفكون﴾ أي ولئن سألت هؤلاء المشركين بالله العابدين معه غيره ﴿من خلقهم ليقولن الله﴾ أي أنهم يعترفون أن الله الخالق للأشياء جميعها وحده لا شريك له في ذلك. ومع هذا يعبدون معه غيره ممن لا يملك شيئاً ولا يقدر على شيء. فهم في ذلك في غاية الجهل والسفاهة وسخافة العقل. ولهذا قال تعالى: ﴿فأنى يؤفكون﴾.

وقوله جل وعلا: ﴿وقيله يا رب إن هؤلاء قوم لا يؤمنون﴾ أي وقال محمد ﷺ، قيله أي شكا إلى ربه شكواه من قومه الذين كذبوه، فقال: يا رب إن هؤلاء قوم لا يؤمنون، فأبر الله سبحانه قول محمد ﷺ، فرسول الله ﷺ يشكو قومه إلى ربه ﷻ.

وقوله تعالى: ﴿فاصفح عنهم﴾ أي المشركين، ﴿وقل سلام﴾ أي لا تجاوبهم بمثل ما يخاطبونك به من الكلام السيئ، ولكن تألفهم واصفح عنهم فعلاً وقولاً، ﴿فسوف يعلمون﴾ هذا تهديد من الله تعالى لهم. ولهذا أحل بهم بأسه الذي لا يرد، وأعلى دينه وكلمته، وشرع بعد ذلك الجهاد والجلاد حتى دخل الناس في دين الله أفواجا، وانتشر الإسلام في المشارق والمغارب.^(١)

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١١/٢١٥ - ٢٢٠؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٦٨٧ - ١٦٨٨.

سورة الدخان

إنظار الكفار:

قال تعالى: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ﴾ (١) ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ﴾ (١٠) ﴿يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (١١) ﴿رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾ (١٢) ﴿أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ﴾ (١٣) ﴿ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ﴾ (١٤) ﴿إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ﴾ (١٥) ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْقِمُونَ﴾ (١٦) [الدخان].

يقول تعالى: بل هؤلاء المشركون في شك يلعبون، أي قد جاءهم الحق اليقين وهم يشكون فيه ويمترون ولا يصدقون به. ثم قال تعالى متوعداً لهم ومهدداً: ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ﴾.

روي عن ابن مسعود رضي الله عنه أن قريشاً لما أبطأت عن الإسلام واستعصت على رسول الله ﷺ دعا عليهم بسنين كسني يوسف. فأصابهم من الجهد والجوع حتى أكلوا العظام والميتة. وجعلوا يرفعون أبصارهم إلى السماء فلا يرون إلا الدخان. وفي رواية فجعل الرجل ينظر إلى السماء فيرى ما بينه وبينها كهيئة الدخان من الجهد. فأنزل الله تعالى: ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾. فأتى رسول الله ﷺ فقليل: يا رسول الله استسق الله لمضر فإنها قد هلكت. فاستسقى ﷺ لهم فسقوا، فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ﴾. قال ابن مسعود رضي الله عنه: فيكشف عنهم العذاب. فلما أصابهم الرفاهية عادوا إلى حالهم أنزل

اللَّهُ ﷻ: ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْتَقِمُونَ﴾، قال يعني يوم بدر.^(١)

وروي عن حذيفة بن أسيد الغفاري ﷺ قال: أشرف علينا رسول الله ﷺ من عرفة، ونحن نتذاكر الساعة، فقال ﷺ: لا تقوم الساعة حتى تروا عشر آيات: طلوع الشمس من مغربها، والدخان والدابة وخروج يأجوج ومأجوج وخروج عيسى ابن مريم والدجال وثلاثة خسوف: خسف بالمشرق، وخسف بالمغرب، وخسف بجزيرة العرب، ونار تخرج من قعر عدن تسوق الناس - أو تحشر الناس - تبیت معهم حيث باتوا، وتقبل معهم حيث قالوا.^(٢)

ولعل الدخان من الآيات المنتظرة. قال الله ﷻ: ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُحَانٍ مُبِينٍ﴾ أي بين واضح يراه كل أحد، وعلى ما فسر به ابن مسعود ﷺ إنما هو خيال رأوه في أعينهم من شدة الجوع والجهد. وهكذا قوله تعالى: ﴿يَغْشَى النَّاسَ﴾ أي يتغشاهم ويعميهم.

وقوله تعالى: ﴿هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي يقال لهم ذلك تقريراً وتوبيخاً، وقوله سبحانه: ﴿رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾ أي يقول الكافرون إذا عاينوا عذاب الله وعقابه سائلين رفعه وكشفه عنهم.

وهكذا قال جل وعلا هاهنا: ﴿أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلِّمٌ مَجْنُونٌ﴾. يقول تعالى: كيف لهم بالتذكر وقد أرسلنا إليهم رسولا بين الرسالة والندارة، ومع هذا تولوا عنه وما وافقوه بل كذبوه وقالوا معلم مجنون.

(١) من رواية البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب (يغشى الناس هذا عذاب أليم)، ج ٣٩/٦؛ صحيح مسلم، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب الدخان، ج ١٣١/٨ - ١٣٢؛ كتابي "رسول الله وخاتم النبيين"، ج ٥٩١/٣، غزوة بدر.

(٢) انظر: صحيح مسلم، كتاب الفتن وأشتراطها، باب في الآيات التي تكون قبل الساعة، ج ١٧٩/٨.

وقوله تعالى: ﴿إنا كاشفوا العذاب قليلاً إنكم عائدون﴾ يحتمل معنيين: (أحدهما) أنه يقول تعالى ولو كشفنا عنكم العذاب ورجعناكم إلى الدار الدنيا لعدتم إلى ما كنتم فيه من الكفر. و(الثاني) أن يكون المراد إنا مؤخروا العذاب عنكم قليلاً بعد انعقاد أسبابه ووصوله إليكم. وأنتم مستمرون فيما أنتم فيه من الطغيان والضلال.

وقوله تعالى: ﴿يوم نبطش البطشة الكبرى إنا منتقمون﴾ فسر ذلك ابن مسعود رضي الله عنه بيوم بدر. وهذا قول جماعة ممن وافقوا ابن مسعود رضي الله عنه على تفسيره الدخان بما تقدم. وقال البعض إن ذلك يوم القيامة، وإن كان يوم بدر يوم بطشة.^(١)

تيسير القرآن بلسانه ﷺ:

قال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسِرَّنْهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ ٥٨ ﴿فَارْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ﴾ ٥٩ [الدخان].

﴿فإنما يسرناه بلسانك لعلهم يتذكرون﴾ أي إنما يسرنا هذا القرآن الذي أنزلناه سهلاً واضحاً بيناً جلياً بلسانك الذي هو أفصح اللغات وأجلها وأحلاها وأعلاها، ﴿لعلهم يتذكرون﴾ أي يتفهمون ويعملون.

ثم لما كان مع هذا الوضوح والبيان من الناس من كفر وخالف وعاند قال الله تعالى لرسوله ﷺ مسلماً له وواعداً له بالنصر، ومتوعداً لمن كذبه بالعطب والهلاك: ﴿فارتقب﴾ أي انتظر ﴿إنهم مرتقبون﴾ أي فسيعملون لمن تكون النصرة والظفر وعلو الكلمة في الدنيا والآخرة، فإنها لك يا محمد ولإخوانك من النبيين والمرسلين ومن اتبعكم من المؤمنين.^(٢)

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١١/ ٢٢٤ - ٢٢٩؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/ ١٦٨٩ - ١٦٩١.

(٢) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١١/ ٢٥٠ - ٢٥١؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/ ١٦٩٦.

سورة الجاثية

القرآن وحي من الله لرسوله ﷺ:

قال تعالى: ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَءَايَاتِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ (٦) ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ (٧) [الجاثية].

يقول تعالى: ﴿تلك آيات الله﴾ يعني القرآن الكريم بما فيه من الحجج والبيانات ﴿نتلوها عليك بالحق﴾ تنزلت على محمد ﷺ متضمنة الحق من الحق ﷺ. فإذا كانوا لا يؤمنون بها ولا ينقادون لها فبأي حديث بعد الله وآياته يؤمنون؟ ثم قال تعالى: ﴿ويل لكل أفاك أثيم﴾ أي أفاك في قوله كذاب حلاف مهين، أثيم في فعله وقلبه، كافر بآيات الله، ولهذا قال تعالى: ﴿يسمع آيات الله تتلى عليه﴾ أي تقرأ عليه ﴿ثم يصر﴾ على كفره وجحوده؛ استكباراً وعناداً ﴿كأن لم يسمعها﴾ أي كأنه ما سمعها، ﴿فبشره بعذاب أليم﴾ أي فأخبره أن له عند الله تعالى يوم القيامة عذاباً أليماً موجعاً.^(١)

أمر المؤمنين بالمغفرة:

قال تعالى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (١٤) [الجاثية].

وقوله تعالى: ﴿قل للذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون أيام الله﴾ قل يا محمد ﷺ يصفحوا عنهم ويتحملوا الأذى منهم، وكان هذا في ابتداء

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١١/٢٥٤ - ٢٥٥؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٦٩٧.

الإسلام، أمروا أن يصبروا على أذى المشركين وأهل الكتاب؛ ليكون ذلك كالتأليف لهم. ثم لما أصرروا على العناد شرع الله للمؤمنين الجلال والجهاد. ﴿لا يرجون أيام الله﴾ لا يخشونه، ولا ينالون نعمه. وقوله تعالى: ﴿ليجزى قوما بما كانوا يكسبون﴾ أي إذا صفحوا عنهم في الدنيا فإن الله سبحانه مجازيهم بأعمالهم السيئة في الآخرة، حيث تعودون إليه يوم القيامة فتعرضون بأعمالكم عليه، فيجزىكم بأعمالكم خيرها وشرها.^(١)

شريعة رسوله ﷺ والأمر باتباعها:

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ۝١٦ وَآتَيْنَاهُم بَيِّنَاتٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۝١٧ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۝١٨ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ ۝١٩ هَذَا بَصِيرَتُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة: ١٦-١٩].

يذكر تعالى ما أنعم به على بني إسرائيل من إنزال الكتب عليهم وإرسال الرسل إليهم وجعله الملك فيهم. ولهذا قال ﷺ: ﴿ولقد آتينا بني إسرائيل الكتاب والحكم والنبوة ورزقناهم من الطيبات﴾ أي من المأكول والمشرب والخيرات، ﴿وفضلناهم على العالمين﴾ أي في زمانهم، ﴿وآتيناهم بينات من الأمر﴾ أي حججاً وبراهين وأدلة قاطعات. فقامت عليهم الحجج، ثم اختلفوا بعد ذلك من بعد قيام الحجة. وإنما كان ذلك بغياً منهم على بعضهم بعضاً. ﴿إن ربك﴾ يا محمد ﴿يقضي بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون﴾ أي

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١١/٢٥٦ - ٢٥٧؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٦٤٨ - ١٦٤٩.

سيفصل بينهم بحكمة العدل. وهذا فيه تحذير لهذه الأمة أن تسلك مسلكهم وأن تقصد منهجهم.

ولهذا قال جل وعلا: ﴿ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها﴾ أي اتبع يا محمد ﷺ ما أوحى إليك من ربك لا إله إلا هو وأعرض عن المشركين. وقال ﷺ ها هنا: ﴿ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون إنهم لن يغنوا عنك من الله شيئاً وإن الظالمين بعضهم أولياء بعض﴾ أي وماذا تغني عنهم ولا يتهم لبعضهم بعضاً فإنهم لا يزيدونهم إلا خساراً ودماراً وهلاكاً. ﴿والله ولي المتقين﴾ وهو تعالى يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات. ثم قال تعالى: ﴿هذا بصائر للناس﴾ يعني القرآن الكريم ﴿وهدى ورحمة لقوم يوقنون﴾.^(١)

العبرة فيمن أشرك:

قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية].

قال جل وعلا مخاطباً نبيه ﷺ: ﴿أفرأيت من اتخذ إلهه هواه﴾ انظر لمن يأتهم بهواه، فما رآه حسناً فعله وما رآه قبيحاً تركه، لا يهوي شيئاً إلا عبده واتبعه، وقوله تعالى: ﴿وأضله الله على علم﴾ وأضله الله بعد بلوغ العلم إليه وقيام الحجة عليه وبعلم الله سبحانه. ﴿وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاة﴾ أي فلا يسمع ما ينفعه ولا يعي شيئاً يهتدي به ولا يرى حجة يستضيء بها.^(٢)

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١١/ ٢٥٨ - ٢٥٩؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/ ١٦٩٨.

(٢) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١١/ ٢٦١ - ٢٦٢؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/ ١٦٩٨ - ١٦٩٩.

إثبات البعث:

قال تعالى: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ (٢٤) ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَا كَانَ حُجَّتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوا بِأَبْنَاءِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٢٥) ﴿قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٢٦) [الجاثية].

يخبر تعالى عن قول الدهرية من الكفار ومن وافقهم من مشركي العرب في إنكار المعاد، ﴿وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا﴾ أي ما ثم إلا هذه الدار، يموت قوم ويعيش آخرون، وما ثم معاد ولا قيامة. وهذا يقوله مشركو العرب المنكرون للمعاد. وتقوله بعض الفلاسفة والدهرية الملحدون. وهم ينكرون البداء والرجعة. فكابروا المعقول وكذبوا المنقول ولهذا قالوا: ﴿وما يهلكنا إلا الدهر﴾. قال الله تعالى: ﴿وما لهم بذلك من علم إن هم إلا يطننون﴾ أي يتوهمون ويتخيلون.

وقد نهي عن سب الدهر؛ لأن الله تعالى هو الدهر الذي يعنونه ويسندون إليه تلك الأفعال.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال صلى الله عليه وسلم: لا تسبوا الدهر، فإن الله هو الدهر. (١)

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ﴾ أي إذا استدل عليهم وبُين لهم الحق، وأن الله تعالى قادر على إعادة الأبدان بعد فنائها وتفرقها ﴿ما كان حجتهم إلا أن قالوا اقتلوا بآبائنا إن كنتم صادقين﴾ أي أحيوهم إن كان ما تقولونه حقاً.

(١) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الألفاظ من الأدب وغيرها، باب النهي عن سب الدهر، ج ٤٥/٧.

قال الله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ يَحْيِيكُمْ ثُمَّ يَمِيتُكُمْ﴾ أي ذكرهم يا محمد بأنه كما تشاهدون ذلك يخرجكم من العدم إلى الوجود، ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يَمِيتُكُمْ ثُمَّ يَحْيِيكُمْ﴾ أي الذي قدر على البداة قادر على الإعادة، وهو الأولى والأخرى. ﴿ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي إنما يجمعكم إلى يوم القيامة لا يعيدكم في الدنيا حتى تقولوا: ﴿أَتْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾. وقال هاهنا: ﴿ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي لا شك فيه ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي فلماذا ينكرون المعاد ويستبعدون قيام الآخرة.^(١)

تصوير القيامة لرسوله ﷺ:

قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُحْسِرُ الْمُبْطِلُونَ﴾ (٢٧) وَتَرَى كُلُّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُحْزَنُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ [الجاثية].

يخبر تعالى أنه مالك السماوات والأرض والحاكم فيهما في الدنيا والآخرة، ولهذا قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ﴾ أي يوم القيامة ﴿يُخْسِرُ الْمُبْطِلُونَ﴾ الكافرون بالله الجاحدون بما أنزله على رسله من الآيات البينات والدلائل الواضحات.

ثم قال تعالى: ﴿وَتَرَى كُلُّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً﴾ أي على ركبها من الشدة والعظمة. ويقال: إن هذا إذا جيء بجهنم فإنها تزفر زفرة لا يبقى أحد إلا جثا لركبتيه، حتى إبراهيم الخليل عليه السلام. ويقول: نفسي نفسي نفسي! لا أسألك اليوم إلا نفسي. وحتى أن عيسى عليه السلام ليقول: لا أسألك اليوم إلا نفسي لا أسألك مريم التي ولدتنني! ﴿كُلُّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً﴾ أي على الركب متميزة.

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١١/ ٢٦٣ - ٢٦٥؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/ ١٦٩٩ - ١٧٠٠.

وقوله تعالى: ﴿كل أمة تدعى إلى كتابها﴾ يعني كتاب أعمالها. ﴿اليوم تجزون ما كنتم تعملون﴾ أي تجازون بأعمالكم خيرها وشرها.^(١)

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١١/ ٢٦٥ - ٢٦٧؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/ ١٧٠٠.

سورة الأحقاف

ضلال المشركين:

قال تعالى: ﴿حَمَّ ۝١ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ۝٢ مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۝٣ وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنْذِرُوا مُّعْرِضُونَ ۝٤ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَتُنُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَرَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۝٥ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ وَهُمْ عَنِ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ۝٦ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ۝٧﴾ [الأحقاف].

يخبر تعالى أنه أنزل الكتاب على عبده ورسوله محمد، صلوات الله عليه دائماً إلى يوم الدين. ووصف نفسه بالعزة التي لا ترام، والحكمة في الأقوال والأفعال. ثم قال تعالى: ﴿ما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق﴾ أي لا على وجه العبث والباطل، ﴿وأجل مسمى﴾ أي وإلى مدة معينة مضروبة لا تزيد ولا تنقص. وقوله تعالى: ﴿والذين كفروا عما أُنذروا معرضون﴾ أي لاهون عما يراد بهم. وقد أنزل الله تعالى إليهم كتاباً وأرسل إليهم رسولاً، وهم معرضون عن ذلك كله، أي وسيعلمون غيب ذلك.

ثم قال تعالى: ﴿قل﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين العابدين مع الله غيره: ﴿أرأيتم ما تدعون من دون الله أروني ماذا خلقوا من الأرض﴾ أي أرشدوني إلى المكان الذي استقلوا بخلقه من الأرض، ﴿أم لهم شرك في السماوات﴾ أي لا شرك لهم في السماوات ولا في الأرض وما يملكون من قطمير. فالملك

والتصرف كله لله ﷻ. فكيف تعبدون معه غيره وتشركون به؟ من أرشدكم إلى هذا؟ من دعاكم إليه؟ أهو أمركم به؟ أم هو شيء اقترحتموه من عند أنفسكم؟ ولهذا قال تعالى: ﴿أَتُؤْنِّي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا﴾ أي هاتوا كتابا من كتب الله المنزلة على الأنبياء ﷺ يأمركم بعبادة هذه الأصنام، ﴿أو أثارة من علم﴾ أي دليل بين على هذا المسلك الذي سلكتموه ﴿إن كنتم صادقين﴾ أي لا دليل لكم لا نقلياً ولا عقلياً على ذلك من علم صحيح تؤثرونه عن أحد ممن قبلكم، ببينة من الأمر.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دَعَائِهِمْ غَافِلُونَ﴾ أي لا أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون ﴿أي لا أضل ممن يدعو من دون الله أصناماً، ويطلب ما لا تستطيعه إلى يوم القيامة، وهي غافلة عما يقول لا تسمع ولا تبصر ولا تبطش؛ لأنها جماد حجارة صم. وقوله سبحانه: ﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءُ وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ جاحدين منكبين.^(١)

إتهامه ﷻ بالسحر:

قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ۖ﴾ (٧) ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا نُفِيضُونَ فِيهِ ۖ كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۖ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ۖ﴾ (٨) ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرَىٰ مَا يَفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ ۖ إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ۖ﴾ (٩) [الأحقاف].

يقول تعالى مخبراً عن المشركين في كفرهم وعنادهم: إنهم إذا تتلى عليهم آيات الله بينات أي في حال بيانها ووضوحها وجلالها يقولون ﴿هذا

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١١/ ٢٧١ - ٢٧٤؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/ ١٧٠١ - ١٧٠٢.

سحر مبين ﴿أي سحر واضح. وقد كذبوا وافتروا وضلوا وكفروا، ﴿أم يقولون افتراه﴾ يعنون محمدًا ﷺ، قال الله سبحانه: ﴿قل إن افتريته فلا تملكون لي من الله شيئاً﴾ أي لو كذبت عليه وزعمت أنه أرسلني وليس كذلك لعاقبني أشد العقوبة. ولم يقدر أحد من أهل الأرض لا أنتم ولا غيركم أن يجيرني منه. ولهذا قال سبحانه هاهنا: ﴿قل إن افتريته فلا تملكون لي من الله شيئاً هو أعلم بما تفيضون فيه كفى به شهيداً بيني وبينكم﴾ هذا تهديد لهم ووعد أكيد وترهيب شديد.

وقوله تعالى: ﴿وهو الغفور الرحيم﴾ ترغيب لهم في التوبة والإنابة، أي ومع هذا كله إن رجعتم وتبتم تاب عليكم وعفا عنكم وغفر ورحم. وقوله تعالى: ﴿قل ما كنت بدعاً من الرسل﴾ أي لست بأول رسول طرق العالم، بل جاءت الرسل من قبلي فما أنا بالأمر الذي لا نظير له حتى تستكروني وتستبعدوا بعثتي إليكم، فإنه قد أرسل الله جل وعلا قبلي جميع الأنبياء إلى الأمم، فما أنا بأول رسول.

وقوله تعالى: ﴿وما أدري ما يفعل بي ولا بكم﴾ عن ابن عباس ؓ في هذه الآية: نزل بعدها ﴿ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر﴾ قالوا: لما نزلت هذه الآية قال رجل من المسلمين: قد بين الله تعالى ما هو فاعل بك يا رسول الله، فما هو فاعل بنا؟ فأنزل الله تعالى: ﴿ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات﴾.

وقيل المراد ما يفعل بي ولا بكم في الدنيا، أأخرج كما أخرجت الأنبياء عليهم الصلاة والسلام من قبلي؟ أم أقتل كما قتلت الأنبياء من قبلي؟ ولا أدري أيخسف بكم أو ترمون بالحجارة؟ ومن اللائق به ﷺ، ومن فضل الله

عليه ﷺ في الآخرة أنه يصير إلى الجنة هو ومن اتبعه. وأما في الدنيا فلم يدر ما كان يؤول إليه أمره وأمر مشركي قريش إلى ماذا، أيؤمنون أم يكفرون فيُعذبون فيُستأصلون بكفرهم.

ولا يقطع لمعين بالجنة إلا الذي نص الشارع على تعيينهم كالعشرة وابن سلام وغيرهم ممن بشرهم رسول الله ﷺ. وقوله تعالى: ﴿إِنْ أَتَبَعَ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ﴾ أي إنما أتبع ما ينزله الله علي من الوحي. ﴿وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أي بين النذارة وأمره ﷺ ظاهر لكل ذي لب وعقل.^(١)

إيمان بعض علماء يهود بالرسول ﷺ والقرآن:

قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ، وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ، فَأَمَنْ وَأَسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأحقاف].

قول تعالى: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين الكافرين بالقرآن: ﴿أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ﴾ هذا القرآن ﴿مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ﴾ أي ما ظنكم أن الله صانع بكم إن كان هذا الكتاب الذي جئتكم به قد أنزل علي لأبلغكموه، وقد كفرتم به وكذبتموه. ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ﴾ أي وقد شهدت بصدقه وصحته الكتب المتقدمة المنزلة على الأنبياء ﷺ قبلي، بشرت به وأخبرت بمثل ما أخبر هذا القرآن به.

وقوله تعالى: ﴿فَأَمَنْ﴾ أي هذا الذي شهد بصدقه من بني إسرائيل لمعرفته بحقيقته ﷺ ﴿وَأَسْتَكْبَرْتُمْ﴾ أنتم عن اتباعه. فأمن هذا الشاهد بنبيه وكتابه وكفرتم أنتم بنبيكم وكتابكم. وهذا الشاهد اسم جنس يعم عبدالله بن سلام ﷺ وغيره، فإن هذه الآية مكية نزلت قبل إسلام عبدالله بن سلام

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١١/ ٢٧٤ - ٢٧٧؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/ ١٧٠٢ - ١٧٠٣.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾. وفيه نزلت ﴿وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله﴾^(١).

وهذا يشمل من سلك نهجه من أهل الكتاب عبر الزمن.^(٢)

تذكيره ﷺ بهود النضير وقوم عاد وهلاكهم:

قال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَّتِ الْبُيُوتُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾^(١) قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَأْفِكَنَّ عَنْ آلِهَتِنَا فَإِنَّا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ^(٢) قَالَ إِنَّمَا أَلِمْكُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرَأَيْتُمْ قَوْمًا يَعْمَلُونَ^(٣) فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّطْرِنًا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ^(٤) تَدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ^(٥)﴾ [الأحقاف].

يقول تعالى مسلماً نبيه ﷺ في تكذيب من كذب من قومه: ﴿واذكر أخا عاد﴾ وهو هود عليه السلام، بعثه الله ﷻ إلى عاد الأولى. وكانوا يسكنون الأحقاف، وهو جمع حقف وهو الجبل من الرمل. والأحقاف واد بحضرموت وهو حياً باليمن أهل رمل مشرفين على البحر بأرض يقال لها الشحر من نواحي عُمان.

وقوله تعالى: ﴿وقد خلت النذر من بين يديه ومن خلفه﴾ يعني وقد أرسل الله تعالى إلى من حول بلادهم من القرى مرسلين ومنذرين، فأجابه قومه قائلين: ﴿أَجِئْتَنَا لِنَأْفِكَنَّ عَنْ آلِهَتِنَا﴾ أي لتصدنا عن آلِهتنا، ﴿فَأَتْنَا بِمَا تَعِدُنَا

(١) صحيح البخاري، كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب عبد الله بن سلام ﷺ، ج ٤/٢٢٩.

(٢) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١١/٢٧٨ - ٢٨١؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٧٠٣.

إن كنت من الصادقين ﴿﴾، استعجلوا عذاب الله وعقوبته استبعاداً منهم وقوعه.

قال الله تعالى: ﴿فلما رأوه عارضاً مستقبل أوديتهم﴾ أي لما رأوا العذاب مستقبلهم اعتقدوا أنه عارض ممطر، ففرحوا واستبشروا به، وقد كانوا محلين محتاجين إلى المطر.

قال الله تعالى: ﴿بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم﴾ أي هو العذاب الذي قلتم فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين، ﴿تدمر﴾ أي تخرب ﴿كل شيء﴾ من بلادهم مما من شأنه الخراب ﴿بأمر ربها﴾ أي بإذن الله لها. ثم قال تعالى: ﴿فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم﴾ أي قد بادوا كلهم عن آخرهم ولم تبق لهم باقية.

﴿كذلك نجزي القوم المجرمين﴾ أي هذا حكمنا فيمن كذب رسلنا وخالف أمرنا.^(١)

استماع الجن للقرآن من رسوله ﷺ:

قال تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا يَنْقُومُنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَنْقُومُنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَءَامِنُوا بِهِ، يَغْفِرَ لَكُمْ مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيَجْرَكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَنْ لَا يُحِبِّ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءٌ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾﴾ [الأحقاف].

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١١/ ٢٩٠ - ٢٩٤؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/ ١٧٠٦ - ١٧٠٧.

عن الزبير رضي الله عنه: ﴿وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن﴾ قال: بنخلة ورسول الله ﷺ يصلي العشاء الآخرة.

وقد خرج النبي ﷺ إلى الطائف ودعاهم إلى الله ﷻ وأبوا عليه، وقد ورد ذلك الدعاء الحسن: اللهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس يا أرحم الراحمين أنت أرحم الراحمين وأنت رب المستضعفين، وأنت ربي إلى من تكلني؟ إلى عدو يتجهمني أم إلى صديق قريب ملكته أمري؟ إن لم يكن بك غضب علي فلا أبالي غير أن عافيتك أوسع لي. أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة أن ينزل بي غضبك أو يحل بي سخطك. ولك العتبي حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بك.^(١)

قال الزبير رضي الله عنه: فلما انصرف من الطائف بات بنخلة، فقرأ تلك الليلة من القرآن فاستمعه الجن من أهل نصيبين. وخروجه ﷺ إلى الطائف كان بعد موت عمه أبي طالب، وذلك قبل الهجرة بسنة أو سنتين.

عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: هبطوا على النبي ﷺ وهو يقرأ القرآن ببطن نخلة، ﴿فلما حضروه قالوا أنصتوا﴾ قال: صه. وكانوا تسعة ...، فأنزل الله تعالى: ﴿وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا، فلما قضى ولوا إلى قومهم منذرين﴾ إلى ﴿ضلال مبين﴾ ولعل رسول الله ﷺ لم يشعر بحضورهم.

(١) انظر: ابن سعد، السيرة النبوية من الطبقات، ج ١/٢١٢؛ كتابي "رسول الله وخاتم النبيين"، ج ٢/٣٥٠؛ وانظر: تخريج الدعاء والحكم عليه عند، الصلابي، في السيرة النبوية، ج ١/٤٠٧.

وقد يحتمل أن يكون أول مرة خرج إليهم لم يكن معه ﷺ ابن مسعود رضي الله عنه ولا غيره، كما يظهر من سياق الروايات، أنه لقيهم أكثر من مرة. أما الجن الذين لقوه بنخلة فجن نينوى. وأما الجن الذين لقوه بمكة المكرمة فجن نصيبين. والروايات تدل على تكرار ذلك.

عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ﴾ الآية، قال: كانوا سبعة نفر من أهل نصيبين. فجعلهم رسول الله رسلاً إلى قومهم. وقيل كانوا سبعة نفر؛ ثلاثة من أهل حرّان وأربعة من أهل نصيبين.

فلعل الاختلاف في العدد والمكان دليل على تكرار وفادتهم عليه ﷺ.^(١)

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ﴾ أي طائفة من الجن، ﴿يَسْتَمْعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصَتُوا﴾ أي استمعوا وهذا أدب منهم.

﴿وَلَوْ إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ﴾ أي رجعوا إلى قومهم فأنذروهم ما سمعوه من رسول الله ﷺ. وقد استدل بهذه الآية على أنه في الجن نذر، وليس فيهم رسل، ثم إنه تعالى فسر إنذار الجن لقومهم فقال مخبراً عنهم: ﴿قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى﴾، ولم يذكر عيسى؛ لأن عيسى عليه السلام أنزل عليه الإنجيل فيه مواعظ وترقيقات وقليل من التحليل والتحريم. وهو في الحقيقة كالمتمم لشريعة التوراة. فالعمدة هو التوراة. فلهذا قالوا أنزل من بعد موسى. وهكذا قال ورقة بن نوفل حين أخبره النبي ﷺ بقصة نزول جبريل عليه السلام أول مرة فقال: بخ بخ! هذا الناموس الذي كان يأتي موسى. يا ليتني أكون فيه جذعاً. ﴿مصدقاً لما بين يديه﴾ أي في الكتب المنزلة على الأنبياء قبله. وقوله تعالى: ﴿يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ﴾ أي في

(١) انظر: كتابي "رسول الله وخاتم النبيين"، ج ٢/ ٣٥٣.

الاعتقاد والإخبار، ﴿وإلى طريق مستقيم﴾ في الأعمال، فإن القرآن الكريم مشتمل على شيئين خبر وطلب. فخبّره صدق وطلبه عدل. وهكذا قالت الجن: ﴿يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ﴾ في الاعتقادات، ﴿وإلى طريق مستقيم﴾ أي في العمليات، ﴿يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ﴾ فيه دلالة على أنه تعالى أرسل محمداً ﷺ إلى الثقلين الجن والإنس، حيث دعاهم إلى الله تعالى وقرأ عليهم السورة التي فيها خطاب الفريقين وتكليفهم ووعدهم ووعدهم، وهي سورة الرحمن. ولهذا قال: تعالى: ﴿أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمَنُوا بِهِ﴾. وقوله تعالى: ﴿يَغْفِر لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ﴾ من للتبويض ﴿وَيَجْرِكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي ويقيكم من عذابه الأليم.

ثم قال تعالى مخبراً عنهم: ﴿وَمَنْ لَا يَجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ﴾ أي بل قدرة الله شاملة له ومحيطه به، ﴿وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ﴾ أي لا يجيرهم منه أحد، ﴿أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾. وهذا مقام تهديد وترهيب، فدعوا قومهم بالترغيب والترهيب. ولهذا نجع في كثير منهم، وجاءوا إلى رسول الله ﷺ وفوداً وفوداً.^(١)

أمره ﷺ بالصبر مثل أولي العزم من الرسل ﷺ:

قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْزِ بِخَلْقِهِنَّ بِقَدِيرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٣٣) وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (٣٤) فَأَصْبَرَ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَانَتْهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١١/٢٩٦ - ٣٠١؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٧٠٨ - ١٧١٥؛ ابن سعد، السيرة النبوية من الطبقات، ج ١/٢١٢؛ كتابي "رسول الله وخاتم النبيين"، ج ٢/٣٥٣.

نَهَارٍ بَلَغَ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٣٥﴾ [الأحقاف].

يقول تعالى: ﴿أولم يروا﴾ هؤلاء المنكرون للبعث يوم القيامة المستبعدون لقيام الأجساد يوم المعاد ﴿أن الله الذي خلق السماوات والأرض ولم يعي بخلقهن﴾ أي لم يعجزه أو يتعبه خلقهن، بل قال لها: كوني فكانت بلا ممانعة ولا مخالفة، طائعة مجيبة خائفة وجلّة. أفليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى؟ ثم قال تعالى: ﴿بلى إنه على كل شيء قدير﴾.

ثم قال ﷺ مهدداً ومتوعداً لمن كفر به ﴿ويوم يعرض الذين كفروا على النار أليس هذا بالحق﴾؟ أي يقال لهم: أما هذا حق أفسح هذا أم أنتم لا تبصرون؟ ﴿قالوا بلى وربنا﴾ أي لا يسعهم إلا الاعتراف، ﴿قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون﴾. ثم قال ﷺ أمراً رسوله ﷺ بالصبر على تكذيب من كذبه من قومه: ﴿فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل﴾ أي على تكذيب قومهم لهم. وهم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى وخاتم الأنبياء محمد ﷺ كما مرّ ذكره، قد نص الله تعالى على أسمائهم من بين الأنبياء في آيتين من سورتي الأحزاب والشورى. كما أن جميع الرسل صبروا وفيهم أسوة.

عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: يا عائشة إن الله تعالى لم يرض من أولي العزم من الرسل إلا بالصبر على مكروهاها والصبر عن محبوبها، ثم لم يرض مني إلا أن يكلفني ما كلفهم، فقال: ﴿فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل﴾ وإني والله لأصبرن كما صبروا جهدي ولا قوة إلا بالله.^(١)

قال تعالى: ﴿ولا تستعجل لهم﴾ أي لا تستعجل لهم حلول العقوبة

(١) انظر: ابن كثير، تفسيره، ج ٢/ ١٧١٥.

بهم، ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرُونَ مَا يوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنْ نَّهَارٍ﴾، وقوله جل وعلا: ﴿بَلَاغٌ﴾. أن يكون لبث بلاغ، وأن هذا القرآن الكريم بلاغ.

وقوله تعالى: ﴿فَهَلْ يَهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ﴾ أي لا يهلك على الله إلا هالك. وهذا من عدله سبحانه أنه لا يعذب إلا من يستحق العذاب من الفاسقين.^(١)

(١) انظر: ابن كثير، تفسيره، ج ٢/ ١٧١٦.

سورة محمد

الحق مع محمد ﷺ:

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَلُهُمْ﴾ (١) ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ (٢) ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَلَهُمْ﴾ (٣) [محمد].

اسم السورة بحد ذاته تشريف لمحمد ﷺ، وفيها يقول الله تعالى: ﴿الذين كفروا﴾ أي بآيات الله ﴿وصدوا﴾ غيرهم ﴿عن سبيل الله أضل أعمالهم﴾ أي أبطلها وأذهبها، ولم يجعل لها ثواباً ولا جزاء. ثم قال جل وعلا: ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ أي آمنت قلوبهم وسرائرهم وانقادت لشرع الله جوارحهم وبواطنهم وظواهرهم، ﴿وآمنوا بما نزل على محمد﴾ هو دليل على أنه شرط في صحة الإيمان بعد بعثته ﷺ.

وقوله تبارك تعالى: ﴿وهو الحق من ربهم﴾ تأكيد من الله ﷻ لصدقه ﷺ فيما جاء به من عند الله ﷻ ﴿كفر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم﴾ أصلح أمرهم ورأيهم. وقد جاء في حديث تميمي العاطس: "يهدىكم الله ويصلح بالكم".

ثم قال تعالى: ﴿ذلك بأن الذين كفروا اتبعوا الباطل﴾ اتبعوا الباطل فأبطل الله أعمالهم بكفرهم. وتجاوز سبحانه عن سيئات الأبرار، وأصلح

شؤونهم؛ لأن الذين كفروا اتبعوا الباطل أي اختاروا الباطل على الحق، ﴿وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ﴾ أي يبين لهم مآل أعمالهم، وما يصيرون إليه في معاد.^(١)

هلاك من هو أقوى من أهل بلده ﷺ إذ كفروا:

قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا ۚ﴾ (١٠) ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ ۚ﴾ (١١) ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَنَّوْنَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ ۚ﴾ (١٢) ﴿وَكَايْنٍ مِّنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّنْ قَرْيَةٍ الَّتِي أَخْرَجْنَاكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ۚ﴾ (١٣) [محمد].

يقول تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا﴾ يعني المشركين بالله المكذبين لرسوله ﴿في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم دمر الله عليهم﴾ أي عاقبتهم بتكذيبهم وكفرهم، أي ونجى المؤمنين من بين أظهرهم. ولهذا قال تعالى: ﴿ولللكافرين أمثالها﴾.

ثم قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ﴾. ومن المعروف أنه لما قال أبو سفيان صخر بن حرب رئيس المشركين يوم أحد، حين سأل عن النبي ﷺ وعن أبي بكر وعمر ﷺ فلم يجب، وقال: أما هؤلاء فقد هلكوا. وأجابه عمر بن الخطاب ﷺ فقال: كذبت يا عدو الله، بل أبقى الله تعالى لك ما يسوؤك، وإن الذين عددت لأحياء. فقال أبو سفيان يوم بيوم بدر، والحرب سجال. أما إنكم ستجدون مثله لم آمر بها ولم تسوؤني. ثم ذهب يرتجز ويقول: أعل هبل أعل هبل. فقال رسول الله ﷺ:

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١١/٣٠٤ - ٣٠٥؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٧١٦.

ألا تجيبوه؟ فقالوا: يا رسول الله وما نقول قال ﷺ: قولوا: الله أعلى وأجل. ثم قال أبو سفيان: لنا العزى ولا عزى لكم. فقال ﷺ: ألا تجيبوه؟ قالوا: وما نقول يا رسول الله؟ قال: قولوا: الله مولانا ولا مولى لكم.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أي يوم القيامة، ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ﴾ أي في دنياهم يتمتعون بها ويأكلون منها كأكل الأنعام خضماً وقضماً، وليس لهم همة إلا في ذلك.

ثم قال تعالى: ﴿وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ﴾ أي يوم جزائهم. وقوله سبحانه: ﴿وَكَأَيْنَ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدَّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجْتِكَ﴾ يعني مكة المكرمة ﴿أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾.

وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد لأهل مكة المكرمة في تكذيبهم لرسول الله ﷺ، وهو سيد المرسلين وخاتم الأنبياء. فإذا كان الله سبحانه قد أهلك الأمم الذين كذبوا الرسل قبله بسببهم، وقد كانوا أشد قوة من هؤلاء فماذا ظن هؤلاء أن يفعل الله بهم في الدنيا والآخرة؟ فإن رفع عن كثير منهم العقوبة في الدنيا لبركة وجود الرسول ﷺ نبي الرحمة فإن العذاب يوفر على الكافرين به في معادهم.

وقوله تعالى: ﴿مَنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجْتِكَ﴾ أي الذين أخرجوك من بين أظهرهم. يعني أهل مكة المكرمة.

عن ابن عباس رضي الله عنهما، أن النبي ﷺ لما خرج من مكة إلى الغار أراه قال فالتفت إلى مكة وقال: أنت أحب بلاد الله إلى الله، وأنت أحب بلاد الله إليّ، ولولا أن المشركين أخرجوني لم أخرج منك. فأنزل الله تعالى على

نبيه ﷺ ﴿وَكَايْنٍ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجْتِكَ أَهْلُكُنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾^(١).

الناس بين ضالٍ ومهتدٍ برسوله ﷺ:

قال تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنفًا ۚ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ جَوَابٌ عَلَيْهِمْ وَأَسْأَلُهُمْ فِيهَا سَآئِلًا يَنْظُرُونَ ۚ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَهُمْ ذِكْرُهُمْ ۚ﴾^(١٧) ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلِّبَكُمْ وَمَتَوَلِّكُمْ﴾^(١٨) [محمد].

يقول تعالى مخبراً عن المنافقين في بلادتهم وقلة فهمهم، حيث كانوا يجلسون إلى رسول الله ﷺ ويستمعون كلامه فلا يفهمون منه شيئاً: فإذا خرجوا من عنده ﴿قالوا للذين أوتوا العلم﴾ من الصحابة رضي الله عنهم ﴿ماذا قال آنفًا﴾ أي الساعة. لا يكثرثون له ما سمعوا منه ﷺ.

قال الله تعالى: ﴿أولئك الذين طبع الله على قلوبهم واتبعوا أهواءهم﴾، فلا قصد صحيحاً لديهم وإنما هم أصحاب هوى.

ثم قال تعالى: ﴿والذين اهتدوا زادهم هدى﴾ أي والذين قصدوا الهداية وفقهم الله تعالى لها، فهداهم إليها وثبتهم عليها وزادهم منها، ﴿وآتاهم تقواهم﴾ أي ألهمهم رشدهم. وقوله تعالى: ﴿فهل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة﴾ أي وهم غافلون عنها، ﴿فقد جاء أشراطها﴾ أي أمارات اقترابها.

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١١/٣١١ - ٣١٣؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٧١٨ - ١٧١٩؛ وانظر: الحديث رواه الترمذي، سننه، كتاب المناقب، باب في فضل مكة، ج ٥/٧٢٣، حديث رقم: ٣٩٢٦.

فبعثة رسول الله ﷺ من أشراط الساعة؛ لأنه ﷺ خاتم الرسل الذي أكمل الله تعالى به الدين، وأقام به الحجة على العالمين.

وقد أخبر ﷺ بأمارات الساعة وأشراتها وأبان عن ذلك وأوضحه بما لم يؤته نبي قبله، فبعثته ﷺ من أشراط الساعة. ولهذا جاء في أسمائه ﷺ أنه نبي التوبة ونبي الملحمة، والحاشر الذي يحشر الناس على قدمه، والعاقب الذي ليس بعده نبي.

روى سهل بن سعد رضي الله عنه قال: رأيت رسول الله ﷺ قال بإصبعيه هكذا بالوسطى والتي تليها بعثت أنا والساعة كهاتين.^(١)

ثم قال تعالى: ﴿فَأَنى لَهُمْ إِذَا جَاءَهُمْ ذِكْرُهُمْ﴾ أي فكيف للكافرين بالتذكر إذا جاءتهم القيامة، حيث لا ينفعهم ذلك. وقوله تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ هذا إخبار بأنه لا إله إلا الله، ولا يتأتى كونه أمراً بعلم ذلك جهله ﷺ، وعطف عليه قوله سبحانه: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِدُنْكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾.

وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ كان يقول: ((اللهم اغفر لي خطيئتي وجهلي وإسرافي في أمري وما أنت أعلم به مني. اللهم اغفر لي هزلي وجدي وخطئي وعمدي وكل ذلك عندي)).^(٢)

(١) صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب قول النبي ﷺ: (بعثت أنا والساعة كهاتين)، ج ١٩٠/٧ - ١٩١؛ صحيح مسلم، كتاب الفتن وأشرط الساعة، باب قرب الساعة، ج ٢٠٨/٨.

(٢) صحيح البخاري، كتاب الدعوات، باب قول النبي ﷺ: ((اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت))، ج ١٦٦/٧؛ صحيح مسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب التعوذ من شر ما عمل، ومن شر ما لم يعمل، ج ٨١/٨.

وفي الصحيح أنه كان يقول في آخر الصلاة: ((اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت وما أسرفت، وما أنت أعلم به مني، أنت إلهي لا إله إلا أنت)).^(١)

وفي الصحيح أنه ﷺ قال: يا أيها الناس توبوا إلى ربكم فإنني أستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة.^(٢) والأحاديث في فضل الاستغفار كثيرة جداً.

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَقَالِبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ﴾ أي يعلم تصرفكم في نهاركم ومستقركم في ليلكم. وعن ابن عباس ؓ: ﴿مَقَالِبُكُمْ فِي الدُّنْيَا وَمَثْوَاكُمْ فِي الْآخِرَةِ. وَقِيلَ: مَقَالِبُكُمْ فِي الدُّنْيَا وَمَثْوَاكُمْ فِي قُبُورِكُمْ.﴾^(٣)

الوحي من الله تعالى لرسوله ﷺ:

قال تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشَى عَلَيْهِ مِنْ الْمَوْتِ فَأُولَئِكَ لَهُمْ ۖ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ ۚ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ ۚ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَرَهُمْ ۚ﴾ [محمد].

يقول تعالى مخبراً عن المؤمنين الذين تمنوا شرعية الجهاد، فلما فرضه الله ﷻ وأمر به نكل عنه بعض الناس، فقال سبحانه: ﴿ويقول الذين آمنوا

(١) صحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه، ج ٢/ ١٨٥ - ١٨٦.

(٢) انظر: صحيح البخاري، كتاب الدعوات، باب استغفار النبي ﷺ في اليوم والليلة، ج ٧/ ١٤٥.

(٣) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١١/ ٣١٥ - ٣١٨؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/ ١٧٢٠ - ١٧٢١.

لولا نزلت سورة ﴿أي مشتملة على حكم القتال. ولهذا قال تعالى: ﴿فإذا أنزلت سورة محكمة وذُكر فيها القتال رأيت الذين في قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشي عليه من الموت﴾ أي من فزعهم ورعبهم وجبنهم من لقاء الأعداء. ثم قال تعالى مشجعاً لهم: ﴿فأولى لهم طاعة وقول معروف﴾ أي وكان الأولى بهم أن يسمعوا ويطيعوا، أي في الحالة الراهنة. ﴿فإذا عزم الأمر﴾ أي جد الحال وحضر القتال ﴿فلو صدقوا الله﴾ أي أخلصوا له سبحانه النية ﴿لكان خيراً لهم﴾.

وقوله تعالى: ﴿فهل عسيتم إن توليتم﴾ أي عن الجهاد ونكلتم عنه ﴿أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم﴾ أي تعودوا إلى ما كنتم فيه من الجاهلية الجاهلاء، تسفكون الدماء وتقطعون الأرحام. ولهذا قال تعالى: ﴿أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم﴾. وهذا نهى عن الإفساد في الأرض عموماً، وعن قطع الأرحام خصوصاً، بل قد أمر الله تعالى بالإصلاح في الأرض وصلة الأرحام. وهو الإحسان إلى الأقارب في المقال والأفعال وبذل الأموال. وقد وردت الأحاديث بذلك عن رسول الله ﷺ من طرق عديدة ووجوه كثيرة.

روى البخاري عن أبي هريرة ؓ عن النبي ﷺ قال: خلق الله تعالى الخلق فلما فرغ منه قامت الرحم فأخذت بحقوى الرحمن ؓ فقال له: مه، فقالت هذا مقام العائذ بك من القطيعة، فقال تعالى: ألا ترضين أن أصل من وصلك وأقطع من قطعك؟ قالت: بلى، قال: فذاك لك. قال أبو هريرة ؓ: اقرءوا إن شئتم ﴿فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم﴾.^(١)

(١) صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب (وتقطعوا أرحامكم)، ج ٦/٤٢ - ٤٣.

روي أن رجلاً قال: يا رسول الله، إن لي قرابة أصلهم ويقطعونني، وأحسن إليهم ويسيؤون إلي، وأحلم عنهم ويجهلون علي، فقال ﷺ: لئن كنت كما قلت، فكأنما تسفهم المل. ولا يزال معك من الله ظهير عليهم ما دمت على ذلك. (١) (٢)

معرفته ﷺ للمنافقين بلحن قولهم:

قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَنَهُمْ﴾ (٢٩) وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعَرَفْتَهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ (٣٠) وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجْتَهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّادِقِينَ وَنَبْلُوَنَّكُمْ أَخْبَارَكُمْ (٣١) [محمد].

يقول تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَنَهُمْ﴾ أي أيعتقد المنافقون أن الله لا يكشف أمرهم لعباده المؤمنين، بل سيوضح أمرهم ويجليه حتى يفهمهم ذوو البصائر.

وقد أنزل الله تعالى في ذلك سورة التوبة فبين فيها فضائحتهم، وما يعتمدونه من الأفعال الدالة على نفاقهم، ولهذا إنما كانت تسمى الفاضحة وبراءة. والأضغان: جمع ضغن وهو ما في النفوس من الحسد والحقد للإسلام وأهله والقائمين بنصره.

وقوله تعالى: ﴿لَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ﴾ يقول تعالى: ولو

(١) رواه البخاري، في صحيحه، كتاب التفسير (سورة محمد)، باب الذين كفروا، ج ٤٢/٦؛ ورواه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب صلة الرحم وتحريم قطيعتها، ج ٧/٨.

(٢) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٣١٨/١١ - ٣٢١؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١٧٢١/٢ - ١٧٢٢.

نشأ يا محمد لأريناك أشخاصهم، فعرفتهم عياناً، ولكن لم يفعل تعالى ذلك في جميع المنافقين؛ سترنا منه على خلقه، وحملنا للأمور على ظاهر السلامة، ورداً للسرائر إلى عالمها. ﴿ولتعرفنهم في لحن القول﴾ أي فيما يبدو من كلامهم الدال على مقاصدهم يفهم المتكلم من أي الحزبين هو بمعاني كلامه وفحوام. وهو المراد من لحن القول. قال أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه: ما أسر أحد سريرة إلا أبداها الله على صفحات وجهه وقلات لسانه.

وقوله تعالى: ﴿ولنبلونكم﴾ أي ولنختبرنكم بالأوامر والنواهي، ﴿حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلوا أخباركم﴾ وليس في تقدم علم الله تعالى بما هو كائن أنه سيكون شك ولا ريب. فالمراد حتى نعلم وقوعه. ولهذا يقول ابن عباس رضي الله عنهما في مثل هذا: إلا لنعلم أي لنرى.^(١)

الأمر بطاعة الله تعالى ورسوله ﷺ والنهي عن مشاقته:

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَنْ يَضُرَّوْا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحِطُّ أَعْمَلُهُمْ﴾ (٣٢) ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ (٣٣) ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ (٣٤) ﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَامِ وَأَنْتُمْ الْآعْلُونَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتَرَكَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾ (٣٥) [محمد].

يخبر تعالى عمن كفر وصد عن سبيل الله وخالف الرسول ﷺ وشاقه، وارتد عن الإيمان من بعد ما تبين له الهدى أنه لن يضر الله شيئاً. وإنما يضر نفسه ويخسرها يوم معادها. وسيحبط الله عمله، فلا يثيبه على سالف ما

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١١/٣٢٤؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٧٢٢ - ١٧٢٣.

تقدم من عمله الذي عقبه بردته مثقال بعوضة من خير، بل يحبطه ويمحقه بالكلية كما أن الحسنات يذهبن السيئات.

وروي أنه كان أصحاب رسول الله ﷺ يرون أنه لا يضر مع لا إله إلا الله ذنب، كما لا ينفع مع الشرك عمل. فنزلت ﴿أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ولا تبطلوا أعمالكم﴾ فخافوا أن يبطل الذنب العمل.

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: كنا معشر أصحاب رسول الله ﷺ نرى أنه ليس شيء من الحسنات إلا مقبول حتى نزلت ﴿أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ولا تبطلوا أعمالكم﴾، فقلنا: ما هذا الذي يبطل أعمالنا؟ فقلنا: الكبائر الموجبات والفواحش حتى نزل قوله تعالى: ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾ [النساء: ٤٨]، فلما نزلت كففنا عن القول في ذلك فكنا نخاف على من أصاب الكبائر والفواحش ونرجو لمن لم يصبها.

ثم أمر سبحانه عباده المؤمنين بطاعته وطاعة رسوله التي هي سعادتهم في الدنيا والآخرة، ونهاهم عن الارتداد الذي هو مبطل للأعمال. ولهذا قال تعالى: ﴿ولا تبطلوا أعمالكم﴾ أي بالردة، ولهذا قال تعالى بعدها: ﴿إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله ثم ماتوا وهم كفار فلن يغفر الله لهم﴾.

ثم قال جل وعلا لعباده المؤمنين: ﴿فلا تهنوا﴾ أي لا تضعفوا عن الأعداء ﴿وتدعوا إلى السلم﴾ أي المهادنة والمسالمة ووضع القتال بينكم وبين الكفار في حال قوتكم وكثرة عددكم وعددكم، لهذا قال تعالى: ﴿فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون﴾ أي في حال علوكم على عدوكم.

فأما إذا كان الكفار فيهم قوة وكثرة بالنسبة إلى جميع المسلمين، ورأى الإمام في المهادنة، والمعاهدة مصلحة فله أن يفعل ذلك، كما فعل

رسول الله ﷺ حين صده كفار قريش عن مكة ودعوه إلى الصلح، ووضع الحرب بينهم وبينه عشر سنين، فأجابهم ﷺ إلى ذلك. وقوله جلت عظمتة: ﴿والله معكم﴾ فيه بشارة عظيمة بالنصر والظفر على الأعداء ﴿ولن يترككم أعمالكم﴾ أي: ولن يحبطها ويبطلها ويسلبكم إياها، بل يوفيكُم ثوابها ولا ينقصكم منها شيئاً والله أعلم.^(١)

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١١/ ٣٢٤ - ٣٢٨؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/ ١٧٢٣.

سورة الفتح

فتح الله ﷻ ومغفرته ونصره لرسوله ﷺ:

قال تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ۖ (١) لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ۖ (٢) وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ۖ (٣)﴾ [الفتح].

نزلت هذه السورة الكريمة لما رجع رسول الله ﷺ من الحديبية في ذي القعدة سنة ست من الهجرة، حين صده المشركون عن الوصول إلى المسجد الحرام، وحالوا بينه وبين العُمرَة، ثم مالوا إلى المصالحة والمهادنة، وأن يرجع عامه هذا ثم يأتي من قاتل، فأجابهم إلى ذلك على كُره جماعة من الصحابة، منهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه. فلما نحر ﷺ هديه حين أحصر ورجع أنزل الله تعالى هذه السورة فيما كان من أمره وأمرهم. وجعل ذلك الصلح فتحًا، باعتبار ما فيه من المصلحة وما آل الأمر إليه.

روي عن ابن مسعود رضي الله عنه وغيره أنه قال: إنكم تعدون الفتح فتح مكة ونحن نعد الفتح صلح الحديبية.^(١)

وعن البراء رضي الله عنه قال: تعدون أنتم الفتح فتح مكة وقد كان فتح مكة فتحًا، ونحن نعد الفتح بيعة الرضوان يوم الحديبية. كنا مع رسول الله ﷺ أربع عشرة مئة.

والحديبية بئر فنزحناها فلم نترك فيها قطرة. فبلغ ذلك رسول الله ﷺ،

(١) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ج ٣/٣٠٨؛ كتابي "رسول الله وخاتم النبيين"، ج ٣/٦٩١.

فأتانا فجلس على شفيرها ثم دعا بإناء من ماء فتوضأ ، ثم تمضمض ودعا ، ثم صبه فيها فتركناها غير بعيد ، ثم إنها أصدرت ما شئنا نحن وركائبنا.^(١)

عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: كنا مع رسول الله ﷺ في سفر قال: فسألته عن شيء ثلاث مرات فلم يرد علي. قال فقلت في نفسي: ثكلتك أمك يا ابن الخطاب ألححت على رسول الله ﷺ ثلاث مرات فلم يرد عليك؟ قال: فركبت راحلتي فحركت بعيري ، فتقدمت مخافة أن يكون نزل في شيء. قال: فإذا أنا بمنادٍ ينادي يا عمر ، أين عمر؟ قال: فرجعت وأنا أظن أنه نزل في شيء. قال: فقال النبي ﷺ: نزل علي البارحة سورة هي أحب إلي من الدنيا وما فيها ، ﴿إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر﴾.^(٢)

عن أبي قتادة رضي الله عنه نزلت على النبي ﷺ ﴿ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر﴾ مرجعه من الحديبية. فقال النبي ﷺ: لقد أنزلت علي الليلة آية أحب إلي مما على الأرض ، ثم قرأها عليهم النبي ﷺ ، فقالوا: هنيئاً مريئاً يا نبي الله. لقد بين الله سبحانه ما يفعل بك فماذا يفعل بنا؟ فنزلت عليه ﷺ ﴿ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار﴾.^(٣)

عن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه يقول: كان النبي ﷺ يصلي حتى ترم قدماه ، ف قيل له: أليس قد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال ﷺ: ((أفلا

(١) صحيح البخاري ، كتاب المغازي ، باب غزوة الحديبية ، ج ٦٢/٥.

(٢) صحيح البخاري ، كتاب المغازي ، باب غزوة الحديبية ، ج ٦٤/٥.

(٣) صحيح البخاري ، كتاب لمغازي ، باب غزوة الحديبية ، ج ٦٦/٥.

أكون عبداً شكوراً)).^(١)

عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ إذا صلى قام حتى تتفطر رجلاه، فقالت له عائشة رضي الله عنها: يا رسول الله ﷺ أتصنع هذا وقد غفر الله لك ما تقدم لك من ذنبك وما تأخر؟ فقال ﷺ: ((يا عائشة أفلا أكون عبداً شكوراً)).^(٢)

فقوله تعالى: ﴿إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً﴾ أي بيناً ظاهراً وهو صلح الحديبية، الذي حصل بسببه خير جزيل، وأمن الناس واجتمع بعضهم ببعض، وتكلم المؤمن مع الكافر وانتشر العلم النافع والإيمان.

وقوله تعالى: ﴿ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر﴾، هذا من خصائصه ﷺ التي لا يشاركه فيها غيره. وهذا فيه تشريف عظيم لرسول الله ﷺ، وهو ﷺ معصوم في جميع أموره. فهو على الطاعة والبر والاستقامة التي لم ينلها بشر سواه لا من الأولين ولا من الآخرين. وهو أكمل البشر على الإطلاق، وسيدهم في الدنيا والآخرة.

ولما كان أطوع خلق الله تعالى لله وأشدهم تعظيماً لأوامره ونواهيه قال ﷺ حين بركت به الناقة: حبسها حابس الفيل. ثم قال ﷺ: والذي نفسي بيده لا يسألوني اليوم شيئاً يعظمون به حرمة الله إلا أجبتهم إليها، (فلما أطاع الله في ذلك وأجاب إلى الصلح قال الله تعالى له: ﴿إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً﴾

(١) صحيح مسلم، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب إكثار الأعمال، والاجتهاد في العبادة، ج٨/١٤٢؛ وانظر: صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب قوله تعالى: (ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطاً مستقيماً)، ج٦/٤٤.

(٢) صحيح مسلم، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب إكثار الأعمال، والاجتهاد في العبادة، ج٨/١٤٢.

ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ﴿أي في الدنيا والآخرة﴾، ﴿ويهديك صراطاً مستقيماً﴾ أي بما يشرعه لك من الشرع العظيم والدين القويم، ﴿وينصرك الله نصراً عزيزاً﴾ أي بسبب خضوعك لأمر الله ﷻ يرفعك الله وينصرك على أعدائك.^(١)

شهادته ﷺ وبياراته ونذارته وبيعته:

قال تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً﴾ (٨) ﴿لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾ (٩) [الفتح].

يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿إنا أرسلناك شاهداً﴾ أي على الخلق، ﴿ومبشراً﴾ للمؤمنين، ﴿ونذيراً﴾ للكافرين؛ ﴿لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه﴾. عن ابن عباس ؓ وغير واحد: تعظموه ﴿وتوقروه﴾ من التوقير وهو الاحترام والإجلال والإعظام، ﴿وتسبحوه﴾ أي تسبحون الله ﴿بكراً وأصيلاً﴾ أي أول النهار وآخره. وهذه الأوامر للأمة كلها تبعاً لرسول الله ﷺ.

بيعة الصحابة له في الحديبية ﷺ:

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمِنْ أَجْرٍ عَظِيمًا﴾ (١٠) [الفتح].

ثم قال تعالى لرسوله ﷺ تشريفاً له وتعظيماً وتكريماً: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾ أي هو حاضر معهم، يسمع أقوالهم ويرى مكانهم ويعلم ضمائرهم وظواهرهم، فهو تعالى هو المبايع بواسطة رسوله الله ﷺ.

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١١/٣٣١ - ٣٣٤؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٧٢٤ - ١٧٢٥.

قال تعالى هاهنا: ﴿فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ﴾ أي إنما يعود وبال ذلك على الناكث نفسه، واللّه غني عنه، ﴿وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللّهُ فَمِصْرُتِهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ أي ثواباً جزيلاً. وهذه البيعة هي بيعة الرضوان. وكانت تحت شجرة سمر بالحديبية. وكان الصحابة رضي الله عنهم الذين بايعوا رسول الله ﷺ يومئذ قيل ألفاً وأربع مئة على الأرجح.^(١)

وسبب البيعة أن رسول الله ﷺ بعث عثمان بن عفان رضي الله عنه إلى مكة المكرمة؛ ليلبغ عنه أشراف قريش ما جاء له، ويخبرهم أنه لم يأت لحرب، وأنه إنما جاء زائراً لهذا البيت ومعظماً لحرمة. فخرج عثمان رضي الله عنه إلى مكة المكرمة، فلقيه أبان بن سعيد بن العاص حين دخل مكة المكرمة أو قبل أن يدخلها، فحمله بين يديه ثم أجاره حتى بلغ رسالة رسول الله ﷺ. فانطلق عثمان رضي الله عنه حتى أتى أبا سفيان وعظماء قريش، فبلغهم عن رسول الله ﷺ ما أرسله به، فقالوا لعثمان رضي الله عنه حين فرغ من رسالة رسول الله ﷺ إليهم: إن شئت أن تطوف بالبيت فطف. فقال: ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله ﷺ.

واحتبسته قريش عندها، فبلغ رسول الله ﷺ والمسلمين أن عثمان رضي الله عنه قد قتل، فقال ﷺ حين بلغه أن عثمان قد قتل: لا نبرح حتى نناجز القوم.

ودعا رسول الله الناس إلى البيعة. فكانت بيعة الرضوان تحت الشجرة. فكان الناس يقولون: بايعهم رسول الله ﷺ على الموت، وعلى أن لا يفروا، فبايع الناس ولم يتخلف أحد من المسلمين حضرها إلا الجد بن قيس أخا بني سلمة. فكان جابر رضي الله عنه يقول: واللّه لكأني أنظر إليه لاصقاً بإبط

(١) انظر: كتابي "رسول الله وخاتم النبيين"، ج ٣/٦٩٩.

ناقته قد ضباً إليها يستتر بها من الناس، ثم أتى رسول الله ﷺ أن الذي كان من خبر قتل عثمان رضي الله عنه باطل.

وقد أرعبت تلك البيعة المشركين وأرسلوا من كان عندهم من المسلمين، ودعوا إلى المودعة والصلح.

ولما أمر رسول الله ﷺ ببيعة الرضوان كان عثمان بن عفان رضي الله عنه رسول رسول الله ﷺ إلى أهل مكة، فبايع الناس، فقال رسول الله ﷺ: اللهم إن عثمان في حاجة الله تعالى وحاجة رسوله، فضرب بإحدى يديه على الأخرى، فكانت يد رسول الله ﷺ لعثمان رضي الله عنه خيراً من أيديهم لأنفسهم.

وبعد أن صالح الرسول ﷺ مشركي مكة المكرمة على الهدنة أنزل الله تعالى: ﴿وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم﴾ الآية.^(١)

وقد قال: رسول الله ﷺ للذين بايعوا وهو لا ينطق عن الهوى: أنتم خير أهل الأرض اليوم. وعن جابر رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: لا يدخل النار أحد ممن بايع تحت الشجرة.^(٢)

ولهذا قال تعالى في الثناء عليهم: ﴿إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيماً﴾.

(١) من رواية مسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب قول الله تعالى: (هو الذي كف أيديهم عنكم). الآية، ج ٥/١٩٦.

(٢) انظر: صحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة رضي الله عنهم، باب من فضائل أصحاب الشجرة، أهل بيعة الرضوان رضي الله عنهم، ج ٧/١٦٩.

كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً﴾^(١).

ظن الأعراب سوء مقلب رسول الله ﷺ:

قال تعالى: ﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرّاً أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعاً بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبيراً﴾^(١١) بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنّاً سَوْءَ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا^(١٢) وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعيراً^(١٣) وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَعْرِضُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا^(١٤)﴾ [الفتح].

يقول تعالى مخبراً رسوله صلوات الله وسلامه عليه بما يعتذر به المخلفون من الأعراب، الذين اختاروا المقام في أهلهم وشغلهم وتركوا المسير مع رسول الله ﷺ فاعتذروا بشغلهم لذلك، وسألوا أن يستغفر لهم الرسول ﷺ، وذلك قول منهم لا على سبيل الاعتقاد، بل على وجه التقية والمصانعة. ولهذا قال تعالى: ﴿يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم قل فمن يملك لكم من الله شيئاً إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرّاً أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعاً﴾ أي لا يقدر أحد أن يرد ما أَرَادَهُ الله فيكم تعالى وتقديسه. وهو العليم بسرائركم وضمائركم وإن صانعتُمونا ونافقتُمونا. ولهذا قال تعالى: ﴿بل كان الله بما تعملون خبيراً﴾.

ولم يكن تخلفكم تخلف معذور ولا عاص، بل تخلف نفاق، ﴿بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهلهم أبداً﴾ أي اعتقدتم أنهم يقتلون

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١١/٣٣٧ - ٣٣٩؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٧٢٦ - ١٧٢٩.

وتستأصل شأفتهم، وتستباد خضراؤهم ولا يرجع منهم مخبر، ﴿وظننتم ظن السوء وكنتم قوماً بوراً﴾ أي هلكى فاسدين منتهين.

ثم قال تعالى: ﴿ومن لم يؤمن بالله ورسوله﴾ أي من لم يخلص العمل في الظاهر والباطن لله فإن الله تعالى سيعذبه في السعير، وإن أظهر للناس ما يعتقدون خلاف ما هو عليه في نفس الأمر.

ثم بين تعالى أنه الحاكم المالك المتصرف في أهل السماوات والأرض، ﴿يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء وكان الله غفوراً رحيماً﴾ أي لمن تاب إليه وأنا ب وخضع لديه.^(١)

رفض صحبة المخلفين لرسول الله ﷺ لفتح خيبر:

قال تعالى: ﴿سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلِمَ اللَّهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكَ قَالِ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ نَحْسُدُونَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الفتح].

يقول تعالى مخبراً عن الأعراب الذين تخلفوا عن رسول الله ﷺ في غزوة الحديبية، إذ ذهب النبي ﷺ وأصحابه ﷺ إلى خيبر يفتتحونها أنهم يسألون أن يخرجوا معهم إلى المغنم، وقد تخلفوا عن وقت محاربة الأعداء ومجالدتهم ومصابرتهم. فأمر الله تعالى رسوله ﷺ ألا يأذن لهم في ذلك؛ معاقبة لهم من جنس ذنبهم، فإن الله تعالى قد وعد أهل الحديبية بمغانم خيبر وحدثهم، لا يشاركهم فيها غيرهم من الأعراب المتخلفين. فلا يقع غير ذلك شرعاً ولا قدراً. ولهذا قال تعالى: ﴿يريدون أن يبدلوا كلام الله﴾ وهو الوعد الذي وعد به أهل الحديبية.

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١١/٣٣٩ - ٣٤٢؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٧٢٩.

قال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ﴾ يعني بعدم نصرتهم للنبي ﷺ وبتشبيطهم المسلمين عن الجهاد، ﴿قُلْ لَن تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ﴾ أي وعد الله أهل الحديبية قبل سؤالكم الخروج معهم، ﴿فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا﴾ أي أن نشرركم في المغانم ﴿بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي ليس الأمر كما زعموا ولكن لا فهم لهم.^(١)

الإشارة إلى جهاد أعداء أقوياء:

قال تعالى: ﴿قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سُدُّعُونَ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسَلِّمُونَ فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِنْ تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۝١٦﴾ لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ يَُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ۝١٧﴾ [الفتح].

اختلف المفسرون في هؤلاء القوم الذين يدعون إليهم الذين هم أولو بأس شديد قيل هم هوازن وثقيف، وقيل بنو حنيفة، وقيل هم أهل فارس، وقيل هم الروم، ولعل الآية تشمل هؤلاء وغيرهم من أهل القوة المعاندين للإسلام.

وكلهم داخل في قوله تعالى: ﴿سُدُّعُونَ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ حتى من لم يأت بعد.

وقوله تعالى: ﴿تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسَلِّمُونَ﴾ يعني شرع لكم جهادهم وقتالهم، فلا يزال ذلك مستمراً عليهم، ولكم النصرة عليهم أو يسلمون فيدخلون في دينكم بلا قتال، بل باختيار.

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١١/٣٤٢ - ٣٤٤؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٧٢٤ - ١٧٢٥.

ثم قال تعالى: ﴿فَإِنْ تَطِيعُوا﴾ أي تستجيبوا وتتفروا في الجهاد وتؤدوا الذي عليكم فيه ﴿يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِنْ تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ﴾ يعني زمن الحديبية، حيث دعيتم فتخلفتم ﴿يُعَذِّبُكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

ثم ذكر تعالى الأعذار في ترك الجهاد، فمنها لازم كالعمى والعرج المستمر، وعارض كالمرض الذي يطرأ أياماً ثم يزول، فهو في حال مرضه ملحق بذوي الأعذار اللازمة حتى يبرأ.

ثم قال تعالى مرغباً في الجهاد وطاعة الله ورسوله: ﴿وَمَنْ يَطْعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يَدْخُلْهُ جَنَّاتُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ﴾ أي ينكل عن الجهاد ويقبل على المعاش ﴿يُعَذِّبُهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ في الدنيا بالمذلة وفي الآخرة بالنار. والله تعالى أعلم.^(١)

بيعة الصحابة له ﷺ تحت الشجرة ونزول السكينة عليهم:

قال تعالى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح].

يخبر تعالى عن رضاه عن المؤمنين الذين بايعوا رسول الله ﷺ تحت الشجرة. وقد تقدم ذكر عددهم وأنهم كانوا ألفاً وأربع مئة، وأن الشجرة كانت سمرة بأرض الحديبية.

وقوله تعالى: ﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ أي من الصدق والوفاء والسمع والطاعة، ﴿فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ﴾ وهي الطمأنينة ﴿عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ وهو ما أجرى الله ﷻ على أيديهم من الصلح بينهم وبين أعدائهم، وما حصل بذلك من الخير العام المستمر المتصل بفتح خيبر وفتح مكة، ثم فتح سائر

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١١/ ٣٤٤ - ٣٤٧؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/ ١٧٣٠ - ١٧٢٥.

البلاد والأقاليم عليهم، وما حصل لهم من العز والنصر والرفعة في الدنيا والآخرة. ولهذا قال تعالى: ﴿ومغانم كثيرة يأخذونها وكان الله عزيزاً حكيماً﴾.

عن أبي سلمة رضي الله عنه قال: بينما نحن قائلون إذ نادى منادي رسول الله ﷺ: أيها الناس، البيعة البيعة نزل روح القدس. قال: فثرنا إلى رسول الله ﷺ، وهو تحت شجرة سمرة فبايعناه. فذلك قول الله تعالى: ﴿لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة﴾. قال: فبايع رسول الله ﷺ، لعثمان رضي الله عنه بإحدى يديه على الأخرى.^(١)

نزول السكينة على رسوله ﷺ وعلى المؤمنين في الحديبية:

قال تعالى: ﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيِ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحَلَّهُ. وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَّوَّهُمْ فِتْصِبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيَدْخُلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾ إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾﴾ [الفتح].

يقول تعالى مخبراً عن الكفار من مشركي العرب من قريش ومن مالأهم على نصرتهم ضد رسول الله ﷺ: ﴿هم الذين كفروا﴾ أي هم الكفار دون غيرهم، ﴿وصدوكم عن المسجد الحرام﴾ أي أنتم أحق به وأنتم أهلها في نفس الأمر، ﴿والهدي معكوفاً أن يبلغ محله﴾ أي وصدوا الهدي أن يصل إلى محله. وهذا من بغيهم وعنادهم.

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١١/ ٣٤٧ - ٣٥٠؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/ ١٧٣٠ - ١٧٣١.

وقوله تعالى: ﴿ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات﴾ أي بين أظهرهم ممن يكتنهم إيمانه ويخفيه منهم؛ خيفة على أنفسهم من قومهم، لكننا سلطناكم عليهم فقتلتموهم وأبدتم خضراءهم، ولكن بين إفنائهم من المؤمنين والمؤمنات أقوام لا تعرفونهم، ولهذا قال تعالى: ﴿لم تعلموهم أن تطوهم فتصيبكم منهم معرة﴾ أي إثم وغرامة، ﴿بغير علم ليدخل الله في رحمته من يشاء﴾ أي يؤخر عقوبتهم؛ ليخلص من بين أظهرهم المؤمنين، وليرجع كثير منهم إلى الإسلام. ثم قال تعالى: ﴿لو تزيلوا﴾ أي لو تميز الكفار من المؤمنين الذين بين أظهرهم ﴿لعذبنا الذين كفروا منهم عذاباً أليماً﴾ أي لسلطناكم عليهم فلقتلتموهم قتلاً ذريعاً.

عن ابن عباس رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿لو تزيلوا لعذبنا الذين كفروا منهم عذاباً أليماً﴾ يقول: لو تزيل الكفار من المؤمنين لعذبهم الله عذاباً أليماً بقتلهم إياهم.

وقوله تعالى: ﴿إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية حمية الجاهلية﴾ وذلك حين أبوا أن يكتبوا بسم الله الرحمن الرحيم، وأبوا أن يكتبوا هذا ما عليه محمد رسول الله ﴿فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وألزمهم كلمة التقوى﴾ وهي قول: لا إله إلا الله.

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: ((أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فمن قال لا إله إلا الله فقد عصم مني ماله ونفسه إلا بحقه، وحسابه على الله تعالى)).^(١)

(١) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله محمد رسول الله، ج ١/ ٣٨.

وقال الله جل ثناؤه: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾ وهي لا إله إلا الله محمد رسول الله، فاستكبروا عنها، واستكبر عنها المشركون يوم الحديبية، فكاتبهم رسول الله ﷺ على قضية المدة.

عن ابن عباس رضي الله عنهما قوله تعالى: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ﴾ قال: يقول شهادة أن لا إله إلا الله وهي رأس كل تقوى.

قال تعالى: ﴿وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾ كان المسلمون أحق بها وكانوا أهلها، ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ أي هو عليم بمن يستحق الخير ممن يستحق الشر.

عن أبي بن كعب رضي الله عنه أنه كان يقرأ: ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ ولو حميتهم كما حموا لفسد المسجد الحرام.

لما جاء سهيل بن عمرو رضي الله عنه لمفاوضة النبي ﷺ قال ﷺ: قد سهل لكم من أمركم، فقال سهيل بن عمرو: هات اكتب بيننا وبينك كتابًا. فدعا النبي ﷺ بعلي رضي الله عنه وقال: اكتب بسم الله الرحمن الرحيم، فقال سهيل بن عمرو: أما الرحمن فوالله ما أدري ما هو، ولكن اكتب باسمك اللهم كما كنت تكتب. فقال المسلمون: والله لا نكتبها إلا بسم الله الرحمن الرحيم. فقال النبي ﷺ: اكتب باسمك اللهم ثم قال: هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله. فقال سهيل: والله لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك، ولكن اكتب محمد بن عبد الله. فقال له النبي ﷺ: والله إني لرسول الله وإن كذبتُموني، اكتب محمد بن عبد الله. فقال له النبي ﷺ: على أن تخلوا بيننا وبين البيت، فنطوف به. فقال سهيل: والله لا تتحدث العرب أنا أخذنا ضغطة، ولكن ذلك من العام المقبل، فكتب، فقال سهيل:

وعلى ألا يأتيك منا رجل وإن كان على دينك إلا رددته إلينا فقال المسلمون: سبحان الله كيف يرد إلى المشركين وقد جاء مسلماً؟

فبينما هم كذلك إذ جاء أبو جندل ابن لسهيل بن عمرو يرسف في قيوده قد خرج من أسفل مكة حتى رمى بنفسه بين أظهر المسلمين، فقال سهيل: هذا يا محمد أول من أقاضيك عليه أن ترده إلي. فقال النبي ﷺ: إنا لم نقض الكتاب بعد. قال: فوالله إذا لا أصالحك على شيء أبداً، فقال النبي ﷺ: فأجزه لي؟ قال: ما أنا بمجيز ذلك لك. قال: بلى فافعل. قال: ما أنا بفاعل. قال أبو جندل: أي معشر المسلمين أرد إلى المشركين وقد جئت مسلماً، ألا ترون ما قد لقيت؟ وكان قد عذب عذاباً شديداً في الله ﷻ. قال عمر رضي الله عنه: فأتيت نبي الله ﷺ فقلت أأست نبي الله حقاً؟ قال ﷺ: بلى. قلت: ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟ قال ﷺ: بلى. قلت فلم نعطي الدنية في ديننا إذا؟ قال ﷺ: إني رسول الله ولست أعصيه وهو ناصري. قلت: أو لست كنت تحدثنا أنا سنأتي البيت ونطوف به؟ قال ﷺ: بلى. فأخبرتكم أنا نأتيه العام؟ قلت: لا. قال ﷺ: فإنك آتيه ومطوف به. قال: فأتيت أبا بكر فقلت: يا أبا بكر أليس هذا نبي الله حقاً؟ قال: بلى. قلت: ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟ قال: بلى. قلت: فلم نُعطي الدنية في ديننا إذا؟ قال: أيها الرجل إنه رسول الله وليس يعصي ربه، وهو ناصره، فاستمسك بغرزه، فوالله إنه على الحق.

قلت: أوليس كان يحدثنا أنا سنأتي البيت ونطوف به؟ قال: بلى، قال: فأخبرك أنك تأتيه العام؟ قلت: لا. قال: فإنك تأتيه وتطوف به.^(١)

(١) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ج ٣/٣١٧؛ كتابي "رسول الله وخاتم النبيين"، ج ٣/٦٩٨.

قال عمر رضي الله عنه: فعلت لذلك أعمالاً، قال: فلما فرغ من قضية الكتاب قال رسول الله ﷺ لأصحابه: قوموا فانحروا ثم احلقوا. قال: فوالله ما قام منهم رجل حتى قال ﷺ ذلك ثلاث مرات، فلما لم يبق منهم أحد دخل ﷺ على أم سلمة رضي الله عنها، فذكر لها ما لقي من الناس. قالت له أم سلمة رضي الله عنها: يا نبي الله أتحب ذلك؟ أخرج ثم لا تكلم أحداً منهم كلمة حتى تنحر بدنك وتدعو حالقك فيحلقك. فخرج رسول الله ﷺ، فلم يكلم أحداً منهم حتى فعل ذلك، نحر بدنه ودعا حالقه فحلقه. فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا وجعل بعضهم يحلق بعضاً حتى كاد بعضهم يقتل بعضاً غمّاً.

ثم رجع النبي ﷺ إلى المدينة فجاءه أبو بصير رجل من قريش وهو مسلم، فأرسلوا في طلبه رجلين فقالوا: العهد الذي جعلت لنا، فدفعه إلى الرجلين فخرجا به حتى إذا بلغا ذا الحليفة فنزلوا يأكلون من تمر لهم، فقال أبو بصير لأحد الرجلين: والله إنني لأرى سيفك هذا يا فلان جيداً، فاستله الآخر فقال: أجل والله إنه لجيد، لقد جربت منه ثم جربت. فقال أبو بصير: أرني أنظر إليه فأمكنه منه فضربه حتى برد وفر الآخر حتى أتى المدينة، فدخل المسجد يعدو فقال رسول الله ﷺ حين رآه: لقد رأى هذا ذعراً. فلما انتهى إلى النبي ﷺ قال: قتل والله صاحبي وإني لمقتول. فجاء أبو بصير فقال: يا رسول الله قد والله أوفى الله ذمتك، قد رددتني إليهم ثم نجاني الله تعالى منهم. فقال النبي ﷺ: ويل أمه مسعر حرب لو كان له أحد.^(١)

فلما سمع ذلك عرف أنه سيرده إليهم، فخرج حتى أتى سيف البحر قال:

(١) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ج ٣/٣٢٤؛ كتابي "رسول الله وخاتم النبيين"، ج ٣/٧٠٠.

وتفقت منهم أبو جندل بن سهيل، فلحق بأبي بصير، فجعل لا يخرج من قريش رجل قد أسلم إلا لحق بأبي بصير، حتى اجتمعت منهم عصابة، فوالله ما يسمعون بغير خرجت لقريش إلى الشام إلا اعترضوا لها، فقتلوهم وأخذوا أموالهم. فأرسلت قريش إلى النبي ﷺ تناشده الله والرحم لما أرسل إليهم: فمن آتاه منهم فهو آمن فأرسل النبي ﷺ إليهم.^(١)

وأنزل الله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ﴾ حتى بلغ قوله تعالى: ﴿حِمِيَةِ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ وكانت حميتهم أنهم لم يقرؤا أنه رسول الله، ولم يقرؤا ببسم الله الرحمن الرحيم، وحالوا بينهم وبين البيت.^(٢)

رسول الهدى ﷺ وظهوره ودخوله المسجد الحرام:

قال تعالى: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ (٢٧) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا (٢٨) [الفتح].

كان رسول الله ﷺ قد رأى في المنام أنه دخل مكة وطاف بالبيت العتيق، فأخبر أصحابه بذلك وهو بالمدينة. فلما ساروا عام الحديبية لم يشك جماعة منهم أن هذه الرؤيا تتفسر هذا العام، فلما وقع ما وقع من قضية الصلح ورجعوا عامهم ذلك على أن يعودوا من قابل وقع في نفوس بعض الصحابة رضي الله عنهم من ذلك شيء، حتى سأل عمر بن الخطاب رضي الله عنه في ذلك، فقال

(١) انظر: ابن أبي شيبة، المغازي، ص ٢٩٠؛ كتابي "رسول الله وخاتم النبيين"، ج ٣/٧٠١.

(٢) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١١/٣٥٧ - ٣٦٦؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٧٣٢ - ١٧٣٨.

له فيما قال: أفلم تكن تخبرنا أنا سنأتي البيت ونطوف به؟ قال ﷺ: بلى أفأخبرتكم أنك تأتية عامك هذا؟ قال لا، قال النبي ﷺ: فإنك آتية ومطوف به، وبهذا أجاب الصديق رضي الله عنه أيضاً كما مر ذكره. ولهذا قال تعالى: ﴿لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله﴾ هذا لتحقيق الخبر وتوكيده، وليس هذا من الاستثناء في شيء.

وقوله تعالى: ﴿آمنين﴾ أي في حال دخولكم. وقوله تعالى: ﴿محلّين رؤسكم ومقصرين﴾ حال مقدرة؛ لأنهم في حال حرّمهم لم يكونوا محلّين ومقصرين. وإنما كان هذا في ثاني الحال. كان منهم من حلق رأسه ومنهم من قصره.

وثبت أن رسول الله ﷺ قال: رحم الله المحلقين. قالوا والمقصرين يا رسول الله؟ قال ﷺ: رحم الله المحلقين. قالوا والمقصرين يا رسول الله؟ قال ﷺ: رحم الله المحلقين. قالوا: والمقصرين يا رسول الله؟ قال ﷺ: والمقصرين في الثالثة أو الرابعة.^(١)

وقوله تعالى: ﴿لا تخافون﴾ حال مؤكدة في المعنى، فأثبت لهم الأمن حال الدخول، ونفى عنهم الخوف حال استقرارهم في البلد لا يخافون من أحد. وهذا كان في عمرة القضاء في ذي القعدة سنة سبع، فإن النبي ﷺ لما رجع من الحديبية في ذي القعدة رجع إلى المدينة فأقام بها ذا الحجة والمحرم، وخرج في صفر إلى خيبر، ففتحها الله عليه، بعضها عنوة وبعضها صلحاً. وهي إقليم عظيم كثير النخل والزروع، فاستخدم من فيها من اليهود عليها

(١) انظر: رواية البخاري في صحيحه، كتاب الحج، باب الحلق والتقصير عند الإحلال، ج ١٨٩/٢؛ صحيح مسلم، كتاب الحج، باب تفضيل الحلق على التقصير وجواز التقصير، ج ٨١/٤.

على الشطر، وقسمها بين أهل الحديبية وحدهم. ولم يشهدا أحد غيرهم إلا الذين قدموا من الحبشة جعفر بن أبي طالب وأصحابه رضي الله عنهم، وأبو موسى الأشعري وأصحابه رضي الله عنهم، ولم يغب منهم أحد.^(١)

فلما كان في ذي القعدة سنة سبع خرج ﷺ إلى مكة المكرمة معتمراً هو وأهل الحديبية. فأحرم من ذي الحليفة، وساق معه الهدى. قيل: كان ستين بدنة، فلبى وسار أصحابه يلبون. فلما كان ﷺ قريباً من مر الظهران بعث محمد بن مسلمة بالخيول والسلاح أمامه. فلما رآه المشركون رعبوا رعباً شديداً، وظنوا أن رسول الله ﷺ يغزوهم، وأنه قد نكث العهد الذي بينهم وبينه من وضع القتال عشر سنين. وذهبوا فأخبروا أهل مكة، فلما جاء رسول الله ﷺ فنزل بمر الظهران، حيث ينظر إلى أنصاب الحرم، بعث السلاح من القسي والنبل والرماح إلى بطن يأجج، وسار ﷺ إلى مكة المكرمة بالسيوف مغمدة في قربها كما شارطهم عليه. فلما كان في أثناء الطريق بعث قريش مكرز بن حفص، فقال: يا محمد ما عرفناك تنقض العهد، فقال ﷺ: وما ذاك؟ قال دخلت علينا بالسلاح والقسي والرماح. فقال ﷺ: لم يكن ذلك وقد بعثنا به إلى يأجج. فقال: بهذا عرفناك بالبر والوفاء، وخرجت رؤوس الكفار من مكة المكرمة؛ لئلا ينظروا إلى رسول الله ﷺ وإلى أصحابه رضي الله عنهم غيظاً وحنقاً.

وأما بقية أهل مكة من الرجال والنساء والولدان فجلسوا في الطرق وعلى البيوت ينظرون إلى رسول الله وأصحابه. فدخلها ﷺ وبين يديه أصحابه يلبون، والهدى قد بعثه إلى ذي طوى وهو راكب ناق القصواء التي كان راكبها يوم الحديبية، وعبد الله بن رواحة الأنصاري أخذ بزمام ناقة رسول

(١) انظر: كتابي "رسول الله وخاتم النبيين"، ج ٣/ ٧٧٩.

الله ﷻ يقودها وهو يقول:

رجزاً باسم الذي لا دين إلا دينه
باسم الذي محمد رسوله
خلوا بني الكفار عن سبيله
اليوم نضربكم على تأويله
كما ضربناكم على تنزيله
ضرباً يزيل الهام عن مقيله
ويذهل الخليل عن خليله
قد أنزل الرحمن في تنزيله
في صحف تتلى على رسوله
بأن خير القتل في سبيله
يا رب إني مؤمن بقيله

ثم أقبل رسول الله ﷺ حتى دخل المسجد. وقعدت قريش نحو الحجر، فاضطبع ﷺ بردائه، ثم قال: لا يرى القوم فيكم غميرة - يعني ضعفاً - فاستلم الركن، ثم رمل حتى إذا تغيب بالركن اليماني مشى إلى الركن الأسود، فقالت قريش: ما ترضون بالمشي أما إنكم لتتنقزون نقز الظباء، ففعل ذلك ثلاثة أشواط فكانت سنة...^(١)

عن ابن عباس ؓ قال: قدم رسول الله ﷺ وأصحابه مكة وقد وهنتهم حمى يثرب ولقوا منها سوءاً، فقال المشركون: إنه يقدم عليكم قوم قد وهنتهم حمى يثرب، ولقوا منها شراً وجلس المشركون من الناحية التي تلي

(١) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ج ٣/ ٣٧١؛ كتابي "رسول الله وخاتم النبيين"، ج ٣/ ٧٨٩.

الحجر، فأطلع الله نبيه ﷺ على ما قالوا، فأمر رسول الله ﷺ أصحابه أن يرملوا الأشواط الثلاثة ليرى المشركون جلدهم، قال: فرملوا ثلاثة أشواط، وأمرهم أن يمشوا بين الركنتين، حيث لا يراهم المشركون، فقال المشركون: أهؤلاء الذين زعمتم أن الحمى قد وهنتهم هؤلاء أجلد من كذا وكذا.^(١)

فلما دخلها ومضى الأجل أتوا علياً فقالوا: قل لصاحبك اخرج عنا فقد مضى الأجل، فخرج النبي ﷺ فتبعته ابنة حمزة ﷺ تتادي يا عم يا عم، فتناولها علي ﷺ فأخذ بيدها وقال لفاطمة ﷺ: دونك ابنة عمك فحملتها، فاختصم فيها علي وزيد وجعفر ﷺ، فقال علي ﷺ: أنا أخذتها وهي ابنة عمي. وقال جعفر ﷺ: ابنة عمي وخالتها تحتي، وقال زيد ﷺ: ابنة أخي، فقضى بها النبي ﷺ لخالتها وقال: الخالة بمنزلة الأم. وقال لعلي ﷺ: أنت مني وأنا منك، وقال لجعفر ﷺ: أشبهت خلقي وخلقي، وقال ﷺ: لزيد ﷺ: أنت أخونا ومولانا. قال علي ﷺ: ألا تتزوج ابنة حمزة ﷺ؟ قال ﷺ: إنها ابنة أخي من الرضاعة..^(٢)

وقوله تعالى: ﴿فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ أي فعلم الله سبحانه من الخير والمصلحة في صرفكم عن مكة ودخولكم إليها عامكم ذلك ما لم تعلموه أنتم، ﴿فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ﴾ أي قبل دخولكم

(١) انظر: رواية ومسلم في صحيحه، باب استحباب الرمل في الطواف العمرة، وفي الطواف الأول من الحج، ج ٤/٦٥؛ البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب عمرة القضاء، ج ٥/٨٦.

(٢) انظر: صحيح البخاري، كتاب النكاح، باب: (وأمهاتكم اللاتي أرضعنكم)، ج ٦/١٢٥؛ صحيح مسلم، كتاب الرضاع، باب تحريم ابنة الأخ من الرضاعة، ج ٤/١٦٥.

الذي وعدتم به في رؤيا النبي ﷺ فتحاً قريباً، وهو الصلح الذي كان بينكم وبين أعدائكم من المشركين.

ثم قال تعالى مبشراً المؤمنين بنصرة الرسول ﷺ على عدوه، وعلى سائر أهل الأرض: ﴿هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق﴾ أي أرسل محمدًا ﷺ بالعلم النافع والعمل الصالح. فإن الشريعة تشتمل على شيئين: علم وعمل، فالعلم الشرعي صحيح. والعمل الشرعي مقبول. فإخباراتها حق وإنشاءاتها عدل، ﴿ليظهره على الدين كله﴾ أي على أهل جميع الأديان من سائر أهل الأرض من عرب وعجم ومليين ومشركين، ﴿وكفى بالله شهيداً﴾ أي أنه رسوله وهو ناصره.^(١)

صفات الرحمة عند رسول الله ﷺ ومن معه من أصحابه:

قال تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح].

يخبر تعالى عن محمد ﷺ أنه رسوله حقاً بلا شك ولا ريب، فقال تعالى: ﴿محمد رسول الله﴾. وهذا مشتمل على كل وصف جميل، ثم تنى بالثناء على أصحابه ﷺ فقال: ﴿والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم﴾. وهذه صفة المؤمنين أن يكون أحدهم شديداً على الكفار، رحيماً براً بالأخيار. وقال النبي ﷺ: مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١١/٣٦٧ - ٣٦٩؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٧٣٨ - ١٧٤٠.

الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمل والسهر. وقال ﷺ: المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً، وشبك بين أصابعه.^(١)

وقوله تعالى: ﴿تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً﴾ وصفهم بكثرة العمل وكثرة الصلاة، وهي خير الأعمال، ووصفهم بالإخلاص فيها لله ﷻ والاحتساب عند الله تعالى جزيل الثواب، وهو الجنة المشتمة على فضل الله تعالى، وهو سعة الرزق عليهم ورضاه تعالى عنهم، وهو أكبر من الأول.

وقوله ﷺ: ﴿سيماهم في وجوههم من أثر السجود﴾ عن ابن عباس ؓ: ﴿سيماهم في وجوههم﴾ يعني سمت الحسن، كما يعني الخشوع والتواضع. فالصلاة تحسن وجوههم، وقال بعضهم من كثرت صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار، كما قالوا: إن للحسنة نوراً في القلب وضياءً في الوجه وسعة في الرزق ومحبة في قلوب الناس.

فالصحابة ؓ خلصت نياتهم وحسنت أعمالهم، فكل من نظر إليهم أعجبه في سمتهم وهديهم. والنصارى كانوا إذا رأوا الصحابة ؓ الذين فتحوا الشام يقولون: والله لهؤلاء خير من الحواريين فيما بلغنا. وصدقوا في ذلك فإن الحديث عن هذه الأمة ورد معظمة في الكتب المتقدمة. وأعظمها وأفضلها أصحاب رسول الله ﷺ.

(١) انظر: رواية مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم، ج ٨/٢٠؛ البخاري في صحيحه، باب: تشبيك الأصابع في المسجد وغيره، ج ١/١٢٣.

وقد نوه الله ﷻ بذكرهم في الكتب المنزلة والأخبار المتداولة، ولهذا قال تعالى هاهنا: ﴿ذلك مثلهم في التوراة﴾ ثم قال تعالى: ﴿ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه﴾ أي فراخه، ﴿فآزره﴾ أي شده، ﴿فاستغلظ﴾ أي شب وطل، ﴿فاستوى على سوقه يعجب الزراع﴾ أي فكذلك أصحاب محمد ﷺ آزره وأيدوه ونصروه، فهم معه كالشطء مع الزرع ﴿ليغيظ بهم الكفار﴾.

تكفير الذين يبغضون الصحابة لأنهم يغيظونهم. ومن غاظ الصحابة ﷺ فهو كافر بهذه الآية. والأحاديث في فضائل الصحابة ﷺ والنهي عن التعرض لهم بمساءة كثيرة، ويكفيهم ثناء الله عليهم ورضاه عنهم.

ثم قال تعالى: ﴿وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم﴾ من هنا لبيان الجنس ﴿مغفرة﴾ أي لذنوبهم، ﴿وأجرًا عظيمًا﴾ أي ثوابًا جزيلاً ورزقاً كريماً. ووعد الله حق وصدق لا يخلف ولا يبدل. وكل من اقتفى أثر الصحابة ﷺ فهو في حكمهم. ولهم الفضل والسبق والكمال الذي لا يلحقهم فيه أحد من هذه الأمة. رضي الله عنهم وأرضاهم وجعل جنات الفردوس مأواهم. وقد فعل.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((لا تسبوا أصحابي فوالذي نفسي بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً ما أدرك مد أحدهم ولا نصيفه)).^(١)

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١١/٣٦٩ - ٣٧٦؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٧٤٠ - ١٧٤٢؛ انظر: صحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة ﷺ، باب تحريم سب الصحابة ﷺ، ج ٧/١٨٨؛ صحيح البخاري، كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ، باب: قول النبي ﷺ: (لو كنت متخذاً خليلاً)، ج ٤/١٩٥.

سورة الحجرات

وجوب احترام رسول الله ﷺ:

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْدِمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۖ وَانْقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝١ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ۝٢ إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلنَّقَاةِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ۝٣﴾ [الحجرات].

هذه آيات أدب الله تعالى بها عباده المؤمنين، فيما يعاملون به الرسول ﷺ من التوقير والاحترام والتبجيل والإعظام، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْدِمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أي لا تسارعوا في الأشياء بين يديه، وكونوا تبعاً له في جميع الأمور.

ويدخل في عموم هذا الأدب الشرعي حديث معاذ ﷺ، حيث قال له النبي ﷺ حين بعثه إلى اليمن: بم تحكم؟ قال: بكتاب الله تعالى، قال ﷺ: فإن لم تجد؟ قال: بسنة رسول الله ﷺ، قال ﷺ: فإن لم تجد؟ قال: أجتهد رأيي، فضرب في صدره وقال: الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله. ^(١)

فمعاذ ﷺ آخر رأيه ونظيره واجتهاده إلى ما بعد الكتاب والسنة، ولو قدمه قبل البحث عنهما لكان من باب التقديم بين يدي الله ورسوله.

(١) انظر: رواية الترمذي، في سننه، كتاب الأحكام، باب ما جاء في القاضي، ج ٣/٦١٦.

عن ابن عباس رضي الله عنه ﴿لا تقدموا بين يدي الله ورسوله﴾ لا تقولوا خلاف الكتاب والسنة، ولا تفتاتوا على رسول الله ﷺ بشيء حتى يقضي الله تعالى على لسانه، ولا تقضوا أمراً دون الله ورسوله من شرائع دينكم، لا بقول ولا فعل. وذكر أن ناساً كانوا يقولون: لو أنزل في كذا كذا وكذا، لو صنع كذا. فكره الله تعالى ذلك وتقدم فيه ﴿واتقوا الله﴾ أي فيما أمركم به ﴿إن الله سميع﴾ لأقوالكم ﴿عليم﴾ بنياتكم.

وقوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي﴾. هذا أدب ثان أدب الله تعالى به المؤمنين، ألا يرفعوا أصواتهم بين يدي النبي ﷺ فيرفعوا أصواتهم فوق صوته.

عن عبد الله بن الزبير رضي الله عنه أنه قدم ركب من بني تميم على النبي ﷺ فقال أبو بكر رضي الله عنه: أمر القعقاع بن معبد، وقال عمر رضي الله عنه: بل أمر الأقرع بن حابس، فقال أبو بكر رضي الله عنه: ما أردت إلا خلافي، فقال عمر رضي الله عنه: ما أردت خلافي، فتمازيا حتى ارتفعت أصواتهما، فنزلت في ذلك ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله﴾ حتى انقضت الآية، ﴿ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم﴾ الآية.^(١)

عن ثابت بن قيس بن شماس رضي الله عنه قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول﴾ قعد ثابت بن قيس رضي الله عنه^(٢) في الطريق يبكي. قال: فمر به عاصم بن عدي من بني العجلان فقال: ما يبكيك يا ثابت؟ قال: هذه الآية أتخوف أن تكون نزلت في وأنا صيِّ رفيع

(١) رواه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب وفد بني تميم، ج ١١٦/٥؛ وانظر: كتابي "رسول الله وخاتم النبيين"، ج ٨٦٩/٤، (وفد بني تميم).

(٢) انظر: ترجمة ثابت بن قيس عند، ابن حجر، الإصابة، ج ١٦٥/١

الصوت. قال: فمضى عاصم بن عدي رضي الله عنه إلى رسول الله ﷺ، قال: وغلبه البكاء فأتى امرأته جميلة ابنة عبد الله بن أبي ابن سلول، فقال لها: إذا دخلت بيت فرسي فشدي على الضبة بمسمار، فضربت به مسمار حتى إذا خرج عطفه وقال: لا أخرج حتى يتوفاني الله تعالى، أو يرضى عني رسول الله ﷺ.

قال: وأتى عاصم رضي الله عنه رسول الله ﷺ فأخبره خبره فقال: اذهب فادعه لي، فجاء عاصم رضي الله عنه إلى المكان فلم يجده، فجاء إلى أهله، فوجده في بيت الفرس فقال له:

إن رسول الله ﷺ يدعوك، فقال: اكسر الضبة، قال: فخرجا فأتيا النبي ﷺ فقال له رسول الله ﷺ: ما يبكيك يا ثابت؟ فقال رضي الله عنه: أنا صيِّت وأتخوَّف أن تكون هذه الآية نزلت في ﴿لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول﴾، فقال النبي ﷺ: أما ترضى أن تعيش حميداً وتقتل شهيداً وتدخل الجنة؟ فقال رضي الله عنه: رضيت ببشرى الله تعالى ورسوله ﷺ، ولا أرفع صوتي أبداً على صوت رسول الله ﷺ.

قال: وأنزل الله تعالى: ﴿إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى﴾ الآية.

وروي عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه سمع صوت رجلين في مسجد النبي ﷺ قد ارتفعت أصواتهما، فجاء فقال: أتدريان أين أنتما؟ ثم قال: من أين أنتما؟ قالوا: من أهل الطائف، فقال: لو كنتما من أهل المدينة لأوجعتكما ضرباً. وقال العلماء: يكره رفع الصوت عند قبره ﷺ كما كان يكره في حياته ﷺ؛ لأنه محترم حياً وفي قبره صلوات الله وسلامه عليه دائماً.

ثم نُهي عن الجهر له بالقول كما يجهر الرجل لمخاطبه ممن عداه، بل يخاطب بسكينة ووقار وتعظيم، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾.

وقوله تعالى: ﴿أَنْ تَحْبِطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ أي إنما نهيناكم عن رفع الصوت عنده، خشية أن يغضب من ذلك، فيغضب الله تعالى لغضبه، فيحبط الله عمل من أغضبه، وهو لا يدري. ثم ندب الله تعالى إلى خفض الصوت عنده وحث على ذلك، وأرشد إليه، ورغب فيه، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى﴾ أي أخلصها لها وجعلها أهلاً ومحلاً، ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.

كُتِبَ إلى عمر رضي الله عنه: يا أمير المؤمنين، رجل لا يشتهي المعصية، ولا يعمل بها أفضل، أم رجل يشتهي المعصية ولا يعمل بها؟ فكتب عمر رضي الله عنه: إن الذين يشتهون المعصية ولا يعملون بها ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾^(١).

التأدب مع رسول الله ﷺ:

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ۝٥﴾ [الحجرات].

ذم الله سبحانه الذين ينادون رسول الله ﷺ من وراء الحجرات، وهي بيوت نسائه، كما يصنع أجلاف الأعراب، فقال: ﴿أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾. ثم أرشد تعالى إلى الأدب في ذلك فقال ﷺ: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾، أي لكان لهم في ذلك الخير والمصلحة في الدنيا والآخرة. ثم قال

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١١/٣٧٧ - ٣٨٠؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٧٢٤ - ١٧٢٥.

جل ثأؤه داعياً لهم إلى التوبة والإنابة ﴿والله غفور رحيم﴾، وقد ذُكر أنها نزلت في الأقرع بن حابس التميمي ووفد تميم.

عن الأقرع بن حابس رضي الله عنه، أنه نادى رسول الله ﷺ من وراء الحجرات فقال: يا محمد يا محمد. وفي رواية: يا رسول الله، فلم يجبه فقال: يا رسول الله إن حمدي لزين، وإن ذمي لشين، فقال ﷺ: ذاك الله ﷻ.^{(١) (٢)}

رسول الله ﷺ وحب الإيمان:

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِمِجْهَلَةٍ فَتُصْحَبُوا عَلَيْهِ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ۖ ﴿٦﴾ وَأَعْلَمُوا أَن فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّشِدُونَ ۖ ﴿٧﴾ فَضَلَّاهُمُ اللَّهُ وَنِعْمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ حَكِيمٌ ۖ ﴿٨﴾﴾ [الحجرات].

يأمر تعالى بالتثبت في خبر الفاسق؛ ليحاط له؛ لئلا يحكم بقوله، فيكون في نفس الأمر كاذباً أو مخطئاً، فيكون الحاكم بقوله قد اقتضى وراءه. وقد نهى الله ﷻ عن اتباع سبيل المفسدين. وإنما أمرنا بالتثبت عند خبر الفاسق، وقد ذكر كثير من المفسرين أن هذه الآية نزلت في الوليد بن عقبة بن أبي معيط، حين بعثه رسول الله ﷺ على صدقات بني المصطلق.^(٣)

عن الحارث بن ضرار الخزاعي رضي الله عنه يقول: قدمت على رسول الله ﷺ فدعاني إلى الإسلام، فدخلت فيه وأقررت به. ودعاني إلى الزكاة فأقررت بها، وقلت يا رسول الله: أرجع إليهم فأدعوهم إلى الإسلام وأداء الزكاة فمن

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده، ج ٣/٤٨٨؛ ابن هشام، السيرة النبوية، ج ٤/٤٦٥.

(٢) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١١/٣٨١ - ٣٨٣؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٧٤٤.

(٣) انظر: ترجمة الوليد بن عقبة، ابن حجر، الإصابة، ج ٣/٦٣٧.

استجاب لي جمعت زكاته. ويرسل إلي يا رسول الله رسولا لإبان كذا وكذا ليأتيك بما جمعت من الزكاة.

فلما جمع الحارث الزكاة ممن استجاب له وبلغ الإبان الذي أراد رسول الله ﷺ أن يبعث إليه احتبس عليه الرسول فلم يأتته. وظن الحارث أنه قد حدث فيه سخطه من الله تعالى ورسوله. فدعا بسروات قومه فقال لهم: إن رسول الله ﷺ كان وقت لي وقتاً يرسل إلي رسوله ليقبض ما كان عندي من الزكاة، وليس من رسول الله ﷺ الخلف. ولا أرى حبس رسوله إلا من سخطه كانت، فانطلقوا بنا نأتي رسول الله ﷺ. وبعث رسول الله ﷺ الوليد بن عقبة إلى الحارث ليقبض ما كان عنده مما جمع من الزكاة. فلما أن سار الوليد حتى بلغ بعض الطريق خاف، فرجع حتى أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إن الحارث قد منعني الزكاة وأراد قتلي، فغضب رسول الله ﷺ فضرب البعث إلى الحارث ﷺ، وأتى الحارث بأصحابه حتى إذا استقبل البعث وفصل عن المدينة لقيهم الحارث فقالوا: هذا الحارث، فلما غشيهم قال لهم: إلى من بعثتم؟ قالوا: إليك. قال: ولم؟ قالوا: إن رسول الله ﷺ بعث إليك الوليد بن عقبة فزعم أنك منعه الزكاة وأردت قتله. قال ﷺ: لا والذي بعث محمداً بالحق ما رأيته بته ولا أتاني.

فلما دخل الحارث على رسول الله قال: منعت الزكاة وأردت قتل رسولي؟ قال: لا والذي بعثك بالحق ما رأيته ولا أتاني، وما أقبلت إلا حين احتبس علي رسول الله ﷺ، خشيت أن يكون كانت سخطه من الله تعالى ورسوله. قال: فنزلت الحجرات ﴿يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق نبياً﴾ - إلى قوله - ﴿حكيم﴾.

وروي أن رسول الله ﷺ يقول: ((التثبت من الله والعجلة من الشيطان)).^(١)

وقوله تعالى: ﴿واعلموا أن فيكم رسول الله﴾ أي اعلموا أن بين أظهركم رسول الله ﷺ فعظموه ووقروه وتأدبوا معه وانقادوا لأمره، فإنه أعلم بمصالحكم وأشفق عليكم منكم، ورأيه فيكم أتم من رأيكم لأنفسكم. ثم بين تعالى أن رأيهم ضعيف بالنسبة إلى مراعاة مصالحهم، فقال تعالى: ﴿لو يطيعكم في كثير من الأمر لعنتم﴾ أي لو أطاعكم في جميع ما تختارونه لأدى ذلك إلى عنتكم وحرركم. وقوله تعالى: ﴿ولكن الله يحب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم﴾ أي حبه إلى نفوسكم وحسنه في قلوبكم.

وقوله سبحانه: ﴿وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان﴾ أي وبغض إليكم الكفر والفسوق، وهي الذنوب الكبار والعصيان، وهي جميع المعاصي. وهذا تدرج لكمال النعمة. وقوله تعالى: ﴿أولئك هم الراشدون﴾ أي المتصفون بهذه الصفة هم الراشدون الذين قد آتاهم الله رشدهم.

وكان من دعائه ﷺ: ((اللهم حبب إلينا الإيمان وزينه في قلوبنا وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان واجعلنا من الراشدين)).^(٢)

وفي الحديث المرفوع: ((من سرته حسنته وساءته سيئته فهو مؤمن)).^(٣)

ثم قال ﷺ: ﴿فضلا من الله ونعمة﴾ أي هذا العطاء الذي منحكموه الله

(١) انظر: الألباني، سلسلة الأحاديث الصحيحة، ج ٤/٤٠٤ برقم ١٧٩٥؛ الهيثمي، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، ج ٨/١٩.

(٢) رواه الإمام أحمد في مسنده، ج ٣/٤٢٤.

(٣) رواه الإمام أحمد في مسنده، ج ١/١٨؛ سنن الترمذي، كتاب الفتن، باب ما جاء في لزوم الجماعة، ج ٤/٤٦٥ - ٤٦٦، حديث رقم: ٢١٦٥.

تعالى هو فضل منه عليكم ونعمة من لدنه. ﴿والله عليم حكيم﴾ أي عليم بمن يستحق الهداية ممن يستحق الغواية، حكيم في أقواله وأفعاله وشرعه وقدره.^(١)

الإيمان بالرسول ﷺ ووجوب طاعته وعدم المن عليه:

قال تعالى: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (١٤) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (١٥) قُلْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٦) يَمُنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُوا عَلَيَّ إِلَّا سَلَمْتُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَيْكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٧) إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٨) [الحجرات].

يقول تعالى منكرًا على الأعراب الذين أول ما دخلوا في الإسلام: ادعوا لأنفسهم مقام الإيمان ولم يتمكن الإيمان في قلوبهم بعد: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ ويستفاد من هذه الآية الكريمة أن الإيمان أخص من الإسلام، كما هو مذهب أهل السنة والجماعة.

عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: أعطى رسول الله ﷺ رجالاً ولم يعط رجالاً منهم شيئاً، فقال سعد رضي الله عنه: يا رسول الله أعطيت فلاناً وفلاناً ولم تعط فلاناً شيئاً، وهو مؤمن، فقال النبي ﷺ: أو مسلم؟ حتى أعادها سعد رضي الله عنه ثلاثاً والنبي ﷺ يقول: أو مسلم؟ ثم قال النبي ﷺ: "إني لأعطي رجالاً

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١١/ ٣٨٣ - ٣٨٦؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/ ١٧٤٤ - ١٧٤٦.

وأدع من هو أحب إلي منهم، فلا أعطيه شيئاً، مخافة أن يكبوا في النار على وجوههم" (١).

وهنا فرق النبي ﷺ بين المؤمن والمسلم، فدل على أن الإيمان أخص من الإسلام، ودل هذا على أن هؤلاء الأعراب المذكورين في هذه الآية ليسوا بمنافقين، وإنما هم مسلمون لم يستحكم الإيمان في قلوبهم، فادعوا لأنفسهم مقاماً أعلى مما وصلوا إليه فادبوا في ذلك.

وإنما قيل لهؤلاء تأديباً: ﴿قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم﴾ أي لم تصلوا إلى حقيقة الإيمان بعد.

ثم قال تعالى: ﴿وإن تطيعوا الله ورسوله لا يلتكم من أعمالكم شيئاً﴾ أي لا ينقصكم من أجوركم شيئاً. وقوله تعالى: ﴿إن الله غفور رحيم﴾ أي لمن تاب إليه وأناب.

وقوله تعالى: ﴿إنما المؤمنون﴾ أي إنما المؤمنون الكمل ﴿الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا﴾ أي لم يشكوا ولا يتزلزلوا، بل ثبتوا على حال واحدة هي التصديق المحض، ﴿وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله﴾ أي وبذلوا مهجهم ونفائس أموالهم في طاعة الله ورضوانه ﴿أولئك هم الصادقون﴾ أي في قولهم إذا قالوا إنهم مؤمنون، لا كبعض الأعراب الذين ليس لهم من الإيمان إلا الكلمة الظاهرة.

وقوله تعالى: ﴿قل أتعلمون الله بدينكم﴾ أي أخبرونه بما في

(١) انظر: صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب إذا لم يكن الإسلام على الحقيقة، وكان على الاستسلام أو الخوف من القتل، ج ١/ ١٢؛ صحيح مسلم، كتاب الزكاة، باب إعطاء من يخاف على إيمانه، ج ٣/ ١٠٤؛ الإمام أحمد في مسنده، ج ١/ ١٧٦؛ سنن أبي داود، كتاب السنة، باب الدليل على زيادة الإيمان ونقصانه، ص ٨٤٦، حديث رقم: ٤٦٨٣.

ضمائرکم، ﴿والله يعلم ما في السماوات وما في الأرض﴾ أي لا يخفى عليه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر، ﴿والله بكل شيء عليم﴾.

ثم قال تعالى: ﴿يؤمنون عليك أن أسلموا﴾ يعني الأعراب الذين يؤمنون بإسلامهم ومتابعتهم ونصرتهم على الرسول ﷺ. يقول الله تعالى ردًا عليهم: ﴿قل لا تمنوا علي إسلامكم﴾ فإن نفع ذلك إنما يعود عليكم، والله المنّة عليكم فيه، ﴿بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين﴾ أي في دعواكم.

ثم كرر ﷺ الإخبار بعلمه بجميع الكائنات وبصره بأعمال المخلوقات فقال تعالى: ﴿إن الله يعلم غيب السماوات والأرض والله بصير بما تعملون﴾.^(١)

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١١/٣٩٩ - ٤٠٤؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٧٥٢ - ١٧٥٣.

سورة ق

رسول منذر لهم ﷺ فكذبوه:

قال تعالى: ﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ۝١ بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ۝٢ إِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ۝٣ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كَنْزٌ حَفِيفٌ ۝٤ بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ ۝٥﴾ [ق].

﴿ق﴾: حرف من حروف الهجاء المذكورة في أوائل السور كقوله تعالى: ﴿ص﴾ - ﴿ن﴾ - ﴿الم﴾ - ﴿حم﴾ - ﴿طس﴾، ونحو ذلك.

وقوله تعالى: ﴿والقرآن المجيد﴾ أي الكريم العظيم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. وقال تعالى هاهنا: ﴿بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم﴾ فقال الكافرون هذا شيء عجيب ﴿أي تعجبوا من إرسال رسوله ﷺ إليهم من البشر.﴾

ثم قال تعالى مخبراً عنهم في تعجبهم أيضاً من المعاد واستبعادهم لوقوعه: ﴿إِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ أي يقولون إذا متنا وبلينا وتقطعت الأوصال منا وصرنا تراباً كيف يمكن الرجوع بعد ذلك إلى هذه البنية والتركيب؟ ﴿ذلك رجع بعيد﴾ أي بعيد الوقوع. فهم يعتقدون استحالة وعدم إمكانه. قال الله تعالى راداً عليهم: ﴿قد علمنا ما تنقص الأرض منهم﴾ أي ما تأكل من أجسادهم في البلى، نعلم ذلك ولا يخفى علينا أين تفرقت

الأبدان وأين ذهبت وإلى أين صارت ﴿وعندنا كتاب حفيظ﴾ أي حافظ لذلك. فالعلم شامل والكتاب أيضاً فيه كل الأشياء مضبوطة.

عن ابن عباس رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿قد علمنا ما تنقص الأرض منهم﴾ أي ما تأكل من لحومهم وأبشارهم وعظامهم وأشعارهم، ثم بين سبحانه سبب كفرهم وعنادهم واستبعادهم ما ليس ببعيد فقال تعالى: ﴿بل كذبوا بالحق لما جاءهم فهم في أمر مريج﴾ أي وهذا حال كل من خرج عن الحق مهما قال بعد ذلك فهو باطل. والمريج: المختلف المضطرب الملتبس المنكر.^(١)

صبره وتسبيحه ﷺ:

قال تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ﴾ ٣٦ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٍ لِّمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ٣٧ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ٣٨ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ٣٩ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَرَ الشُّجُودِ ٤٠ ﴿لق﴾.

يقول تعالى: وكم أهلكنا قبل هؤلاء المكذبين ﴿من قرن هم أشد منهم بطشاً﴾ أي كانوا أكثر منهم وأشد قوة وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها. ولهذا قال تعالى ها هنا: ﴿فنقبوا في البلاد هل من محيص﴾ قال ابن عباس رضي الله عنه: أثروا في الأرض وضربوا فيها يبتغون الأرزاق والمتاجر والمكاسب والقوة والسيطرة أكثر مما طفتم أنتم فيها. ويقال لمن طوف في البلاد: نقب فيها.

وقوله تعالى: ﴿هل من محيص﴾ أي هل من مفر كان لهم من قضاء الله

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١١/٤٠٥ - ٤٠٩؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٧٥٤ - ١٧٥٥.

وقدره؟ وهل نفعهم ما جمعوه ورد عنهم عذاب الله إذ جاءهم لما كذبوا الرسل؟ فأنتم أيضاً لا مفر لكم ولا محيد ولا مناص ولا محيص.

وقوله تعالى: ﴿إِنْ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٌ﴾ أي لعبرة ﴿لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾ أي لب يعي به. وقال مجاهد: عقل، ﴿أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ أي استمع الكلام فوعاه وتعقله بعقله وتفهمه بلبه، لا يحدث نفسه بغيره، ﴿وَهُوَ شَهِيدٌ﴾.

وقوله ﷺ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾ فيه تقرير للمعاد؛ لأن من قدر على خلق السماوات والأرض ولم يعي بخلقهن قادر على أن يحيي الموتى بطريق الأولى والأحرى. وقد قالت اليهود - عليهم لعائن الله - خلق الله السماوات والأرض في ستة أيام ثم استراح في اليوم السابع وهو يوم السبت. وهم يسمونه يوم الراحة. فأنزل الله تعالى تكذيبهم فيما قالوه وتأولوه ﴿وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾ أي من إعياء ولا تعب ولا نصب.

وقوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ يعني المكذبين اصبر عليهم واهجرهم هجراً جميلاً ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾.

عن جرير بن عبد الله رضي الله عنه قال: كنا جلوساً عند النبي ﷺ فنظر إلى القمر ليلة البدر، فقال ﷺ: أما إنكم ستعرضون على ربكم فتروونه كما ترون هذا القمر لا تضامون فيه، فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا، ثم قرأ ﷺ ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾^(١).

(١) رواه البخاري في صحيحه، صفة الصلاة، باب فضل صلاة العصر، ج ١/ ١٣٨ - ١٣٩؛ ورواه مسلم في صحيحه، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب استحباب الذكر بعد الصلاة، وبيان صفته، ج ٢/ ١١٣.

وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ﴾ أي فصلُّ له ﴿وَأَدْبَارَ السُّجُودِ﴾ هو التسبيح بعد الصلاة. ويؤيد هذا ما ثبت عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: جاء فقراء المهاجرين فقالوا: يا رسول الله ذهب أهل الدثور بالدرجات العلى والنعيم المقيم، فقال النبي ﷺ: وما ذاك؟ قالوا: يصلون كما نصلي، ويصومون كما نصوم، ويتصدقون ولا نتصدق، ويعتقون ولا نعتق. قال ﷺ: أفلا أعلمكم شيئاً إذا فعلتموه سبقتم من بعدكم ولا يكون أحد أفضل منكم إلا من فعل مثل ما فعلتم؟ تسبحون وتحمدون وتكبرون دبر كل صلاة ثلاثاً وثلاثين. قال: فقالوا يا رسول الله سمع إخواننا أهل الأموال بما فعلنا ففعلوا مثله. ^(١) فقال ﷺ: ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، وقيل إن المراد بقوله تعالى: ﴿وَأَدْبَارَ السُّجُودِ﴾ هما الركعتان بعد المغرب.

عن ابن عباس رضي الله عنه قال: ((بت ليلة عند رسول الله ﷺ، فصلى ركعتين خفيفتين اللتين قبل الفجر، ثم خرج إلى الصلاة، فقال: "يا ابن عباس ركعتين قبل صلاة الفجر إدبار النجوم، وركعتين بعد المغرب إدبار السجود"). ^{(٢) (٣)}

تصوير القيامة له ﷺ وللمؤمنين به:

قال تعالى: ﴿وَأَسْمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادُ مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ ۖ يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ ۚ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ ۖ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ ۚ يَوْمَ تَشَقُّ الْأَرْضُ ۚ

(١) صحيح مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب استحباب الذكر بعد الصلاة، ج ٢/ ٩٧.

(٢) سنن الترمذي، كتاب تفسير القرآن، باب (ومن سورة الطور)، ج ٥/ ٣٩٢، حديث رقم: ٣٢٧٥.

(٣) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١١/ ٤٣١ - ٤٣٨؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/ ١٧٦١ - ١٧٦٢.

عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكَرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾ [لق].

يقول تعالى: ﴿واستمع﴾ يا محمد ﴿يوم يناد المناد من مكان قريب﴾ يأمر الله تعالى ملكاً أن ينادي: أيتها العظام البالية والأوصال المتقطعة إن الله تعالى يأمركن أن تجتمعن لفصل القضاء، ﴿يوم يسمعون الصيحة بالحق﴾ يعني النفخة في الصور التي تأتي بالحق الذي كان أكثرهم فيه يمترون، ﴿ذلك يوم الخروج﴾ أي من الأحداث، ﴿إنا نحن نحيي ونميت وإلينا المصير﴾ أي هو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه وإليه مصير الخلائق كلهم، فيجازي كلاً بعمله إن خيراً فخييراً وإن شراً فشرّاً.

وقوله تعالى: ﴿يوم تشقق الأرض عنهم سراعاً﴾ وذلك أن الله ﷻ ينزل مطراً من السماء ينبت به أجساد الخلائق كلها في قبورها، كما ينبت الحب في الثرى بالماء. فإذا تكاملت الأجساد أمر الله تعالى إسرافيل فينفخ في الصور وقد أودعت الأرواح في ثقب في الصور، فإذا نفخ إسرافيل فيه خرجت الأرواح تتوهج بين السماء والأرض، فيقول الله تعالى: وعزتي وجلالي لترجعن كل روح إلى الجسد الذي كانت تعمرة، فترجع كل روح إلى جسدها، فتدب فيه كما يدب السم في اللديغ. وتشقق الأرض عنهم فيقومون إلى موقف الحساب سراعاً مبادرين إلى أمر الله.

عن أبي سعيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((أنا أول من تشقق عنه الأرض)).^(١)

(١) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب تفضيل نبينا ﷺ على جميع الخلائق، ج ٧/٥٩: سنن الترمذي، كتاب تفسير القرآن، باب (ومن سورة بني إسرائيل)، ج ٥/٣٠٨، حديث رقم: ٣١٤٨.

وقوله تعالى: ﴿ذلك حشر علينا يسير﴾ أي تلك إعادة سهلة علينا، يسيرة لدينا.

وقوله جل وعلا: ﴿نحن أعلم بما يقولون﴾ أي نحن علمنا محيط بما يقول لك المشركون من التكذيب، فلا يهولنك ذلك.

وقوله تعالى: ﴿وما أنت عليهم بجبار﴾ أي ولست بالذي تجبر هؤلاء على الهدى، وليس ذلك مما كلفت به. إنما أنت مبلغ.

ثم قال تعالى: ﴿فذكر بالقرآن من يخاف وعيد﴾ أي بلغ أنت رسالة ربك، فإنما يتذكر من يخاف الله ووعيده ويرجو وعده. كان بعض السلف يدعو: اللهم اجعلنا ممن يخاف وعيدك ويرجو موعودك يا بار يا رحيم.^(١)

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١١/٤٣٨ - ٤٤٠؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٧٦٢.

سورة الذاريات

تذكيره ﷺ بحديث إبراهيم عليه السلام:

قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ﴾ (٢٤) ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ﴾ (٢٥) ﴿فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾ (٢٦) ﴿فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ (٢٧) ﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾ (٢٨) ﴿فَأَقْبَلَتْ امْرَأَتُهُ فِي صَرَقٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾ (٢٩) ﴿قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾ (٣٠) [الذاريات].

يقول تعالى قاصاً على نبيه ﷺ: ﴿هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين﴾ أي الذين أراد إبراهيم إكرامهم من ضيوفه. وقد ذهب بعض العلماء إلى وجوب الضيافة للنزيل، وقد وردت السنة بذلك.

وقوله تعالى: ﴿فقالوا سلاماً قال سلام﴾ سلموا عليه فرد عليهم السلام.

وقوله تعالى: ﴿قوم منكرون﴾ وذلك أن الملائكة قدموا عليه في صورة شبان حسان عليهم مهابة عظيمة، ولهذا قال تعالى: ﴿قوم منكرون﴾. وقوله تعالى: ﴿فراغ إلى أهله﴾ أي انسל خفية في سرعة، ﴿فجاء بعجل سمين﴾ أي من خيار ماله. ﴿فقربه إليهم﴾ أي أدناه منهم، ﴿قال ألا تأكلون؟﴾ تلتف في العبارة وعرض حسن.

وهذه الآية انتظمت آداب الضيافة، فإنه جاء بطعامه من حيث لا يشعرون بسرعة، ولم يمتن عليهم أولاً، فقال ﷺ: نأتيكم بطعام، بل جاء به بسرعة

وخفاء، وأتى بأفضل ما وجد من ماله، وهو عجل فتي سمين مشوي، فقربه إليهم لم يضعه، وقال: اقتربوا، بل وضعه بين أيديهم، ولم يأمرهم أمراً يشق على سامعه بصيغة الجزم، بل قال: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ على سبيل العرض والتلطف. كما يقول القائل اليوم إن رأيت أن تتفضل وتحسن وتتصدق فافعل.

وقوله تعالى: ﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ هذا محال على ما تقدم في القصة في السورة الأخرى، قال الله هاهنا: ﴿وبشروه بغلام عليم﴾ فالبشارة له هي بشارة لامرأته. لأن الولد منها فكل منهما بُشِّرَ به.

وقوله تعالى: ﴿فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صُرَّةٍ﴾ أي في صرخة عظيمة ورنه، ﴿فصكت وجهها﴾ أي ضربت بيدها على جبينها ولطمت تعجباً، كما تتعجب النساء من الأمر الغريب، ﴿وقالت عجوز عقيم﴾ أي كيف ألد وأنا عجوز وقد كنت في حال الصبا عقيماً لا أحبل؟ ﴿قالوا كذلك قال ربك إنه هو الحكيم العليم﴾ أي عليم بما تستحقون من الكرامة حكيم في أقواله وأفعاله. ^(١)

إتهامه ﷺ بالسحر والجنون:

قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجُنٌّ ۖ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْا بِهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ۖ ﴿٥٣﴾ فَنُفِّلْ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ ۖ ﴿٥٤﴾ وَذَكَرْ فَإِنَّ الدَّكْرَىٰ نُنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ۖ ﴿٥٥﴾ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۖ ﴿٥٦﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا ۖ ﴿٥٧﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ۖ ﴿٥٨﴾﴾ [الذاريات].

يقول تعالى مسلماً نبيه ﷺ: وكما قال لك هؤلاء المشركون قال

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١١/٤٦٢ - ٤٦٦؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٧٦٦.

المكذبون الأولون لرسولهم: ﴿كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون﴾. قال الله تعالى: ﴿أتواصوا به؟﴾ أي أوصى بعضهم بعضاً بهذه المقالة؟ ﴿بل هم قوم طاغون﴾ أي لكنهم قوم طغاة تشابهت قلوبهم، فقال متأخرهم كما قال متقدمهم.

قال الله تعالى: ﴿فتول عنهم﴾ أي فأعرض عنهم يا محمد ﴿فما أنت بملوم﴾ يعني فما نلومك على ذلك، ﴿وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين﴾ أي إنما تنتفع بها القلوب المؤمنة. ثم قال ﷺ: ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾ أي إنما خلقتهم لآمرهم بعبادتي لا لاحتياجي إليهم. وليقروا بعبادتي طوعاً أو كرهاً.

وقوله تعالى: ﴿ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين﴾ فهو تعالى خلق العباد ليعبدوه وحده لا شريك له، فمن أطاعه جازاه أتم الجزاء، ومن عصاه عذبه أشد العذاب. وأخبر تعالى أنه غير محتاج إليهم، بل هم الفقراء إليه سبحانه في جميع أحوالهم. فهو تعالى خالقهم ورازقهم.^(١)

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١١/٤٧٤ - ٤٧٨؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٧٦٧ - ١٧٦٨.

سورة الطور

الرد على من اتهمه ﷺ بالشعر:

قال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾ (٢٩) ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ﴾ (٣٠) ﴿قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ﴾ (٣١) ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلُمُهُمْ بِهَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ (٣٢) ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَقُولُهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (٣٣) ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾ (٣٤) [الطور].

يقول تعالى آمراً رسوله ﷺ بأن يبلغ رسالته إلى عباده، وأن يذكرهم بما أنزل الله عليه. ثم نفى عنه ما يرميه به أهل البهتان والفجور، فقال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾ أي لست بحمد الله بكاهن كما تقوله الجهلة من كفار قريش. والكاهن الذي يأتيه الرئی من الجان بالكلمة يتلقاها من خبر السماء، ﴿ولا مجنون﴾ وهو الذي يتخبطه الشيطان من المس.

ثم قال تعالى منكراً عليهم في قولهم في الرسول ﷺ: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ﴾ أي قوارع الدهر. والمنون الموت، يقولون ننظره ونصبر عليه حتى يأتيه الموت فنستريح منه ومن شأنه.

قال الله تعالى: ﴿قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ﴾ أي انتظروا فإنني منتظر معكم، وستعلمون لمن تكون العاقبة والنصرة في الدنيا والآخرة.

ثم قال تعالى: ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُمْ بِهَذَا﴾ أي عقولهم تأمرهم بهذا الذي يقولونه فيك من الأقاويل الباطلة، التي يعلمون في أنفسهم أنها كذب وزور، ﴿أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ أي ولكنهم قوم طاغون ضلّال معاندون. فهذا هو الذي يحملهم على ما قالوه فيك.

وقوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقُولُهُ﴾ أي اختلقه وافتراه من عند نفسه يعنون القرآن. قال الله تعالى: ﴿بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي كفرهم هو الذي يحملهم على هذه المقالة. ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾ أي إن كانوا صادقين في قولهم تقوله وافتراه، فليأتوا بمثل ما جاء به محمد ﷺ من هذا القرآن، فإنهم لو اجتمعوا هم وجميع أهل الأرض من الجن والإنس ما جاءوا بمثله.^(١)

لا يطلب ﷺ أجراً:

قال تعالى: ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ﴾ (٤٠) ﴿أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ (٤١) ﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ﴾ (٤٢) ﴿أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (٤٣) [الطور].

﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا﴾ أي أجرة إبلاغك إياهم رسالة الله، أي لست تسألهم على ذلك شيئاً، ﴿فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ﴾ أي فهم من الدين ومن أدنى شيء يتبرمون منه، ويثقلهم ويشق عليهم، ﴿أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ أي ليس الأمر كذلك فإنه لا يعلم أحد من أهل السماوات والأرض الغيب إلا الله. ﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ﴾ يقول تعالى: أَمْ يريد هؤلاء بقولهم هذا في الرسول ﷺ وفي الدين غرر الناس وكيد الرسول ﷺ وأصحابه؟ فكيدهم إنما يرجع وباله على أنفسهم. فالذين كفروا هم

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١١/٤٩٣ - ٤٩٥؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٧٧٢.

المكيدون. ﴿أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ وهذا إنكار شديد على المشركين في عبادتهم الأصنام والأنداد مع الله، ثم نزه نفسه الكريمة عما يقولون ويفترون ويشركون، فقال تعالى: ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾^(١).

أمره ﷺ بالصبر على الجاحدين:

قال تعالى: ﴿فَذَرَّهُمْ حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ﴾^(٤٥) يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ^(٤٦) وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ^(٤٧) وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ^(٤٨) وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَرَ النُّجُومِ^(٤٩) [الطور].

قال الله تعالى: ﴿فَذَرَّهُمْ﴾ أي دعهم يا محمد ﷺ حتى يلاقوا يومهم الذي فيه يصعقون وذلك يوم القيامة، ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ أي لا ينفعهم كيدهم ولا مكرهم الذي استعملوه في الدنيا، لا يجزي عنهم يوم القيامة شيئاً ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ﴾ أي قبل ذلك في الدار الدنيا، قال تعالى: ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي نعتبهم في الدنيا ونبتليهم فيها بالمصائب لعلهم يرجعون وينيبون، فلا يفهمون ما يراد بهم، بل إذا جلى عنهم مما كانوا فيه عادوا إلى أسوأ مما كانوا عليه. وقوله تعالى: ﴿وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ أي اصبر على أذاهم ولا تبالهم فإنك بمرأى منا وتحت عنايتنا، والله يعصمك من الناس.

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١١/٤٩٧؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٧٧٣.

وقوله تعالى: ﴿وسبح بحمد ربك حين تقوم﴾ ومن ذلك في الصلاة. وتردد سبحانك اللهم وبحمدك وتبارك اسمك وتعالى جدك ولا إله غيرك.^(١)

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١١/٤٩٧ - ٥٠٢؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٧٧٣.

سورة النجم

الوحي لرسول الله ﷺ:

قال تعالى: ﴿وَالنَّجْمُ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ [النجم].

يقسم الخالق ﷻ بما شاء من خلقه، والمخلوق لا يجوز له أن يقسم إلا بالخالق. ﴿والنجم إذا هوى﴾ إذا رُمي به الشياطين. وهوى نزل من موقع لآخر. وقوله تعالى: ﴿ما ضل صاحبكم وما غوى﴾ شهادة للرسول ﷺ بأنه بار راشد تابع للحق ليس بضال، وليس بالجاهل الذي يسلك على غير طريق بغير علم. والغاوي هو العالم بالحق العادل عنه قصداً إلى غيره. فنهى الله تعالى رسوله ﷺ وشرعه عن مشابهة أهل الضلال كالنصارى وطرائق اليهود. وعن علم الشيء وكتمانته، والعمل بخلافه، بل هو ﷺ وما بُعث به من الشرع العظيم في غاية الاستقامة والاعتدال والسداد. ولهذا قال تعالى: ﴿وما ينطق عن الهوى﴾ أي ما يقول قولاً عن هوى وحرص، ﴿إن هو إلا وحي يوحى﴾ أي إنما يقول ما أمر به أن يبلغه إلى الناس كاملاً موفوراً من غير زيادة ولا نقصان.

عن عبدالله بن عمرو ؓ قال: كنت أكتب كل شيء أسمعه من رسول الله ﷺ أريد حفظه، فنهتني قريش فقالوا: إنك تكتب كل شيء تسمعه من رسول الله ﷺ، ورسول الله ﷺ بشر يتكلم في الغضب. فأمسكت عن

الكتاب. فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فقال: ((اكتب فوالذي نفسي بيده ما خرج مني إلا حق)).^(١)

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: ((لا أقول إلا حقاً)). قال بعض أصحابه رضي الله عنه: فإنك تداعبنا يا رسول الله؟ قال: ((إني لا أقول إلا حقاً)).^{(٢) (٣)}

تعليم جبريل ﷺ لرسول الله ﷺ:

قال تعالى: ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى ﴿٦﴾ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَذَلَّلَ ﴿٨﴾﴾ [النجم].

يقول تعالى مخبراً عن عبده ورسوله محمد ﷺ أنه علمه الذي جاء به إلى الناس ﴿شديد القوى﴾ وهو جبريل ﷺ. وقال هاهنا ﴿ذو مرة﴾ أي ذو قوة، وذو منظر حسن.

وقوله تعالى: ﴿فاستوى﴾ يعني جبريل ﷺ. ﴿وهو بالأفق الأعلى﴾ يعني جبريل ﷺ استوى في الأفق الأعلى، والأفق الأعلى الذي يأتي منه الصبح.

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ لم ير جبريل في صورته إلا مرتين: أما واحدة فإنه سألته أن يراه في صورته ففسد الأفق. وأما الثانية فإنه كان معه حيث صعد فذلك قوله: ﴿وهو بالأفق الأعلى﴾.^(٤)

(١) سنن أبي داود، كتاب العلم، باب كتابة العلم، ص ٦٥٦، حديث رقم: ٣٦٤٦.

(٢) سنن الترمذي، كتاب البر والصلة، باب ما جاء في المزاح، ج ٤/٢٥٧، حديث رقم: ١٩٩٠.

(٣) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١١/٥٠٣ - ٥٠٤؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٧٧٥.

(٤) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١١/٥٠٤ - ٥١٩؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٧٧٥ - ١٧٧٦؛

(وانظر: رواية الإمام أحمد في مسنده، ج ١/٤٠٧).

رؤيا رسول الله ﷺ لسدرة المنتهى في معراجِه:

قال تعالى: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۖ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ۖ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ۖ أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ۚ﴾ (١٢) ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۖ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ ۖ عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ۖ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ۚ﴾ (١٦) ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ۚ﴾ (١٧) ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ ۚ﴾ (١٨) [النجم].

وقوله تعالى: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ أي فاقترب جبريل عليه السلام إلى محمد لما هبط عليه إلى الأرض حتى كان بينه وبين محمد ﷺ قَاب قَوْسَيْنِ، أي بقدرهما إذا مُدًّا، أن هذا المقترب الداني الذي صار بينه وبين محمد ﷺ هو جبريل عليه السلام. وهذه كانت ورسول الله ﷺ في الأرض لا ليلة الإسراء، ولهذا قال بعده: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ﴾، فهذه هي ليلة الإسراء، والأولى كانت في الأرض.

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: ﴿في هذه الآية: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ قال: قال رسول الله ﷺ: ((رأيت جبريل له ستُّ مئة جناح)).^(١)

وقوله ﷺ: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى﴾ يعني جبريل إلى محمد عليهما الصلاة والسلام، ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾، ويقولون: القاب نصف إصبع، وقيل ذراعين بينهما.

وقوله تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾ معناه فأوحى جبريل عليه السلام إلى عبد الله محمد ﷺ ما أوحى، أو فأوحى الله إلى عبده محمد ﷺ ما أوحى بواسطة جبريل عليه السلام.

وقوله تعالى: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ﴾. ﴿مَا

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده، ج ١/٤٠٧.

كذب الفؤاد ما رأى ﴿ ولقد رآه نزلةً أخرى ﴾ ذهب جماعة إلى أنه رآه بعينه. سئلت عائشة ؓ فقيل لها: هل رأى محمد ربه، فقالت: لقد تكلمت بشيء قفّ له شعري فقلت: رويداً، ثم قرأت: ﴿لقد رأى من آيات ربه الكبرى﴾ فقالت: أين يذهب بك إنما هو جبريل، من أخبرك أن محمداً رأى ربه أو كتم شيئاً مما أمر به أو يعلم الخمس التي قال الله تعالى: ﴿إنَّ الله عنده علم الساعة وينزل الغيث﴾ فقد أعظم على الله الفرية، ولكنه رأى جبريل، لم يره في صورته إلا مرتين: مرة عند سدره المنتهى، ومرة في أجياد، وله ست مئة وجناح قد سد الأفق.^(١)

عن أبي ذر ؓ قال: سألت رسول الله ﷺ هل رأيت ربك؟ فقال ﷺ: ((نور أني أراه)).^(٢)

وقوله تعالى: ﴿ولقد رآه نزلةً أخرى عند سدره المنتهى عندها جنة المأوى﴾، هذه هي المرة الثانية التي رأى رسول الله ﷺ فيها جبريل عليه السلام على صورته التي خلقه الله عليها. وكانت ليلة إسراء.

عن عائشة ؓ قالت: من حدثك أن محمداً رأى ربه فقد كذب. ثم قرأت: ﴿لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار﴾ [الأنعام: ١٠٣]. ﴿وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب﴾ [الشورى: ٥١]، ولكنه رأى جبريل عليه السلام في صورته مرتين.^(٣)

(١) انظر: صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب: تفسير سورة (والنجم)، ج ٥٠/٦.

(٢) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب في قوله ﷺ: ((نور أني أراه، وفي قوله: رأيت نوراً))، ج ١١١/١.

(٣) انظر: صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب: تفسير سورة (والنجم)، ج ٥٠/٦.

وقالت عائشة رضي الله عنها حين سُئِلَتْ: أليس الله يقول: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأَفْقِ الْمَبِينِ﴾ [التكوير: ٢٣] ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى﴾ فقالت: أنا أول هذه الأمة سألت رسول الله ﷺ عنها فقال: إنما ذاك جبريل لم يره في صورته التي خلق عليها إلا مرتين، رآه منهبطاً من السماء إلى الأرض ساداً عظم خلقه ما بين السماء والأرض.^(١)

عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى﴾ قال: رأى جبريل عليه السلام.^(٢)

وقوله تعالى: ﴿إِذْ يَغْشَى السُّدْرَةَ مَا يَغْشَى﴾ تقدم في أحاديث الإسراء أنه غشيتها الملائكة ... وغشيتها نور الرب وغشيتها ألوان ما أدري ما هي؟

عن عبد الله هو ابن مسعود رضي الله عنه قال: لما أُسْري برسول الله ﷺ انتهى به إلى سدره المنتهى، وهي في السماء السابعة إليها ينتهي ما يعرج به من الأرض، فيقبض منها وإليها ينتهي ما يهبط به من فوقها فيقبض منها، ﴿إِذْ يَغْشَى السُّدْرَةَ مَا يَغْشَى﴾ قال فراش من ذهب.^(٣)

وقوله تعالى: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: ما ذهب يميناً ولا شمالاً، (وما طغى) ما جاوز ما أمر به، وهذه صفة عظيمة في الثبات والطاعة فإنه ما فعل إلا ما أمر به ولا سأل فوق ما أعطي.

(١) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب معنى قول الله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى﴾، وهل رأى النبي ﷺ ربه ليلة الإسراء، ج ١/ ١١٠.

(٢) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب معنى قول الله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى﴾، وهل رأى النبي ﷺ ربه ليلة الإسراء؟، ج ١/ ١٠٩.

(٣) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب في ذكر سدره المنتهى، ج ١/ ١٠٩.

وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾ أي الدالة على قدرة الله ﷻ وعظمته.

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ بِالْأَفْقِ الْأَعْلَى ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى﴾، فلما أحسَّ جبريل ربه عاد في صورته وسجد، فقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى. إِذْ يَغْشَى السُّدْرَةَ مَا يَغْشَى مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾ قيل خلق جبريل ﷺ^(١).

تذكيره ﷺ بمن تولى:

قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى ۖ وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى ۚ ۖ﴾ (٣٢) ﴿أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى ۚ﴾ (٣٥) ﴿أَمْ لَمْ يُنَبِّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى ۖ وَلِإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى ۖ﴾ (٣٧) ﴿أَلَا نَزَرُ وَأَنْزَرُ ۚ وَبَرَّ أَخْرَى ۚ﴾ (٣٨) ﴿وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ۚ﴾ (٣٩) ﴿وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى ۚ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى ۚ﴾ (٤١) [النجم].

يقول تعالى ذاماً لمن تولى عن طاعة الله: ﴿وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى﴾ قال ابن عباس ﷺ: (أطاع قليلاً ثم قطعه) كمن وجدوا صعوبة في إتمام العمل فيقولون أكدينا، ويتركون العمل.

وقوله تعالى: ﴿أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى﴾ أي أعند هذا الذي قد أمسك يده خشية الإنفاق وقطع معروفه، أعنده علم الغيب أنه سينفذ ما في يده حتى قد أمسك عن معروفه، فهو يرى ذلك عياناً؟ أي ليس الأمر كذلك. وإنما أمسك عن الصدقة والمعروف والبر والصلة بخلاً وشحاً وهلعاً.

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١١/ ٥٤٩ - ٥٥٠؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/ ١٧٨٠؛ ورواية الإمام أحمد في مسنده، ج ١/ ٤٠٧.

وقوله تعالى: ﴿أَمْ لَمْ يَنْبَأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ أي بلغ جميع ما أمر به، وقال ابن عباس رضي الله عنه: ﴿وَفَّى﴾ لله بالبلاغ والعمل، بكل ما أمر به، طاعة لله، وأدى رسالته إلى خلقه، فقام بجميع الأوامر وترك جميع النواهي، وبلغ الرسالة على التمام والكمال، فاستحق بهذا أن يكون للناس إماماً يقتدى به في جميع أحواله وأقواله وأفعاله.

ثم بيّن تعالى ما كان أوحاه في صحف إبراهيم وموسى فقال تعالى: ﴿أَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ أي كل نفس ظلمت نفسها بكفر أو شيء من الذنوب فإنما عليها وزرها لا يحمله عنها أحد.

﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾ أي كما لا يحمل عليه وزر غيره، كذلك لا يحصل من الأجر إلا ما كسب هو لنفسه. وباب القربات يُقتصر فيه على النصوص ولا يُتصرف فيه بأنواع الأقيسة والآراء. فأما الدعاء والصدقة فذاك مجمع على وصولهما، ومنصوص من الشارع عليهما.

وأما الحديث الذي رواه أبو هريرة رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ: ((إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث: من ولد صالح يدعو له، أو صدقة جارية من بعده، أو علم ينتفع به))، ^(١) فهذه الثلاثة في الحقيقة هي من سعيه وكده وعمله. والصدقة الجارية كالوقف ونحوه هي من آثار عمله ووقفه. والعلم الذي نشره في الناس فاقتدى به الناس بعده هو أيضاً من سعيه وعمله.

ورد: من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه من غير أن ينقص من أجورهم شيئاً. ^(٢)

(١) صحيح مسلم، كتاب الوصية، باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته، ج ٥/٧٣.

(٢) صحيح مسلم، كتاب العلم، باب من سن سنة حسنة أو سيئة، ومن دعا إلى هدى أو ضلالة، ج ٨/٦٢؛ سنن أبي داود، كتاب السنة، باب من دعا إلى السنة، ص ٨٣٢، حديث رقم: ٤٦٠٩.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنْ سَعِيهِ سَوْفَ يَرَى﴾ أي يوم القيامة. ثم قال تعالى: ﴿ثُمَّ يَجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى﴾ أي الأوفر.^(١)

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١١/ ٥٣٠ - ٥٣٤؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/ ١٧٨٤ - ١٧٨٥.

سورة القمر

تذكيره ﷺ بالمتولين ومصيرهم:

قال تعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نَّكُرٍ ۖ خُشْعًا أَبْصَرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ ۚ مَهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ۚ﴾ [القمر: ٨].

يقول تعالى: فتول يا محمد عن هؤلاء الذين إذا رأوا آية يعرضون ويقولون هذا سحر مستمر. أعرض عنهم وانتظرهم ﴿يوم يدع الداع إلى شيء نكر﴾ أي إلى شيء منكر فظيع. وهو موقف الحساب وما فيه من البلاء، بل والزلازل والأهوال، ﴿خشعاً أبصارهم﴾ أي ذليلة أبصارهم، ﴿يخرجون من الأجداث﴾ وهي القبور، ﴿كأنهم جراد منتشر﴾ أي كأنهم في انتشارهم وسرعة سيرهم إلى موقف الحساب إجابة للداعي ﴿جراد منتشر﴾ في الآفاق. ولهذا قال تعالى: ﴿مهطعين﴾ أي مسرعين ﴿إلى الداع﴾ لا يخالفون ولا يتأخرون. ﴿يقول الكافرون هذا يوم عسر﴾ أي يوم شديد الهول عبوس قمطير.^(١)

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١١/ ٥٤٩ - ٥٥٠؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/ ١٧٨٩.

سورة الواقعة

الرد على منكري البعث:

قال تعالى: ﴿وَكَانُوا يَقُولُونَ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (٤٧) أَوْ آبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ (٤٨) قُلْ إِنَّا الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ (٤٩) لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ (٥٠)﴾ [الواقعة].

لما ذكر تعالى حال أصحاب اليمين عطف عليهم بذكر أصحاب الشمال فقال تعالى: ﴿وَأَصْحَابُ الشَّامِلِ مَا أَصْحَابُ الشَّامِلِ﴾ أي أي شيء هم فيه أصحاب الشمال؟ ثم فسر ذلك فقال: ﴿فِي سَمُومٍ﴾ وهو الهواء الحار، ﴿وَحَمِيمٍ﴾ وهو الماء الحار، ﴿وَضِلٍّ مِّنْ يَّحْمُومٍ﴾ قال ابن عباس ؓ: ظل الدخان، ثم قال تعالى هاهنا: ﴿وَضِلٍّ مِّنْ يَّحْمُومٍ﴾ وهو الدخان الأسود ﴿لَا بَارِدٌ وَلَا كَرِيمٍ﴾ أي ليس طيب الهبوب ولا حسن المنظر ولا كريم مرغوب، قالوا: كل شراب ليس بعذب فليس بكريم.

قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ﴾ أي كانوا في الدار الدنيا منعمين مقبلين على لذات أنفسهم، لا يلوون ما جاءتهم به الرسل، ﴿وَكَانُوا يَصْرُونَ﴾ أي يقيمون ولا ينوون توبة، ﴿عَلَىٰ الْحَنَثِ الْعَظِيمِ﴾ وهو الكفر بالله وجعل الأوثان والأنداد أرباباً من دون الله والدخول في الشرك. ومنه اليمين الغموس.

قال تعالى: ﴿وَكَانُوا يَقُولُونَ إِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ أَوْ آبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ﴾ يعني أنهم يقولون ذلك مكذبين به مستبشرين لوقوعه. قال

الله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ أي أخبرهم يا محمد أن الأولين والآخريين من بني آدم سيجمعون إلى عرصات القيامة لا يغادر منهم أحداً، أي هو مؤقت بوقت محدود، لا يتقدم ولا يتأخر ولا يزيد ولا ينقص.^(١)

التذكير بنعم الله بالماء والزرع والطاقة:

قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ﴾ ٦٣ ﴿أَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ﴾ ٦٤ ﴿لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَبًا فَظَلَمْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾ ٦٥ ﴿إِنَّا لَمَغْرُمُونَ﴾ ٦٦ ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ ٦٧ ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ﴾ ٦٨ ﴿أَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ﴾ ٦٩ ﴿لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ ٧٠ ﴿أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ﴾ ٧١ ﴿أَنْتُمْ أَشْأَتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ﴾ ٧٢ ﴿نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِلْمُقْوِينَ﴾ ٧٣ ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ ٧٤ [الواقعة].

يقول تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ﴾ وهو شق الأرض وإثارتها والبذر فيها ﴿أَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ﴾ أي تثبتونه في الأرض ﴿أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ﴾ أي بل نحن الذين نقره قراره وننبته في الأرض.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ: ((لا تقولن زرعت ولكن قل حرثت)).^(٢) قال أبو هريرة رضي الله عنه: ألم تسمع إلى قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ﴾ أَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ؟^(٣)

وروي عن بعض السلف أنه كان إذا قرأ ﴿أَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ﴾ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ؟ وأمثالها يقول: بل أنت يا رب.

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١١/٦٤٩؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٨١٦.

(٢) الألباني في "السلسلة الصحيحة"، ج ٦ ق ٧١٥/٢.

(٣) ابن حبان، صحيحه - بترتيب ابن لبان -، ج ١٣/٣٠، برقم ٥٧٢٣.

وقوله تعالى: ﴿لو نشاء لجعلناه حطاماً﴾ أي نحن أنبتناه بلطفنا ورحمتنا وأبقيناه لكم رحمة بكم، بل ولو نشاء لجعلناه حطاماً أي لأبيسنه قبل استوائه واستحصاده، ﴿فظلتم تفكهون﴾ ثم فسر ذلك بقوله تعالى: ﴿إنا لمغرمون بل نحن محرومون﴾ أي لو جعلناه حطاماً لظللت تفكهون في المقالة تنوعون كلامكم فتقولون تارة إنا لمغرمون، أي معذبون، وتارة يقولون بل نحن لا حظ لنا، ﴿فظلتم تفكهون﴾ تفجعون وتحزنون على ما فاتكم من زرعكم. وقيل تتلاومون وتندمون، ومعناه إما على ما أنفقتم وعلى ما أسلفتم من الذنوب، وتفككت بمعنى حزنت.

ثم قال تعالى: ﴿أفرايتم الماء الذي تشربون أأنتم أنزلتموه من المزن﴾ يعني السحاب، ﴿أم نحن المنزلون﴾، يقول تعالى: بل نحن المنزلون ﴿لو نشاء جعلناه أجاجاً﴾ أي زعاقاً مراً لا يصلح لشرب ولا زرع، ﴿فلولا تشكرون﴾ أي فهلا تشكرون نعمة الله عليكم في إنزاله المطر عليكم عذباً زلالاً.

عن النبي ﷺ أنه كان إذا شرب الماء قال: الحمد لله الذي سقانا عذباً فرائاً برحمته، ولم يجعله ملحاً أجاجاً بذنوبنا، ثم قال تعالى: ﴿أفرايتم النار التي تورون﴾ أي تقدحون من الزناد وغيره، وتستخرجونها من أصلها، ﴿أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشؤون﴾ أي بل نحن الذين جعلناها مودعة في موضعها. وقوله تعالى: ﴿نحن جعلناها تذكرة﴾ لنار الآخرة.

وقوله تعالى: ﴿ومتاعاً للمقوين﴾ للحاضر والمسافر لكل طعام لا يصلحه إلا النار، والمستمتع من الناس أجمعين، فإن الحاضر والبادي من غني وفقير الجميع محتاجون إليها؛ للطبخ والاصطلاء والإضاءة وغير ذلك من المنافع. ثم من لطف الله تعالى أن أودعها في الأحجار وخالص الحديد، بحيث

يتمكن المسافر من حمل ذلك في متاعه وبين ثيابه. فإذا احتاج إلى ذلك في منزله أخرج زنده وأورى وأوقد ناره فطبخ بها واصطلى بها وشوى، واستأنس بها وانتفع بها سائر الانتفاعات.

وروي أن النبي ﷺ قال: ((ثلاث لا يُمنعن: الماء والكلأ والنار)).^(١)

وقوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ أي الذي بقدرته سبحانه خلق هذه الأشياء المختلفة المتضادة: الماء الزلال العذب البارد ولو شاء لجعله ملحاً أجاجاً كالبهار المغرقة، وخلق النار المحرقة وجعل ذلك مصلحة للعباد، وجعل هذه منفعة لهم في معاش دنياهم وزجرا لهم في المعاد.^(٢)

(١) انظر: رواية أبو داود في سننه، كتاب الإجارة، باب في منع الماء، ص ٦٢٥، حديث رقم: ٣٤٧٧؛ وابن ماجه في سننه، كتاب الرهون، باب المسلمون شركاء في ثلاث، ج ٢/٨٢٦، حديث رقم: ٢٤٧٤؛ وراه الإمام أحمد في مسنده، ج ٥/٣٦٤.

(٢) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١١/٦٥٢ - ٦٥٧؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٨١٧ - ١٨١٨.

سورة الحديد

الدعوة إلى الإيمان بالله ﷻ ورسوله ﷺ والنفقة في سبيل الله:

قال تعالى: ﴿ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ۖ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ۝٧ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ يَدْعُوكُمْ لَتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ۝٨﴾ [الحديد].

أمر تعالى بالإيمان به ورسوله على الوجه الأكمل، والدوام والثبات على ذلك والاستمرار. وحث على الإنفاق مما جعل عباده مستخلفين فيه أي مما هو معهم على سبيل العارية، فإنه قد كان في أيدي من قبلكم ثم صار إليكم. فأرشد الله تعالى إلى استعمال ما استخلفتم فيه من المال في طاعته، فإن تفعلوا وإلا حاسبكم عليه وعاقبكم؛ لترككم الواجبات فيه.

وقوله تعالى: ﴿مما جعلكم مستخلفين فيه﴾ فيه إشارة إلى أنه سيكون مخلفاً عنك، فاعل وارثك أن يطيع الله فيه، فيكون أسعد بما أنعم الله به عليك منك، أو يعصي الله فيه فتكون قد سعت في معاونته على الإثم والعدوان.

عن عبد الله بن الشخير رضي الله عنه قال: انتهيت إلى رسول الله ﷺ وهو يقول: ألهاكم التكاثر، يقول ابن آدم: مالي مالي. وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفانيت أو لبست فأبليت أو تصدقت فأمضيت؟^(١)

(١) صحيح مسلم، كتاب الزهد والرقائق، مقدمة - كتاب الزهد والرقائق، ج ٨/٢١١.

وقوله تعالى: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ ترغيب في الإيمان والإنفاق في الطاعة. ثم قال تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ يَدْعُوكُمْ لَتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ﴾ أي وأي شيء يمنعكم من الإيمان والرسول بين أظهركم يدعوكم إلى ذلك، ويبين لكم الحجج والبراهين على صحة ما جاءكم به. وقوله تعالى: ﴿وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ﴾ يعني بذلك بيعة الرسول ﷺ، ومنهم من يرى أنه الميثاق الذي أخذ عليهم في صلب آدم، وهو مذهب مجاهد فالله أعلم.

ما جاء به ﷺ نور ورحمة:

قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحديد].

قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ أي حججاً واضحات ودلائل باهرات وبراهين قاطعات أنزلها على رسوله ﷺ؛ ﴿لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ أي من ظلمات الجهل والكفر والآراء المتضادة إلى نور الهدى واليقين والإيمان، ﴿وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ أي في إنزاله الكتب وإرساله الرسل؛ لهداية الناس وإزاحة العلل وإزالة الشبه.

ولما أمرهم أولاً بالإيمان والإنفاق ثم حثهم على الإيمان وبين أنه قد أزال عنهم موانعه وحثهم على الإنفاق، فقال تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تَتَّقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي أنفقوا ولا تخشوا فقراً وإقلالاً، فإن الذي أنفقتم في سبيله هو مالك السماوات والأرض وبيده مقاليدهما وعنده خزائنهما. هو مالك العرش بما حوى.^(١)

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١١/ ٦٧١ - ٦٧٥؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/ ١٨٢٤ - ١٨٢٦.

الدعوة إلى الإيمان بالله ﷻ ورسوله ﷺ:

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٢٨) ﴿لَا يَعْلَمُ أَهْلُ الْكِتَابِ إِلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ (٢٩) [الحديد].

عن ابن عباس ؓ أنه حمل هذه الآية على مؤمني أهل الكتاب، وأنهم يؤتون أجرهم مرتين.

عن أبي موسى الأشعري ؓ قال: قال رسول الله ﷺ: ((ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين: رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بي فله أجران، وعبد مملوك أدى حق الله وحق مواليه فله أجران، ورجل أدب أمته فأحسن تأديبها ثم أعتقها وتزوجها فله أجران)).^(١)

وقال سعيد بن جبیر ؓ: لما افتخر أهل الكتاب بأنهم يؤتون أجرهم مرتين أنزل الله تعالى عليه ﷺ هذه الآية في حق هذه الأمة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ﴾ أي ضعفين ﴿مِنْ رَحْمَتِهِ﴾، وزادهم ﴿وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ﴾ يعني هدى يُتبصر به من العمى والجهالة ويغفر لكم. ففضلهم بالنور والمغفرة.

عن ابن عمر ؓ قال: ((قال رسول الله ﷺ: مثلكم ومثل اليهود والنصارى كمثّل رجل استعمل عمالاً فقال من يعمل لي من صلاة الصبح إلى نصف النهار على قيراط قيراط؟ ألا فعلت اليهود، ثم قال من يعمل لي من صلاة الظهر إلى صلاة العصر على قيراط قيراط؟ ألا فعلت النصارى، ثم قال من

(١) صحيح البخاري، كتاب العلم، باب تعليم الرجل أمتة وأهله، ج ١/٣٣.

يعمل لي من صلاة العصر إلى غروب الشمس على قيراطين قيراطين؟ ألا فأنتم الذين عملتم، فغضبت النصارى واليهود، وقالوا نحن أكثر عملاً وأقل عطاء، قال: هل ظلمتكم من أجركم شيئاً؟ قالوا: لا، قال: فإنما هو فضلي أوتيته من أشاء)).^(١)

عن أبي موسى رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: ((مثل المسلمين واليهود والنصارى كمثل رجل استأجر قومًا يعملون له عملاً يوماً إلى الليل على أجر معلوم فعملوا إلى نصف النهار فقالوا: لا حاجة لنا في أجرك الذي شرطت لنا، وما عملنا باطل، فقال لهم: لا تفعلوا أكملوا بقية عملكم وخذوا أجركم كاملاً، فأبوا، وتركوا. واستأجر آخرين بعدهم، فقال: أكملوا بقية يومكم، ولكم الذي شرطت لهم من الأجر، فعملوا حتى إذا كان حين صلوا العصر قالوا: ما عملنا باطل ولك الأجر الذي جعلت لنا فيه. فقال: أكملوا بقية عملكم فإنما بقي من النهار شيء يسير فأبوا. فاستأجر قومًا أن يعملوا له بقية يومهم فعملوا له بقية يومهم حتى غابت الشمس، فاستكملوا أجرة الفريقين كليهما، فذلك مثلهم ومثل ما قبلوا من هذا النور)).^(٢)

ولهذا قال تعالى: ﴿لَئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ أي ليتحققوا أنهم لا يقدرُونَ على رد ما أعطاه الله ولا إعطاء ما منع الله، ﴿وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾، ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾.^(٣)

(١) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الإجارة، باب: الإجارة إلى صلاة العصر، ج ٣/ ٥٠.

(٢) انظر: صحيح البخاري، كتاب الإجارة، باب: الإجارة من العصر إلى الليل، ج ٣/ ٥٠ - ٥١.

(٣) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١١/ ٦٩٣ - ٦٩٧؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/ ١٨٣٤ - ١٨٣٥.

سورة المجادلة

مجادلة امرأة لرسول الله ﷺ في زوجها وشكواها لله:

قال تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة: ١].

عن عائشة رضي الله عنها قالت: الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات، لقد جاءت المجادلة إلى النبي ﷺ تكلمه وأنا في ناحية البيت ما أسمع ما تقوله، فأنزل الله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾^(١).

وعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: تبارك الذي أوعى سمعه كل شيء، إني لأسمع كلام خولة بنت ثعلبة ويخفى علي بعضه، وهي تشتكي زوجها إلى رسول الله ﷺ، وهي تقول: يا رسول الله أكل مالي وأفنى شبابي ونثرت له بطني حتى إذا كبر سني وانقطع ولدي ظاهر مني، اللهم إني أشكو إليك. قالت: فما برحت حتى نزل جبريل بهذه الآية: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾^(٢).

وزوجها أوس بن الصامت، وكان امرئاً به لم، فكان إذا أخذه لممه واشتد به يظاھر من امرأته، وإذا ذهب لم يقل شيئاً. فأتت رسول الله ﷺ

(١) سنن ابن ماجه، المقدمة، باب فيما أنكرت الجهمية، ج ١/٨٧، حديث رقم: ١٨٨؛ الإمام أحمد في مسنده، ج ٦/٤١١.

(٢) سنن ابن ماجه، كتاب الطلاق، باب الظهار، ج ١/٦٦٦، حديث رقم: ٢٠٦٣؛ الحاكم، المستدرک، ج ٢/٥٢٣، حديث رقم: ٣٧٩١.

تستفتيه في ذلك وتشتكي إلى الله، فأُنزل الله تعالى: ﴿قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله﴾ الآية.^(١)

تهديد المحادين لله ﷻ ورسوله ﷺ:

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كِتَبُوا كِتَابَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ ٥﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ٦﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا آدَنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرُ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ٧﴾ [المجادلة].

يخبر تعالى عمن شاقوا الله ورسوله وعاندوا شرعه، ﴿كتبوا كما كتبت الذين من قبلهم﴾ أي أهينوا ولعنوا، وأخزوا كما فعل بمن أشبههم ممن قبلهم. ﴿وقد أنزلنا آيات بينات﴾ أي واضحات لا يعاندها ولا يخالفها إلا كافر فاجر مكابر. ﴿ولللكافرين عذاب مهين﴾ أي في مقابلة ما استكبروا عن اتباع شرع الله والانقياد له والخضوع لديه.

ثم قال تعالى: ﴿يوم يبعثهم الله جميعاً﴾ وذلك يوم القيامة يجمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد ﴿فينبئهم بما عملوا﴾ أي فيخبرهم بالذي صنعوا من خير وشر ﴿أحصاه الله ونسوه﴾ أي ضبطه الله وحفظه عليهم وهم قد نسوا ما كانوا عملوا ﴿والله على كل شيء شهيد﴾ أي لا يغيب عنه شيء ولا يخفى ولا ينسى سبحانه شيئاً.

ثم قال تعالى مخبراً عن إحاطة علمه بخلقه واطلاعه عليهم وسماعه

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١٢/٣ - ٨؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٨٣٥.

كلامهم، ورؤيته مكانهم، حيث كانوا وأين كانوا فقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُ لَمَّا جَاءَكَ رَسُولٌ بِمَا لَا تُجِيبُ بِهِ اللَّهُ وَ يَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُكُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَنُفْسُ الْمَصِيرِ ۝٨﴾ يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَنَجَّيْتُمْ فَلَا تَنَجَّوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَنِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَتَنَجَّوْا بِالْبِرِّ وَالنَّقْوَى وَأَتَقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ۝٩﴾ إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ۝١٠﴾ [المجادلة].

أدب التناجي عند رسول الله ﷺ:

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَهَوُا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نَهَوْا عَنْهُ وَيَتَنَجَّوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَنِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُكُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَنُفْسُ الْمَصِيرِ ۝٨﴾ يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَنَجَّيْتُمْ فَلَا تَنَجَّوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَنِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَتَنَجَّوْا بِالْبِرِّ وَالنَّقْوَى وَأَتَقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ۝٩﴾ إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ۝١٠﴾ [المجادلة].

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَهَوُا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نَهَوْا عَنْهُ﴾ قالوا: هم اليهود حيث كان بين النبي ﷺ وبين اليهود مودة. وكانوا إذا مر بهم الرجل من أصحاب النبي ﷺ جلسوا يتتاجون بينهم، حتى يظن المؤمن أنهم يتتاجون بقتله أو بما يكره المؤمن. فإذا رأى المؤمن ذلك خشيه، فترك طريقه عليهم. فنهاهم النبي ﷺ عن النجوى، فلم ينتهوا، وعادوا إلى

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١٢/١٢ - ١٤؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٨٣٨.

النجوى، فأنزل الله تعالى: ﴿ألم تر إلى الذين نهوا عن النجوى ثم يعودون لما نهوا عنه﴾.

وقوله تعالى: ﴿ويتجاجون بالإثم والعدوان ومعصية الرسول﴾ أي يتحدثون فيما بينهم ﴿بالإثم﴾، وهو ما يختص بهم ﴿والعدوان﴾، وهو ما يتعلق بغيرهم. ومنه معصية الرسول ومخالفته يصرون عليها ويتواصون بها. وقوله تعالى: ﴿وإذا جاؤك حيوك بما لم يحيك به الله﴾.

عن عائشة رضي الله عنها قالت: دخل على رسول الله ﷺ يهود فقالوا: السام عليك يا أبا القاسم، فقالت عائشة رضي الله عنها: وعليكم السام. قالت: فقال رسول الله ﷺ: يا عائشة إن الله لا يحب الفحش ولا التفحش. قلت: ألا تسمعهم يقولون السام عليك؟ فقال رسول الله ﷺ: أو ما سمعت؟ أقول وعليكم. فأنزل الله تعالى: ﴿وإذا جاؤك حيوك بما لم يحيك به الله﴾. وفي رواية في الصحيح أنها قالت لهم: عليكم السام والذام واللعنة، وأن رسول الله ﷺ قال: إنه يستجاب لنا فيهم ولا يستجاب لهم فينا.^(١)

وقوله تعالى: ﴿ويقولون في أنفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول﴾ أي يفعلون هذا ويقولون ما يحرفون من الكلام وإيهام السلام، وإنما هو شتم في الباطن. ومع هذا يقولون في أنفسهم: لو كان هذا نبياً لعذبنا الله بما نقول له في الباطن؛ لأن الله يعلم ما نسرّه، فلو كان هذا نبياً حقاً لأوشك أن يعاجلنا الله بالعقوبة في الدنيا، فقال الله تعالى: ﴿حسبهم جهنم﴾ أي جهنم كفايتهم في الدار الآخرة ﴿يصلونها فبئس المصير﴾.

(١) انظر: صحيح مسلم، كتاب السلام، باب النهي عن ابتداء أهل الكتاب بالسلام، وكيف يرد عليهم، ج ٤/٧ - ٥؛ وانظر: صحيح البخاري، كتاب الدعوات، باب قول النبي ﷺ: (يستجاب لنا في اليهود، ولا يستجاب لهم فينا)، ج ١٦٦/٧.

ثم قال الله تعالى مؤدباً عباده المؤمنين ألا يكونوا مثل الكفرة والمنافقين: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَّخِذُوا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ﴾ أي كما يتتاجى به الجهلة من كفرة أهل الكتاب ومن مالأهم على ضلالهم من المنافقين ﴿وَتَتَّخِذُوا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ أي فيخبركم بجميع أعمالكم وأقوالكم التي قد أحصاها عليكم، وسيجزيكُم بها.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّمَا النُّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزَنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ أي إنما النجوى، وهي المسارة حيث يتوهم مؤمن بها سوءاً ﴿مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزَنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ يعني إنما يصدر هذا من المتتاجين عن تسويل الشيطان وتزيينه؛ ﴿لِيَحْزَنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي ليسوءهم وليس ذلك بضارهم شيئاً إلا بإذن الله. ومن أحس من ذلك شيئاً. فليستعذ بالله وليتوكل على الله فإنه لا يضره شيء بإذن الله. عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((إذا كنتم ثلاثة فلا يتتاجى اثنان دون صاحبهما فإن ذلك يحزنه)).^(١)^(٢)

الصدقة عند مناجاة الرسول ﷺ:

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَجَّيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَيْكُمْ صَدَقَةً ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^(١٢) ﴿أَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَيْكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾^(١٣) [المجادلة].

(١) صحيح مسلم، كتاب السلام، باب تحريم مناجاة الاثنين دون الثالث، بغير رضاه، ج ١٣/٧.

(٢) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١٤/١٦ - ١٧؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١٨٣٩/٢ - ١٨٤٠.

يقول تعالى آمراً عباده المؤمنين: إذا أراد أحدهم أن يناجي رسول الله ﷺ أي يساره فيما بينه وبينه، أن يقدم بين يدي ذلك صدقة تطهره وتزكيه وتؤهله لأن يصلح لهذا المقام. ولهذا قال تعالى: ﴿ذلك خير لكم وأطهر﴾، ثم قال تعالى: ﴿فإن لم تجدوا﴾ أي إلا من عجز عن ذلك؛ لفقره ﴿فإن الله غفور رحيم﴾، فما أمر بها إلا من قدر عليها.

ثم قال تعالى: ﴿أأشفقتم أن تقدموا بين يدي نجواكم صدقات﴾ أي أخفتم من استمرار هذا الحكم عليكم من وجوب الصدقة قبل مناجاة الرسول ﷺ ﴿فإذ لم تفعلوا وتاب الله عليكم فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطيعوا الله ورسوله والله خير بما تعملون﴾، فنسخ وجوب ذلك عنهم.

عن علي رضي الله عنه: آية في كتاب الله تعالى لم يعمل بها أحد قبلي ولا يعمل بها أحد بعدي. كان عندي دينار فصرفته بعشرة دراهم، فكنت إذا ناجيت رسول الله ﷺ تصدقت بدرهم. فنسخت ولم يعمل بها أحد قبلي ولا يعمل بها أحد بعدي. ثم تلا ﷺ هذه الآية: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول فقدموا بين يدي نجواكم صدقة﴾ الآية.

عن علي رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: ما ترى، دينار؟ قال: لا يطيقون. قال: نصف دينار؟ قال: لا يطيقون. قال: ما ترى؟ قال: شعيرة. فقال له النبي ﷺ: إنك لزهد! قال: فنزلت ﴿أأشفقتم أن تقدموا بين يدي نجواكم صدقات﴾. قال علي رضي الله عنه: فبي خفف الله عن هذه الأمة. ومعنى قوله شعيرة يعني وزن شعيرة من ذهب.^(١)

(١) سنن الترمذي، كتاب تفسير القرآن، باب (ومن سورة المجادلة)، ج ٥/٤٠٦ - ٤٠٧، حديث رقم: ٣٣٠٠.

وروي عن ابن عباس ؓ في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ كان المسلمون يقدمون بين يدي النجوى صدقة، فلما نزلت الزكاة نسخ.

فأنزل الله تعالى بعد هذا ﴿أَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تَقْدِمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾، فوسع الله عليهم ولم يضيق. فاشتد ذلك عليهم، فأنزل الله الرخصة بعد ذلك، ﴿فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

وعن قتادة: ﴿إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً﴾ إنها منسوخة ما كانت إلا ساعة من نهار.^(١)

مما جاء عن المنافقين:

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿١٦﴾ لَنْ تَغْنِي عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٧﴾ يَوْمَ يَبْعَهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٨﴾ اسْتَحَوْذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٩﴾﴾ [المجادلة].

يقول الله تعالى منكرًا على المنافقين في موالاتهم الكفار في الباطن، وهم في نفس الأمر لا معهم ولا مع المؤمنين: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾؟ يعني اليهود الذين كان المنافقون يماثلونهم ويوالونهم في

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٢٠/١٢ - ٢٢؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٨٤١ - ١٨٤٢.

الباطن، ثم قال تعالى: ﴿ما هم منكم ولا منهم﴾ أي هؤلاء المنافقون ليسوا في الحقيقة لا منكم أيها المؤمنون ولا من الذين يوالونهم وهم اليهود.

ثم قال تعالى: ﴿ويحلفون على الكذب وهم يعلمون﴾ يعني المنافقين يحلفون على الكذب، وهم عالمون بأنهم كاذبون فيما حلفوا وهي اليمين الغموس، ولا سيما في مثل حالهم اللعين عياداً بالله منه، فإنهم كانوا إذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا، وإذا جاءوا الرسول حلفوا له بالله أنهم مؤمنون، وهم في ذلك يعلمون أنهم يكذبون فيما حلفوا به؛ لأنهم لا يعتقدون صدق ما قالوه، وإن كان في نفس الأمر مطابقاً. ولهذا شهد الله بكذبهم في أيمانهم وشهادتهم لذلك.

ثم قال تعالى: ﴿أعد الله لهم عذاباً شديداً إنهم ساء ما كانوا يعملون﴾ أي أرصد الله لهم على هذا الصنيع العذاب الأليم على أعمالهم السيئة، وهي موالاته الكافرين ونصحهم ومعاداة المؤمنين وغشهم، ولهذا قال تعالى: ﴿اتخذوا أيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله﴾ أي أظهرُوا الإيمان وأبطنوا الكفر واتقوا بالإيمان الكاذبة، فظن كثير ممن لا يعرف حقيقة أمرهم صدقهم فاغتر بهم. فحصل بهذا صد عن سبيل الله لبعض الناس، ﴿فلهم عذاب مهين﴾ أي في مقابلة ما امتنوا من الحلف بالله العظيم في الأيمان الكاذبة الحانثة.

ثم قال تعالى: ﴿لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً﴾ أي لن يدفع ذلك عنهم بأساً إذا جاءهم، ﴿أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾. ثم قال تعالى: ﴿يوم يبعثهم الله جميعاً﴾ أي يحشرهم يوم القيامة عن آخرهم، فلا يغادر منهم أحداً، ﴿فيحلفون له كما يحلفون لكم ويحسبون أنهم على شيء﴾ أي يحلفون بالله تعالى أنهم كانوا على الهدى والاستقامة، كما

كانوا يحلفون للناس في الدنيا؛ لأن من عاش على شيء مات عليه وبعث عليه. ويعتقدون أن ذلك ينفعهم عند الله كما كان ينفعهم عند الناس، فيجرون عليهم الأحكام الظاهرة. ولهذا قال تعالى: ﴿ويحسبون أنهم على شيء﴾ أي حلفهم بذلك لربهم ﷻ.

ثم قال تعالى: منكرًا عليهم حسابانهم ﴿ألا إنهم هم الكاذبون﴾، فأكد الخبر عنهم بالكذب.

عن ابن عباس ؓ أن النبي ﷺ كان في ظل حجرة من حجره وعنده نفر من المسلمين قد كاد يقلص عنهم الظل، قال: إنه سيأتيكم إنسان ينظر بعيني شيطان، فإذا أتاكم فلا تكلموه. فجاء رجل أزرق، فدعاه رسول الله فكلمه فقال: علام تشتمني أنت وفلان وفلان نفر دعاهم بأسمائهم، قال فانطلق الرجل فدعاهم، فحلفوا له واعتذروا إليه، قال فأنزل الله تعالى: ﴿فيحلفون له كما يحلفون لكم ويحسبون ...﴾ الآية.^(١)

ثم قال تعالى: ﴿استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله﴾ أي استحوذ على قلوبهم الشيطان حتى أنساهم أن يذكر الله تعالى. وكذلك يصنع بمن استحوذ عليه. ثم قال تعالى: ﴿أولئك حزب الشيطان﴾ يعني الذين استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله ثم قال تعالى: ﴿ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون﴾.^(٢)

محادي الله ﷻ ورسوله ﷺ ومصيرهم:

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ﴾ ﴿٥٠﴾ كَتَبَ اللَّهُ

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده، ج ١/٢٦٧.

(٢) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١٢/٢٢ - ٢٥؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٨٤٢ - ١٨٤٣.

لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّكَ اللَّهُ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيَدْخُلُهُمُ الْجَنَّةُ يَجْرُونَ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾ [المجادلة].

يقول تعالى مخبراً عن الكفار المعاندين المحادين لله ورسوله، يعني الذين هم في حد والشرع في حد، أي مجانبون للحق مشاققون له هم في ناحية والهدى في ناحية، ﴿أولئك في الأذلين﴾ أي في الأشقياء المبعدين المطرودين عن الصواب الأذلين في الدنيا والآخرة. ﴿كتب الله لأغلبن أنا ورسلي﴾ أي قد حكم وكتب في كتابه الأول وقدره الذي لا يخالف ولا يمانع ولا يبدل، بأن النصر له ولكتابته ورسله وعباده المؤمنين في الدنيا والآخرة و﴿إن العاقبة للمتقين﴾.

وقال تعالى هاهنا: ﴿كتب الله لأغلبن أنا ورسلي إن الله قوي عزيز﴾ أي كتب القوي العزيز أنه الغالب لأعدائه. وهذا قدر محكم وأمر مبرم أن العاقبة والنصرة للمؤمنين في الدنيا والآخرة. ثم قال تعالى: ﴿لا تجد قومًا يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم﴾ أي لا يوادون المحادين لله ورسوله ﷺ ولو كانوا من الأقربين.

وقيل: أنزلت هذه الآية ﴿لا تجد قومًا يؤمنون بالله واليوم الآخر﴾ إلى آخرها في أبي عبيدة عامر بن عبد الله بن الجراح ؓ حين قتل أباه يوم بدر. ومنها قوله تعالى: ﴿ولو كانوا آباءهم﴾، ونزلت ﴿أو أبناءهم﴾ في

الصديق ﷺ هم يومئذ بقتل ابنه عبدالرحمن، ﴿أو إخوانهم﴾ في مصعب بن عمير ﷺ قتل أخاه عبيد بن عمير يومئذ، ﴿أو عشيرتهم﴾ في عمر ﷺ قتل قريباً له يومئذ أيضاً، وفي حمزة وعلي وعبيدة بن الحارث ﷺ قتلوا عتبة وشيبة والوليد بن عتبة يومئذ.

وقوله تعالى: ﴿أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه﴾ أي من اتصف بأنه لا يواد من حاد الله ورسوله ولو كان أباه أو أخاه. فهذا ممن كتب الله في قلبه الإيمان أي كتب له السعادة وقررها في قلبه وزين الإيمان في بصيرته ﴿وأيدهم بروح منه﴾ أي ساندتهم وقواهم.

وقوله تعالى: ﴿ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها رضي الله عنهم ورضوا عنه﴾. وفي قوله تعالى: ﴿رضي الله عنهم ورضوا عنه﴾ سر بديع، وهو أنه لما سخطوا على القرائب والعشائر في الله تعالى عوضهم الله بالرضا عنهم وأرضاهم عنه بما أعطاهم من النعيم المقيم والفوز العظيم والفضل العميم. وقوله تعالى: ﴿أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون﴾ أي هؤلاء حزب الله أي عباد الله وأهل كرامته. وقوله تعالى: ﴿ألا إن حزب الله هم المفلحون﴾ تنويه بفلاحهم وسعادتهم ونصرتهم في الدنيا والآخرة.^(١)

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٢٥/١٢ - ٢٦؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٨٤٣ - ١٨٤٤.

سورة الحشر

مشاققة بني النضير لله ﷻ ورسوله ﷺ ومصيرهم:

قال تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (١) هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَنَّهُمْ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدَى الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ (٢) وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ (٣) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ. وَمَنْ يُشَاقِ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٤) مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لَيْسَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْرِىَ الْفَاسِقِينَ (٥) [الحشر].

يخبر تعالى أن جميع ما في السماوات وما في الأرض من شيء يسبح له ويمجده ويقدسه ويصلي له ويوحده. وقوله تعالى: ﴿وهو العزيز﴾ أي منيع الجنب ﴿الحكيم﴾ في قدره وشرعه.

وقوله تعالى: ﴿هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب﴾ يعني يهود بني النضير. (١)

كان رسول الله ﷺ لما قدم المدينة هادئهم وأعطاهم عهداً وذمة على أن لا يقاتلهم ولا يقاتلوه. فنقضوا العهد الذي كان بينهم وبينه ﷺ فأحل الله بهم بأسه الذي لا مرد له، وأنزل عليهم قضاءه الذي لا يصد، فأجلاهم النبي ﷺ

(١) انظر: كتابي، رسول الله وخاتم النبيين، ج ٣/٦٤٥.

وأخرجهم من حصونهم الحصينة التي ما طمع فيها المسلمون، وظنوا هم أنها مانعتهم من بأس الله، فما أغنى عنهم من الله شيء وجاءهم من الله ما لم يكن ببالهم.

وسيرهم رسول الله ﷺ وأجلاهم من المدينة، فكانت منهم طائفة ذهبوا إلى أذرعات من أعالي الشام، وهي أرض المحشر والمنشر. ومنهم طائفة ذهبوا إلى خيبر، وكان قد أنزلهم منها على أن لهم ما حملت إبلهم، فكانوا يخبرون ما في بيوتهم من المنقولات التي لا يمكن أن تحمل معهم. ولهذا قال تعالى: ﴿يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين فاعتبروا يا أولي الأبصار﴾ أي تفكروا في عاقبة من خالف أمر الله وخالف رسوله ﷺ وكذب كتابه الكريم كيف يحل به من بأس الله ﷻ المخزي له في الدنيا، مع ما يدخره له في الآخرة من العذاب الأليم.

كان كفار قريش كتبوا إلى ابن أبي ومن كان معه يعبد الأوثان من الأوس والخزرج، ورسول الله ﷺ يومئذ بالمدينة قبل وقعة بدر: إنكم آويتم صاحبنا، وإنا نقسم بالله لنقاتلن أو لنخرجنكم أو لنسيرن إليكم بأجمعنا حتى نقتل مقاتلتكم ونسبي نساءكم. فلما بلغ ذلك عبد الله بن أبي ومن كان معه من عبدة الأوثان اجتمعوا لقتال النبي ﷺ، فلما بلغ ذلك النبي ﷺ لقيهم فقال: لقد بلغ وعيد قريش منكم المبالغ ما كانت تكيدكم بأكثر مما تريد أن تكيدوا به أنفسكم. يريدون أن يقاتلوا أبناءكم وإخوانكم، فلما سمعوا ذلك من النبي تفرقوا. فبلغ ذلك كفار قريش فكتبت كفار قريش، بعد وقعة بدر إلى اليهود: إنكم أهل الحلقة والحصون وإنكم لتقاتلن مع صاحبنا أو لنفعلن كذا وكذا، ولا يحول بيننا وبين خدم نساءكم شيء وهو الخلاخل. فلما بلغ كتابهم النبي ﷺ أيقنت بنو

النضير بالغدر، فأرسلوا إلى النبي ﷺ: أخرج إلينا في ثلاثين رجلاً من أصحابك وليخرج منا ثلاثون حبراً حتى نلتقي بمكان المنصف، وليسمعوا منك فإن صدقوك وآمنوا بك آمنوا بك.

فلما كان الغد غدا عليهم رسول الله ﷺ بالكتائب فحصرهم، فقال لهم: إنكم والله لا تأمنون عندي إلا بعهد تعاهدوني عليه فأبوا أن يعطوه عهداً فقاتلهم يومهم ذلك. ثم غدا من الغد على بني قريظة بالكتائب وترك بني النضير ودعاهم إلى أن يعاهدوه فعاهدوه. فانصرف عنهم وغدا إلى بني النضير بالكتائب فقاتلهم حتى نزلوا على الجلاء. فجلت بنو النضير واحتملوا ما أقلت الإبل من أمتعتهم وأبواب بيوتهم وخشبها. وكان نخل بني النضير لرسول الله ﷺ خاصة أعطاه الله إياها وخصه بها.^(١)

فقال تعالى: ﴿وما أفاء الله على رسوله منهم فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب﴾ يقول: بغير قتال. فأعطى النبي ﷺ أكثرها للمهاجرين قسمها بينهم وقسم منها لرجلين من الأنصار، وكانا ذوي حاجة، ولم يقسم من الأنصار غيرهما. وبقي منها صدقة رسول الله ﷺ.

وقيل في سبب ذلك: أنه لما قتل أصحاب بئر معونة من أصحاب رسول الله ﷺ وكانوا سبعين، وأفلت منهم عمرو بن أمية الضمري. فلما كان في أثناء الطريق راجعاً إلى المدينة قتل رجلين من بني عامر، وكان معهما عهد من رسول الله ﷺ وأمان لم يعلم به عمرو. فلما رجع أخبر رسول الله ﷺ فقال له رسول الله ﷺ: لقد قتلت رجلين لأديئتهما. وكان بين بني النضير وبني عامر حلف وعهد. فخرج رسول الله ﷺ إلى بني النضير ليستعينهم في دية ذينك

(١) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ٣/١٩٠؛ كتابي "رسول الله وخاتم النبيين"، ج ٢/٦٤٦

الرجلين. وكانت منازل بني النضير ظاهر المدينة على أُميال منها شرقيها؛ للجوار الذي كان رسول الله ﷺ عقد لهما. وكان بين بني النضير وبني عامر عقد وحلف. فلما أتاها رسول الله ﷺ يستعينهم في دية ذينك القَتيلين قالوا: نعم يا أبا القاسم نعينك على ما أحببت مما استعنت بنا عليه. ثم خلا بعضهم ببعض فقالوا: إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه - ورسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم إلى جنب جدار من بيوتهم - فَمَنْ رجل يعلو على هذا البيت فيلقي عليه صخرة فيريحنا منه؟ فانتدب لذلك عمرو بن جحاش بن كعب أحدهم. فقال: أنا لذلك، فصعد ليلقي عليه صخرة، كما قال ورسول الله ﷺ في نفر من أصحابه فيهم أبو بكر وعمر وعلي رضي الله عنهما، فأتى رسول الله ﷺ الخبر من السماء بما أراد القوم فقام وخرج راجعا إلى المدينة.

فلما استلبث النبي ﷺ أصحابه قاموا في طلبه فلقوا رجلاً مقبلاً من المدينة، فسألوه عنه، فقال رأيته داخلاً المدينة. فأقبل أصحاب رسول الله ﷺ حتى انتهوا إليه، فأخبرهم الخبر بما كانت يهود أرادت من الغدر به. وأمر رسول الله ﷺ بالتهيؤ لحربهم والمسير إليهم، ثم سار حتى نزل بهم، فتحصنوا منه في الحصون، فأمر رسول الله ﷺ بقطع النخل والتحريق فيها، فنادوه أن يا محمد قد كنت تنهى عن الفساد في الأرض وتعيبه على من يصنعه، فما بال قطع النخل وتحريقها؟ وقد كان عبد الله بن أبي ابن سلول في رهط من المنافقين قد بعثوا إلى بني النضير أن اثبتوا وتمنعوا، فإننا لن نسلمكم إن قوتلتم قاتلنا معكم، وإن خرجتم خرجنا معكم، فتربصوا ذلك من نصرهم فلم يفعلوا، فغذف الله في قلوبهم الرعب. فسألوا رسول الله ﷺ أن يجليهم ويكف عن دمائهم على أن لهم ما حملت الإبل من أموالهم إلا الحلقة ففعل.

فاحتملوا من أموالهم ما استقلت به الإبل، فكان الرجل منهم يهدم بيته عن إيجاف بابه فيضعه على ظهر بعيه فينطلق به. فخرجوا إلى خيبر. ومنهم من سار إلى الشام وخلوا الأموال لرسول الله ﷺ، فكانت لرسول الله ﷺ خاصة يضعها حيث يشاء، فقسمها على المهاجرين الأولين دون الأنصار إلا سهل بن حنيف وأبا دجانة - سماك بن خرشة - ذكرا فقرا فأعطاهما رسول الله ﷺ. ولم يسلم من بني النضير إلا رجلان: يامين بن عمرو بن كعب بن عمرو بن جحاش وأبو سعد بن وهب رضي الله عنه، أسلما على أموالهما فأحرزاهما.

وورد أن رسول الله ﷺ قال ليامين: ألم تر ما لقيت من ابن عمك وما هم به من شأني، فجعل يامين بن عمرو لرجل جعلاً على أن يقتل عمرو بن جحاش فقتله فيما روي، ونزلت في بني النضير سورة الحشر بأسرها.^(١)

فقوله تعالى: ﴿هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب﴾ يعني بني النضير ﴿من ديارهم لأول الحشر﴾، عن ابن عباس رضي الله عنه قال: من شك في أن أرض المحشر هاهنا يعني الشام فليقرأ هذه الآية ﴿هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر﴾، قال لهم رسول الله ﷺ: اخرجوا! قالوا: إلى أين؟ قال: إلى أرض المحشر.

عن الحسن رضي الله عنه قال: لما أجلى رسول الله ﷺ بني النضير قال ﷺ: ((هذا أول الحشر وإنا على الأثر)).

وقوله تعالى: ﴿ما ظننتم أن يخرجوا﴾ أي في مدة حصاركم لهم وقصرها، وكانت ستة أيام مع شدة حصونهم ومنعتها. ولهذا قال تعالى: ﴿وظنوا أنهم

(١) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ١٩٠/٣ - ١٩٥؛ كتابي "رسول الله وخاتم النبيين"، ج ٦٤٦/٣.

مانعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا ﴿أي جاءهم من أمر الله ما لم يكن لهم في بال﴾.

وقوله تعالى: ﴿وقذف في قلوبهم الرعب﴾ أي الخوف والهلع والجزع. وكيف لا يحصل لهم ذلك وقد حاصرهم ﷺ الذي نصر بالرعب مسيرة شهر. وقوله تعالى: ﴿يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين﴾ وهو نقض ما استحسَنوه من سقوفهم وأبوابهم وتحميلها على الإبل، يقول الله تعالى: ﴿فاعتبروا يا أولي الأبصار﴾.

وقوله تعالى: ﴿ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء لعذبهم في الدنيا﴾ أي لولا أن كتب الله عليهم هذا الجلاء وهو النفي من ديارهم وأموالهم لكان لهم عند الله عذاب آخر من القتل والسبي ونحو ذلك؛ لأن الله قد كتب عليهم أنه سيعذبهم في الدار الدنيا مع ما أعد لهم في الدار الآخرة من العذاب في نار جهنم.

ووقعة بني النضير كانت على رأس ستة أشهر من وقعة بدر. والجلاء كتب عليهم في آي من التوراة. وكانوا من سبط لم يصبهم الجلاء قبل ما سلط عليهم رسول الله ﷺ.

وقد استسلموا على أن يحقن دماءهم وأن يخرجهم من أرضهم ومن ديارهم وأوطانهم، وأن يسيرهم إلى أذرعات الشام، وجعل لكل ثلاثة منهم بغيراً وسقاء، والجلاء إخراجهم من أرضهم إلى أرض أخرى. وقد أجلهم في الجلاء ثلاثة أيام.

وقوله تعالى: ﴿ولهم في الآخرة عذاب النار﴾ أي حتم لازم لا بد لهم منه. وقوله تعالى: ﴿ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله﴾ أي إنما فعل الله بهم ذلك

وسلط عليهم رسوله ﷺ وعباده المؤمنين؛ لأنهم خالفوا الله ورسوله وكذبوا بما أنزل الله على رُسله المتقدمين من البشارة بمحمد ﷺ. وهم يعرفون ذلك كما يعرفون أبناءهم. ثم قال تعالى: ﴿ومن يشاق الله فإن الله شديد العقاب﴾.

وقوله تعالى: ﴿ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله وليخزي الفاسقين﴾. اللين نوع من التمر ويطلق على جميع النخل، ذلك أن رسول الله ﷺ لما حاصرهم أمر بقطع نخيلهم؛ إهانة لهم وإرهاباً وإرعاباً لقلوبهم، فبعث بنو النضير يقولون لرسول الله ﷺ إنك تنهى عن الفساد فما بالك تأمر بقطع الأشجار؟ فأنزل الله هذه الآية الكريمة أي ﴿ما قطعتم من لينة﴾ وما تركتم من الأشجار، فالجميع بإذنه ومشيئته وقدرته ورضاه وفيه نكاية بالعدو وخزي لهم، وإرغام لأنوفهم.

عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله وليخزي الفاسقين﴾ قال: يستنزلونهم من حصونهم، وأمروا بقطع النخل فحاك في صدورهم، فقال المسلمون: قطعنا بعضاً وتركنا بعضاً فلنسألن رسول الله ﷺ هل لنا فيما قطعنا من أجر؟ وهل علينا فيما تركنا من وزر؟ فأنزل الله ﴿ما قطعتم من لينة﴾ وقد رخص لهم في قطع النخل ثم شدد عليهم، فأتوا النبي ﷺ فقالوا: يا رسول الله علينا إثم فيما قطعنا أو علينا وزر فيما تركنا، فأنزل الله تعالى: ﴿ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله﴾.^(١)

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٢٧/١٢ - ٢٤؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٨٤٤ - ١٨٤٩.

حكم الفبي والأمر بالأخذ بما جاء به الرسول ﷺ:

قال تعالى: ﴿وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٦) ﴿مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا أَنْتُمْ إِلَّا رُسُلُ فَخُذُوهُ وَمَنْ نَهَكُمْ عَنْهُ فَأَنْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (٧) [الحشر].

يقول تعالى مبيناً مال الفبي وما صفته وما حكمه، فالفبي كل مال أخذ من الكفار من غير قتال ولا إيجاف خيل ولا ركاب، كأموال بني النضير هذه فإنها مما لم يوجف المسلمون عليها بخيل ولا ركاب، أي لم يقاتلوا الأعداء فيها بالمبارزة والمصاولة، بل نزل أولئك من الرعب الذي ألقى الله في قلوبهم من هيبة رسول الله ﷺ، فأفاءه الله على رسوله. ولهذا تصرف كما يشاء الله ورسوله ﷺ، فرده على المسلمين في وجوه البر والمصالح التي ذكرها الله ﷻ في هذه الآيات، فقال تعالى: ﴿وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ﴾ أي من بني النضير ﴿فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ﴾ يعني الإبل، ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي هو قدير لا يغالب ولا يمانع، بل هو القاهر لكل شيء.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾ أي جميع البلدان التي تفتح هكذا فحكمها حكم أموال بني النضير. ولهذا قال تعالى: ﴿فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ إلى آخرها والتي بعدها، فهذه مصارف أموال الفبي ووجوهه.

عن عمر رضي الله عنه قال: كانت أموال بني النضير مما أفاء الله على رسوله مما

لو يوجف المسلمون عليه بخيل ولا ركاب، فكانت لرسول الله ﷺ خالصة. فكان ينفق على أهله منها نفقة سنته. وقال عمر رضي الله عنه مرة: قوت سنته وما بقي جعله في الكراع والسلاح في سبيل الله تعالى^(١).

عن مالك بن أوس قال: أرسل إلي عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين تعالى النهار، فجئته فوجدته جالساً على سرير مفضياً إلى رماله، فقال حين دخلت عليه: يا مالك إنه قد دف أهل أبيات من قومك وقد أمرت فيهم بشيء فأقسم فيهم. قلت: لو أمرت غيري بذلك فقال: خذه، فجاءه يرفاً فقال يا أمير المؤمنين هل لك في عثمان بن عفان وعبدالرحمن بن عوف والزبير بن العوام وسعد بن أبي وقاص؟ قال: نعم.

فأذن لهم فدخلوا ثم جاءه يرفاً، فقال: يا أمير المؤمنين هل لك في العباس وعلي؟ قال: نعم، فأذن لهما فدخلوا، فقال العباس: يا أمير المؤمنين اقض بيني وبين هذا يعني علياً، فقال بعضهم: أجل يا أمير المؤمنين اقض بينهما وأرحهما. قال مالك بن أوس رضي الله عنه: خيل إلي أنهما قدما أولئك النفر لذلك، فقال عمر رضي الله عنه: اتئدا، ثم أقبل على أولئك الرهط فقال: أنشدكم بالله الذي بإذنه تقوم السماء والأرض هل تعلمون أن رسول الله ﷺ قال: "لا نورث، ما تركنا صدقة؟" قالوا: نعم. ثم أقبل على علي والعباس فقال: أنشدكما بالله الذي بإذنه تقوم السماء والأرض هل تعلمان أن رسول الله ﷺ قال: "لا نورث، ما تركنا صدقة؟" فقالا: نعم. فقال: إن الله خص رسوله بخاصة لم يخص بها أحداً من الناس، فقال تعالى: ﴿وما أفاء الله على رسوله منهم فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب ولكن الله يسلط رسله على من

(١) صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب المجن ومن يتترس بترس صاحبه، ج ٣/٢٢٧ -

٢٢٨؛ صحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب حكم الفيء، ج ٥/١٥١.

يشاء والله على كل شيء قدير ﴿١﴾، فكان الله تعالى أفاء على رسوله أموال بني النضير. فوالله ما استأثر بها عليكم ولا أحرزها دونكم، فكان رسول الله ﷺ يأخذ منها نفقة سنة أو نفقته ونفقة أهله سنة، ويجعل ما بقي أسوة المال.

ثم أقبل على أولئك الرهط فقال: أنشدكم بالله الذي يأذنه تقوم السماء والأرض هل تعلمون ذلك؟ قالوا: نعم. ثم أقبل على علي والعباس فقال: أنشدكم بالله الذي يأذنه تقوم السماء والأرض هل تعلمان ذلك؟ قالوا: نعم. فلما توفى رسول الله ﷺ قال أبو بكر: أنا ولي رسول الله ﷺ، فجئت أنت وهذا إلى أبي بكر تطلب أنت ميراثك من ابن أخيك، ويطلب هذا ميراث امرأته من أبيها، فقال أبو بكر: قال رسول الله ﷺ: "لا نورث، ما تركنا صدقة". والله يعلم إنه لصادق بار راشد تابع للحق، فوليتها أبو بكر. فلما توفى قلت: أنا ولي رسول الله ﷺ وولي أبي بكر، فوليتها ما شاء الله أن أليها. فجئت أنت وهذا وأنتما جميع وأمركما واحد فسألتما نيتها، فقلت إن شئتما فأنا أدفعها إليكما على أن عليكما عهد الله أن تليها بالذي كان رسول الله ﷺ يليها. فأخذتماها مني على ذلك، ثم جئتماني لأقضي بينكما بغير ذلك. والله لا أقضي بينكما بغير ذلك حتى تقوم الساعة. فإن عجزتما عنها فرداها إليَّ.^(١)

عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: ((إن الرجل كان يجعل له من ماله النخلات أو كما شاء الله حتى فتحت عليه قريظة والنضير. قال: فجعل يرد بعد ذلك، قال: وإن أهلي أمروني أن آتي النبي ﷺ فأسأله الذي

(١) رواه أبو داود في سننه، كتاب الخراج والفيء والإمارة، باب في صفايا رسول الله من الأموال، ص ٥٢٨ - ٥٢٩، حديث رقم: ٢٩٦٣.

كان أهله أعطوه أو بعضه. وكان نبي الله ﷺ قد أعطاه أم أيمن أو كما شاء الله. قال: فسألت النبي ﷺ فأعطانيهن، فجاءت أم أيمن فجعلت الثوب في عنقي وجعلت تقول: كلا والله الذي لا إله إلا هو لا يعطيكهن وقد أعطانيهن، أو كما قالت. فقال نبي الله ﷺ: لك كذا وكذا. قال: وتقول: كلا والله قال: ويقول: لك كذا وكذا قال: وتقول: كلا والله، قال: ويقول لك: كذا وكذا. قال: حتى أعطاهما حسبت أنه قال: عشرة أمثاله، أو قال: قريباً من عشرة أمثاله، أو كما قال)).^(١)

وقوله تعالى: ﴿كَي لَا يَكُونَ دَوْلَةٌ بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ﴾ أي جعلنا هذه المصارف لمال الفياء؛ كيلا يبقى مأكلة يتغلب عليها الأغنياء، ويتصرفون فيها بمحض الشهوات والآراء، ولا يصرفون منه شيئاً إلى الفقراء.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ أي مهما أمركم به فافعلوه ومهما نهاكم عنه فاجتنبوه، فإنه إنما يأمر بخير وينهى عن شر.

وقد ثبت عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: ((إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم، وما نهيتكم عنه فاجتنبوه)).^(٢)

وقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ أي اتقوه في امتثال أوامره

(١) صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب مرجع النبي ﷺ من الأحزاب، ومخرجه إلى بني قريظة ومحاصرته إياهم، ج ٥٠/٥؛ صحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب رد المهاجرين إلى الأنصار منائهم من الشجر والتمر حين استغنوا عنها بالفتوح، ج ١٦٣/٥.

(٢) صحيح مسلم، كتاب الفضائل، باب توفيره ﷺ، وترك إكثار سؤاله عما لا ضرورة إليه، أو لا يتعلق به تكليف، وما لا يقع، ونحو ذلك، ج ٩١/٧؛ صحيح البخاري، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب: الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ، ج ١٤٢/٨.

وترك زواجه، فإنه شديد العقاب لمن عصاه وخالف أمره وأباه وارتكب ما عنه زجره ونهاه.^(١)

توزيع الفيء واستغفار المؤمنين بعضهم لبعض:

قال تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ (٨) ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شَحْنًا نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (٩) ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (١٠) [الحشر].

يقول تعالى مبيناً حال الفقراء المستحقين لمال الفيء إنهم ﴿الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضواناً﴾ أي خرجوا من ديارهم وخالفوا قومهم؛ ابتغاء مرضاة الله ورضوانه، ﴿وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون﴾ أي هؤلاء الذين صدقوا قولهم بفعلهم وهؤلاء هم سادات المهاجرين. نصروا الله ورسوله.

ثم قال تعالى مادحاً للأنصار ومبيناً فضلهم وشرفهم وكرمهم، وعدم حسدهم وإيثارهم مع الحاجة، فقال تعالى: ﴿والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم﴾ أي سكنوا دار الهجرة من قبل المهاجرين وآمنوا قبل كثير منهم.

قال عمر رضي الله عنه: ((وأوصي الخليفة بعدي بالمهاجرين الأولين أن يعرف لهم حقهم ويحفظ لهم كرامتهم، وأوصيه بالأنصار خيراً الذين تبوءوا الدار

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١٢/٣٤ - ٣٨؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٨٤٩ - ١٨٥٠.

والإيمان من قبل أن يقبل من محسنهم وأن يعفو عن مسيئهم))^(١).

قوله تعالى: ﴿يحبون من هاجر إليهم﴾ أي: من كرمهم وشرف أنفسهم يحبون المهاجرين ويواسونهم بأموالهم.

عن أنس رضي الله عنه قال: قال المهاجرون: يا رسول الله ما رأينا مثل قوم قدمنا عليهم أحسن مواساة في قليل ولا أحسن بذلاً في كثير، لقد كفونا المؤنة وأشركونا في المهناً، حتى لقد خشينا أن يذهبوا بالأجر كله. قال ﷺ: لا ما أثبتتم عليهم ودعوتم الله لهم.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: ((قالت الأنصار: اقسم بيننا وبين إخواننا النخيل، قال: لا. فقالوا: أتكفوننا المؤنة ونشرككم في الثمرة. قالوا: سمعنا وأطعنا))^(٢).

﴿ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا﴾ أي ولا يجدون في أنفسهم حسداً للمهاجرين فيما فضلهم الله به من المنزلة والشرف والتقديم في الذكر والرتبة. وفيما أُعطى إخوانهم المهاجرون.

وتكلم في أموال بني النضير بعض من تكلم الأنصار فعاتبهم الله في ذلك فقال تعالى: ﴿وما أفاء الله على رسوله منهم فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب، ولكن الله يسلط رسله على من يشاء والله على كل شيء قدير﴾، قال: وقال رسول الله ﷺ: "إن إخوانكم قد تركوا الأموال والأولاد وخرجوا إليكم"، فقالوا: أموالنا بيننا قطائع، فقال رسول الله ﷺ: "أو غير ذلك".

(١) صحيح البخاري، كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ، باب قصة البيعة، والاتفاق على عثمان بن عفان رضي الله عنه، ج ٤/٢٠٦.

(٢) صحيح البخاري، كتاب المزارعة، باب إذا قال: اكفني مؤونة النخل أو غيره، وتشركني في الثمر، ج ٣/٦٧.

قالوا: وما ذاك يا رسول الله؟ قال: "هم قوم لا يعرفون العمل فتكفونهم وتقاسمونهم الثمر". فقالوا: نعم يا رسول الله.

وقوله تعالى: ﴿ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة﴾ يعني حاجة، أي يقدمون المحاويع على حاجة أنفسهم، ويبدؤون بالناس قبلهم في حال احتياجهم إلى ذلك.

وقد ثبت عن رسول الله ﷺ أنه قال: ((أفضل الصدقة جهد المقل)).^(١)

فهؤلاء آثروا على أنفسهم مع خصاصتهم وحاجتهم إلى ما أنفقوه. ومن هذا المقام تصدق الصديق رضي الله عنه بجميع ماله، فقال له رسول الله ﷺ: "ما أبقيت لأهلك؟" فقال رضي الله عنه: أبقيت لهم الله ورسوله.

روى البخاري رضي الله عنه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: أتى رجل لرسول الله ﷺ: فقال يا رسول الله أصابني الجهد، فأرسل إلى نسائه فلم يجد عندهن شيئاً، فقال النبي ﷺ: ألا رجل يضيفه هذه الليلة؟ فقام رجل من الأنصار فقال: أنا يا رسول الله، فذهب إلى أهله فقال لامرأته: هذا ضيف رسول الله ﷺ لا تدخره شيئاً، فقالت: والله ما عندي إلا قوت الصبية. قال: فإذا أراد الصبية العشاء فنوميهن، وتعالني فأطفئ السراج ونطوي بطوننا الليلة، ففعلت ثم غدا الرجل على رسول الله ﷺ فقال ﷺ: لقد عجب الله ﷻ - أو ضحك - من فلان وفلانة، وأنزل الله تعالى: ﴿ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة﴾.^(٢)

وقوله تعالى: ﴿ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون﴾ أي من سلم من الشح فقد أفلح وأنجح.

(١) سنن أبي داود، كتاب الزكاة، باب في الرخصة في ذلك، ص ٢٩١، حديث رقم: ١٦٧٧.

(٢) صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب: (ويؤثرون على أنفسهم)، ج ٦/٥٩.

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: ((إياكم والظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة. واتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم)).^(١)

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾. هؤلاء هم القسم الثالث ممن يستحق فقراؤهم من مال الفيء، وهم المهاجرون ثم الأنصار ثم التابعون لهم بإحسان. فالتابعون لهم بإحسان هم المتبعون لآثارهم الحسنة وأوصافهم الجميلة الداعون لهم في السر والعلانية. ولهذا قال تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ﴾ أي قائلين: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا﴾ أي بغضا وحسداً ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾. واستثبط من هذه الآية الكريمة أن الذي يسب الصحابة ليس له في مال الفيء نصيب؛ لعدم اتصافه بما مدح الله به هؤلاء في قولهم: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾.

عن عائشة رضي الله عنها: أمروا أن يستغفروا لهم فسيبوهم، ثم قرأت هذه الآية: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾ الآية. عن عائشة رضي الله عنها: قالت: أمرتم بالاستغفار لأصحاب محمد ﷺ فسببتموهم.

قال عمر رضي الله عنه: ﴿وما أفاء الله على رسوله منهم فما أوجفتم عليه من خيل

(١) صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، ج ١٧/٨.

ولا ركاب)، روي أن عمر رضي الله عنه قال: هذه لرسول الله ﷺ خاصة قرى عربية فذك وكذا، فما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل وللفقراء المهاجرين الذي أخرجوا من ديارهم وأموالهم، ﴿والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم﴾ ﴿والذين جاؤ من بعدهم﴾ فاستوعبت هذه الآية الناس، فلم يبق أحد من المسلمين إلا له فيها حق.

عن مالك بن أوس بن الحدثان قال: قرأ عمر بن الخطاب رضي الله عنه إنما الصدقات للفقراء والمساكين ﴿حتى﴾ ﴿عليهم حكيم﴾، ثم قال: هذه لهؤلاء. ثم قرأ ﴿واعلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خمسه وللرسول ولذي القربى﴾ [الأنفال: ٤١] الآية. ثم قال: هذه لهؤلاء. ثم قرأ ﴿ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فله وللرسول ولذي القربى﴾ - حتى بلغ - ﴿للفقراء﴾. وقال تعالى: ﴿والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم﴾ - ﴿والذين جاؤ من بعدهم﴾، ثم قال: استوعبت هذه المسلمين عامة، وليس أحد إلا له فيها حق. ثم قال: لئن عشت لياتن الراعي وهو بسرو [مناطق] حمير نصيبه فيها لم يعرق فيها جبينه.^(١)

المنافقون ووقوفهم مع بني النضير وضعف الجميع:

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ شَهِدٌ لِّإِثْمِهِمْ لَكَذِبُونَ﴾ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُولَيَنَّ الْأَدْبَرَ ثُمَّ لَا يَنْصُرُونَك ﴿١٢﴾ لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهَبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِّنَ

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١٢/ ٣٩ - ٤٣؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/ ١٨٥٠ - ١٨٥٣؛ (وانظر:

تفصيلات أكثر عند، أبي يوسف، الخراج، ص ١٢٤).

اللَّهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾ لَا يَقْتُلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قَرْيٍ مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾ كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٥﴾ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ فَكَانَ عَقِبَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاُ الظَّالِمِينَ ﴿١٧﴾

[الحشر].

يخبر تعالى عن المنافقين كعبد الله بن أبي وأضرابه حين بَعَثُوا إلى يهود بني النضير يَعدونهم النصر من أنفسهم، فقال تعالى: (ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحداً أبداً وإن قوتلتم لننصرنكم). قال الله تعالى: ﴿والله يشهد إنهم لكاذبون﴾ أي لكاذبون فيما وعدوهم به، إما لأنهم قالوا لهم قولاً، ومن نيتهم أن لا يفوا لهم به، وإما لأنهم لا يقع منهم الذي قالوه. ولهذا قال تعالى: ﴿ولئن قوتلوا لا ينصرونهم﴾ أي لا يقاتلون معهم، ﴿ولئن نصروهم﴾ أي قاتلوا معهم ﴿ليولن الأدبار ثم لا ينصرون﴾. وهذه بشارة مستقلة بنفسها.

وقوله تعالى: ﴿لأنتم أشد رهبة في صدورهم من الله﴾ أي يخافون منكم أكثر من خوفهم من الله. ولهذا قال تعالى: ﴿ذلك بأنهم قوم لا يفقهون﴾.

ثم قال تعالى: ﴿لا يقاتلونكم جميعاً إلا في قرى محصنة أو من وراء جدر﴾ يعني أنهم من جبنهم وهلعهم لا يقدرّون على مواجهة جيش الإسلام بالمبارزة والمقاتلة، بل إما في حصون أو من وراء جدر محاصرين فيقاتلون للدفع عنهم ضرورةً.

ثم قال تعالى: ﴿بأسهم بينهم شديد﴾ أي عداوتهم فيما بينهم شديدة، قال تعالى: ﴿تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى﴾ أي تراهم مجتمعين فتحسبهم مؤتلفين، وهم مختلفون غاية الاختلاف، يعني أهل الكتاب والمنافقين، ﴿ذلك بأنهم قوم لا يعقلون﴾ ثم قال تعالى: ﴿كمثل الذين من قبلهم قريباً ذاقوا وبال أمرهم ولهم عذاب أليم﴾ يعني كمثل ما أصاب كفار قريش يوم بدر. وقال ابن عباس رضي الله عنه: ﴿كمثل الذين من قبلهم﴾ يعني يهود بني قينقاع، فإن يهود بني قينقاع كان رسول الله ﷺ قد أجلاهم قبل هذا.

وقوله تعالى: ﴿كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر فلما كفر قال إني بريء منك﴾، يعني مثل هؤلاء اليهود في اغترارهم بالذين وعدوهم النصر من المنافقين وقول المنافقين لهم: ﴿إن قوتلتهم لننصرنكم﴾، ثم لما حقت الحقائق وجد بهم الحصار والقتال، تخلوا عنهم وأسلموهم للهلكة.^(١) مثالهم في هذا كمثل الشيطان إذ سول للإنسان - والعياذ بالله - الكفر، فإذا دخل فيما سول له تبرأ منه وتصل، وقال: ﴿إني أخاف الله رب العالمين﴾.

روي عن ابن عباس رضي الله عنه وعبدالله بن مسعود رضي الله عنه في هذه الآية ﴿كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر فلما كفر قال إني بريء منك﴾ إني أخاف الله رب العالمين، قالوا: كانت امرأة ترعى الغنم، وكان لها أربعة إخوة، وكانت تأوي بالليل إلى صومعة راهب. قالوا: فنزل الراهب ففجر بها فحملت، فأتاه الشيطان فقال له: اقتلها ثم ادفنها فإنك رجل مصدق يسمع قولك، فقتلها ثم دفنها قالوا: فأتى الشيطان إخوتها في المنام، فقال لهم: إن الراهب صاحب الصومعة فجر بأختكم، فلما أحبلها قتلها ثم دفنها في

(١) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ١٩٠/٣ - ١٩٥؛ كتابي "رسول الله وخاتم النبيين"، ج ٦٤٦/٣.

مكان كذا وكذا. فلما أصبحوا قال رجل منهم: والله لقد رأيت البارحة رؤيا ما أدري أقصها عليكم أم أترك؟ قالوا: لا بل قصها علينا.

قال: فقصها، فقال الآخر: وأنا والله لقد رأيت ذلك، فقال الآخر: وأنا والله لقد رأيت ذلك، فقالوا: فوالله ما هذا إلا لشيء قال: فانطلقوا فاستعدوا ملكهم على ذلك الراهب، فأتوه فأنزلوه ثم انطلقوا به فلقية الشيطان فقال: إني أنا الذي أوقعتك في هذا ولن ينجيك منه غيري، فاسجد لي سجدة واحدة وأنجيك مما أوقعتك فيه، قال: فسجد له، فلما أتوا به ملكهم تبرأ منه، وأخذ فقتل.

وقوله تعالى: ﴿فكان عاقبتهم أنهما في النار خالدین فيها﴾ أي فكان عاقبة الأمر بالكفر والفاعل له ومصيرهما إلى نار جهنم خالدین فيها، ﴿وذلك جزاء الظالمین﴾ أي جزاء كل ظالم.^(١)

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٤٤/١٢ - ٤٩؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٨٥٣ - ١٨٥٤.

سورة الممتحنة

التحذير من أعداء الله ﷻ ورسوله ﷺ:

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْفُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهْدًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ۝١﴾ إِنْ يَشْقَوْكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَهُمْ بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ ۝٢﴾ لَنْ نَنْفَعَكُمْ أَرْحَامَكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يَفْصَلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝٣﴾ [الممتحنة].

كان سبب نزول صدر هذه السورة الكريمة قصة حاطب بن أبي بلتعة، وذلك أن حاطباً كان من المهاجرين، ومن أهل بدر، وكان له بمكة المكرمة أولاد ومال. ولم يكن من قريش أنفسهم، بل كان حليفاً لعثمان رضي الله عنه. فلما عزم رسول الله ﷺ على فتح مكة لما نقض أهلها العهد أمر ﷺ المسلمين بالتجهيز لغزوهم، وقال: اللهم عم عليهم خبرنا. فعمد حاطب فكتب كتاباً وبعثه مع امرأة من قريش إلى أهل مكة المكرمة؛ يعلمهم بما عزم عليه رسول الله ﷺ من غزوهم، ليتخذ بذلك عندهم يداً فأطلع الله تعالى على ذلك رسول الله ﷺ استجابة لدعائه، فبعث في أثر المرأة فأخذ الكتاب منها.

عن علي رضي الله عنه قال: بعثني رسول الله ﷺ وأبا مرثد والزبير بن العوام وكلنا فارس، وقال انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ، فإن بها امرأة من المشركين

معها كتاب من حاطب بن أبي بلتعة إلى المشركين. فأدركناها تسير على بعير لها، حيث قال رسول الله ﷺ فقلنا: الكتاب؟ فقالت: ما معي كتاب. فأخذناها فالتمسنا فلم نر كتاباً، فقلنا ما كذب رسول الله ﷺ، لتخرجن الكتاب أو لنجردنك. فلما رأت الجد أهوت إلى حوزتها لمربط الكساء وهي محتجزة بكساء فأخرجته. فانطلقنا بها إلى رسول الله ﷺ. فقال عمر رضي الله عنه: يا رسول الله قد خان الله ورسوله والمؤمنين فدعني فلاضرب عنقه، فقال النبي ﷺ: ما حملك على ما صنعت؟ قال حاطب: والله ما بي إلا أن أكون مؤمناً بالله ورسوله ﷺ. أردت أن تكون لي عند القوم يد يدفع الله بها عن أهلي ومالي. وليس أحد من أصحابك إلا له هنالك من عشيرته من يدفع الله به عن أهله وماله، فقال ﷺ: "صدق لا تقولوا له إلا خيراً".

فقال عمر رضي الله عنه: إنه قد خان الله ورسوله والمؤمنين فدعني فلاضرب عنقه، فقال ﷺ: أليس من أهل بدر؟ فقال ﷺ: لعل الله قد اطلع إلى أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد وجبت لكم الجنة - أو قد غفرت لكم - فدمعت عينا عمر رضي الله عنه، وقال: الله ورسوله أعلم.^(١)

فأنزل الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تَلْقَوْنَ إِلَيْهِم بِالْمُودَةِ﴾ الآية. إلى قوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بِرَأْيَا مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدَهُ﴾.

(١) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ٣/٣٩٩؛ ورواية البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب فضل من شهد بدرًا، ج ١٠/٥.

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تَلْقَوْنَ إِلَيْهِمْ بِالْمُودَةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ﴾ يعني المشركين والكفار الذين هم محاربون لله ولرسوله ﷺ وللمؤمنين، الذين شرع الله عداوتهم ومصارمتهم ونهى أن يُتَّخذوا أولياء وأصدقاء وأخلاء.

وقوله تعالى: ﴿يُخْرِجُونَ الرِّسُولَ وَإِيَّاكُمْ﴾ هذا مع ما قبله من التهيج على عداوتهم وعدم موالاتهم؛ لأنهم أخرجوا الرسول ﷺ وأصحابه ﷺ من بين أظهرهم كراهة لما هم عليه من التوحيد وإخلاص العبادة لله وحده. ولهذا قال تعالى: ﴿أَنْ تَوَدُّوا بِاللَّهِ رَبَّكُمْ﴾ أي لم يكن لكم عندهم ذنب إلا إيمانكم بالله رب العالمين.

وقوله تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي﴾ أي إن كنتم كذلك فلا تتخذوهم أولياء، إن كنتم خرجتم مجاهدين في سبيلي باغين لمرضاتي عنكم، فلا توالوا أعدائي وأعداءكم، وقد أخرجوكم من دياركم وأموالكم؛ حنقاً عليكم وسخطاً لدينكم.

وقوله تعالى: ﴿تَسْرُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمُودَةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ﴾ أي تفعلون ذلك وأنا العالم بالسرائر والضمائر والظواهر، ﴿وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ إن يتقفوكم يكونوا لكم أعداء ويبسطوا إليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء ﴿أَيُّ لَوْ قَدَرُوا عَلَيْكُمْ لَمَا اتَّقَوْا فَيْكُمْ مِنْ أَذَى يَبَالُونَكُمْ بِهِ بِالْمَقَالِ وَالْفَعَالِ﴾ ﴿وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ أي ويحرصون على أن لا تنالوا خيراً. فهم عداوتهم لكم كامنة وظاهرة. فكيف توالون مثل هؤلاء؟ وهذا تهيج على عداوتهم أيضاً.

وقوله تعالى: ﴿لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصَلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أي قراباتكم لا تنفعكم عند الله إذا أراد

الله بكم سوءاً، ونفعهم لا يصل إليكم إذا أرضيتموهم بما يسخط الله. ومن وافق أهله على الكفر ليرضيهم فقد خاب وخسر وضل عمله، ولا ينفعه عند الله قرابته من أحد، ولو كان قريباً إلى نبي من الأنبياء.^(١)

مبايعة الرسول ﷺ للمؤمنات:

قال تعالى: ﴿يَأَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِيَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْنَهُنَّ وَأَسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الممتحنة].

عن عائشة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ: أن رسول الله ﷺ كان يمتحن من هاجر إليه من المؤمنات بهذه الآية: ﴿يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبایعنك﴾ إلى قوله تعالى: ﴿غفور رحيم﴾ قال عروة رضي الله عنه: قالت عائشة رضي الله عنها: فمن أقر بهذا الشرط من المؤمنات قال لها رسول الله ﷺ: قد بايعتك كلاماً، ولا والله ما مست يده يد امرأة في المبايعة قط. وما يبایعن إلا بقوله: قد بايعتك على ذلك.^(٢)

عن أميمة بنت رقيقة رضي الله عنها: أتيت رسول الله ﷺ في نساء لنبايعه، فأخذ علينا ما في القرآن ألا نشرك بالله شيئاً الآية. وقال: فيما استطعن وأطقن. قلنا: الله ورسوله أرحم بنا من أنفسنا، قلنا: يا رسول الله ألا تصافحنا؟ قال: إني لا أصافح النساء، إنما قولي لامرأة واحدة كقولي لمئة امرأة هذا.^(٣)

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١٢/ ٥٥ - ٥٩؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/ ١٨٥٧ - ١٨٥٩.

(٢) صحيح البخاري، كتاب الشروط، باب ما يجوز من الشروط في الإسلام والأحكام والمبايعة، ج ٣/ ١٧٣.

(٣) سنن الترمذي، كتاب السير، باب ما جاء في بيعه النساء، ج ٤/ ١٥١، حديث رقم: ١٥٩٧؛ سنن النسائي، كتاب البيعة، بيعه النساء، ج ٧/ ١٤٩؛ سنن ابن ماجه، كتاب الجهاد، باب بيعه النساء، ج ٢/ ٩٥٩، حديث رقم: ٢٨٧٤.

وقد كان رسول الله ﷺ يتعاهد النساء بهذه البيعة يوم العيد.

عن ابن عباس ؓ قال: شهدت الصلاة يوم الفطر مع رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر وعثمان، فكلهم يصلوها قبل الخطبة ثم يخطب بعد. فنزل نبي الله ﷺ فكأنني أنظر إليه حين يجلس الرجال بيده، ثم أقبل يشقهم حتى أتى النساء مع بلال فقال: ﴿يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبائعنك على ألا يشركن بالله شيئاً، ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن ولا يأتين ببهتان يفتريه بين أيديهن وأرجلهن، ولا يعصينك في معروف﴾، حتى فرغ من الآية كلها، ثم قال ﷺ حين فرغ: أنتن على ذلك؟ فقالت امرأة واحدة ولم يجبه غيرها: نعم يا رسول الله. لا يدري الراوي من هي. قال ﷺ: فتصدقن، قال ابن عباس ؓ: وبسط بلال ثوبه فجعلن يلقين الفتخ لوالفتخ جمع فتخة والخواتيم في ثوب بلال.

قال تعالى: ﴿ولا يأتين ببهتان يفتريه بين أيديهن وأرجلهن﴾ قال تعالى: ﴿ولا يعصينك في معروف﴾ قال ابن عباس ؓ: منعهن أن يُنْحَن. وقيل: أنزلت هذه الآية يوم الفتح. بايع رسول الله ﷺ الرجال على الصفا، وعمر بايع النساء تحتها عن رسول الله ﷺ. فلما قال: ولا تقتلن أولادكن. قالت هند: رببناهم صغاراً فقتلتموهم كباراً، فضحك عمر بن الخطاب ؓ. فقوله تعالى: ﴿يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبائعنك﴾ أي من جاءك منهن يبائع على هذه الشروط فبائعها، ﴿على أن لا يشركن بالله شيئاً ولا يسرقن﴾ أموال الناس الأجانب وغيرهم. فأما إذا كان الزوج مقصراً في نفقتها فلها أن تأكل من ماله بالمعروف ما جرت به عادة أمثالها، وإن كان من غير علمه، عملاً بحديث هند بنت عتبة أنها قالت: يا رسول الله إن أبا سفيان رجل شحيح لا يعطيني من النفقة ما يكفيني ويكفي بَنِيَّ، فهل علي جناح إن

أخذت من ماله بغير علمه؟ فقال رسول الله ﷺ: "خذي من ماله بالمعروف ما يكفيك ويكفي بنيك".^(١)

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَزْنِيْنَ﴾ عن عائشة رضي الله عنها قالت: جاءت فاطمة بنت عتبة تباع رسول الله ﷺ فأخذ عليها ﴿أَنْ لَا يَشْرَكَنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِيْنَ﴾ الآية، قالت: فوضعت يدها على رأسها حياءً، فأعجبه ما رأى منها، وكان بعد ذلك إذا جاءت النساء يبایعنه جمعهن فعرض عليهن، فإذا أقررن رجعن.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ﴾ وهذا يشمل قتله بعد وجوده، كما كان أهل الجاهلية يقتلون أولادهم خشية الإملاق. ويعم قتله وهو جنين، كما قد يفعله بعض الجهلة من النساء تطرح نفسها؛ لئلا تحبل، إما لغرض فاسد أو ما أشبهه.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتِيَنَّ بِهِتَانِ يَفْتَرِيْنَهُ بَيْنَ أَيْدِيْهِنَّ وَأَرْجُلَيْهِنَّ﴾. قال ابن عباس رضي الله عنهما: يعني لا يلحقن بأزواجهن غير أولادهم. وكذا قال مقاتل رضي الله عنه.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَعْصِيَنَّكَ فِيْ مَعْرُوفٍ﴾ يعني فيما أمرتهن به من معروف ونهيتهن عنه من منكر.

عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَعْصِيَنَّكَ فِيْ مَعْرُوفٍ﴾ قال: إنما هو شرط شرطه الله للنساء، ولم يجعل الله طاعة لنبيه إلا في المعروف، والمعروف طاعة. وهنا أمر الله بطاعة رسوله، وهو خيرة الله من خلقه في المعروف.

(١) صحيح مسلم، كتاب الأقضية، باب قضية هند، ج ٥/١٢٩.

في قول الله تعالى: ﴿وَلَا يَعصِيكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾ قال النُّوح.^(١)

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١٢/٧٣ - ٧٦؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٨٦٣ - ١٨٦٥. (وانظر: رواية الترمذي في سننه، كتاب التفسير، باب (ومن سورة الممتحنة، ج ٥/٤١١، حديث رقم: ٣٣٠٧).

سورة الصف

الإيمان بالله ورسوله سبب لدخول الجنة:

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تَجَارِعِ تَجَارِعِكُمْ مِّنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تَوَّمنُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرَ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِيرٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾﴾ [الصف].

ورد أن الصحابة رضي الله عنهم أرادوا أن يسألوا رسول الله ﷺ عن أحب الأعمال إلى الله ﷻ ليفعلوه، فأنزل الله تعالى هذه السورة. ومن جملتها هذه الآية الكريمة: ﴿يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تتجيكم من عذاب أليم﴾. ثم فسر الله تعالى هذه التجارة العظيمة التي لا تبور، التي هي محصلة للمقصود ومزيلة للمحذور، فقال تعالى: ﴿تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون﴾ أي من تجارة الدنيا والكد لها والتصدي لها وحدها. ثم قال تعالى: ﴿يغفر لكم ذنوبكم﴾ أي إن فعلتم ما أمرتكم به ودللتم عليه غفرت لكم الزلات وأدخلتكم الجنات والمسكن الطيبات والدرجات العاليات. ولهذا قال تعالى: ﴿ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار ومسكن طيبة في جنات عدن ذلك الفوز العظيم﴾.

ثم قال تعالى: ﴿وأخرى تحبونها﴾ أي وأزيدكم على ذلك زيادة تحبونها

وهي ﴿نصر من الله وفتح قريب﴾ أي إذا قاتلتم في سبيله ونصرتهم دينه تكفل الله بنصركم.

وقوله تعالى: ﴿وفتح قريب﴾ أي عاجل. فهذه الزيادة هي خير الدنيا موصول بنعيم الآخرة لمن أطاع الله ورسوله ونصر الله ودينه. ولهذا قال تعالى: ﴿وبشر المؤمنين﴾.^(١)

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١٢/ ٨٤ - ٨٥؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/ ١٨٧٠.

سورة الجمعة

رسول الأميين ﷺ:

قال تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ (١) هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٢) وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٣) ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٤) [الجمعة].

يخبر تعالى أنه يسبح له ما في السماوات وما في الأرض، أي من جميع المخلوقات ناطقها وجامدها. ثم قال تعالى: ﴿الملك القدوس﴾ أي هو مالك السماوات والأرض المتصرف فيهما بحكمه، وهو القدوس أي المنزه عن النقائص الموصوف بصفات الكمال، ﴿العزیز الحكيم﴾ تقدم تفسيرهما غير مرة.

وقوله تعالى: ﴿هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم﴾، الأميون هم العرب وغير اليهود، وتخصيص الأميين بالذكر لا ينفي من عداهم، ولكن المنة عليهم أبلغ وأكثر، ووردت الكثير من الآيات الدالة على عموم بعثة نبيه محمد ﷺ إلى جميع الخلق.

وهذه الآية الكريمة هي مصداق إجابة الله لخليله إبراهيم عليه السلام، حين دعا لأهل مكة المكرمة أن يبعث الله فيهم رسولا منهم، يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة. فبعث محمداً ﷺ الله سبحانه، وله

الحمد والمنة على حين فترة من الرسل وطموس من السبل. وقد اشتدت الحاجة إليه. وقد مقت الله أهل الأرض عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب، أي نزرًا يسيرًا ممن تمسك بما بعث الله به عيسى ابن مريم عليه السلام. ولهذا قال تعالى: ﴿هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين﴾.

وذلك أن العرب كانوا قديماً متمسكين بدين إبراهيم الخليل عليه السلام، فبدلوه وغيروه وقلبوه وخالفوه واستبدلوا بالتوحيد شركاً وباليقين شكاً. وابتدعوا أشياء لم يأذن بها الله تعالى. وكذلك أهل الكتاب قد بدلوا كتبهم وحرفوها وغيروها وأولوها. فبعث الله محمداً عليه السلام بشرع عظيم كامل شامل لجميع الخلق. فيه هدايتهم والبيان لجميع ما يحتاجون إليه من أمر معاشهم ومعادهم، والدعوة لهم إلى ما يقربهم إلى الجنة ورضا الله عنهم، والنهي عما يقربهم إلى النار. وسخط الله تعالى حاكم فاصل لجميع الشبهات والشكوك والريب في الأصول والفروع. وجمع لرسوله عليه السلام تعالى وله الحمد والمنة جميع المحاسن ممن كان قبله، وأعطاه ما لم يعط أحداً من الأولين ولا يعطيه أحداً من الآخرين، فصلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين.

وقوله تعالى: ﴿وآخرين منهم لما يلحقوا بهم وهو العزيز الحكيم﴾ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كنا جلوساً عند النبي صلى الله عليه وسلم فأنزلت عليه سورة الجمعة: ﴿وآخرين منهم لما يلحقوا بهم﴾ قالوا: من هم يا رسول الله؟ فلم يراجعهم حتى سئل ثلاثاً، وفيينا سلمان الفارسي، فوضع رسول الله صلى الله عليه وسلم يده على سلمان الفارسي ثم قال: لو كان الإيمان عند الثريا لنا له رجال - أو رجل -

من هؤلاء.^(١)

ففي هذا الحديث دليل على أن هذه السورة مدنية وعلى عموم بعثته ﷺ إلى جميع الناس؛ لأنه ﷺ فسّر قوله تعالى: ﴿وآخرين منهم﴾ بفارس. ولهذا كتب كتبه إلى فارس والروم وغيرهم من الأمم، يدعوهم إلى الله ﷻ وإلى اتباع ما جاء به. قال غير واحد في قوله تعالى: ﴿وآخرين منهم﴾ لما يلحقوا بهم قال: هم الأعاجم، وكل من صدّق النبي ﷺ من غير العرب.

كما يعني بقية من بقي من أمة محمد ﷺ. وقوله تعالى: ﴿وهو العزيز الحكيم﴾ أي: ذو العزة والحكمة في شرعه وقدره. وقوله تعالى: ﴿ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم﴾ يعني ما أعطاه الله محمدًا ﷺ من النبوة العظيمة وما خص به أمته من بعثته ﷺ إليهم.^(٢)

الرد على يهود مدّعي الولاية لله:

قال تعالى: ﴿قُلْ يَأَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمْنُوا الْوَتَّ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦﴾ وَلَا يَنْمُونَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمُ بِالظَّالِمِينَ ﴿٧﴾ قُلْ إِنْ أَلَمْتُ أَلَّذِي تَفْرُوتُ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلْقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلْمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنْزِلُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾ [الجمعة].

قال تعالى: ﴿قل يا أيها الذين هادوا إن زعمتم أنكم أولياء لله من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين﴾ أي أخبرهم يا محمد: إن كنتم تزعمون أنكم على هدى، وأن محمدًا وأصحابه على ضلالة فادعوا بالموت على الضال من الفئتين إن كنتم صادقين، أي فيما تزعمونه.

(١) صحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة ﷺ، باب فضل فارس، ج ٧/١٩١ - ١٩٢؛ صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب قوله تعالى: (وآخرين منهم لما يلحقوا بهم)، ج ٦/٦٣.

(٢) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١٢/٨٨ - ٩١؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٨٧١ - ١٨٧٢.

قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدِمْتُمْ أَيْدِيَهُمْ﴾ أي بما يعملون لهم من الكفر والظلم والفجور، ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالَمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾^(١).

إجابة النداء لصلاة الجمعة والانتشار بعدها:

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾^(١) فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾^(١٠) [الجمعة].

إنما سميت الجمعة جمعة؛ لأنها مشتقة من الجمع، فإن أهل الإسلام يجتمعون فيه في كل أسبوع مرة بالمساجد الكبار. وفيه كمال جميع الخلائق، فإنه اليوم السادس من الستة التي خلق الله فيها السماوات والأرض. وفيه خلق آدم، وفيه أدخل الجنة، وفيه أخرج منها، وفيه تقوم الساعة. وفيه ساعة لا يوافقها عبد مؤمن يسأل الله فيها خيراً إلا أعطاه إياه، كما ثبتت بذلك الأحاديث الصحاح.

واختصَّ الله لهذه الأمة يوم الجمعة الذي أكمل الله فيه الخليقة.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: نحن الآخرون السابقون يوم القيامة، بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا. ثم إن هذا يومهم الذي فرض الله عليهم فاختلفوا فيه، فهدانا الله له، فالتاس لنا فيه تبع، اليهود غدا والنصارى بعد غد.^(٢)

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١٢/٩٣؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٨٧٢ - ١٨٧٣.

(٢) صحيح البخاري، كتاب الجمعة، باب فرض الجمعة، ج ١/٢١١؛ صحيح مسلم، كتاب الجمعة، باب هداية هذه الأمة ليوم الجمعة، ج ٣/٦.

وقد أمر الله المؤمنين بالاجتماع لعبادته يوم الجمعة، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ أي اقصدوا واعمدوا واهتموا في سيركم إليها، والمراد بالسعي الاهتمام بها.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((إذا أقيمت الصلاة فلا تأتوها تسعون ولكن أتوها تمشون، وعليكم السكينة والوقار، فما أدركتم فصلوا وما فاتكم فأتموا)).^(١)

ويستحب لمن جاء إلى الجمعة أن يغتسل قبل مجيئه إليها، لما ثبت في الصحيحين عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: ((إذا جاء أحدكم الجمعة فليغتسل)).^(٢)

عن أبي سعيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((غسل يوم الجمعة واجب على كل محتلم)).^(٣)

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((حق لله على كل مسلم أن يغتسل في كل سبعة أيام، يغسل رأسه وجسده)).^(٤)

(١) سنن الترمذي، أبواب الصلاة، باب ما جاء في المشي إلى المسجد، ج ٢/١٤٨، حديث رقم: ٣٢٧؛ وابن ماجه، كتاب المساجد والجماعات، ج ١/٢٥٥، حديث رقم: ٧٧٥.

(٢) صحيح البخاري، كتاب الجمعة، باب فضل الغسل يوم الجمعة، وهل على الصبي شهود يوم الجمعة، أو النساء، ج ١/٢١٢؛ صحيح مسلم، كتاب الجمعة، مقدمة - كتاب الجمعة، ج ٢/٣.

(٣) صحيح البخاري، كتاب الجمعة، باب هل على من لم يشهد الجمعة غسل، من النساء والصبيان وغيرهم، ج ١/٢١٥؛ صحيح مسلم، كتاب الجمعة، باب وجوب غسل الجمعة على كل بالغ من الرجال. وبيان ما أمروا به، ج ٣/٣.

(٤) صحيح البخاري، كتاب الجمعة، باب هل على من لم يشهد الجمعة غسل، من النساء والصبيان وغيرهم، ج ١/٢١٦؛ صحيح مسلم، كتاب الجمعة، باب الطيب والسواك يوم الجمعة، ج ٤/٣.

عن أوس بن أوس الثقفي رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((من غسل واغتسل يوم الجمعة وبكر وابتكر ومشى ولم يركب، ودنا من الإمام واستمع ولم يلغ، كان له بكل خطوة أجر سنة أجر صيامها وقيامها)).^(١)

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: ((إن رسول الله ﷺ قال: من اغتسل يوم الجمعة غسل الجنابة ثم راح في الساعة الأولى فكأنما قرب بدنة، ومن راح في الساعة الثانية فكأنما قرب بقرة، ومن راح في الساعة الثالثة فكأنما قرب كبشاً أقرن، ومن راح في الساعة الرابعة فكأنما قرب دجاجة، ومن راح في الساعة الخامسة فكأنما قرب بيضة، فإذا خرج الإمام حضرت الملائكة يستمعون الذكر)).^(٢)

ويستحب له أن يلبس أحسن ثيابه ويتطيب ويتنظف ويتسوك ويتطهر.

عن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((من اغتسل يوم الجمعة ومس من طيب أهله إن كان عنده، ولبس من أحسن ثيابه، ثم خرج حتى يأتي المسجد فيركع إن بدا له ولم يؤذ أحداً، ثم أنصت إذا خرج إمامه حتى يصلي كانت كفارة لما بينها وبين الجمعة الأخرى)).^(٣)

وقوله تعالى: ﴿إِذَا نَادَى لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ﴾ المراد بهذا النداء هو النداء الثاني، الذي كان يفعل بين يدي رسول الله ﷺ، إذا خرج فجلس على المنبر فإنه كان حينئذ يؤذن بين يديه. فهذا هو المراد. فأما النداء الأول الذي

(١) رواه أبو داود في سننه، كتاب الطهارة، باب في الغسل للجمعة، ص ٦٧، حديث رقم: ٣٤٥.

(٢) صحيح البخاري، كتاب الجمعة، باب فضل الجمعة، ج ١/٢١٣؛ صحيح مسلم، كتاب الجمعة، باب الطيب والسواك يوم الجمعة، ج ٣/٤.

(٣) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الجمعة، باب الدهن للجمعة، ج ١/٢١٣.

زاده أمير المؤمنين عثمان بن عفان ؓ، فإنما كان هذا لكثرة الناس.^(١)

عن السائب بن يزيد ؓ قال: كان النداء يوم الجمعة أوله إذا جلس الإمام على المنبر على عهد رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر. فلما كان عثمان بعد زمن وكثر الناس زاد النداء الثاني على الزوراء، يعني يؤذن به على الدار التي تسمى بالزوراء. وكانت أرفع دار بالمدينة بقرب المسجد.^(٢)

وإنما يؤمر بحضور الجمعة الرجال الأحرار دون العبيد والنساء والصبيان، ويعذر المسافر والمريض وقيم المريض وما أشبه ذلك من الأعذار.

وقوله تعالى: ﴿وذروا البيع﴾ أي اسعوا إلى ذكر الله واتركوا البيع إذا نودي للصلاة. ولهذا اتفق العلماء ؓ على تحريم البيع بعد النداء الثاني.

وقوله تعالى: ﴿ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون﴾ أي ترككم البيع وإقبالكم إلى ذكر الله وإلى الصلاة خير لكم، أي في الدنيا والآخرة إن كنتم تعلمون.

وقوله تعالى: ﴿فإذا قضيت الصلاة﴾ أي فرغ منها ﴿فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله﴾ لما حجر عليهم في التصرف بعد النداء وأمرهم بالاجتماع أذن لهم بعد الفراغ في الانتشار في الأرض والابتغاء من فضل الله.

وروي عن بعض السلف ؓ أنه قال: من باع واشترى في يوم الجمعة بعد الصلاة بآرك الله له سبعين مرة؛ لقول الله تعالى: ﴿فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله﴾.

(١) انظر: رواية البخاري في صحيحه، كتاب الجمعة، باب الأذان يوم الجمعة، ج ١/٢١٩.

(٢) انظر: رواية البخاري في صحيحه، كتاب الجمعة، باب التأذين عند الخطبة، ج ١/٢١٩ -

وقوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ أي في حال بيعكم وشرائكم وأخذكم وإعطائكم اذكروا الله ذكراً كثيراً. ولا تشغلكم الدنيا عن الذي ينفعكم في الدار الآخرة. وقيل لا يكون العبد من الذاكرين الله كثيراً حتى يذكر الله قائماً وقاعداً ومضطجعاً.^(١)

الترغيب في البقاء مع الرسول ﷺ في الجمعة:

قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهِوَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهِ خَيْرُ الرَّزِقِينَ﴾ [الجمعة].

يعاتب سبحانه على ما كان وقع من الانصراف عن الخطبة يوم الجمعة إلى التجارة التي قدمت المدينة يومئذ، فقال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا﴾ أي على المنبر تخطب.

عن جابر رضي الله عنه قال: قدمت غير مرة المدينة، ورسول الله ﷺ يخطب، فخرج الناس وبقي اثنا عشر رجلاً، فنزلت ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا﴾.^(٢)

وفي قوله تعالى: ﴿وَتَرَكُوكَ قَائِمًا﴾ دليل على أن الإمام يخطب يوم الجمعة قائماً.

عن جابر بن سمرة رضي الله عنه قال: كانت للنبي ﷺ خطبتان يجلس بينهما يقرأ

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٩٧/١٢؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٨٧٣ - ١٨٧٥.

(٢) رواه البخاري في صحيحه، كتاب البيوع، باب: (وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا)، ج ٧/٣؛ ومسلم في صحيحه، كتاب الجمعة، باب في قوله تعالى: (وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا)، ج ١٠/٣.

القرآن ويذكر الناس.^(١) يعني فانفضوا ولم يبق معه إلا نفر يسير.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي الذي عند الله من الثواب في الدار الآخرة والدنيا ﴿خَيْرٌ مِنَ اللَّهِ وَمِنَ التَّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ أي لمن توكل عليه وطلب الرزق في وقته.^(٢)

(١) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الجمعة، باب ذكر الخطبتين قبل الصلاة وما فيهما من الجلسة، ج ٩/٣؛ سنن أبي داود، كتاب الصلاة، باب الخطبة قائماً، ص ١٨٨، حديث رقم: ١٠٩٤.

(٢) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٩٧/١٢ - ٩٩؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١٨٧٥/٢.

سورة المنافقون

كذب المنافقين على رسول الله ﷺ:

قال تعالى: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴿١﴾ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾﴾ [المنافقون].

يقول تعالى مخبراً عن المنافقين أنهم إنما يتفوهون بالإسلام إذا جاءوا النبي ﷺ. فأما في باطن الأمر فليسوا كذلك، بل على الضد من ذلك. ولهذا قال تعالى: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ﴾ أي إذا حضروا عندك واجهوك بذلك، وأظهروا لك ذلك، وليسوا كما يقولون. ولهذا اعترض تعالى بجملة مخبرة أنه رسول الله فقال: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ﴾، ثم قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ أي فيما أخبروا به، وإن كان مطابقاً للخارج؛ لأنهم لم يكونوا يعتقدون صحة ما يقولون ولا صدقه. ولهذا كذبهم بالنسبة إلى اعتقادهم.

وقوله تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي اتقوا الناس بالأيمان الكاذبة والحلفات الآثمة؛ ليصدقوا فيما يقولون، فاغتر بهم من لا يعرف جليلة أمرهم، فاعتقدوا أنهم مسلمون. فربما اقتدى بهم فيما يفعلون وصدقهم فيما يقولون، وهم من شأنهم أنهم كانوا في الباطن لا يألون الإسلام وأهله خيلاً، فحصل بهذا القدر ضرر كبير على كثير من

الناس. ولهذا قال تعالى: ﴿فَصَدُوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، أي تصديقهم الظاهر جنة أي تقية يتقون بها.

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ أي إنما قُدِّرَ عليهم النفاق؛ لرجوعهم عن الإيمان إلى الكفران، واستبدالهم الضلالة بالهدى، فطُبِعَ الله ﴿عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾. أي: فلا يصل إلى قلوبهم هدى ولا يخلص إليها خير، فلا تعي ولا تهتدي.

أشكال المنافقين معجبة لكنهم أعداء:

قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسْنَدَةٌ يُحْسِبُونَ كُلَّ صَيِّحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قُلْ لَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [المنافقون].

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ﴾ أي وكانوا أشكالا حسنة وذوي فصاحة وألسنة. وإذا سمعهم السامع يصغي إلى قولهم لبلاغتهم. وهم مع ذلك في غاية الضعف والخور والهلع والجزع والجبن. ولهذا قال تعالى: ﴿يُحْسِبُونَ كُلَّ صَيِّحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ أي كلما وقع أمر أو كائنة أو خوف يعتقدون لجبنهم أنه نازل بهم، فهم صور بلا معاني. ولهذا قال تعالى: ﴿هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتِلْهُمْ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ أي كيف يصرفون عن الهدى إلى الضلال.^(١)

فرار المنافقين من استغفار الرسول ﷺ لهم وتهديدهم بإخراجه ﷺ:

قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّاْ رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١٢/ ١٠٠ - ١٠٢؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/ ١٨٧٥ - ١٨٧٦.

يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ ﴿٥﴾ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٦﴾ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنْفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾ يَقُولُونَ لَيْنَ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَا الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلُّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنْفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ [المنافقون].

يقول تعالى مخبراً عن المنافقين عليهم لعائن الله أنهم ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوُوا رُؤُسَهُمْ﴾ أي صدوا وأعرضوا عما قيل لهم؛ استكباراً عن ذلك واحتقاراً لما قيل لهم، يحولون رؤسهم وينظرون بعيونهم شزراً.

ولهذا قال تعالى: ﴿وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾ ثم جازاهم تعالى على ذلك فقال تعالى: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾. وقد ذكر غير واحد من السلف أن هذا السياق كله نزل في عبد الله بن أبي ابن سلول.

وكان عبد الله بن أبي ابن سلول له مقام يقومه كل جمعة، لا ينكر شرفاً له من نفسه ومن قومه. وكان فيهم شريفاً، إذا جلس النبي ﷺ يوم الجمعة وهو يخطب الناس قام فقال: أيها الناس، هذا رسول الله ﷺ بين أظهركم، أكرمكم الله به وأعزكم به فانصروه وعزروه واسمعوا له وأطيعوا.

ثم يجلس حتى إذا صنع يوم أحد ما صنع، يعني مرجعه بثلاث الجيش ورجع الناس، قام يفعل ذلك كما كان يفعله، فأخذ المسلمون بثيابه من نواحيه وقالوا: اجلس. أي عدو الله لست لذلك بأهل وقد صنعت ما

صنعت، فخرج يتخطى رقاب الناس وهو يقول: واللّٰه لكأنما قلت بجراً [باطلاً] إن قمت أشدد أمره. فلقية رجال من الأنصار بباب المسجد فقالوا: ويلك ما لك؟ قال: قمت أشدد أمره فوثب علي رجال من أصحابه يجذبونني ويعنفونني، لكأنما قلت بجراً إن قمت أشدد أمره. قالوا: ويلك ارجع يستغفر لك رسول الله ﷺ، فقال: واللّٰه ما أبتغي أن يستغفر لي.

كما روي أن غلاماً من قرابة (ابن سلول) انطلق إلى رسول الله ﷺ، فحدثه بحديث عنه وأمر شديد، فدعاه رسول الله ﷺ فإذا هو يحلف باللّٰه ويتبرأ من ذلك. وأقبلت الأنصار على ذلك الغلام فلاموه وعنفوه، وأنزل الله فيه ما تسمعون، وقيل لعدو الله: لو أتيت رسول الله ﷺ فجعل يلوي رأسه، أي لست فاعلاً.

كما روي أن عبد الله بن أبي ابن سلول في غزوة المريسيع - بني المصطلق - قال: ﴿ليخرجن الأعز منها الأذل﴾، فارتحل قبل أن ينزل آخر النهار، وقيل لعبد الله بن أبي: أئت النبي ﷺ حتى يستغفر لك، فأنزل الله تعالى: ﴿إذا جاءك المنافقون﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وإذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله ﷺ لووا رؤسهم﴾.

وفي قصة بني المصطلق، فبينما رسول الله ﷺ مقيم هناك اقتتل على الماء أجير لعمر بن الخطاب رضي الله عنه ورجل من الأنصار فقال الأخير: يا معشر الأنصار، وقال أجير عمر رضي الله عنه: يا معشر المهاجرين. وزيد بن أرقم ونفر من الأنصار عند عبد الله بن أبي، فلما سمعها قال: قد ثاورونا في بلادنا، واللّٰه ما مثلنا وجلايب قريش هذه إلا كما قال القائل: سمن كلبك يأكلك. واللّٰه لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل. ثم أقبل على من عنده

من قومه، وقال: هذا ما صنعتم بأنفسكم، أحللتموهم بلادكم، وقاسمتموهم أموالكم. أما والله لو كففتهم عنهم لتحولوا عنكم من بلادكم إلى غيرها، فسمعها زيد بن أرقم رضي الله عنه فذهب بها إلى رسول الله ﷺ: وهو غليم عند عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فأخبره الخبر، فقال عمر رضي الله عنه: يا رسول الله مر عباد بن بشر فليضرب عنقه. قال رسول الله ﷺ: فكيف إذا تحدث الناس يا عمر أن محمدًا يقتل أصحابه؟! لا، ولكن ناد يا عمر الرحيل. فلما بلغ عبد الله بن أبي أن ذلك قد بلغ رسول الله ﷺ أتاه فاعتذر إليه، وحلف بالله ما قال، ما قال عليه زيد بن أرقم. وكان عند قومه بمكان، فقالوا: يا رسول الله عسى أن يكون هذا الغلام أوهم، ولم يثبت ما قال الرجل.

وراح رسول الله ﷺ مهجرًا في ساعة كان لا يروح فيها، فلقيه أسيد بن الحضير رضي الله عنه فسلم عليه بتحية النبوة ثم قال: والله لقد رحت في ساعة منكرة ما كنت تروح فيها. فقال رسول الله ﷺ: أما بلغك ما قال صاحبك ابن أبي؟ زعم أنه إذا قدم المدينة سيخرج الأعز منها الأذل. قال: فأنت يا رسول الله العزيز وهو الذليل. ثم قال: ارفق به يا رسول الله، فوالله لقد جاء الله بك وإنا لننظم له الخرز لتتوجه، فإنه ليرى أن قد سلبته ملكًا. فسار رسول الله ﷺ بالناس حتى أمسوا وليلته حتى أصبحوا. وصدر يومه حتى اشتد الضحى، ثم نزل بالناس ليشتغلهم عما كان من الحديث، فلم يأمن الناس أن وجدوا مس الأرض فناموا ونزلت سورة المنافقين.^(١)

(١) انظر: البخاري، صحيحه، كتاب التفسير، يقولون لأن رجعنا إلى المدينة...، ج ٦٦/٥: ابن أبي شيبة، المغازي، ص ٢٦٩: كتابي "رسول الله وخاتم النبيين"، ج ٦٨٦/٣.

عن زيد بن أرقم رضي الله عنه يقول: خرجنا مع رسول الله ﷺ في سفر، فأصاب الناس شدة فقال عبدالله بن أبي لأصحابه: لا تتفقوا على من عند رسول الله ﷺ حتى ينفضوا من حوله. وقال لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل. فأتيت النبي ﷺ فأخبرته بذلك، فأرسل إلى عبدالله بن أبي فسأله، فاجتهد يمينه ما فعل، فقالوا: كذب زيد يا رسول الله، فوقع في نفسي مما قالوا فأنزل الله تصديقي: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ﴾، قال: ودعاهم رسول الله ﷺ ليستغفر لهم فلووا رؤوسهم.

كما روي أن عبدالله بن عبدالله بن أبي رضي الله عنه لما بلغه ما كان من أمر أبيه أتى رسول الله فقال: يا رسول الله إنه بلغني أنك تريد قتل عبدالله بن أبي فيما بلغك عنه، فإن كنت فاعلاً فمرني به فأنا أحمل إليك رأسه. فوالله لقد علمت الخرج ما كان لها من رجل أبر بوالده مني، إني أخشى أن تأمر به غيري فيقتله، فلا تدعني نفسي أنظر إلى قاتل عبدالله بن أبي يمشي في الناس فأقتله فأقتل مؤمناً بكافر فأدخل النار، فقال رسول الله ﷺ: بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقي معنا.

وذكر أن الناس لما قفلوا راجعين إلى المدينة وقف عبدالله بن عبدالله هذا رضي الله عنه على باب المدينة، واستل سيفه فجعل الناس يمرون عليه، فلما جاء أبوه عبدالله بن أبي قال له ابنه: وراءك! فقال: ما لك ويلي؟ فقال: والله لا تجوز من هاهنا حتى يأذن لك رسول الله ﷺ، فإنه العزيز وأنت الذليل. فلما جاء رسول الله ﷺ، وكان إنما يسير ساقية فشكا إليه عبدالله بن أبي ابنه، فقال ابنه عبدالله رضي الله عنه: والله يا رسول الله لا يدخلها حتى تأذن له. فأذن له رسول الله ﷺ فقال: أما إذا أذن لك رسول الله ﷺ فجز الآن. وروي قال عبدالله بن عبدالله بن أبي ابن سلول رضي الله عنه لأبيه: والله لا تدخل المدينة أبداً

حتى تقول: رسول الله ﷺ الأعز وأنا الأذل. قال وجاء إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله إنه بلغني أنك تريد أن تقتل أبي فوالذي بعثك بالحق، ما تأملت وجهه قط هيبة له، ولئن شئت أن آتيك برأسه لأتيتك فإني أكره أن أرى قاتل أبي.^(١)

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١٢/ ١٠٢ - ١٠٩؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/ ١٨٧٦ - ١٨٧٩.

سورة التغابن

الرد على منكري البعث:

قال تعالى: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧﴾ فَآمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَعَمِلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٩﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٠﴾﴾ [التغابن].

يقول تعالى مخبراً عن الكفار والمشركين والملحدين أنهم يزعمون أنهم لا يبعثون، ﴿قل بلى وربى لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم﴾، قل لهم يا محمد: ستبعثون وتخبرون بجميع أعمالكم جليلها وحقيرها وصغيرها وكبيرها، ﴿وذلك على الله يسير﴾ أي بعثكم ومجازاتكم. وهذه من الآيات التي أمر الله رسوله ﷺ أن يقسم بربه ﷻ على وقوع المعاد ووجوده.

ثم قال تعالى: ﴿فآمنوا بالله ورسوله والنور الذي أنزلنا﴾ يعني الإيمان بالله ﷻ ورسوله ﷺ وبالقرآن الكريم ﴿والله بما تعملون خبير﴾ أي فلا تخفى عليه من أعمالكم خافية.

وقوله تعالى: ﴿يوم يجمعكم ليوم الجمع﴾ وهو يوم القيامة، سمي بذلك؛ لأنه يجمع فيه الأولون والآخرون في صعيد واحد، يسمعهم الداعي وينفذهم البصر.

وقوله تعالى: ﴿ذلك يوم التغابن﴾ هو اسم من أسماء يوم القيامة، وذلك أن أهل الجنة يغبنون أهل النار، فلا غبن أعظم من أن يدخل هؤلاء إلى الجنة ويذهب بأولئك إلى النار.

قلت: وقد فسر ذلك بقوله تعالى: ﴿ومن يؤمن بالله ويعمل صالحاً يكفر عنه سيئاته ويدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ذلك الفوز العظيم والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار خالدين فيها وبئس المصير﴾^(١).

طاعة رسول الله ﷺ بما يبلغ:

قال تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ، وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾^(١١) وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ^(١٢) اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ^(١٣)﴾ [التغابن].

يقول تعالى مخبراً: ﴿ما أصاب من مصيبة إلا بإذن الله﴾ بعلمه وإذنه تعالى ومشيئته، ﴿ومن يؤمن بالله يهد قلبه والله بكل شيء عليم﴾ أي ومن أصابته مصيبة فعلم أنها بقضاء الله وقدره فصبر واحتسب واستسلم لقضاء الله هدى الله قلبه وعوضه عما فاته من الدنيا هدى في قلبه و يقيناً صادقاً. وقد يخلف عليه ما كان أخذ منه أو خيراً منه، بعلمه ويقينه أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه.

فيوفق ويسترجع ويقول: ﴿إنا لله وإنا إليه راجعون﴾.

وفي الحديث الشريف المتفق عليه: ((عجباً للمؤمن لا يقضي الله له قضاء

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١٢/ ١١٤ - ١١٥؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/ ١٨٨١.

إلا كان خيراً له، إن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له، وإن أصابته سرء شكر فكان خيراً له. وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن^(١).

وقوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ أمرٌ بطاعة الله ورسوله ﷺ فيما شرع وفعل ما به أمر وترك ما عنه نهى وزجر. ثم قال تعالى: ﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ أي إن نكلتم عن العمل فإنما عليه ما حمل من البلاغ وعليكم ما حملتم من السمع والطاعة فمن الله الرسالة، وعلى الرسول البلاغ وعلى العباد ونحن منهم التسليم.

ثم قال تعالى مخبراً أنه الأحد الصمد الذي لا إله غيره فقال تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ أي وحدوا الإلهية له وأخلصوها لله وتوكلوا عليه^(٢).

(١) صحيح مسلم، كتاب الزهد والرفائق، باب المؤمن أمره كله خير، ج ٨/٢٢٧.

(٢) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١٢/١١٥ - ١١٦؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٨٨١ - ١٨٨٢.

سورة الطلاق

وجوب العدة للمطلقة:

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا ۝١﴾ [الطلاق].

خوَّطب النبي ﷺ أولاً تشريعاً وتكريماً، ثم خاطب تعالى الأمة تبعاً فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ﴾.

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أخبره أنه طلق امرأة له وهي حائض. فذكر عمر رضي الله عنه لرسول الله ﷺ، فتغيظ رسول الله ﷺ ثم قال: ليراجعها ثم يمسكها حتى تطهر ثم تحيض فتطهر، فإن بدا له أن يطلقها فليطلقها طاهراً قبل أن يمسه، فتلك العدة التي أمر بها الله سبحانه بها.^(١)

﴿فطلِّقوهن لعدتهن﴾: الطهر من غير جماع، فلا يطلقها وهي حائض ولا في طهر قد جامعها فيه، ولكن يتركها حتى إذا حاضت وطهرت يطلقها تطليقة. فالعدة هنا الطهر.

وقوله تعالى: ﴿وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ﴾ أي احفظوها واعرفوا ابتداءها وانتهاءها،

(١) صحيح مسلم، كتاب الطلاق، باب تحريم طلاق الحائض بغير رضاها، وأنه لو خالف وقع الطلاق ويؤمر برجعتها، ج ٤/ ١٧٩.

لئلا تطول العدة على المرأة فتمنع من الأزواج. ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ﴾ أي في ذلك.

وقوله تعالى: ﴿لَا تَخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ﴾ أي في مدة العدة لها حق السكنى على الزوج ما دامت معتدة منه، فليس للرجل أن يخرجها ولا يجوز لها أيضاً الخروج؛ لأنها معتقلة لحق الزوج أيضاً.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مَبِينَةٍ﴾ أي لا يخرجن من بيوتهن إلا أن ترتكب المرأة فاحشة مبينة فتخرج من المنزل. والفاحشة المبينة تشمل الزنا. وتشمل ما إذا نشزت المرأة أو بذت على أهل الرجل وأذتهم في الكلام والفعال.

وقوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾ أي شرائعه ومحارمه، ﴿وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ﴾ أي يخرج عنها ويتجاوزها إلى غيرها ولا يَأْتَمِرُ بِهَا ﴿فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ أي بفعل ذلك.

وقوله تعالى: ﴿لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا﴾. وبقاء المطلقة في منزل الزوج في مدة العدة لعل الزوج يندم على طلاقها، ويخلق الله تعالى في قلبه رجعتها فتكون الرجعة. وقوله تعالى: ﴿لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا﴾ قيل هي الرجعة.^(١)

آيات يتلوها ﷺ لتنير للناس:

قال تعالى: ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فَاتَّقُوا اللَّهَ يَتَأُولَى الْأَلْبَابِ الَّذِينَ ءَامَنُوا قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ۝١٠﴾ رُسُلًا يَتْلُوا عَلَيْكُمْ ءَايَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١٢/١٢١ - ١٢٨؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٨٨٣ - ١٨٨٤.

الْظُلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا ﴿١١﴾ [الطلاق].

يقول تعالى متوعداً من خالف أمره وكذب رسوله وسلك غير ما شرعه، ومخبراً تعالى عما حل بالأمم السالفة بسبب ذلك، فقال تعالى: ﴿وكأين من قرية عتت عن أمر ربها ورسله﴾ أي تمردت وطغت واستكبرت عن اتباع أمر الله ومتابعة رسله، ﴿فحاسبناها حساباً شديداً وعذبناها عذاباً نكراً﴾ أي: منكراً فظيماً، ﴿فذاقت وبال أمرها﴾ أي غب مخالفتها، وندموا حيث لا ينفعهم الندم، ﴿وكان عاقبة أمرها خسرًا. أعد الله لهم عذاباً شديداً﴾ أي: في الدار الآخرة مع ما عجل لهم من العذاب في الدنيا، ثم قال تعالى بعد ما قص من خبر هؤلاء ﴿فاتقوا الله يا أولي الألباب﴾ أي الأفهام المستقيمة لا تكونوا مثلهم، فيصيبكم ما أصابهم يا أولي الألباب ﴿الذين آمنوا﴾ أي صدقوا بالله سبحانه ورسوله ﷺ ﴿قد أنزل الله إليكم ذكراً﴾ أي القرآن.

وقوله تعالى: ﴿رسولاً يتلوا عليكم آيات الله مبينات﴾ فالرسول ﷺ هو الذي يبلغ الذكر من آيات الله وكتابه، وسنته ﷺ.

فهي بينة واضحة جلية ﴿ليخرج الذين آمنوا وعملوا الصالحات من الظلمات إلى النور﴾ أي من ظلمات الكفر والجهل إلى نور الإيمان والعلم. وقد سمى الله تعالى الوحي الذي أنزله نوراً؛ لما يحصل به من الهدى. وقوله تعالى: ﴿ومن يؤمن بالله ويعمل صالحاً يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا﴾ رزق الجنة هو الرزق.^(١)

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١٢/ ١٤٣ - ١٤٤؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/ ١٨٨٩.

سورة التحريم

قصة التحريم:

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (١) قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ مَحَلَّةَ أَيْمَنِكُمْ وَاللَّهُ مُوَلِّكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٢) وَإِذْ أَسْرَأَ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَفَ بَعْضُهُ، وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَأَهَا بِهِ، قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَأَنِي الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ (٣) إِنْ نُوبًا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ (٤) عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَنَاطَاتٍ تَنْبَغِي عِدَّتِ سَيِّجَاتٍ تُبَيِّنُ وَأَنْكَارًا (٥) [التحريم].

ورد أنها نزلت في شأن مارية. وكان رسول الله ﷺ قد حرمها على نفسه، فنزل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ﴾ الآية.

وورد أنه لم تزل به عائشة وحفصة رضي الله عنهما حتى حرم إحدى نسائه عن نفسه. فأنزل الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾ إلى آخر الآية. (١)

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قلت لعمر بن الخطاب رضي الله عنه: من المرأتان؟ قال: عائشة وحفصة. وكان بدء الحديث في شأن أم إبراهيم مارية القبطية

(١) رواه النسائي في سننه، كتاب الطلاق، باب تأويل قوله ﷺ: (يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك)، ج ٦/١٥١، الحاكم، المستدرک، كتاب التفسير، سورة التحريم، ج ٢/٥٣٥، حديث رقم: ٣٨٢٤.

أصابها النبي ﷺ في بيت حفصة في نوبتها، فوجدت حفصة. فقالت: يا نبي الله لقد جئت إلي شيئاً ما جئت إلى أحد من أزواجك في يومي وفي داري وعلى فراشي. قال ﷺ: ألا ترضين أن أحرمها فلا أقربه. قالت: بلى فحرمها. وقال لها: لا تذكرني ذلك لأحد، فذكرته لعائشة فأظهره الله عليه، فأنزل الله تعالى: ﴿يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك تبتغي مرضات أزواجك﴾ الآيات كلها. فبلغنا أن رسول الله ﷺ كفر عن يمينه وأصاب جاريته.

قوله تعالى: ﴿قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم﴾ فكفر ﷺ عن يمينه، فصير الحرام يميناً.^(١)

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: كان النبي ﷺ يشرب عسلاً عند زينب بنت جحش ويمكث عندها، فتواطأت أنا وحفصة على أيتنا دخل عليها فلتقل له: أكلت مغافير، إني أجد منك ريح مغافير. قال ﷺ: لا، ولكني كنت أشرب عسلاً عند زينب بنت جحش ولن أعود له، فنزلت: ﴿يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك﴾ إلى قوله: ﴿إن تتوبا إلى الله﴾ لعائشة وحفصة ﴿وإذ أسر النبي إلى أزواجه حديثاً﴾ لقوله ﷺ: بل شربت عسلاً.^(٢)

قال: المغافير شبيه بالصمغ، يكون في الرّمث فيه حلاوة، أغفر به الرّمث إذا ظهر فيه. واحدها مغفور ويقال مغافير. قال: وقد يكون المغفور أيضاً للعشر والثمار والسلم والطلح. قال والرّمث بالكسر مرعى من مراعي الإبل. وهو من الحمض. قال والعرفط شجر من العضاة ينضح المغفور منه.

(١) انظر: رواية تفصيلية عن ابن عباس رضي الله عنهما عند البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب: (تبتغي مرضاة أزواجك. قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم)، ج ٦/ ٦٩.

(٢) صحيح البخاري، كتاب الطلاق، باب: (لم تحرم ما أحل الله لك)، ج ٦/ ١٦٧؛ صحيح مسلم، كتاب الطلاق، باب وجوب الكفارة على من حرم امرأته ولم ينو الطلاق، ج ٤/ ١٨٤.

عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ يحب الحلوى والعسل. وكان إذا انصرف من العصر دخل على نساءه فيدنو من إحداهن. فدخل على حفصة بنت عمر فاحتبس أكثر ما كان يحتبس. فغرت فسألت عن ذلك فقيل لي: أهدت لها امرأة من قومها عكة عسل. فسقت النبي ﷺ منه شربة. فقلت: أما والله لنحتالن له، فقلت لسودة بنت زمعة: إنه سيدنو منك فإذا دنا منك فقوللي: أكلت مغافير، فإنه سيقول لك لا، فقوللي له: ما هذه الريح التي أجده؟ فإنه سيقول لك سقتني حفصة شربة عسل، فقوللي: جرست نحله العرفط وسأقول لك، وقولي له أنت يا صفية ذلك.

قالت: تقول سودة فوالله ما هو إلا أن قام على الباب، فأردت أن أناديه بما أمرتني فرقاً منك، فلما دنا منها قالت له سودة: يا رسول الله أكلت مغافير؟ قال: لا قالت: فما هذه الريح التي أجده منك؟ قال: سقتني حفصة شربة عسل. قالت: جرست نحله العرفط. فلما دار إلي قلت نحو ذلك. فلما دار إلى صفية قالت له مثل ذلك. فلما دار إلى حفصة قالت له: يا رسول الله ألا أسقيك منه؟ قال: لا حاجة لي فيه. قالت: تقول سودة والله لقد حرمناه، قلت لها: اسكتي.^(١)

قلن جرست نحله العرفط أي رعت نحلة شجر العرفط الذي صمغه المغافير، فلهذا ظهر ريحه في العسل الذي شربته.

وهذا السياق فيه أن حفصة رضي الله عنها هي الساقية للعسل، وفي طريق آخر عن

(١) صحيح البخاري، كتاب الطلاق، باب: (لم تحرم ما أحل الله لك)، ج ١٦٧/٦؛ صحيح مسلم، كتاب الطلاق، باب وجوب الكفارة على من حرم امرأته ولم ينو الطلاق، ج ١٨٥/٤.

عائشة رضي الله عنها أن زينب بنت جحش رضي الله عنها هي التي سقته العسل، وأن عائشة وحفصة رضي الله عنهما تواطأتا وتظاهرتا عليه.

ومما يدل على أن عائشة وحفصة رضي الله عنهما هما المتظاهرتان ما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لم أزل حريصاً على أن أسأل عمر عن المرأتين من أزواج النبي صلى الله عليه وسلم اللتين قال الله تعالى: ﴿إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ حتى حج عمر وحججت معه. فلما كان ببعض الطريق عدل عمر وعدلت معه بالإداوة فتبرز، ثم أتاني فسكبت على يديه فتوضأ فقلت: يا أمير المؤمنين، من المرأتان من أزواج النبي صلى الله عليه وسلم اللتان قال الله تعالى: ﴿إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾؟ فقال عمر: وا عجباً لك يا ابن عباس: كره والله ما سألته عنه ولم يكتمه. قال: هي عائشة وحفصة. قال: ثم أخذ يسوق الحديث، قال: كنا معشر قريش قوماً نغلب النساء، فلما قدمنا المدينة وجدنا قوماً تغلبهم نساؤهم، فطفق نساؤنا يتعلمن من نسائهم. قال: وكان منزلي في دار أمية بن زيد بالعوالي. قال: فغضبت يوماً على امرأتي فإذا هي تراجعني فأنكرت أن تراجعني فقالت: ما تنكر أن أراجعك فوالله إن أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم ليراجعنه وتهجره إحداهن اليوم إلى الليل.

قال: فانطلقت فدخلت على حفصة، فقلت: أتراجعين رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت: نعم. قلت: وتهجره إحداكن اليوم إلى الليل؟ قالت: نعم. قلت: قد خاب من فعل ذلك منكن وخسر، أفتأمن إحداكن أن يغضب الله عليها لغضب رسوله فإذا هي قد هلكت؟ لا تراجعين رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا تسأليه شيئاً وسليني من مالي ما بدا لك، ولا يغرنك أن كانت جارتك هي أوسم - أي أجمل - وأحب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم منك - يريد عائشة - قال: وكان لي جار من

الأنصار، وكنا نتناوب النزول إلى رسول الله ﷺ، ينزل يوماً وأنزل يوماً فيأتيني بخبر الوحي وغيره، وآتيه بمثل ذلك.

قال: وكنا نتحدث أن غسان تتعل الخيل لتغزونا، فنزل صاحبي يوماً ثم أتى عشاء فضرب بابي، ثم ناداني فخرجت إليه فقال: حدث أمر عظيم، فقلت: وما ذاك أجاءت غسان؟ قال: لا بل أعظم من ذلك وأطول. طلق رسول الله ﷺ نساءه. فقلت: قد خابت حفصة وخسرت. قد كنت أظن هذا كائنًا حتى إذا صليت الصبح شددت علي ثيابي، ثم نزلت فدخلت على حفصة وهي تبكي فقلت: أطلقكن رسول الله ﷺ فقالت: لا أدري. هو هذا معتزل في هذه المشربة، فأتيت غلامًا له أسود فقلت استأذن لعمر، فدخل الغلام ثم خرج إلي فقال: ذكرك له فصمت، فانطلقت حتى أتيت المنبر فإذا عنده رهط جلوس يبكي بعضهم، فجلست عنده قليلاً ثم غلبني ما أجد، فأتيت الغلام فقلت: استأذن لعمر، فدخل ثم خرج، فقال: قد ذكرك له فصمت، فخرجت، فجلست إلى المنبر ثم غلبني ما أجد، فأتيت الغلام فقلت: استأذن لعمر، فدخل ثم خرج إلي فقال: قد ذكرك له، فصمت، فوليت مدبراً، فإذا الغلام يدعوني فقال: ادخل قد أذن لك. فدخلت، فسلمت على رسول الله ﷺ فإذا هو متكئ على رمال الحصير، رمال حصير. وقد أثر في جنبه، فقلت: أطلقت يا رسول الله نساءك؟ فرفع رأسه إلي وقال: لا. فقلت: الله أكبر. ولو رأيتنا يا رسول الله وكنا معشر قريش قومًا نغلب النساء، فلما قدمنا المدينة وجدنا قومًا تغلبهم نساؤهم. فطفق نساؤنا يتعلمن من نسائهم، فغضبت علي امرأتي يوماً فإذا هي تراجعني، فأنكرت أن تراجعني فقالت: ما تتكر أن أراجعك؟ فوالله إن أزواج النبي ﷺ ليراجعنه، وتهجره إحداهن اليوم إلى الليل. فقلت: قد خاب من

فعل ذلك منكن وخسرت، أفتأمن إحداكن أن يغضب الله عليها لغضب رسول الله فإذا هي قد هلكت.

فتبسم رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله قد دخلت على حفصة فقلت لا يغرنك أن كانت جارتك هي أو سم أو أحب إلى رسول الله ﷺ منك. فتبسم أخرى، فقلت: استأنس يا رسول الله، قال: نعم. فجلست فرفعت رأسي في البيت، فوالله ما رأيت في البيت شيئاً يرد البصر إلا أهبة مقامه، فقلت: ادع الله يا رسول الله أن يوسع على أمتك، فقد وسع على فارس والروم وهم لا يعبدون الله، فاستوى جالساً، وقال: أي شئ أنت يا ابن الخطاب؟ أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم في الحياة الدنيا. فقلت استغفر لي يا رسول الله. وكان أقسم ألا يدخل عليهن شهراً من شدة موجدته عليهن حتى عاتبه الله.^(١)

فنزلت هذه الآية آية التخيير ﴿عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجاً خيراً منكن﴾ ﴿وإن تظاهرا عليه فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير﴾. فقلت: أطلقتهن؟ قال: لا. فقامت على باب المسجد فناديت بأعلى صوتي: لم يطلق نساءه.

﴿وصالح المؤمنين﴾ منهم: علي بن أبي طالب ﷺ.

عن أنس رضي الله عنه قال عمر رضي الله عنه: اجتمع نساء النبي ﷺ في الغيرة عليه، فقلت لهن: ﴿عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجاً خيراً منكن﴾ فنزلت هذه الآية.

(١) صحيح البخاري، كتاب النكاح، باب موعظة الرجل ابنته لحال زوجها، ج ٦/ ١٤٧ - ١٥٠؛ صحيح مسلم، كتاب الطلاق، باب في الإيلاء واعتزال النساء وتخيريهن، وقوله تعالى: ﴿وإن تظاهرا عليه﴾، ج ٤/ ١٩٠.

عن أنس رضي الله عنه قال: قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: بلغني شيء كان بين أمهات المؤمنين وبين النبي ﷺ فاستقريتهن أقول: لَتَكْفَنَّ عن رسول الله ﷺ أو ليبدلنه الله أزواجاً خيراً منك، حتى أتيت على آخر أمهات المؤمنين فقالت: يا عمر أما في رسول الله ما يعظ نساءه حتى تعظهن، فأمسكت فأنزل الله ﷻ ﴿عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجاً خيراً منك مسلمات﴾... الآية، وهذه المرأة التي ردتها عما كان فيه من وعظ النساء هي أم سلمة رضي الله عنها. (١)

ومعنى قوله تعالى: ﴿مسلمات مؤمنات قانتات تائبات عابدات﴾ ظاهر.

وقوله تعالى: ﴿سائحات﴾ أي: صائحات، فسياحة هذه الأمة الصيام. وقيل مهاجرات.

وقوله تعالى: ﴿ثيبات وأبكاراً﴾ أي منهن ثيبات ومنهن أبكار؛ ليكون ذلك أشهى إلى النفس، فإن التنوع يبسط النفس. ولهذا قال: ﴿ثيبات وأبكاراً﴾ قال: وعد الله نبيه ﷺ في هذه الآية أن يزوجه الثيبات والأبكار. إن هو طلق نساءه ﷺ. (٢)

نور مع رسول الله ﷺ ومن معه:

قال تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ (٦) ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْنِزُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا يُجِزُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٧) ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً

(١) انظر: صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب قوله تعالى: (واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى)، ج ٥/١٤٩.

(٢) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١٢/١٤٧ - ١٥٦؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٨٩٠ - ١٨٩٤.

نُصُوْحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُم جَنَّاتٍ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَآغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٨﴾ [التحرير].

في قوله تعالى: ﴿قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ أدبوهم وعلموهم، واعملوا معهم بطاعة الله، واتقوا معاصي الله، وأمروا أهليكم بالذكر ينجكم الله من النار، واتقوا الله وأوصوا أهليكم بذلك، وأمروهم بطاعة الله وتنهاهم عن معصية الله وتساعدهم التقوى التي تقي من النار، فحق على المسلم أن يعلم أهله وقرباته ومن حوله ما فرض الله عليهم وما نهاهم الله عنه.

وقوله تعالى: ﴿وقودها الناس والحجارة﴾ أي حطبها الذي يلقي فيها جثث بني آدم ﴿والحجارة﴾، قيل: المراد بها الأصنام التي تُعبد.

وقوله تعالى: ﴿عليها ملائكة غلاظ شداد﴾ أي طباعهم غليظة، قد نزع من قلوبهم الرحمة بالكافرين بالله، ﴿شداد﴾ أي تركيبيهم في غاية الشدة والكثافة والمنظر المزعج. وقوله تعالى: ﴿لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون﴾ أي مهما أمرهم به تعالى يبادرون إليه لا يتأخرون عنه طرفة عين، وهم قادرون على فعله، ليس بهم عجز عنه. وهؤلاء هم الزبانية - عيادًا بالله منهم -.. وقوله تعالى: ﴿يا أيها الذين كفروا لا تعتذروا اليوم إنما تجزون ما كنتم تعملون﴾ أي يقال للكفرة يوم القيامة: لا تعتذروا فإنه لا يقبل منكم ولا تجزون إلا ما كنتم تعملون. وإنما تجزون اليوم بأعمالكم. ثم قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توباً نصوحاً﴾ أي توبة صادقة جازمة، تمحو ما قبلها من السيئات، وتلم شعث التائب وتجمعه وتكفه عما كان يتعاطاه من الدنئات، ويندم على ما فات منه ويبغض المعاصي.

عن عمر رضي الله عنه قال: التوبة النصوح أن يتوب من الذنب ثم لا يعود فيه أو لا يريد أن يعود فيه. ويندم على ما سلف منه في الماضي ويعزم على ألا يفعله في المستقبل. ثم إن كان الحق لأدمي رده إليه بطريقه.

فإذا جزم بالتوبة وصمم عليها فإنها تجب ما قبلها من الخطيئات.

وقوله تعالى: ﴿عسى ربكم أن يكفر عنكم سيئاتكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار﴾، وعسى من الله موجبة، ﴿يوم لا يخزي الله النبي والذين آمنوا معه﴾ أي ولا يخزيهم معه يعني يوم القيامة، ﴿نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم﴾ هذا يقوله المؤمنون حين يرون يوم القيامة نور المنافقين قد طفى^(١).

أمره ﷺ بجهاد الكفار والمنافقين والغظة عليهم:

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ۝١ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِ عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ ۝١٠﴾ [التحريم].

يقول تعالى أمراً رسوله ﷺ بجهاد الكفار والمنافقين، هؤلاء بالسلاح والقتال، وهؤلاء بإقامة الحدود عليهم، ﴿واغلظ عليهم﴾ أي في الدنيا ﴿ومأواهم جهنم وبئس المصير﴾ أي في الآخرة. ثم قال تعالى: ﴿ضرب الله مثلاً للذين كفروا﴾ أي في مخالطتهم المسلمين ومعاشرتهم لهم أن ذلك لا يجدي عنهم شيئاً، ولا ينفعهم عند الله إن لم يكن الإيمان حاصلاً في قلوبهم. ثم ذكر تعالى المثل فقال: ﴿امرات نوح وامرات لوط كانتا تحت عبدين من

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/ ١٨٩٤ - ١٨٩٦.

عبادنا صالحين ﴿أي نبين رسولين عندهما في صحبتهما ليلاً ونهاراً يؤاكلان ويضاجعانهما ويعاشرانهما أشد العشرة والاختلاط، ﴿فخانتاهما﴾ أي في الإيمان، لم يوافقاهما على الإيمان ولا صدقاهما في الرسالة، فلم يُجد ذلك كله شيئاً ولا دفع عنهما محذوراً. ولهذا قال تعالى: ﴿فلم يغنيا عنهما من الله شيئاً﴾ أي لكفرهما ﴿وقيل﴾ أي للمرأتين ﴿ادخلا النار مع الداخلين﴾ وليس المراد بقوله: ﴿فخانتاهما﴾ في فاحشة، بل في الدين، فإن نساء الأنبياء معصومات عن الوقوع في الفاحشة لحرمة الأنبياء.^(١)

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١٢/١٦٠ - ١٦٢؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١٨٩٦/٢.

سورة الملك

الرد على المكذبين بالخالق وبالبعث:

قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ (٢٣) قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٢٤) وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٢٥) قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ (٢٦) فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سَيَّتَتْ وَجُوهَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنتُمْ بِهِ تَدْعُونَ (٢٧)﴾ [الملك].

قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ﴾ أخبرهم يا محمد ﷺ أن الذي ابتداء خلقكم بعد أن لم تكونوا شيئاً مذكوراً، ﴿وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة﴾ أي العقول والإدراك، ﴿قليلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ أي قلما تستعملون هذه القوى التي أنعم الله بها عليكم في طاعته وامتثال أوامره وترك زواجه، ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ أي بثكم ونشركم في أقطار الأرض وأرجائها مع اختلاف ألسنتكم في لغاتكم وألوانكم، وحلالكم وأشكالكم وصوركم ﴿وإليه تحشرون﴾ أي تجمعون بعد هذا التفرق والشتات، يجمعكم كما فرقكم ويعيدكم كما بدأكم.

وقال تعالى مخبراً عن الكفار المنكرين للمعاد المستبدين وقوعه: ﴿ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين﴾ أي متى يقع هذا الذي تخبرنا بكونه من الاجتماع بعد هذا التفرق؟ ﴿قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي لا يعلم وقت ذلك على التعيين إلا الله ﷻ، لكنه أمرني سبحانه أن أخبركم أن

هذا كائن وواقع لا محالة، فاحذروه. ﴿وإنما أنا نذير مبين﴾ أي وإنما على البلاغ وقد أديته إليكم.

قال تعالى: ﴿فلما رأوه زلفة سيئت وجوه الذين كفروا﴾ أي لما قامت القيامة وشاهدها الكفار ورأوا أن الأمر كان قريباً؛ لأن كل ما هو آت آت وإن طال زمنه، فلما وقع ما كذبوا به ساءهم ذلك؛ لما يعلمون ما لهم هناك من الشر، أي فأحاط بهم ذلك، وجاءهم من أمر الله ما لم يكن لهم في بال ولا حساب. ويقال لهم على وجه التقرير والتوبيخ ﴿هذا الذي كنتم به تدعون﴾ أي تستعجلون.^(١)

فرار المنافقين من استغفار الرسول:

قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِیَ اللَّهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (٢٨) ﴿قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ أَمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (٢٩) ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ﴾ (٣٠) [المملك].

يقول تعالى: ﴿قل﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين بالله الجاحدين لنعمه ﴿أرأيتم إن أهلكني الله ومن معي أو رحمتنا فمن يجير الكافرين من عذاب أليم﴾ أي خلصوا أنفسكم، فإنه لا منقذ لكم من الله إلا التوبة والإنابة والرجوع إلى دينه، ولا ينفعكم وقوع ما تتمنون لنا من العذاب والنكال، فسواء عذبنا الله أو رحمتنا فلا مناص لكم من نكاله وعذابه الأليم الواقع بكم.

ثم قال تعالى آمراً نبيه ﷺ بالإخبار: ﴿قل هو الرحمن آمنا به وعليه توكلنا﴾ أي آمنا برب العالمين الرحمن الرحيم.

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١٢/ ١٧٢ - ١٧٣؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/ ١٩٠٠ - ١٩٠١.

وعليه توكلنا في جميع أمورنا. ثم قال تعالى: ﴿فستعلمون من هو في ضلال مبين﴾ أي منا ومنكم، ولمن تكون العاقبة في الدنيا والآخرة.

ثم قال تعالى إظهاراً للرحمة في خلقه: ﴿قل رأيتم إن أصبح ماؤكم غوراً﴾ أي ذاهباً في الأرض إلى أسفل فلا ينال بالفؤوس الحداد ولا السواعد الشداد، والغائر عكس النابع، ولهذا قال تعالى: ﴿فمن يأتاكم بماء معين﴾ أي سائغ نابع سائغ جار على وجه الأرض، أي لا يقدر على ذلك إلا الله، فمن فضله وكرمه أن أنبع لكم المياه وأجراها في سائر أقطار الأرض، بحسب ما يحتاج العباد إليه من القلة والكثرة، فله الحمد والمنة.^(١)

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١٢/ ١٧٣ - ١٧٤؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/ ١٩٠١.

سورة القلم

تزكياته وخلقه ﷺ والدفاع عنه:

قال تعالى: ﴿ت وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١ مَا أَنْتَ بِمَجْنُونٍ ۝٢ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ۝٣ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤ فَسَبِّحْهُ وَابْحُورْ ۝٥ بِأَيِّكُمْ الْمَفْتُونُ ۝٦ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ۝٧﴾ [القلم].

روي عنه ﷺ قال: أول ما خلق الله القلم قال: اكتب. قال: وماذا أكتب؟ قال: اكتب القدر، فجرى بما يكون من ذلك اليوم إلى قيام الساعة.^(١)

وقوله تعالى: ﴿والقلم﴾ الظاهر أنه جنس القلم الذي يكتب به. قسم منه تعالى وتبنيه لخلقه على ما أنعم به عليهم من تعليم الكتابة التي بها تُنال العلوم. ولهذا قال تعالى: ﴿وما يسطرون﴾ يعني وما يكتبون. وقيل وما يعملون.

عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن أول ما خلق الله القلم، فقال له: اكتب، قال: يا رب وما أكتب؟ قال: اكتب القدر وما هو كائن إلى الأبد.^(٢)

(١) انظر: لرواية: أبي داود في سننه، كتاب السنة، باب في القدر، ص ٨٥٠، حديث رقم: ٤٧٠٠؛ الإمام أحمد في مسنده، ج ٣١٧/٥؛ سنن الترمذي، كتاب تفسير القرآن، باب "ومن سورة ن"، ج ٤٢٤/٥، حديث رقم: ٣٣١٩.

(٢) سنن الترمذي، كتاب تفسير القرآن، باب (ومن سورة ن)، ج ٤٢٤/٥، حديث رقم: ٣٣١٩؛ سنن أبي داود، كتاب السنة، باب في القدر، ص ٨٥٠، حديث رقم: ٤٧٠٠.

وقوله تعالى: ﴿مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٌ﴾ أي لست يا محمد والله الحمد بمجنون، كما يقوله الجهلة من قومك، المكذبون بما جئتهم به من الهدى والحق المبين، فنسبوك فيه إلى الجنون. ﴿وَإِنْ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ أي بل إن لك الأجر العظيم والثواب الجزيل الذي لا ينقطع ولا يبيد على إبلاغك رسالة ربك إلى الخلق وصبرك على أذاهم، ومعنى ﴿غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ أي غير مقطوع وغير محسوب.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خَلْقٍ عَظِيمٍ﴾ تزكية خلقه ﷺ وأدبه ودينه العظيم وهو الإسلام. وقد سُئِلَتْ عائشة رضي الله عنها عن خلق رسول الله ﷺ قالت: "كان خلقه القرآن".^(١)

تقول كما هو في القرآن. وفي رواية أنها قالت للسائل: أَلَسْتَ تَقْرَأُ الْقُرْآنَ؟ قال: بلى. قالت: فَإِنْ خَلَقَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ كَانَ الْقُرْآنَ.^(٢)

ومعنى هذا أنه ﷺ صار امتثال القرآن أمراً ونهياً سجيةً له وخلقاً تطبعه وترك طبعه الجبلي، فمهما أمره القرآن فعله ومهما نهاه عنه تركه. هذا مع ما جبله الله عليه من الخلق العظيم من الحياء والكرم والشجاعة والصفح والحلم، وكل خلق جميل.

عن أنس رضي الله عنه قال: "خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين فما قال لي أف قط، ولا قال لشيء فعلته: لم فعلته؟ ولا لشيء لم أفعله: ألا فعلته؟"^(٣)

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده، ج ٦/٢١٦.

(٢) رواه مسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب جامع صلاة الليل، ومن نام عنه أو مرض، ج ٢/١٦٩؛ سنن أبي داود، كتاب الصلاة، باب في صلاة الليل، ص ٢٣٠، حديث رقم: ١٣٤٢.

(٣) انظر: رواية البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب حسن الخلق والسخاء، وما يكره

وكان ﷺ أحسن الناس خلقاً ولا مسست خزاً ولا حريراً ولا شيئاً كان ألين من كف رسول الله ﷺ، ولا شملت مسكاً ولا عطراً كان أطيب من عرق رسول الله ﷺ.^(١)

عن البراء رضي الله عنه يقول: ((كان رسول الله ﷺ أحسن الناس وجهاً وأحسن الناس خلقاً ليس بالطويل ولا بالقصير)).^(٢)

عن عائشة رضي الله عنها قالت: ((ما ضرب رسول الله ﷺ بيده خادماً له قط، ولا ضرب امرأة، ولا ضرب بيده شيئاً قط إلا أن يجاهد في سبيل الله. ولا خُير بين شيئين قط إلا كان أحبهما إليه أيسرهما حتى يكون إثماً. فإذا كان إثماً كان أبعد الناس من الإثم. ولا انتقم لنفسه من شيء يؤتي إليه إلا أن تنتهك حرمة الله فيكون هو ينتقم لله)).^(٣)

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((إنما بعثت لأتمم صالح

من البخل، ج ٨٢/٧ - ٨٣؛ مسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب كان رسول الله أحسن الناس خلقاً، ج ٧٣/٧.

(١) رواه البخاري في صحيحه، كتاب المناقب، باب صفة النبي ﷺ، ج ٤/١٦٧؛ ومسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب طيب رائحة النبي ﷺ، ولين مسه، والتبرك بمسحه، ج ٨١/٧.

(٢) رواه البخاري في صحيحه، كتاب المناقب، باب صفة النبي ﷺ، ج ٤/١٦٥؛ مسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب في صفة النبي ﷺ، وأنه كان أحسن الناس وجهاً، ج ٨٣/٧.

(٣) انظر: رواية مسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب مباحة النبي ﷺ للأثام، واختياره من المباح أسهله، وانتقامه لله عند انتهاك حرمة، ج ٨٠/٧؛ والإمام أحمد في مسنده، ج ٦/٢٣٢؛ وانظر: سنن أبي داود، كتاب الأدب، باب في التجاوز في الأمر، ص ٨٦٨، حديث رقم: ٤٧٨٥.

الأخلاق))^(١)

وقوله تعالى: ﴿فَسَتَبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ بِأَيْكُمْ الْمَفْتُونُ﴾ فستعلم يا محمد وسيعلم مخالفوك ومكذبوك من المفتون الضال منك ومنهم. عن ابن عباس رضي الله عنه: ﴿بأَيْكُمْ الْمَفْتُونُ﴾ أي المجنون، أو الأولى بالشیطان. ومعنى المفتون ظاهر، أي الذي قد افتتن عن الحق وضل عنه.

وقال تعالى: ﴿إِنْ رَبِّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ أي هو يعلم تعالى أي الفريقين منكم ومنهم هو المهتدي، ويعلم الحزب الضال عن الحق.^(٢)

عصيانہ ﷺ المكذبين وتهديدهم:

قال تعالى: ﴿فَلَا تَطْعِ الْمُكَذِّبِينَ ۝٨ وَدُّوا لَوْ يُدْهَنُ فَيْدُهُنُوكَ ۝٩ وَلَا تَطْعُ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ۝١٠ هَمَّا زِمْنَا مَسَاءَ بَنِي إِسْرَءِيلَ ۝١١ مَنَّاخَ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ۝١٢ عُتِلَ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ ۝١٣ أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ۝١٤ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَاتُنَا قَالَكَا سَطِيرُ الْأَوَّلِينَ ۝١٥ سَنَسِفُهُ عَلَى الْحَرْطُورِ ۝١٦﴾ [القلم].

يقول تعالى كما أنعمنا عليك وأعطيناك الشرع المستقيم والخلق العظيم ﴿فَلَا تَطْعِ الْمُكَذِّبِينَ وَدُّوا لَوْ يُدْهَنُ فَيْدُهُنُوكَ﴾ لو ترخص لهم فيرخصون. تتنازل وتترك ما أنت عليه من الحق. ثم قال تعالى: ﴿وَلَا تَطْعُ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ﴾ وذلك أن الكاذب لضعفه ومهانته إنما يتقي بإيمانه الكاذبة التي يجترئ بها على أسماء الله تعالى، واستعمالها في كل وقت في غير محلها. والمهين الكاذب المكابر مع ضعفه وضعف حجته.

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده، ج ٢/٣٨١.

(٢) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١٢/١٧٥ - ١٨٢؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٩٠٧ - ١٩٠٤.

وقوله تعالى: ﴿هَمَازٌ﴾ يعني الاغتياب، ﴿مِشَاءٌ بَنَمِيمٌ﴾ يعني الذي يمشي بين الناس ويحشر بينهم، وينقل الحديث لفساد ذات البين.

عن حذيفة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((لا يدخل الجنة قتات)).^(١) [القتات: هو الذي ينقل الكلام بين الناس للافساد].

فرار المنافقين من استغفار الرسول ﷺ لهم:

قال تعالى: ﴿أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَلِغَةُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ إِنَّ لَكُمْ لِمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾ سَلِّمُوا لَهُمْ أَيُّهُمْ بِذَلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٤١﴾﴾ [القلم].

لما ذكر الله تعالى حال أهل الجنة الدنيوية وما أصابهم فيها من النعمة حين عصوا الله تعالى، وخالفوا أمره، بيّن تعالى أن لمن اتقاه وأطاعه في الدار الآخرة جنات النعيم، التي لا تبديد ولا تفرغ ولا ينقضي نعيمها. ثم قال تعالى: ﴿أَفَجْعَلِ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ﴾ أي: أفنساوي بين هؤلاء وهؤلاء في الجزاء؟ كلا ورب الأرض والسماء. ولهذا قال تعالى: ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ أي كيف تظنون ذلك؟ ثم قال تعالى: ﴿أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ، إِنْ لَكُمْ فِيهِ لِمَا تَخِيرُونَ﴾. أفبأيديكم كتاب منزل من السماء تدرسونه وتحفظونه وتتداولونه بنقل الخلف عن السلف، متضمناً حكماً مؤكداً كما تدعونه؟ ﴿إِنْ لَكُمْ فِيهِ لِمَا تَخِيرُونَ أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بِالْغَةِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِنْ لَكُمْ لِمَا تَحْكُمُونَ﴾ أي: أمعكم عهود منا ومواثيق مؤكدة؟ ﴿إِنْ لَكُمْ لِمَا تَحْكُمُونَ﴾ أي أنه سيحصل لكم ما تريدون وتشتتهون. ﴿سَلِّمُوا لَهُمْ بِذَلِكَ زَعِيمٌ﴾ أي قل لهم من هو المتضمن المتكفل

(١) صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب ما يكره من النعمة، ج ٧/٨٦؛ صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان غلط تحريم النعمة، ج ١/٧١.

(٢) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١٢/١٨٢ - ١٨٩؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٩٠٤ - ١٩٠٥.

بهذا؟ الكفيل به. ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ﴾ أي من الأصنام والأنداد، ﴿فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾^(١)

قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾^(٤٢) خَشَعَةً أَبْصَرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ^(٤٣) فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ^{٤٤} سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ^(٤٤) وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ^(٤٥) أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ^(٤٦) أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ^(٤٧)﴾ [القلم].

لما ذكر تعالى أن للمتقين عند ربهم جنات النعيم، بيّن تعالى متى ذلك كائن وواقع، فقال تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ يعني يوم القيامة وما يكون فيه من الأهوال والزلازل والبلاء، والامتحان والأمور العظام.

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: ((يكشف ربنا عن ساقه فيسجد له كل مؤمن ومؤمنة، ويبقى من كان يسجد في الدنيا رياء وسمعة فيذهب ليسجد فيعود ظهره طبقاً واحداً)).^(٢)

عن ابن عباس رضي الله عنه ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ﴾ قال رضي الله عنه: هو يوم القيامة يوم كرب وشدة. وقيل عن أمر عظيم شديد. وقال رضي الله عنه: هي أول ساعة تكون في يوم القيامة، وذلك حين يكشف الأمر وتبدو الأعمال، وكشفه دخول الآخرة وكشف الأمر عنه.

وقوله تعالى: ﴿خَاشَعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ أي في الدار الآخرة بإجرامهم وتكبرهم في الدنيا فعوقبوا بنقيض ما كانوا عليه، ولما دُعُوا إِلَى

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١٢/١٩٦؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٩٠٧ - ١٩٠٨.

(٢) رواه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب: (يوم يكشف عن ساق)، ج ٦/٧٢.

السجود في الدنيا فامتنعوا منه مع صحتهم وسلامتهم كذلك عوقبوا بعدم قدرتهم عليه في الآخرة، إذا تجلى الرب تبارك وتعالى فيسجد له المؤمنون ولا يستطيع أحد من الكافرين ولا المنافقين أن يسجد، بل يعود ظهر أحدهم طبقاً واحداً، كلما أراد أحدهم أن يسجد خر لقفاه عكس السجود، كما كانوا في الدنيا بخلاف ما عليه المؤمنون.

ثم قال تعالى: ﴿فذرني ومن يكذب بهذا الحديث﴾ يعني القرآن الكريم. وهذا تهديد شديد، أي دعني وإياه مني ومنه أنا أعلم به منه كيف أستدرجه وأمده في غيه وأنظر ثم أخذه أخذ عزيز مقتدر. ولهذا قال تعالى: ﴿سنستدرجهم من حيث لا يعلمون﴾ أي وهم لا يشعرون، بل يعتقدون أن ذلك من الله كرامة وهو في نفس الأمر إهانة. وقال تعالى هاهنا: ﴿وأملئ لهم إن كيدي متين﴾ أي وأؤخرهم وأنظرهم وأمدهم، وذلك من كيدي ومكري بهم. ولهذا قال تعالى: ﴿إن كيدي متين﴾ أي عظيم لمن خالف أمري وكذب رسلي واجترأ على معصيتي.

روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: ((إن الله تعالى ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته)).^(١)

وقوله تعالى: ﴿أم تسألهم أجراً فهم من مغرم مثقلون أم عندهم الغيب فهم يكتبون﴾ والمعنى في ذلك أنك يا محمد تدعوهم إلى الله جل جلاله، بلا أجر تأخذه منهم، بل ترجو ثواب ذلك عند الله تعالى، وهم يكذبون بما جئتهم به بمجرد الجهل والكفر والعناد.^(٢)

(١) رواه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، ج ١٩/٨.

(٢) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١٢/١٩٧ - ٢٠٢؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٩٠٨.

أمره ﷺ بالصبر:

قال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ۚ ﴿٤٨﴾ نُوَلِّا أَنْ تَذَرُكَهُ نِعْمَةً مِّن رَّبِّهِ لَئِيذَ الْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ۚ ﴿٤٩﴾ فَاجْتَبِهْ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ۚ ﴿٥٠﴾ وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ ۚ ﴿٥١﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ۚ ﴿٥٢﴾﴾ [القلم].

يقول تعالى: ﴿فاصبر﴾ يا محمد على أذى قومك لك وتكذيبهم، فإن الله سيحكم لك عليهم ويجعل العاقبة لك ولأتباعك في الدنيا والآخرة، ﴿ولا تكن كصاحب الحوت﴾ يعني ذا النون وهو يونس بن متى عليه السلام حين ذهب مغاضباً على قومه. فكان من أمره ما كان من ركوبه في البحر والتقام الحوت له وشرود الحوت به في البحار وظلمات غمرات اليم، وسماعه تسبيح البحر بما فيه للعلي القدير، الذي لا يرد ما أنفذه من التقدير. فحينئذ نادى في الظلمات ﴿أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين﴾ [الأنبياء: ٨٧]. قال الله تعالى: ﴿فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجي المؤمنين﴾ [الأنبياء: ٨٨]. وقال تعالى: ﴿فلولا أنه كان من المسبحين للبث في بطنه إلى يوم يبعثون﴾ [الصافات: ١٤٣ - ١٤٤]. وقال تعالى هاهنا: ﴿إذ نادى وهو مكظوم﴾ وهو مغموم مكروب. قال تعالى: ﴿فاجتباه ربه فجعله من الصالحين﴾.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((لا ينبغي لأحد أن يقول أنا خير من يونس بن متى)).^(١)

(١) صحيح البخاري، كتاب الأنبياء، باب قول الله تعالى: (وإن يونس لمن المرسلين)، ج ٦/٣٠؛ صحيح مسلم، كتاب الفضائل، باب في ذكر يونس عليه السلام، وقول النبي ﷺ: ((لا ينبغي لعبد أن يقول: أنا خير من يونس بن متى))، ج ٧/١٠٢، ١٠٣.

وقوله تعالى: ﴿وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم﴾ لينفذونك ﴿بأبصارهم﴾ أي يعينونك بأبصارهم، بمعنى يحسدونك؛ لبغضهم إياك لولا وقاية الله لك وحمايته إياك منهم. وفي هذه الآية دليل على أن العين إصابته وتأثيرها حق بأمر الله سبحانه، كما وردت بذلك الأحاديث العديدة.

عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((لا رقية إلا من عين أو حمة أو دم لا يرقأ)).^(١)

روي عن عمران الحصيب رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ: ((لا رقية إلا من عين أو حمة)).^(٢)

روي عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: ((لا بأس في الهام، والعين حق وأصدق الطيرة الفأل)).^(٣)

عن النبي ﷺ قال: ((العين حق ولو كان شيء سابق القدر لسبقته العين)).^(٤)

(١) انظر: صحيح البخاري، كتاب الطب، باب من اکتوى أو كوى غيره، وفضل من لم يکتو، ج ١٦/٧؛ صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب ولا عذاب، ج ١٣٨/١.

(٢) انظر: رواية ابن ماجه في سننه، كتاب الطب، باب ما رخص فيه من الرقي، ج ١١٦١/٢، حديث رقم: ٣٥١٣؛ سنن أبي داود، كتاب الطب، باب في تعليق التمام، ص ٦٩٧، حديث رقم: ٢٨٨٤؛ سنن الترمذي، كتاب الطب، باب ما جاء في الرخصة في ذلك، ج ٣٩٣/٤، حديث رقم: ٢٠٥٧؛ الإمام أحمد في مسنده، ج ٤٣٦/٤.

(٣) رواه الإمام أحمد في مسنده، ج ٢٨٩/٢؛ انظر: ابن ماجه في سننه، كتاب الطب، باب من كان يعجبه الفأل ويكره الطيرة، ج ١١٧٠/٢، حديث رقم: ٣٥٣٦.

(٤) رواه الإمام أحمد في مسنده، ج ٤٣٨/٦؛ صحيح مسلم، كتاب السلام، باب الطب والمرض والرقى، ج ١٤/٧.

عن ابن عباس رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يعوذ الحسن والحسين يقول: ((أعيذكما بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة، ومن كل عين لامة. ويقول: هكذا كان إبراهيم يعوذ إسحاق وإسماعيل)).^(١)

عن أبي أمامة أسعد بن سهل بن حنيف قال: مر عامر بن ربيعة بسهل بن حنيف وهو يغتسل فقال: لم أر كالיום ولا جلد مخبأة، فما لبث أن لبث [أُسقط] به، فأتي به رسول الله ﷺ فقبل له أدرك سهلاً صريعاً، قال: من تتهمون به قالوا: عامر بن ربيعة، قال: علام يقتل أحدكم أخاه؟ إذا رأى أحدكم من أخيه ما يعجبه فليدع له بالبركة، ثم دعا بماء فأمر عامراً أن يتوضأ فيغسل وجهه ويديه إلى المرفقين وركبتيه وداخلته إزاره، وأمره أن يصب عليه. قال سفيان وأمر أن يكفأ الإناء من خلفه.^(٢)

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: ((كان رسول الله ﷺ يتعوذ من أعين الجان وأعين الإنس، فلما نزلت المعوذتان أخذ بهما وترك ما سوى ذلك)).^(٣)

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ اشتكى فأتاه جبريل عليه السلام فقال: ((باسم الله أرقيك من كل شيء يؤذيك، من كل حاسد وعين والله يشفيك)).

قالت أسماء بنت عميس رضي الله عنها: يا رسول الله إن بني جعفر تصيبهم العين

(١) صحيح البخاري، كتاب الأنبياء، باب: (يزفون) [الصفات: ٢٩٤]: النسلان في المشي، ج ٤/١١٩.

(٢) انظر: رواية ابن ماجه في سننه، كتاب الطب، باب العين، ج ٢/١١٦٠، حديث رقم: ٣٥٠٩؛ الإمام أحمد في مسنده، ج ٣/٤٤٧.

(٣) سنن الترمذي، كتاب الطب، باب ما جاء في الرقية بالمعوذتين، ج ٤/٣٩٥، حديث رقم: ٢٠٥٨؛ والنسائي سننه، كتاب الاستعاذة، باب الاستعاذة من عين الجان، ج ٨/٢٧١.

أفأسترقى لهم؟ قال ﷺ: ((نعم فلو كان شيء يسبق القدر لسبقته العين)).

عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ أمرها أن تسترقى من العين.^(١)

عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: ((استعيذوا بالله من العين فإن العين حق)).^(٢)

وقوله تعالى: ﴿ويقولون إنه لمجنون﴾ أي يزدرونه بأعينهم ويؤذونه بالسنتهم ويقولون: ﴿إنه لمجنون﴾ أي لمجيئه بالقرآن الكريم. قال الله تعالى: ﴿وما هو إلا ذكر للعالمين﴾.^(٣)

(١) صحيح مسلم، كتاب السلام، باب استحباب الرقية من العين والنملة والحممة والنظرة، ج ١٧/٧.

(٢) سنن ابن ماجه، كتاب الطب، باب العين، ج ١١٥٩/٢، حديث رقم: ٣٥٠٨؛ الحاكم، المستدرک، کتاب الطب، ج ٢٣٩/٤، حديث رقم: ٧٤٩٧.

(٣) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٢٠٢/١٢ - ٢٠٤؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١٩٠٨/٢ - ١٩١١.

سورة الحاقة

إخباره ﷺ عن صرعى قوم عاد:

قال تعالى: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾﴾ [الحاقة].

ذكر تعالى إهلاكه الأمم المكذبين. فقال تعالى عن قوم عاد: ﴿وَأَمَّا عاد فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾ أي باردة شديدة الهبوب، عتت عليهم بغير رحمة ولا بركة.

﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ﴾ أي سلطها عليهم ﴿سبع ليالٍ وثمانية أيام حسوماً﴾ أي كوامل متتابعات مشؤومة. قال تعالى: ﴿فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾. ﴿خاوية﴾ خربة بالية أي جعلت الريح تضرب بأحدهم لأرض فيخر ميتاً على أم رأسه، فينشدخ رأسه وتبقى جثته هامة كأنها قائمة النخلة إذا خرت بلا أغصان.

وقد ثبت عن رسول الله ﷺ أنه قال: ((نصرت بالصبا وأهلكت عاد بالدبور)).^(١)

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: ((ما فتح الله على عاد من الريح التي هلكوا بها إلا مثل موضع الخاتم. فمرت بأهل البادية فحملتهم

(١) صحيح البخاري، كتاب الاستسقاء، باب قول النبي ﷺ: (نصرت بالصبا)، ج ٢/ ٢٢.

ومواشيهم وأموالهم فجعلتهم بين السماء والأرض. فلما رأى ذلك أهل الحاضرة من عاد الرياح، وما فيها قالوا هذا عارض ممطرنا. فألقت أهل البادية ومواشيهم على أهل الحاضرة)).^(١)

﴿فهل ترى لهم من باقية﴾ أي هل تحس منهم يا محمد من أحد من بقاياهم أو ممن ينتسب إليهم، بل بادوا عن آخرهم، ولم يجعل الله لهم خلفاً. ثم قال تعالى: ﴿وجاء فرعون ومن قبله﴾ أي ومن قبله من الأمم المشبهين له.

وقوله تعالى: ﴿والمؤتفكات﴾ وهم الأمم المكذبون بالرسول، ﴿بالخاطئة﴾ وهي التكذيب بما أنزل الله والمعصية والخطايا، ولهذا قال تعالى: ﴿فعضوا رسول ربهم﴾ أي كل كذب رسول الله إليهم، كما جاء إلى كل أمة رسول واحد، ولهذا قال تعالى هاهنا: ﴿فعضوا رسول ربهم فأخذهم أخذة رابية﴾ أي: عزيمة شديدة أليمة مهلكة.

ثم قال تعالى: ﴿إنا لما طغى الماء﴾ أي زاد على الحد بإذن الله وارتفع وكثر؛ وذلك بسبب دعوة نوح عليه السلام على قومه حين كذبوه وخالفوه، فعبدوا غير الله فاستجاب الله له وعم أهل الأرض بالطوفان إلا من كان مع نوح في السفينة. فالناس كلهم من سلالة نوح وذريته.

قال تعالى ممتتاً على الناس: ﴿إنا لما طغى الماء حملناكم في الجارية﴾، وهي السفينة الجارية على وجه الماء؛ ﴿لنجعلها لكم تذكرة﴾ عاد الضمير على الجنس؛ لدلالة المعنى عليه، أي وأبقينا لكم من جنسها ما تركبون على تيار الماء في البحار.

(١) انظر: كتابي "معالم في تاريخ الأنبياء"، ص ٨٧.

وروي أن الله تعالى أبقى السفينة حتى أدركها أوائل هذه الأمة، كما قال تعالى: ﴿وتعياها أذن واعية﴾ أي وتفهم هذه النعمة وتذكرها أذن واعية، حافظة سامعة. ﴿أذن واعية﴾ عقلت عن الله فاننتفعت بما سمعت من كتاب الله، ووعت بما لها من سمع صحيح وعقل رجيح، ذي فهم ووعى.^(١)

الدفاع عنه ﷺ وأمره بالتسبيح:

قال تعالى: ﴿وَلَوْ نَقُولَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنْكُمْ مَنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ ﴿٥١﴾ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٥٢﴾﴾ [الحاقة].

يقول تعالى: ﴿ولو تقول علينا﴾ أي محمد ﷺ لو كان كما يزعمون مفترياً علينا فزاد في الرسالة أو نقص منها، أو قال شيئاً من عنده فنسبه إلينا وليس كذلك، لعاجلناه بالعقوبة. ولهذا قال تعالى: ﴿لأخذنا منه باليمين﴾ لانتقمنا منه باليمين؛ لأنها أشد في البطش، وقيل لأخذنا منه بيمينه، ﴿ثم لقطعنا منه الوتين﴾ هي نياط القلب، وهو العرق الذي معلق فيه القلب.

وقوله تعالى: ﴿فما منكم من أحد عنه حاجزين﴾ أي فما يقدر أحد منكم أن يحجز بيننا وبينه إذا أردنا به شيئاً من ذلك. والمعنى أنه ﷺ صادق بار راشد لا؛ لأن الله ﷻ مقرر له ما يبلغه عنه ومؤيد له بالمعجزات الباهرات والدلالات القاطعات.

ثم قال تعالى: ﴿وانه لتذكرة للمتقين﴾ يعني القرآن الكريم.

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١٢/٢٠٧ - ٢١٠؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٩١٢ - ١٩١٣.

قال تعالى: ﴿وإنا لنعلم أن منكم مكذبين﴾ أي مع هذا البيان والوضوح سيوجد منكم من يكذب بالقرآن الكريم.

ثم قال تعالى: ﴿وإنه لحسرة على الكافرين﴾ التكذيب حسرة على الكافرين يوم القيامة وندامة. ويحتمل عود الضمير على القرآن الكريم، أي: وإن القرآن والإيمان به لحسرة في نفس الأمر على الكافرين. ثم قال تعالى هاهنا: ﴿وإنه لحق اليقين﴾ أي الخبر الصادق الحق الذي لا مرية فيه ولا شك ولا ريب. ثم قال تعالى: ﴿فسبح باسم ربك العظيم﴾ أي الذي أنزل هذا القرآن العظيم.^(١)

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١٢/ ٢٢٣ - ٢٢٤؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/ ١٩١٦.

سورة المعارج

أمره ﷺ بالصبر الجميل:

قال تعالى: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴿١﴾ لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ ﴿٢﴾ مِنْ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ ﴿٣﴾ تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾ فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ﴿٦﴾ وَنَرَاهُ قَرِيبًا ﴿٧﴾﴾ [المعارج].

﴿سأل سائل بعذاب واقع﴾ استعجل سائل بعذاب واقع، وعذابه واقع لا محالة.

عن ابن عباس ؓ في قوله تعالى: ﴿سأل سائل بعذاب واقع﴾ قال: النضر بن الحارث بن كلدة، وقيل ذلك سؤال الكفار عامة عن عذاب الله وهو واقع بهم، دعا داع بعذاب واقع يقع في الآخرة.

وقوله تعالى: ﴿واقع للكافرين﴾ أي مرصد معد للكافرين، وقال ابن عباس ؓ: واقع جاء، ﴿ليس له دافع﴾ أي لا دافع له إذا أراد الله كونه. ولهذا قال تعالى: ﴿من الله ذي المعارج﴾ عن ابن عباس ؓ في قوله تعالى: ﴿ذي المعارج﴾ قال: ذو الدرجات، والعلو والفواضل، ﴿ذي المعارج﴾ معارج السماء، ذي الفواضل والنعم.

وقوله تعالى: ﴿تعرج الملائكة والروح إليه﴾ تصعد. يحتمل أن يكون المراد به جبريل ؑ أو أن يكون اسم جنس لأرواح بني آدم فإنها إذا قبضت يصعد بها إلى السماء.

وقوله تعالى: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾. قيل مدى أمره من أسفل الأرضين إلى منتهى أمره من فوق السماوات مقدار خمسين ألف سنة، يعني بذلك حين ينزل الأمر من السماء إلى الأرض، ومن الأرض إلى السماء في يوم واحد، قيل هو يوم الفصل بين الدنيا والآخرة، وقيل المراد بذلك يوم القيامة.

وقوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا﴾ أي اصبر يا محمد على تكذيب قومك لك واستعجالهم العذاب، استبعاداً لوقوعه. ثم قال: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا﴾ أي وقوع العذاب. وقيام الساعة يراه الكفرة بعيد الوقوع بمعنى مستحيل الوقوع، ﴿وَنَرَاهُ قَرِيبًا﴾ أي المؤمنون يعتقدون كونه قريباً، وإن كان له أمد لا يعلمه إلا الله ﷻ، لكن كل ما هو آت فهو قريب وواقع لا محالة.^(١)

إمهال الكافرين ووعيدهم:

قال تعالى: ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا قَبْلَكَ مُهْطِعِينَ ۖ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ ۖ أَتُطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ۚ كَلَّا ۖ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ ۚ فَلَا أُقِيمُ رَبِّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ إِنَّا لَقَدِيرُونَ ۚ ۞ عَلَى أَنْ تُبَدِّلَ خَيْرًا مِنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ۚ فَذَرْنَاهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي بُعِدُوا ۚ ۞ يَوْمَ يُخْرِجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سَرَّاعًا كَانَتْهُمْ إِلَى نَضَبٍ يُوفُضُونَ ۚ ۞ خَشَعَةً أَبْصَرُهُمْ تَرَهِقُهُمْ ذَلَّةٌ ذَلِكَ الْيَوْمِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ۚ ۞﴾ [المعارج].

أنكر الله ﷻ على الكفار الذين كانوا في زمن النبي ﷺ وهم مشاهدون له ولما أرسله الله به من الهدى وما أيده الله به من المعجزات الباهرات، ثم هم مع هذا كله فارون منه متفرقون عنه، شاردون يميناً وشمالاً فرقاً فرقاً، وشيعاً شيعاً. مهطعين أي مسرعين نافرين منك، متفرقين.

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١٢/ ٢٢٥ - ٢٢٩؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/ ١٩١٧ - ١٩١٨.

ينظرون ﴿عن اليمين وعن الشمال عزين﴾ العزين العصب من الناس عن يمين وشمال معرضين يستهزئون به ، متفرقين يأخذون يميناً وشمالاً يقولون: ما قال هذا الرجل؟ وقال قتادة: ﴿مهطعين﴾ عامدين في التفرق عن النبي ﷺ لا يرغبون في كتاب الله ولا في نبيه ﷺ. عن جابر بن سمرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ خرج عليهم وهم حلق فقال: ما لي أراكم عزين؟^(١)

وقوله تعالى: ﴿أيطمع كل امرئ منهم أن يدخل جنة نعيم كلاً﴾ أي: أيطمع هؤلاء والحالة هذه من فرارهم عن رسول الله ﷺ ونفارهم عن الحق أن يدخلوا جنات النعيم؟ كلا ، بل مأواهم جهنم.

ثم قال تعالى مقررًا لوقوع المعاد والعذاب بهم الذي أنكروا كونه واستبعدوا وجوده ، مستدلًا عليهم بالبداء التي الإعادة أهون منها ، وهم معترفون بها. فقال تعالى: ﴿إنا خلقناهم مما يعلمون﴾ أي من المني الضعيف.

ثم قال تعالى: ﴿فلا أقسم برب المشارق والمغارب﴾ أي الذي خلق السماوات والأرض وجعل مشرقاً ومغرباً وسخر الكواكب ، تبدو من مشارقها وتغيب في مغاربها. والمعنى ليس الأمر كما تزعمون أن لا معاد ولا حساب ولا بعث ولا نشور ، بل كل ذلك واقع وكائن لا محالة ، وهو رد على زعمهم الفاسد في نفي يوم القيامة.

وقد شاهدوا من عظيم قدرة الله تعالى ما هو أبلغ من إقامة القيامة ، وهو خلق السماوات والأرض وتسخير ما فيهما من المخلوقات من الحيوانات والجمادات وسائر صنوف الموجودات ، ثم قال تعالى هاهنا: ﴿فلا أقسم برب

(١) صحيح مسلم ، كتاب الصلاة ، باب الأمر بالسكون في الصلاة ، والنهي عن الإشارة باليد ورفعها عند السلام ، وإتمام الصفوف الأول والتراص فيها والأمر بالاجتماع ، ج ٢/ ٢٩.

المشارك والمغارب إنا لقادرون على أن نبدل خيراً منهم ﴿أي يوم القيامة نعيدهم بأبدانهم هذه فإن قدرته صالحة لذلك ﴿وما نحن بمسبوقين﴾ أي بعاجزين، ويرى بعضهم أن المقصود ﴿على أن نبدل خيراً منهم﴾ أي أمة تطيعنا ولا تعصينا، وخلق كذلك.

ثم قال تعالى: ﴿فذرهم﴾ أي: يا محمد ﴿يخوضوا ويلعبوا﴾ أي دعهم في تكذيبهم وكفرهم وعنادهم ﴿حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون﴾ أي فسيعلمون غيب ذلك ويذوقون وبالاه، ﴿يوم يخرجون من الأجداث سراغاً كأنهم إلى نصب يوفضون﴾ أي: يقومون من القبور إذا دعاهم الرب جل جلاله لموقف الحساب ينهضون سراغاً كأنهم إلى نصب يوفضون، إلى علم غاية يسعون إليها. والنصب بضم النون والصاد وهو الصنم، أي كأنهم في إسراعهم إلى الموقف كما كانوا في الدنيا يهرولون إلى النصب إذا عاينوه، يوفضون يبتدرون أيهم يستلمه أول.

وقوله تعالى: ﴿خاشعة أبصارهم﴾ أي: خاضعة ﴿ترهقهم ذلة﴾ أي في مقابلة ما استكبروا في الدنيا عن الطاعة، ﴿ذلك اليوم الذي كانوا يوعدون﴾.^(١)

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١٢/ ٢٤٠ - ٢٤٥؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/ ١٩٢٠ - ١٩٢١.

سورة الجن

استماع الجن للقرآن من رسول الله ﷺ:

قال تعالى: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَمْ نُشْرِكْ بِرَبِّنَا أَحَدًا ۝٢ وَأَنَّهُ تَعَلَّى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا ۝٣ وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا ۝٤ وَأَنَا ظَنَنَّا أَن لَّنْ نَقُولَ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ۝٥ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ۝٦ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَن لَّنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا ۝٧﴾ [الجن].

يقول تعالى أمراً رسوله ﷺ أن يخبر الناس أن الجن استمعوا القرآن الكريم، فأمنوا به وصدقوه وانقادوا له. فقال تعالى: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ﴾ أي إلى السداد والنجاح، ﴿فَأَمْنَا بِهِ وَلَمْ نُشْرِكْ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ تَعَلَّى جَدُّ رَبِّنَا﴾ أي فعله وعظمته وأمره وقدرته وآلاؤه ونعمته على خلقه تعالى الله علواً كبيراً.

وقوله تعالى: ﴿مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ أي تعالى عن اتخاذ صاحبة والأولاد، تنزه الرب ﷻ، قالوا ذلك حين أسلموا وآمنوا بالقرآن الكريم نزهاً الرب ﷻ عن اتخاذ صاحبة والولد. ثم قالوا: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا﴾ يعنون إبليس ﴿شَطَطًا﴾ أي جوراً وظلماً كبيراً. ويحتمل أن يكون المراد بقولهم سفيهناسم جنس لكل من زعم أن لله

صاحبة أو ولدًا ، ولهذا قالوا: ﴿وأنه كان يقول سفيها﴾ أي قبل إسلامه ﴿على الله شططا﴾ أي باطلاً وزوراً ، ولهذا قالوا: ﴿وأنا ظننا أن لن تقول الإنس والجن على الله كذبا﴾ ، أي ما حسبنا أن الإنس والجن يتمالؤون على الكذب على الله تعالى في نسبة صاحبة والولد إليه ، فلما سمعنا هذا القرآن وآمنا به علمنا أنهم كانوا يكذبون على الله في ذلك.

وقوله تعالى: ﴿وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا﴾ أي كنا نرى أن لنا فضلاً على الإنس؛ لأنهم كانوا يعوذون بنا إذا نزلوا وادياً أو مكاناً موحشاً من البراري وغيرها ، كما كانت عادة العرب في جاهليتها يعوذون بعظيم ذلك المكان من الجن أن يصيبهم شيء يسوؤهم ، كما كان أحدهم يدخل بلاد أعدائه في جوار رجل كبير وذمامه وخفارته. فلما رأت الجن أن الإنس يعوذون بهم من خوفهم منهم زادوهم رهقا أي خوفاً وإرهاباً وذعراً ، حتى بقوا أشد منهم مخافة وأكثر تعوداً بهم. ﴿فزادوهم رهقا﴾ أي ازدادت الجن عليهم بذلك جراءة ، وذكروا أنه كان الرجل يخرج بأهله فيأتي الأرض فينزلها ، فيقول: أعوذ بسيد هذا الوادي من الجن أن أضروا وأنا فيه أو مالي أو ولدي أو ماشيتي ، فإذا عاذ بهم من دون الله رهقتهم الجن الأذى عند ذلك.^(١)

تجمع الجن لسماع القرآن الكريم وتحذيرهم قومهم:

قال تعالى: ﴿وأنه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبدا﴾ (١٩) ﴿قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا﴾ (٢٠) ﴿قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾ (٢١) ﴿قُلْ إِنِّي لَنْ يُخِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾ (٢٢) ﴿إِلَّا بَلَاغًا مِنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١٢/ ٢٥٨ - ٢٦٥؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/ ١٩٢٤ - ١٩٢٥.

خَلِيدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴿٢٣﴾ حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَيَسْئَلُونَ مَنْ أَضَعُ نَاصِرًا وَاقِلٌ عَدَدًا ﴿٢٤﴾ [الجن].

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾. عن ابن عباس ؓ يقول: لَمَّا سَمِعُوا النَّبِيَّ ﷺ يَتْلُو الْقُرْآنَ كَادُوا يَرْكَبُونَ بَعْضُهُمْ مِنَ الْحَرَصِ لَمَّا سَمِعُوهُ يَتْلُو الْقُرْآنَ وَدَنُوا مِنْهُ. فَلَمْ يَعْلَمْ بِهِمْ حَتَّىٰ أَتَاهُ الرَّسُولُ، فَجَعَلَ يَقْرَأُهُ: ﴿قُلْ أَوْحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ﴾ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ.

عن ابن عباس ؓ قال: قَالَ الْجِنُّ لِقَوْمِهِمْ: ﴿لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾، لَمَّا رَأَوْهُ يَصْلِي وَأَصْحَابُهُ يَرْكَعُونَ بَرَكُوعَهُ وَيَسْجُدُونَ بِسُجُودِهِ قَالَ: عَجَبُوا مِنْ طَوَاعِيَةِ أَصْحَابِهِ، لَهُ قَالَ: فَقَالُوا لِقَوْمِهِمْ ﴿لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾. وَهَذَا قَوْلُ ثَانٍ. وَقِيلَ: لَمَّا قَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَيَدْعُو النَّاسَ إِلَى رَبِّهِمْ كَادَتِ الْعَرَبُ تَلْبِدَ عَلَيْهِ جَمِيعًا.

وقيل تلبدت الإنس والجن على هذا الأمر ليطفئوه، فأبى الله إلا أن ينصره ويمضيه ويظهره على من ناواه وقوله تعالى بعده: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وَلَا أَشْرِكُ بِهِ أَحَدًا﴾ أي: قَالَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَمَّا آذَوْهُ وَخَالَفُوهُ وَكَذَّبُوهُ وَتَظَاهَرُوا عَلَيْهِ لِيَبْطُلُوا مَا جَاءَ بِهِ مِنَ الْحَقِّ وَاجْتَمَعُوا عَلَىٰ عِدَاوَتِهِ ﴿إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي﴾ أي إِنَّمَا أَعْبُدُ رَبِّي وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَأَسْتَجِيرُ بِهِ وَأَتَوَكَّلُ عَلَيْهِ، ﴿وَلَا أَشْرِكُ بِهِ أَحَدًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾ أي إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ يُوحَىٰ إِلَيَّ وَعَبُدْ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ، لَيْسَ إِلَيَّ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ فِي هِدَايَتِكُمْ وَلَا غَوَايَتِكُمْ، بَلِ الْمَرْجِعُ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ إِلَى اللَّهِ ﷻ. ثُمَّ أَخْبَرَ عَنْ نَفْسِهِ أَيْضًا أَنَّهُ

لا يجيره من الله أحد ولا يقدر أحد إنقاذه منه ومن عذابه لو عصيته ، ﴿ولن أجد من دونه ملتحداً﴾ نصيراً ومعيناً.

وقوله تعالى: ﴿إلا بلاغاً من الله ورسالاته﴾ هو مستثنى من قوله تعالى: ﴿قل إني لا أملك لكم ضرراً ولا رشداً﴾ في قوله تعالى: ﴿إلا بلاغاً﴾. ويحتمل أن يكون استثناءً من قوله تعالى: ﴿لن يجيرني من الله أحد﴾ أي لا يجيرني منه ويخلصني إلا إبلاغي الرسالة التي أوجب الله تعالى أداءها علي.

وقوله تعالى: ﴿ومن يعص الله ورسوله فإن له نار جهنم خالدين فيها أبداً﴾ أي إنما أبلغكم رسالة الله فمن يعص بعد ذلك فله جزاء على ذلك نار جهنم، خالدين فيها أبداً أي لا محيد لهم عنها ولا خروج لهم منها.

وقوله تعالى: ﴿حتى إذا رآوا ما يوعدون فسيعلمون من أضعف ناصراً وأقل عدداً﴾ أي حتى إذا رأى هؤلاء المشركون من الجن والإنس ما يوعدون يوم القيامة فسيعلمون يومئذ من أضعف ناصراً وأقل عدداً، هم أم المؤمنون الموحدون لله تعالى. فالمشركون لا ناصر لهم بالكلية. وهم أقل عدداً من جنود الله.^(١)

التحذير من وعيد رسول الله ﷺ:

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ أَدْرَيْتُمْ أَقْرَبُ مَا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا ۖ ﴿٢٥﴾ عَلِيمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا ۖ ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ۖ ﴿٢٧﴾ لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رَسُولَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ۖ ﴿٢٨﴾﴾ [الجن].

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١٢/ ٢٧١ - ٢٧٥؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/ ١٩٢٧ - ١٩٢٨.

يقول تعالى آمراً رسوله ﷺ أن يقول للناس إنه لا علم له بوقت الساعة ولا يدري أقرب وقتها أم بعيد. ﴿قُلْ إِنْ أَدْرِي أَقْرَبُ مَا تَوَعَّدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا﴾ أي مدة طويلة.

وقد كان ﷺ يُسأل عن وقت الساعة فلا يجيب عنها. ولما تبدى له جبريل في صورة أعرابي كان فيما سألته أن قال: يا محمد فأخبرني عن الساعة؟ قال ﷺ: ما المسؤول عنها بأعلم من السائل. ولما ناداه ذلك الأعرابي بصوت جهوري فقال: يا محمد متى الساعة؟ قال: ويحك إنها كائنة فما أعددت لها؟ قال: أما إنني لم أعد لها كثير صلاة ولا صيام، ولكني أحب الله ورسوله. قال ﷺ: فأنت مع من أحببت. قال أنس رضي الله عنه: فما فرح المسلمون بشيء فرحهم بهذا الحديث.

وقوله تعالى: ﴿عَالَمُ الْغَيْبِ فَلَا يظْهَرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا إِلَّا مَنْ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ﴾ قال ﷺ هاهنا: إنه يعلم الغيب والشهادة، وأنه لا يطلع أحد من خلقه على شيء من علمه إلا مما أطلعه تعالى عليه، ولهذا قال: ﴿عَالَمُ الْغَيْبِ فَلَا يظْهَرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا إِلَّا مَنْ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ﴾ وهذا يعم الرسول الملكي والبشري.

ثم قال تعالى: ﴿فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا﴾ أي يخصه بمزيد معقبات من الملائكة يحفظونه من أمر الله ويساقونهم على ما معه من وحي الله. ولهذا قال تعالى: ﴿لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رَسُولَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾ وقد اختلف المفسرون في الضمير الذي في قوله: ﴿لِيَعْلَمَ﴾ إلى من يعود؟ فقليل إنه عائد على النبي ﷺ. وحفظة من الملائكة مع جبريل ﴿لِيَعْلَمَ﴾ محمد ﷺ ﴿أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رَسُولَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾.

ليعلم نبي الله ﷺ أن الرسل ﷺ قد بلغت عن الله وأن الملائكة ﷺ حفظتها ودفعت عنها.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿إلا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً﴾ قال: هي معقبات من الملائكة ﷺ، يحفظون النبي ﷺ من الشياطين حتى يتبين الذي أرسل به إلى الخلق، وليعلم أهل الشرك والناس أن الرسل ﷺ قد أبلغوا. فالله تعالى يحفظ رسله بملائكته ليتمكنوا من أداء رسالاته، ويحفظ ما ينزله إليهم من الوحي ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم.

مع العلم بأنه تعالى يعلم الأشياء قبل كونها قطعاً لا محالة. ولهذا قال تعالى بعد هذا: ﴿وأحاط بما لديهم وأحصى كل شيء عدداً﴾.^(١)

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١٢/ ٢٧٥ - ٢٧٧؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/ ١٩٢٨ - ١٩٢٩.

سورة المزمل

قيام المزمل ﷺ وتبتله وتسبيحه:

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَزْمِلُ ۝١ قُمْ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢ نِصْفَهُ ۝ أَوْ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ ۝٤ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ۝٥ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٦ إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ۝٧ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ۝٨ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا ۝٩﴾ [المزمل].

يأمر تعالى رسوله ﷺ أن يترك التزمل، وهو التغطي في الفراش ليلاً، وينهض إلى القيام لربه سبحانه. ثم بين تعالى له مقدار ما يقوم مصلياً ليلاً. فقال تعالى: ﴿يا أيها المزمل قم الليل إلا قليلاً﴾. وورد أنها نزلت وهو ﷺ متمزلاً بقطيفة. وقوله تعالى: ﴿نصفه﴾ بدل من الليل ﴿أو انقص منه قليلاً أو زد عليه﴾ أي أمرناك أن تقوم نصف الليل بزيادة قليلة أو نقصان قليل، لا حرج عليك في ذلك.

وقوله تعالى: ﴿ورتل القرآن ترتيلاً﴾ أي اقرأه على تمهل، فإنه يكون عوناً على فهم القرآن وتدبره. وكذلك كان يقرأ ﷺ، قالت عائشة رضي الله عنها: كان يقرأ السورة فيرتلها حتى تكون أطول من أطول منها.

وفي صحيح البخاري: عن أنس رضي الله عنه أنه سئل عن قراءة رسول الله ﷺ فقال: كانت مداً ثم قرأ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ يمد بسم الله ويمد الرحمن ويمد الرحيم.^(١)

(١) رواه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل القرآن، باب مد القراءة، ج ٦/ ١١٢.

عن أم سلمة رضي الله عنها أنها سئلت عن قراءة رسول الله ﷺ فقالت: كان يقطع قراءته آية آية ﴿بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الدين﴾ [الفاتحة: ١ - ٤].^(١)

والأحاديث المتعددة دالة على استحباب الترتيل وتحسين الصوت بالقراءة، كما جاء في الحديث: ((زينوا القرآن بأصواتكم)).^(٢)

وقوله ﷺ: ((ليس منا من لم يتغن بالقرآن)).^(٣)

وقوله ﷺ: ((لقد أوتي هذا مزمراً من مزامير آل داود)) يعني أبا موسى الأشعري رضي الله عنه، فقال أبو موسى رضي الله عنه: ((لو كنت أعلم أنك كنت تسمع قراءتي لحبرته لك تحبيراً)).^(٤)

وقوله تعالى: ﴿إنا سنلقي عليك قولاً ثقیلاً﴾ قال الحسن وقتادة: أي العمل به. وقيل: ثقیل وقت نزوله من عظمتها، كما قال زيد بن ثابت رضي الله عنه: (أنزل على رسول الله ﷺ وفخذه على فخذي فكادت ترض فخذي)).

روى البخاري رحمه الله عن عائشة رضي الله عنها أن الحارث بن هشام سأل رسول الله ﷺ:

(١) سنن أبي داود، كتاب الحروف والقراءات، باب (١)، ص ٧١٩، حديث رقم: ٤٠٠١.

(٢) رواه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب قول النبي ﷺ: (الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة). و(زينوا القرآن بأصواتكم)، ج ٢١٤/٨؛ الإمام أحمد في مسنده، ج ٢٨٣/٤.

(٣) رواه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: (وأسرُّوا قولكم أو اجهروا به إنه عليم بذات الصدور). ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير)، ج ٢٠٩/٨.

(٤) رواه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل القرآن، باب حسن الصوت بالقراءة للقرآن، ج ١١٢/٦؛ صحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب تحسين الصوت بالقرآن، ج ١٩٢/٢ - ١٩٣.

((كيف يأتيك الوحي؟ فقال: أحياناً يأتي في مثل صلصلة الجرس، وهو أشده علي فيفصم عني، وقد وعيت عنه ما قال. وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول. قالت عائشة رضي الله عنها: ولقد رأيته ينزل عليه الوحي ﷺ في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه، وإن جبينه ليتفصد عرقاً)).^(١)

عن عائشة رضي الله عنها قالت: ((إن كان ليوحى إلى رسول الله ﷺ وهو على راحلته فتضرب بجرانها)).^(٢) والجران هو باطن العنق.

وقوله تعالى: ﴿إِنْ نَاشِئَةُ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلاً﴾ قال عمر وابن عباس وابن الزبير رضي الله عنهم: الليل كله ناشئة. ويقال نشأ إذا قام من الليل. وقيل: بعد العشاء. وناشئة الليل هي ساعاته وأوقاته. وكل ساعة منه تسمى ناشئة وهي الآنات. والمقصود أن قيام الليل هو أشد مواطأة بين القلب واللسان وأجمع على التلاوة. ولهذا قال تعالى: ﴿هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلاً﴾ أي أجمع للخاطر في أداء القراءة وتفهمها من قيام النهار.

ولهذا قال تعالى: ﴿إِنْ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْعًا طَوِيلًا﴾: فراغاً طويلاً وبغية ومنقلباً. لحوائجك فأفرغ لصلاتك بالليل. قال وهذا حين كانت صلاة الليل فريضة. ثم إن الله ﷻ من على عباده فخففها ووضعها، وقرأ: ﴿قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ إلى آخر الآية، ثم قرأ: ﴿إِنْ رَبِّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثِي اللَّيْلِ وَنُصْفَهُ﴾ حتى بلغ ﴿فَاقْرَأْ مَا تيسر منه﴾ الليل نصفه أو ثلثه. ثم جاء أمر أوسع وأفسح وضع الفريضة عنه وعن أمته.

وحدثت عائشة رضي الله عنها أحد من سألها عن قيام رسول الله ﷺ. قالت: ألسنت

(١) رواه البخاري في صحيحه، باب كيف كان بدء الوحي على رسول الله ﷺ، ج ٢/١.

(٢) رواه الإمام أحمد في مسنده، ج ١١٨/٦.

تقرأ هذه السورة ﴿يا أيها المزل﴾ قل: بلى. قالت: فإن الله افترض قيام الليل في أول هذه السورة. فقام رسول الله ﷺ وأصحابه حولاً حتى انتفخت أقدامهم. وأمسك الله خاتمتها في السماء اثني عشر شهراً، ثم أنزل الله التخفيف في آخر هذه السورة، فصار قيام الليل تطوعاً من بعد فريضة.

وروي عن عائشة رضي الله عنها: كان ﷺ إذا شغله عن قيام الليل نوم أو وجع أو مرض صلى من النهار اثنتي عشرة ركعة، ولا أعلم نبي الله ﷺ قرأ القرآن كله في ليلة، ولا قام ليلة حتى أصبح، ولا صام شهراً كاملاً غير رمضان.

عن عائشة رضي الله عنها: كنت أجعل لرسول الله ﷺ حصيراً يصلي عليه من الليل، فتسامع الناس به فاجتمعوا فخرج كالمغضب، وكان بهم رحيماً، فخشي أن يكتب عليهم قيام الليل، فقال ﷺ: أيها الناس اكلفوا من الأعمال ما تطيقون فإن الله لا يمل من الثواب حتى تملوا من العمل. وخير الأعمال ما ديم عليه. ونزل القرآن الكريم ﴿يا أيها المزل قم الليل إلا قليلاً نصفه أو انقص منه قليلاً أو زد عليه﴾ حتى كان الرجل يربط الحبل ويتعلق، فمكثوا بذلك ثمانية أشهر. فرأى الله ما يبتغون من رضوانه فرحمهم، فردهم إلى الفريضة وترك قيام الليل.

عن ابن عباس رضي الله عنهما: في قوله تعالى: ﴿قم الليل إلا قليلاً نصفه أو انقص منه قليلاً أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلاً﴾ فأمر الله تعالى نبيه ﷺ والمؤمنين بقيام الليل إلا قليلاً. فشق ذلك على المؤمنين. ثم خفف الله تعالى عنهم ورحمهم، فأنزل تعالى بعد هذا ﴿علم أن سيكون منكم مرضى وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فاقرؤا ما تيسر منه﴾، فوسع الله تعالى وله الحمد ولم يضيق.

وقوله تعالى: ﴿واذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتيلاً﴾ أي أكثر من ذكره

وانقطع إليه وتفرغ لعبادته إذا فرغت من أشغالك وما تحتاج إليه من أمور، وأخلص له العبادة واجتهد ويقال للعابد: متبتل. وقد نهى ﷺ عن التبتل والانقطاع إلى العبادة وترك الزوج.^(١)

وقوله تعالى: ﴿رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلاً﴾ أي هو المالك المتصرف في المشارق والمغارب الذي لا إله إلا هو، وكما أفردته بالعبادة فأفردته بالتوكل ﴿فاتخذه وكيلاً﴾.^(٢)

الصبر على المكذبين وهجرانهم وشهادته ﷺ عليهم:

قال تعالى: ﴿وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾^(١٠) وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النِّعَمَةِ وَمَهْلَهُمْ قَلِيلًا^(١١) إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَحِمَامًا^(١٢) وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا^(١٣) يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيرًا مَّهِيلًا^(١٤) إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا^(١٥) فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا^(١٦) فَكَيْفَ تَنْقُوتَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا^(١٧) السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ^(١٨) كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا^(١٩)﴾ [المزمل].

يقول تعالى آمراً رسوله ﷺ بالصبر على ما يقوله من كذبه من سفهاء قومه، وأن يهجرهم هجراً جميلاً وهو الذي لا عتاب معه، ﴿واصبر على ما يقولون واهجرهم هجراً جميلاً﴾، ثم متهدداً لكفار قومه ومتوعداً لهم، وهو العظيم الذي لا يقوم لغضبه شيء. ﴿وذرنى والمكذبين أولي النعمة﴾ أي دعني والمكذبين المترفين أصحاب الأموال فإنهم على الطاعة أقدر من غيرهم. وهم يطالبون من الحقوق بما ليس عند غيرهم، ﴿ومهلهم قليلاً﴾ أي رويداً ثم قال تعالى: ﴿إن لدينا أنكالاً﴾ وهي القيود.

(١) انظر: البخاري، كتاب النكاح، باب الترغيب في النكاح....، ج ١١٦/٦.

(٢) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٢٧٨/١٢ - ٢٨٧؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١٩٢٩/٢ - ١٩٢٩.

﴿وجحيمًا﴾ وهي السعير المضطربة، ﴿وطعامًا ذا غصة﴾ قال ابن عباس رضي الله عنه: ينشب في الحلق فلا يدخل ولا يخرج، ﴿وعذابًا أليمًا يوم ترجف الأرض والجبال﴾ أي تزلزل، ﴿وكانت الجبال كشيئًا مهيلًا﴾ أي: تصير ككثبان الرمل بعد ما كانت حجارة صماء. ثم إنها تتسف نسفًا فلا يبقى منها شيء إلا ذهب حتى تصير الأرض قاعًا صفصفًا لا ترى فيها عوجًا أي واديًا ولا أمتًا أي: رابية. ومعناه لا شيء ينخفض ولا شيء يرتفع.

ثم قال تعالى مخاطبًا لكفار قريش والمراد سائر الناس: ﴿إنا أرسلنا إليكم رسولاً شاهداً عليكم﴾ هو محمد صلى الله عليه وسلم شاهداً على أعمالكم ﴿كما أرسلنا إلى فرعون رسولاً فعصى فرعون الرسول فأخذناه أخذًا وبيلًا﴾ أي شديدًا! فاحذروا أنتم أن تكذبوا هذا الرسول فيصيبكم ما أصاب فرعون، حيث أخذه الله أخذ عزيز مقتدر. وأنتم أولى بالهلاك والدمار إن كذبتكم رسولكم.

وقوله تعالى: ﴿فكيف تتقون إن كفرتم يومًا يجعل الولدان شيبًا﴾؟ فكيف تفرون أيها الناس من يوم يجعل الله تعالى الولدان شيبًا إن كفرتم بالله ولم تصدقوا به؟ وكيف يحصل لكم أمان من هذا الفزع العظيم ويومه إن كفرتم؟ وكيف يحصل لكم تقوى وحماية إن كفرتم يوم القيامة وجحدتموه؟

ومعنى قوله تعالى: ﴿يومًا يجعل الولدان شيبًا﴾ أي من شدة أهواله وزلازله وبلائه. عن ابن عباس رضي الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ: ﴿يومًا يجعل الولدان شيبًا﴾ قال صلى الله عليه وسلم: ذلك يوم القيامة.

وقوله تعالى: ﴿السماء منفطر به﴾ من شدته وهوله. وقوله تعالى: ﴿كان

وعده مفعولاً ﴿أي كان وعد هذا اليوم مفعولاً أي واقعاً لا محالة وكائنًا لا محيد عنه.﴾^(١)

قيامه الليل ﷺ بالقرآن:

قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِنْ ثُلُثِي اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ، وَثُلُثَهُ، وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عِلْمَ أَن لَّنْ نُّحْصِيَهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَّرْضَىٰ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَقَرِّضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ مِن خَيْرٍ نُّحَدِّثْهُ عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ وَأَعْظَمُ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (المزمل).

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِنْ ثُلُثِي اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ﴾ أي تارة هكذا وتارة هكذا ، وذلك كله من غير قصد منكم، ولكن لا تقدر على المواظبة على ما أمركم به من قيام الليل؛ لأنه يشق عليكم، ولهذا قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَقْدِرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ أي تارة يعتدلان وتارة يأخذ هذا من هذا وهذا من هذا ﴿علم أن لن تحصوه﴾ أي: الفرض الذي أوجبه عليكم، ﴿فاقرءوا ما تيسر من القرآن﴾ أي من غير تحديد بوقت، أي ولكن قوموا من الليل ما تيسر، وعبر عن الصلاة بالقراءة.

وقوله تعالى: ﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَّرْضَىٰ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: علم تعالى أن سيكون من هذه الأمة ذوو أعذار في ترك قيام الليل من مرضى لا

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١٢/ ٢٨٧ - ٢٩٢؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/ ١٩٣٢ - ١٩٣٣.

يستطيعون ذلك، ومسافرين في الأرض يبتغون من فضل الله في المكاسب والمتاجر، وآخرين مشغولين بما هو الأهم في حقهم من الغزو في سبيل الله. وهذه الآية، بل السورة كلها مكية، ولم يكن القتال شرع بعد، فهي من أكبر دلائل النبوة؛ لأنه من باب الإخبار بالمغيبات المستقبلية، ولهذا قال تعالى: ﴿فأقرؤا ما تيسر منه﴾ أي: قوموا بما تيسر عليكم منه.^(١)

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١٢/ ٢٩٣ - ٢٩٥؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/ ١٩٣٣ - ١٩٣٤.

سورة المدثر

المدثر ﷺ وتطهره وتكبيره:

قال تعالى: ﴿بِأَيِّهَا الْمُدَّثِّرُ (١) قُمْ فَأَنْذِرْ (٢) وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ (٣) وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (٤) وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ (٥) وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْبِرُ (٦) وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ (٧) فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ (٨) فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ (٩) عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ (١٠)﴾ [المدثر].

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يحدث عن فترة الوحي، فقال ﷺ في حديثه: فبينما أنا أمشي إذ سمعت صوتاً من السماء، فرفعت بصري قبل السماء، فإذا الملك الذي جاءني بحراء قاعد على كرسي بين السماء والأرض فجثت منه حتى هويت إلى الأرض، فجئت إلى أهلي فقلت: زملوني زملوني فزملوني (وفي رواية دثروني)، فأنزل الله تعالى: ﴿يا أيها المدثر قم فأندر﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فاهجر﴾.^(١)

عن ابن عباس رضي الله عنهما يقول: إن الوليد بن المغيرة صنع لقريش طعاماً، فلما أكلوا منه قال: ما تقولون في هذا الرجل؟ فقال بعضهم: ساحر، وقال بعضهم: ليس بساحر، وقال بعضهم: كاهن، وقال بعضهم: ليس بكاهن، وقال بعضهم: شاعر، وقال بعضهم: ليس بشاعر، وقال بعضهم: بل سحر يؤثر، فأجمع رأيهم على أنه سحر يؤثر. فبلغ ذلك النبي ﷺ فحزن

(١) انظر: رواية مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ، ج ١/ ٩٨؛ البخاري في صحيحه، كتاب بدء الوحي، بينا أنا أمشي إذ سمعت صوتاً من السماء، ج ١/ ٤.

وقنع رأسه وتدثر، فأنزل الله تعالى: ﴿يا أيها المدثر قم فأندِر وربك فكبر وثيابك فطهر والرجز فاهجر ولا تمنن تستكثر ولربك فاصبر﴾^(١).

وقوله تعالى: ﴿قم فأندِر﴾ أي شمر عن ساق العزم وأندِر الناس. وبهذا حصل الإرسال كما حصلت بالأول النبوة.

﴿وربك فكبر﴾ أي عظم. وقوله تعالى: ﴿وثيابك فطهر﴾ نَزَّهَهَا. عن ابن عباس رضي الله عنه قال: لا تلبسها على معصية ولا على غدر.

تطهر من الذنوب ومن الإثم، وأعرض عما قالوا. وقال قتادة: ﴿وثيابك فطهر﴾ أي نظفها وطهرها من المعاصي، كما إنه ﷺ لمطهر الثياب.

ولا تكن ثيابك التي تلبس من مكسب غير طيب، ونظفها بغسلها بالماء. وكان المشركون لا يتطهرون، فأمره الله تعالى أن يتطهر وأن يطهر ثيابه. وتشمل الآية جميع ذلك مع طهارة القلب وحسن الخلق ووضوح النظافة في الثياب وغيرها.

وقوله تعالى: ﴿والرجز فاهجر﴾ عن ابن عباس رضي الله عنه: ﴿والرجز﴾ هي الأصنام والمعاصي فاهجر ابتعد عنها، ونهيه ﷺ لا يلزم تلبسه بشيء من ذلك.

وقوله تعالى: ﴿ولا تمنن تستكثر﴾ قال ابن عباس رضي الله عنه: لا تعط العطية تلتمس أكثر منها. وقيل لا تمنن بعملك على ربك تستكثره، لا تضعف أن تستكثر من الخير. قال تمنن في كلام العرب تضعف، أو تمنن بالنبوة على الناس تستكثرهم بها، تأخذ عليه عوضاً من الدنيا.

وقوله تعالى: ﴿ولربك فاصبر﴾ أي اجعل صبرك على أذاهم لوجه ربك ﷻ.

(١) انظر: ابن أبي شيبة، المغازي، ص ١٠٦

وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا نَقَرَ فِي النَّاقُورِ فَذَلِكَ يَوْمُنَا يَوْمُ عَسِيرٍ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرِ يَسِيرٍ﴾ الصور. وقيل: هو كهيئة القرن.

عن ابن عباس ؓ: ﴿فَإِذَا نَقَرَ فِي النَّاقُورِ﴾ قال رسول الله ﷺ: كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن وحنى جبهته ينتظر متى يؤمر فينفخ؟ قال أصحاب رسول الله ﷺ: فما تأمرنا يا رسول الله؟ قال: قولوا (حسبنا الله ونعم الوكيل على الله توكلنا).^(١)

وقوله تعالى: ﴿فَذَلِكَ يَوْمُنَا يَوْمُ عَسِيرٍ﴾ أي شديد ﴿عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرِ يَسِيرٍ﴾ أي غير سهل عليهم.^(٢)

إمهال الله للمعاندين المتهمين لرسول الله ﷺ:

قال تعالى: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ۖ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا ۖ وَبَنِينَ شُهُودًا ۖ وَمَهْدَتُ لَهُ مَهِيدًا ۖ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ۖ كَلَّا ۖ إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا ۖ سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا ۖ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ۖ فَقِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۖ ثُمَّ قِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۖ ثُمَّ نَظَرَ ۖ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ۖ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ۖ فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ ۖ إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ۖ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ۖ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ ۖ لَا بُقْيَ وَلَا نَذْرُ ۖ لَوْ آتَاكَ لِلْبَشَرِ ۖ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ۖ﴾ [المدثر].

يقول تعالى متوعداً للخبيث (الوليد بن المغيرة المخزومي) الذي أنعم الله عليه بنعم الدنيا فكفر بأنعم الله وبدلها كفرًا وقابلها بالجحود بآيات الله والافتراء عليه، وجعلها من قول البشر. وقد عدد الله عليه نعمه، حيث قال تعالى: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾ أي خرج من بطن أمه وحده لا مال له ولا ولد، ثم رزقه الله تعالى: ﴿مَالًا مَمْدُودًا﴾ أي واسعًا كثيرًا. وجعل له بنين

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده، ج ١/٣٢٦؛ سنن الترمذي، كتاب تفسير القرآن، باب (ومن سورة الزمر)، ج ٥/٣٧٢، حديث رقم: ٣٢٤٣.

(٢) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١٢/٢٩٦ - ٣٠٥؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٩٣٤ - ١٩٣٦.

﴿شهوداً﴾ لا يغيبون، أي حضوراً عنده قعود عند أبيهم يتمتع بهم ويتملى بهم. وكان له فيما ذكر ثلاثة عشر، وأبلغ في النعمة إقامتهم عنده، ﴿ومهدت له تمهيداً﴾ أي مكنته من صنوف المال والأثاث وغير ذلك.

﴿ثم يطمع أن أزيد كلا إنه كان لآياتنا عنيداً﴾ أي معانداً، وهو الكفر بنعم الله بعد العلم. قال الله تعالى: ﴿سأرهقه صعوداً﴾.

عن أبي سعيد رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: ((ويل واد في جهنم، يهوي فيه الكافر أربعين خريفاً قبل أن يبلغ قعره)).^(١) والصعود جبل من نار، يصعد فيه الكافر سبعين خريفاً، ثم يهوي به كذلك أبداً. وهي مشقة من العذاب، الذي لا راحة فيه.

وقوله تعالى: ﴿إنه فكر وقدر﴾ أي إنما أرهقناه بالعذاب الشاق لبعده عن الإيمان؛ لأنه فكر وقدر أي تروى ماذا يقول في القرآن الكريم حين سئل عن القرآن الكريم ففكر ماذا يخلق من المقال. ﴿وقدر﴾ أي تروى ﴿فقتل كيف قدر ثم قتل كيف قدر﴾ دعاء عليه. ﴿ثم نظر﴾ أي أعاد النظرة والتروي ﴿ثم عبس﴾ أي قبض بين عينيه وقطب ﴿وبسر﴾ أي كبح وكره.

وقوله تعالى: ﴿ثم أدبر واستكبر﴾ أي صرف عن الحق ورجع القهقهري مستكبراً عن الانقياد للقرآن. ﴿فقال إن هذا إلا سحر يؤثر﴾ أي هذا سحر ينقله محمد عن غيره ممن قبله ويحكيه عنهم. ولهذا قال تعالى: ﴿إن هذا إلا قول البشر﴾ أي ليس بكلام الله، وهذا المذكور في هذا السياق هو الوليد بن المغيرة المخزومي أحد رؤساء قريش لعنه الله.

عن ابن عباس رضي الله عنه قال: دخل الوليد بن المغيرة على أبي بكر بن أبي

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده، ج ٧٥/٣.

قحافة ﷺ فسأله عن القرآن، فلما أخبره خرج على قريش فقال: يا عجباً لما يقول ابن أبي كبشة.^(١) فوالله ما هو بشعر ولا بسحر ولا بهذي من الجنون، وإن قوله لمن كلام الله. فلما سمع بذلك النفر من قريش اتّمروا وقالوا: والله لئن صبا الوليد لتصبو قريش.

فلما سمع بذلك أبو جهل بن هشام قال: أنا والله أكفيكم شأنه، فانطلق حتى دخل عليه بيته، فقال للوليد: ألم تر إلى قومك قد جمعوا لك الصدقة؟ فقال: ألسنتُ أكثرهم مالا وولداً؟ فقال له أبو جهل: يتحدثون أنك إنما تدخل على ابن أبي قحافة لتصيب من طعامه، فقال الوليد: أقدر تحدث به عشيرتي؟ فلا والله لا أقرب ابن أبي قحافة ولا عمر ولا ابن أبي كبشة، وما قوله: ﴿إلا سحر يؤثر﴾ فأنزل الله على رسوله ﷺ ﴿ذرني ومن خلقت وحيداً﴾ إلى قوله: ﴿لا تبقي ولا تذر﴾.^(٢)

وقد روي أنه قال: والله لقد نظرت فيما قال الرجل فإذا هو ليس بشعر وإن له لحلاوة، وإنه عليه لطلاوة، وإنه ليعلو وما يعلو عليه. وما أشك أنه سحر. فأنزل الله: ﴿فقتل كيف قدر﴾ الآية.

قال الله تعالى: ﴿سأصليه سقر﴾ أي سأغمره فيها من جميع جهاته. ثم قال تعالى: ﴿وما أدراك ما سقر﴾ وهذا تهويل لأمرها وتفخيم. ثم فسر ذلك بقوله تعالى: ﴿لا تبقي ولا تذر﴾ أي تأكل لحومهم وعروقهم وعصبهم وجلودهم ثم تبدل غير ذلك، وهم في ذلك لا يموتون ولا يحيون.

(١) وابن أبي كبشة جاهلي فارق قومه في ترك آلهتهم وعبد إله غير آلهتهم فشبهوه به ﷺ وحاشاه الشرك.

(٢) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ج ١/ ٢٩٤ كتابي "رسول الله وخاتم النبيين"، ج ٢/ ٢٨٦.

وقوله تعالى: ﴿لَوَاحِيَةٌ لِلْبُشْرِ﴾ تلفح الجلد لفحة، فتدعه أسود وتلوح أجسادهم فتحرق بشرة أهل النار.

وقوله تعالى: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ أي من مقدمي الزبانية عظيم خلقهم غليظ وخلقهم.

عن البراء رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ قال: إن رهطاً من اليهود سألوا رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ عن خزنة جهنم، فقال: الله ورسوله أعلم. فجاء الرجل فأخبر النبي ﷺ، فأنزل الله تعالى عليه ساعتئذ ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ فأخبر أصحابه وقال: ادعهم، أما إني سائلهم عن تربة الجنة إن أتوني، أما إنها درمكة بيضاء. فجأؤوه فسألوه عن خزنة جهنم فأهوى بأصابع كفيه مرتين وأمسك الإبهام في الثانية، ثم قال: أخبروني عن تربة الجنة؟ فقالوا: أخبرهم يا ابن سلام، فقال: كأنها خبزة بيضاء: فقال رسول الله ﷺ: ((أما إن الخبز إنما يكون من الدرملك)).^(١)

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١٢/ ٣٠٥ - ٣١٢؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/ ١٩٣٦ - ١٩٣٨.
و(الدرمكة): هو الناعم من الدقيق والرمل المماثل له في النعومة والبياض.

سورة القيامة

بعده ﷺ عن العجلة في القراءة وبيان الله تعالى له:

قال تعالى: ﴿لَا تُحْرِكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ (١٦) ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾ (١٧) ﴿فَإِذَا قَرَأَهُ فَأُنْثِيَ قُرْآنَهُ﴾ (١٨) ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ (١٩) [القيامة].

هذا تعليم من الله سبحانه لرسوله ﷺ في كيفية تلقيه الوحي من الملك، فإنه كان يبادر إلى أخذه، ويسابق الملك في قراءته. فأمره الله ﷻ إذا جاءه الملك بالوحي أن يستمع له. وتكفل الله له أن يجمعه في صدره ﷻ، وأن ييسره لأدائه على الوجه الذي ألقاه عليه، وأن يبينه له ويفسره ويوضحه. فالحالة الأولى جمعه في صدره، والثانية تلاوته، والثالثة تفسيره وإيضاح معناه.

ولهذا قال تعالى: ﴿لَا تُحْرِكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ أي بالقرآن، ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ﴾ أي في صدرك يا محمد، ﴿وَقُرْآنَهُ﴾ أي أن تقرأه، ﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ﴾ أي إذا تلاه عليك الملك عن الله تعالى: ﴿فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾ أي فاستمع له ثم اقرأه كما أقرأك. ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ أي بعد حفظه وتلاوته نبينه لك ونوضحه ونلهمك معناه على ما أردنا وشرعنا.

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ((كان رسول الله ﷺ يعالج من التنزيل شدة، فكان يحرك شفثيه ... فأنزل الله تعالى: ﴿لَا تُحْرِكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ إن علينا جمعه وقرآنه قال: جمعه في صدرك، ثم تقرأه ﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ

قرآنه ﴿، أي فاستمع له وأنصت، ﴿ثم إن علينا بيانه﴾ فكان بعد ذلك إذا انطلق جبريل قرأه كما أقرأه)).^(١)

وعن ابن عباس ؓ: ﴿لا تحرك به لسانك لتعجل به﴾ قال: كان لا يفتر من القراءة، مخافة أن ينساه، فقال الله تعالى: ﴿لا تحرك به لسانك لتعجل به إن علينا جمعه﴾ أن نجمعه لك، ﴿وقرآنه﴾ أن نقرئك فلا تتسى. ﴿ثم إن علينا بيانه﴾ تبين معانيه وحلاله وحرامه.^(٢)

(١) انظر: رواية البخاري في صحيحه، كتاب بدء الوحي، باب قوله تعالى: (لا تحرك به لسانك لتعجل به)، ج ١/٤؛ ومسلم في صحيحه، كتاب الصلاة، باب الاستماع للقراءة، ج ٢/٣٥.

(٢) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١٢/٣٣٨ - ٣٤٢؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٩٤٢.

سورة الإنسان

نزل القرآن عليه ﷺ وأمره بالسجود:

قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا ۚ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا ۚ وَادْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۚ وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ۚ إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذْرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ۚ نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ ۚ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَلَهُمْ تَبْدِيلًا ۚ إِنَّ هَؤُلَاءِ تَذَكَّرُ ۚ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ۚ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ۚ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ ۚ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۚ﴾ [الإنسان].

يقول تعالى ممتنًا على رسوله ﷺ بما أنزله عليه من القرآن العظيم تنزيلاً: ﴿فاصبر لحكم ربك﴾ أي كما أكرمتك بما أنزلت عليك فاصبر على قضائه وقدره، واعلم أنه سيدبرك بحسن تدبيره، ﴿ولا تطع منهم آثماً أو كفوراً﴾ أي لا تطع الكافرين والمنافقين إن أرادوا صدك عما أنزل إليك، بل بلغ ما أنزل إليك من ربك وتوكل على الله فإن الله يعصمك من الناس، فالآثم هو الفاجر في أفعاله، والكفور هو الكافر قلبه.

﴿واذكر اسم ربك بكرة وأصيلًا﴾ أي أول النهار وآخره. ﴿ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلاً طويلاً﴾ ثم قال تعالى منكراً على الكفار ومن أشبههم في حب الدنيا والإقبال عليها والانصباب إليها وترك الدار الآخرة وراء ظهورهم: ﴿إن هؤلاء يحبون العاجلة ويذرون وراءهم يوماً ثقيلاً﴾ يعني يوم القيامة.

ثم قال تعالى: ﴿نحن خلقناهم وشددنا أسرهم﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: يعني خلقهم، ﴿وإذا شئنا بدلنا أمثالهم تبديلاً﴾ أي وإذا شئنا بعثناهم يوم القيامة وبدلناهم تبديلاً، أي وإذا شئنا أتينا بقوم آخرين غيرهم.

ثم قال تعالى: ﴿إن هذه تذكرة﴾ يعني هذه السورة تذكرة، ﴿فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلاً﴾ أي طريقاً ومسلماً، أي من شاء اهتدى بالقرآن. ثم قال تعالى: ﴿وما تشاؤون إلا أن يشاء الله﴾ أي لا يقدر أحد أن يهدي نفسه ولا يدخل في الإيمان ولا يجر لنفسه نفعاً، ﴿إلا أن يشاء الله إن الله كان عليماً حكيماً﴾ أي عليم بمن يستحق الهداية فييسرها له ويقيض له أسبابها، ومن يستحق الغواية فيصرفه عن الهدى. وله الحكمة البالغة، والحجة الدامغة. ولهذا قال تعالى: ﴿إن الله كان عليماً حكيماً﴾.

ثم قال تعالى: ﴿يدخل من يشاء في رحمته والظالمين أعد لهم عذاباً أليماً﴾ أي يهدي من يشاء ويضل من يشاء. فمن يهده فلا مضل له. ومن يضل فلا هادي له.^(١)

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١٢/ ٣٧٣ - ٣٧٦؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/ ١٩٤٩.

سورة المرسلات

الحديث عن يوم الفصل له ﷺ ولأمته:

قال تعالى: ﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا ۝١ فَالْعَصْفَاتِ ۝٢ وَالنَّشْرِتِ نَشْرًا ۝٣ فَالْفَرْقَتِ فَرَقًا ۝٤ فَالْمُلْقِيَتِ ذِكْرًا ۝٥ عَذْرًا أَوْ نَذْرًا ۝٦ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ ۝٧ فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ ۝٨ وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ ۝٩ وَإِذَا الْجِبَالُ سُفِفَتْ ۝١٠ وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِنَتْ ۝١١ لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ۝١٢ لِيَوْمِ الْفَصْلِ ۝١٣ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ ۝١٤ وَلَبَّيْكَ يَوْمَ الْمُكَدِّبِينَ ۝١٥﴾ [المرسلات].

عن أبي هريرة رضي الله عنه **﴿والمرسلات عُرْفًا﴾** قال: الملائكة. وفي العاصفات والناشرات والفارقات والملقيات قيل إنها الملائكة، وقيل هي الريح.

وكذا قال أبو هريرة رضي الله عنه في: **﴿فالعاصفات عصفًا والناشرات نشرًا﴾** إنها الريح. وقطع بعضهم بأن العاصفات عصفًا الرياح. وروي أن الناشرات نشرًا هي المطر. والأظهر أن المرسلات هي الرياح يقال عصف الرياح إذا هبت بتصويت. وكذا الناشرات هي الرياح التي تشر السحاب في آفاق السماء كما يشاء الرب سبحانه.

وقوله تعالى: **﴿فالفارقات فرقًا فالملقيات ذكراً عذراً أو نذراً﴾** يعني الملائكة. فإنها تنزل بأمر الله على الرسل تفرق بين الحق والباطل، والهدى والغى، والحلال والحرام، وتلقي إلى الرسل وحياً فيه إعدار إلى الخلق وإنذار لهم عقاب الله إن خالفوا أمره.

وقوله تعالى: **﴿إنما توعدون لواقع﴾** هذا هو المقسم عليه بهذه الأقسام، أي

ما وعدتم به من قيام الساعة والنفخ في الصور، وبعث الأجساد وجمع الأولين والآخرين في صعيد واحد ومجازاة كل عامل بعمله إن خيراً فخير وإن شراً فشر. إن هذا كله ﴿لواقع﴾ أي لكائن.

ثم قال تعالى: ﴿فإذا النجوم طمست﴾ أي ذهب ضوؤها ﴿وإذا السماء فرجت﴾ أي انفطرت وانشقت وتدلّت أرجاؤها ووهت أطرافها.

﴿وإذا الجبال نسفت﴾ أي ذهب بها فلا يبقى لها عين ولا أثر. وقوله تعالى: ﴿وإذا الرسل أقتت﴾ جمعت ووقفت ليوم موعود.

ثم قال تعالى: ﴿لأي يوم أجلت ليوم الفصل وما أدراك ما يوم الفصل ويل يومئذ للمكذبين﴾. يقول تعالى لأي يوم أجلت الرسل وأرجئ أمرها حتى تقوم، وهو يوم الفصل، كما قال تعالى: ﴿ليوم الفصل﴾. ثم قال تعالى معظماً لشأنه: ﴿وما أدراك ما يوم الفصل ويل يومئذ للمكذبين﴾ أي ويل لهم من عذاب الله غداً.^(١)

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١٢/٣٧٧ - ٣٨٤؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٩٥٠.

سورة النبأ

مفاز المتقين كما أخبر به ﷺ:

قال تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ۖ (٣١) حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا ۖ (٣٢) وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ۖ (٣٣) وَكَأْسًا دِهَاقًا ۖ (٣٤) لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَابًا ۖ (٣٥) جَزَاءً مِّن رَّبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا ۖ (٣٦)﴾ [النبأ].

يقول تعالى مخبراً عن السعداء وما أعد لهم تعالى من الكرامة والنعيم المقيم فقال تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾. قال ابن عباس ؓ: فوزاً بعد نجاتهم من النار ودخولهم الجنة. ثم قال تعالى بعده: ﴿حَدَائِقَ﴾ وهي البساتين من النخيل وغيرها، ﴿وَأَعْنَابًا وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا﴾ أي وحوراً كواعب أي نواهد، يعنون أن ثديهن نواهد لم يتدلين؛ لأنهن أبكار عُرب أتراب أي في سن واحدة.

وقوله تعالى: ﴿وَكَأْسًا دِهَاقًا﴾ قال ابن عباس ؓ: مملوءة ومتتابعة صافية، ملأى مترعة. وقوله تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَابًا﴾ أي: ليس فيها كلام لاغ عار عن الفائدة ولا إثم كذب، بل هي دار السلام. وكل ما فيها سالم من النقص. وقوله تعالى: ﴿جَزَاءً مِّن رَّبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا﴾ أي هذا الذي ذكرناه جازاهم الله به ربك الله. وأعطاهم به بفضله ومنه وإحسانه ورحمته، ﴿عَطَاءً حِسَابًا﴾ أي كافياً وافياً شاملاً كثيراً، تقول العرب: أعطاني فأحسبني أي كفاني. ومنه حسبي الله أي الله كافي^(١).

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١٢/٤١٠ - ٤١٤؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٩٥٥.

سورة النازعات

تذكيره ﷺ بحديث موسى عليه السلام وفرعون:

قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى (١٥) إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (١٦) أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (١٧) فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَهٌ إِلَّا أَن تَرْكَبَ (١٨) وَأَهْدِيكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى (١٩) فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى (٢٠) فَكَذَّبَ وَعَصَى (٢١) ثُمَّ أَذْبَرْ سَعَى (٢٢) فَحَشَرَ فَنَادَى (٢٣) فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى (٢٤) فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى (٢٥) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَى (٢٦)﴾ [النازعات].

يخبر تعالى رسوله محمداً ﷺ عن عبده ورسوله موسى عليه السلام أنه ابتغته إلى فرعون، وأيده الله بالمعجزات، ومع هذا استمر على كفره وطغيانه، حتى أخذه الله أخذ عزيز مقتدر. وكذلك عاقبة من خالفك وكذب بما جئت به، ولهذا قال تعالى في آخر القصة: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَى﴾ فقوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى﴾ أي هل سمعت بخبره؟ ﴿إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ﴾ أي كلمه نداءً ﴿بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ﴾ أي المطهر ﴿طُوًى﴾ وهو اسم الوادي، فقال تعالى له: ﴿أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾ أي: تجبر وتمرد وعتا.

﴿فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَهٌ إِلَّا أَن تَرْكَبَ﴾ أي قل يا محمد ﷺ له: هل لك أن تجيب إلى طريقة ومسلك تركى به وتسلم وتطيع، ﴿وَأَهْدِيكَ إِلَى رَبِّكَ﴾ أي أدلك إلى عبادة ربك ﴿فَتَخْشَى﴾ أي فيصير قلبك خاضعاً له مطيعاً خاشعاً، بعد ما كان قاسياً خبيثاً بعيداً من الخير ﴿فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى﴾ يعني فأظهر له موسى عليه السلام مع هذه الدعوة الحق، حجة قوية ودليلاً واضحاً على صدق ما جاءه به من عند الله. ﴿فَكَذَّبَ وَعَصَى﴾ أي فكذب بالحق وخالف ما أمره

به من الطاعة، مع علمه بأن ما جاء به حق ولم يقم بالانقياد للحق والخضوع له.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى﴾ أي في مقابلة الحق بالباطل، وهو جمعه السحرة؛ ليقابلوا ما جاء به موسى عليه السلام من المعجزات الباهرات. ﴿فَحَشَرَ فَنَادَى﴾ أي في قومه، ﴿فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ مدعيًا الإلهية لنفسه، ﴿فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى﴾ أي انتقم الله منه انتقامًا جعله به عبرة ونكالاً لأمثاله من المتمردين في الدنيا. المراد بقوله: ﴿نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى﴾ أي الدنيا والآخرة. وقوله تعالى: ﴿إِنْ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةٌ لِّمَن يَخْشَى﴾ أي لمن يتعظ وينزجر. ^(١)

أمر الساعة لله تعالى:

قال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾ ﴿٤٢﴾ ﴿فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرِهَا﴾ ﴿٤٣﴾ ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ مِنْهَا﴾ ﴿٤٤﴾ ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ مَّنْ يَخْشَاهَا﴾ ﴿٤٥﴾ ﴿كَانَتْهُمْ يَوْمَ يُرَوَّنَا لَمْ يَلْبِسُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾ ﴿٤٦﴾ ﴿[النازعات].﴾

ثم قال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مَرْسَاهَا فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا إِلَى رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا﴾ أي ليس علمها إليك يا محمد ولا إلى أحد من الخلق، بل مردّها ومرجعها إلى الله ﷻ. فهو وحده ﷻ الذي يعلم وقتها. وقال تعالى هاهنا: ﴿إِلَى رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا﴾. ولما سأل جبريل رسول الله ﷺ عن وقت الساعة قال: "ما المسؤول عنها بأعلم من السائل".

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ مِّنْ يَّخْشَاهَا﴾ أي إنما بعثتك يا محمد لتنذر الناس وتحذّرهم من بأس الله وعذابه. فمن خشى الله وخاف مقامه ووعيده

(۱) انظر: الطبري، تفسيره، ج ۱۲/ ۴۳۱- ۴۳۵؛ ابن كثير، تفسيره، ج ۲/ ۱۹۵۷- ۱۹۵۸.

اتبعك فأفلح وأنجح. والخيبة والخسار على من كذبك وخالفك. وقوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرُونَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾ أي إذا قاموا من قبورهم إلى المحشر يستقصرون مدة الحياة الدنيا، حتى كأنها عندهم كانت عشيّة من يوم أو ضحى من يوم. أما عشيّة فما بين الظهر إلى غروب الشمس، ﴿أَوْ ضُحَاهَا﴾ ما بين طلوع الشمس إلى نصف النهار. فوقت الدنيا في أعين القوم حين عاينوا الآخرة أقصر من هذه".^(١)

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١٢/ ٤٤١ - ٤٤٢؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/ ١٩٥٨ - ١٩٥٩.

سورة عبس

تذكيره ﷺ بحال ابن أم مكتوم الأعمى ﷺ:

قال تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى ۖ (١) أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى (٢) وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَكِّي (٣) أَوْ يَذْكُرُ فَنُفَعُهُ الزَّكْرَى (٤) أَمْ مِنْ أَسْتَغْنَى (٥) فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى (٦) وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَكِّي (٧) وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى (٨) وَهُوَ يَخْشَى (٩) فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى (١٠) كَلَّا إِنَّمَا تَذَكَّرُ (١١) فَتَنْشَأُ ذِكْرُهُ (١٢) فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ (١٣) مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ (١٤) بِأَيْدِي سَفَرَةٍ (١٥) كِرَامٍ بَرَرَةٍ (١٦)﴾ [عبس].

ذكر غير واحد من المفسرين أن رسول الله ﷺ كان يوماً يخاطب بعض عظماء قريش، وقد طمع في إسلامه. فبينما هو يخاطبهم إذ أقبل ابن أم مكتوم (الأعمى) ﷺ، وكان ممن أسلم قديماً، فجعل يسأل رسول الله ﷺ عن شيء ويلح عليه، وود النبي ﷺ أن لو كف ساعته تلك؛ ليتمكن من مخاطبة أولئك؛ طمعاً ورغبة في هدايتهم.

وعبس ﷺ في وجه ابن أم مكتوم ﷺ وأعرض عنه، وأقبل على الآخرين، فأنزل الله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَكِّي﴾ أي تحصل له زكاة وطهارة في نفسه، ﴿أَوْ يَذْكُرُ فَنُفَعُهُ الزَّكْرَى﴾ أي يحصل له اتعاظ وانزجار عن المحارم ﴿أَمْ مِنْ أَسْتَغْنَى فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى﴾ أي أما الغني فأنت تتعرض له لعله يهتدي.

﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَكِّي﴾ أي ما أنت بمطالب به إذا لم تحصل له زكاة. ﴿وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى وَهُوَ يَخْشَى﴾ أي يقصدك ويؤمك؛ ليهتدي بما تقول له: ﴿فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى﴾ أي تتشاغل. ومن هاهنا أمر الله تعالى رسوله ﷺ ألا

يخص بالإنذار أحداً، بل يساوي فيه بين الشريف والضعيف والفقير والغني والسادة والعبيد والرجال والنساء والصغار والكبار. ثم الله تعالى يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم وله الحكمة البالغة والحجة الدامغة.

عن أنس رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿عبس وتولى﴾ جاء ابن أم مكتوم رضي الله عنه إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو يكلم أبي بن خلف فأعرض عنه، فأنزل الله تعالى: ﴿عبس وتولى أن جاءه الأعمى﴾، فكان النبي صلى الله عليه وسلم بعد ذلك يكرمه.

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: رأيته يوم القادسية وعليه درع ومعه راية سوداء يعني ابن أم مكتوم رضي الله عنه.^(١)

عن عائشة رضي الله عنها قالت: أنزلت ﴿عبس وتولى﴾ في ابن أم مكتوم الأعمى، أتى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فجعل يقول: أرشدني، قالت: وعند رسول الله صلى الله عليه وسلم رجل من عظماء المشركين. قالت: فجعل النبي صلى الله عليه وسلم يعرض عنه ويقبل على الآخر، ويقول: أترى بما أقول بأساً؟ فيقول: لا! ففي هذا أنزلت ﴿عبس وتولى﴾.

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه يقول: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: إن بلالاً يؤذن بليل فكلوا واشربوا حتى تسمعوا أذان ابن أم مكتوم. وهو الأعمى الذي أنزل الله تعالى فيه ﴿عبس وتولى أن جاءه الأعمى﴾. وكان يؤذن مع بلال. وكان رجلاً ضريراً البصر فلم يك يؤذن حتى يقول له الناس حين ينظرون إلى بزوغ الفجر أذن.^(٢)

(١) انظر: ابن حجر، الإصابة، ج ٢/٥٢٣؛ كتابي، الفتوح الإسلامية عبر العصور، ص ١٢٢.
(٢) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١٢/٤٤٣ - ٤٤٦؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٩٥٩ - ١٩٦٠.
(وانظر: رواية صحيح البخاري، كتاب الأذان، باب: الأذان قبل الفجر، ج ١/١٥٤؛ مسلم في صحيحه، باب بيان أن الدخول في الصوم يحصل بطلوع الفجر، وأن له الأكل وغيره حتى يطلع الفجر. وبيان صفة الفجر الذي تتعلق به الأحكام من الدخول في الصوم، ودخول وقت صلاة الصبح، وغير ذلك، ج ٣/١٢٨، ١٢٩.)

سورة التكوير

الدفاع عن رسول الله ﷺ:

قال تعالى: ﴿فَلَا أَقْسِمُ بِالْخُنُوسِ ۝١٥ الْجَوَارِ الْكُنُوسِ ۝١٦ وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ۝١٧ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ۝١٨ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝١٩ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ۝٢٠ مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ۝٢١ وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ ۝٢٢ وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ ۝٢٣ وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ ۝٢٤ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ ۝٢٥ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ۝٢٦﴾ [التكوير].

عن عمرو بن حريث رضي الله عنه قال: صليت خلف النبي ﷺ الصبح فسمعتَه يقرأ: ﴿فلا أقسم بالخنس الجوار الكنس والليل إذا عسعس والصبح إذا تنفس﴾ وروي عن علي رضي الله عنه: ﴿فلا أقسم بالخنس، الجوار الكنس﴾ قال: هي النجوم، تخنس بالنهار وتظهر بالليل.

وقال بعض الأئمة: إنما قيل للنجوم الخنس أي في حال طلوعها، ثم هي جوار في فللكها وفي حال غيوبتها يقال لها كنس، من قول العرب أوى الظبي إلى كناسة إذا تغيب فيه.

وقوله تعالى: ﴿والليل إذا عسعس﴾ فيه قولان، أحدهما إقباله بظلامه إذا نشأ. وعن ابن عباس رضي الله عنه: ﴿إذا عسعس﴾ إذا أدبر وذهب فتولى. ولعله يصح استعماله في الإقبال والإدبار. وقال كثير من العلماء: إن لفظة عسعس تستعمل في الإقبال والإدبار على وجه الاشتراك. فعلى هذا يصح أن يراد كل منهما. وقوله تعالى: ﴿والصبح إذا تنفس﴾ أي أضاء وأقبل عند طلوعه وتبين، وكأنه أقسم بالليل وظلامه إذا أقبل وبالفجر وضيائه إذا أشرق.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ يعني إن هذا القرآن الكريم لتبليغ رسول كريم أي ملك شريف حسن الخلق بهي المنظر وهو جبريل عليه السلام، ﴿ذِي قُوَّةٍ﴾ شديد الخلق شديد البطش والفعل، ﴿عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ أي له مكانة عند الله سبحانه ومنزلة رفيعة، ﴿مَطَاعَ ثَمٍّ﴾ أي له وجاهة وهو مسموع القول مطاع في الملاء الأعلى في السماوات، يعني هو من السادة والأشراف من الملائكة اختير من بينهم لهذه الرسالة العظيمة.

وقوله تعالى: ﴿أَمِينٍ﴾ صفة لجبريل بالأمانة، وهذا عظيم جداً أن الرب عز وجل يزكي عبده ورسوله الملكي جبريل عليه السلام كما زكى عبده ورسوله البشري محمداً ﷺ بقوله تعالى: ﴿وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ﴾ يعني محمداً ﷺ.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأَفْقِ الْمُبِينِ﴾ ولقد رأى محمد ﷺ جبريل عليه السلام الذي يأتيه بالرسالة عن الله عز وجل على الصورة التي خلقه الله عليها، له ست مئة جناح، ﴿بِالْأَفْقِ الْمُبِينِ﴾ أي البين وهي الرؤية الأولى التي كانت بالبطحاء في مكة المكرمة.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾ أي: وما محمد على ما أنزله الله إليه بضنين أي بمتهم. فهو يوصله لكل أحد. وما هو بكاذب وما هو بفاجر. والظنين المتهم، كان القرآن الكريم غيباً فأنزله الله على محمد ﷺ فما ضن به على الناس، بل نشره وبلغه وبذله لكل من أراد.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ﴾ أي وما هذا القرآن الكريم بقول شيطان رجيم. أي لا يقدر على حمله ولا يريده ولا ينبغي له. وقوله تعالى: ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾ أي فأين تذهب عقولكم في تكذيبكم بهذا القرآن مع ظهوره ووضوحه وبيان كونه حقاً من عند الله، ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾ أي عن كتاب الله وعن طاعته.

وقوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ أي هذا القرآن ذكر لجميع الناس يتذكرون به ويتعظون، ﴿لَمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ﴾ أي من أراد الهداية فعليه بهذا القرآن الكريم فإنه منجاة له وهداية. ولا هداية فيما سواه، ﴿وَمَا تَشَاؤُنْ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ أي ليست المشيئة موكولة إليكم فمن شاء اهتدى ومن شاء ضل، بل ذلك كله تابع لمشيئة الله تعالى رب العالمين. وروي لما نزلت هذه الآية: ﴿لَمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ﴾ قال أبو جهل: الأمر إلينا إن شئنا استقمنا وإن شئنا لم نستقم، فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَا تَشَاؤُنْ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾.^(١)

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١٢/٤٦٦ - ٤٧٦؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٩٦٦ - ١٩٦٨.

سورة المطففين

نعيم أهل الجنة وراحتهم:

قال تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿٢٣﴾ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ ﴿٢٤﴾ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ﴿٢٥﴾ يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ ﴿٢٦﴾ خَتَمُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَفِسُونَ ﴿٢٧﴾ وَمِنْ أَجْهِهِمْ تَسْنِيمٌ ﴿٢٨﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [المطففين].

قال تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾ أي يوم القيامة هم في نعيم مقيم وجنات فيها فضل عظيم، ﴿على الأرائك﴾ وهي السرر تحت الحجال، ﴿ينظرون﴾ ينظرون في ملكهم وما أعطاهم الله من الخير والفضل الذي لا ينقضي ولا يبيد.

وقوله تعالى: ﴿تعرف في وجوههم نضرة النعيم﴾ أي تعرف إذا نظرت إليهم في وجوههم نضرة النعيم أي صفة الترف والحشمة والسرور والدعة والرياسة مما هم فيه من النعيم العظيم.

وقوله تعالى: ﴿يسقون من رحيق مختوم﴾ أي يسقون من خمر من الجنة، والرحيق من أسماء الخمر.

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال ﷺ: ((أيما مؤمن سقى مؤمناً شربة ماء على ظمأ سقاه الله تعالى يوم القيامة من الرحيق المختوم. وأيما مؤمن أطعم مؤمناً على جوع أطعمه الله من ثمار الجنة. وأيما مؤمن كسا مؤمناً ثوباً على

عري كساه الله من خضر الجنة)).^(١)

وقال ابن مسعود رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿خَتَامَهُ مِسْكِ﴾ أي خلطه مسك. عن ابن عباس رضي الله عنه: طيب الله لهم الخمر فكان آخر شيء جعل فيها مسك خُتم بمسك، وعاقبته مسك.

عن أبي الدرداء رضي الله عنه ﴿خَتَامَهُ مِسْكِ﴾ قال: شراب أبيض مثل الفضة يختمون به شرابهم. ولو أن رجلاً من أهل الدنيا أدخل إصبعه فيه ثم أخرجها لم يبق ذو روح إلا وجد طيبها. وقيل طيبه مسك.

وقوله تعالى: ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ أي وفي مثل هذا الحال فليتنافس المتنافسون وليتباهى ويكاثر ويستبق إلى مثله المستبقون. وقوله تعالى: ﴿وَمَزَاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ﴾ أي: ومزاج هذا الرحيق الموصوف من تسنيم أي من شراب، يقال له: تسنيم، وهو أشرف شراب أهل الجنة وأعلامه. ولهذا قال: تعالى: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ﴾ أي يشربها المقربون صرفاً، وتمزج لأصحاب اليمين مزجاً.^(٢)

(١) انظر: الرواية عند الإمام أحمد في مسنده، ج ٣/ ١٣ - ١٤؛ الترمذي في سننه، كتاب صفة القيامة، باب (١٨)، ج ٤/ ٦٣٣، حديث رقم: ٢٤٤٩؛ سنن أبي داود، كتاب الزكاة، باب في فضل سقي الماء، ص ٢٩١، حديث رقم: ١٦٨٢.

(٢) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١٢/ ٤٩٥ - ٥٠١؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/ ١٩٧٣ - ١٩٧٤.

سورة الانشقاق

بشارة الكفار بالعذاب:

قال تعالى: ﴿فَلَا أَقْسِمُ بِالشَّفَقِ ۖ وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ۖ وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ ۖ (١٨) لَتَرْكَبَنَّ ظَبْجًا عَنْ طَبَقٍ ۖ (١٩) فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۖ (٢٠) وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ ۖ (٢١) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكْذِبُونَ ۖ (٢٢) وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ۖ (٢٣) فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۖ (٢٤) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۖ (٢٥)﴾ [الانشقاق].

روي عن جماعة من الصحابة: الشفق الحمرة في الأفق، إما قبل طلوع الشمس وإما بعد غروبها من غروب الشمس إلى وقت العشاء الآخرة. فإذا ذهب قيل غاب الشفق.

عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: ((وقت المغرب ما لم يغيب الشفق)).^(١)

وقوله تعالى: ﴿والليل وما وسق﴾ أي جمع، كأنه تعالى أقسم بالضياء والظلام. وهنا كأنه تعالى أقسم الله بالنهار مدبراً وبالليل مقبلاً: ﴿وما وسق﴾ وما جمع، من نجم ودابة، وما ساق من ظلمة إذا كان الليل ذهب كل شيء إلى مأواه. وقوله تعالى: ﴿والقمر إذا اتسق﴾، قال ابن عباس رضي الله عنه: إذا اجتمع واستوى وامتلاً، واستدار وتكامل نوره وأبدر جعله مقابلاً لليل وما وسق.

(١) انظر: رواية مسلم في صحيحه، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب أوقات الصلوات الخمس، ج ٢/ ١٠٤.

وقوله تعالى: ﴿لتركبن طبقاً عن طبق﴾ قال البخاري رحمه الله: عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿لتركبن طبقاً عن طبق﴾ حالاً بعد حال. قال هذا نبيكم ﷺ^(١).

وروي عن ابن مسعود رضي الله عنه: ﴿لتركبن طبقاً عن طبق﴾ قال: لتركبن يا محمد سماء بعد سماء. ولعله يعني ليلة الإسراء. ولعل هناك معاني أخرى. والله أعلم.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿طبقاً عن طبق﴾ منزلاً على منزل. وقيل أعمال من قبلكم منزلاً بعد منزل.

وقيل: تحدثون أمراً لم تكونوا عليه. وقيل: حالاً بعد حال فطيماً بعد ما كان رضيعاً، وشيخاً بعد ما كان شاباً، ورخاءً بعد شدة، وشدة بعد رخاء، وغنى بعد فقر، وفقراً بعد غنى، وصحة بعد سقم، وسقماً بعد صحة.

وإن كان الخطاب موجهاً إلى رسول الله ﷺ فهو لجميع الناس، وأنهم يلقون من شدائد يوم القيامة وأهواله أحوالاً.

وقوله تعالى: ﴿فما لهم لا يؤمنون وإذا قرئ عليهم القرآن لا يسجدون﴾ أي فماذا يمنعهم من الإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر، وما لهم إذا قرئت عليهم آيات الله وكلامه وهو هذا القرآن الكريم لا يسجدون إعظاماً وإكراماً واحتراماً؟

وقوله تعالى: ﴿بل الذين كفروا يكذبون﴾ أي من سجيتهم التكذيب والعناد والمخالفة للحق. ﴿والله أعلم بما يوعون﴾ بما يكتُمون في صدورهم،

(١) انظر: الرواية عند البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب: (لتركبن طبقاً عن طبق)، ج ٨١/٦.

﴿فبشرهم بعذاب أليم﴾ أي فأخبرهم يا محمد بأن الله سبحانه قد أعد لهم عذاباً أليماً.

وقوله تعالى: ﴿إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ هذا استثناء منقطع. يعني لكن الذين آمنوا أي بقلوبهم وعملوا الصالحات أي بجوارحهم، ﴿لهم أجر﴾ أي في الدار الآخرة ﴿غير ممنون﴾ غير منقوص، وغير محسوب وغير مقطوع و﴿غير ممنون﴾ عليهم. والله ﷻ له المنّة على أهل الجنة في كل حال وأن ولحظة. وإنما دخلوها بفضلها ورحمته لا بأعمالهم فله عليهم المنّة ﷻ والحمد لله وحده أبداً.^(١)

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١٢/ ٥١٠ - ٥١٧؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/ ١٩٧٦ - ١٩٧٨.

سورة البروج

إحاطة الله تعالى بفرعون والكفرة مثله:

قال تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكَ حَدِيثَ الْجُنُودِ ﴿١٧﴾ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾ وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ ﴿٢٠﴾ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ ﴿٢٢﴾﴾ [البروج].

وقوله تعالى: ﴿هل أتاك حديث الجنود فرعون وثمود﴾ أي هل بلغك يا محمد ما أحل الله بهم من البأس، وأنزل عليهم من النعمة التي لم يردّها عنهم أحد؟ وهذا تقرير لقوله تعالى: ﴿إن بطش ربك لشديد﴾ أي إذا أخذ الظالم أخذه أخذاً أليماً شديداً أخذ عزيز مقتدر.

وقوله تعالى: ﴿بل الذين كفروا في تكذيب﴾ أي هم في شك وريب وكفر وعناد، ﴿والله من ورائهم محيط﴾ أي هو قادر عليهم قاهر لا يفوتونه ولا يعجزونه، ﴿بل هو قرآن مجيد﴾ أي عظيم كريم ﴿في لوح محفوظ﴾ أي هو في الملأ الأعلى، محفوظ من الزيادة والنقص والتحريف والتبديل.

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: إن في صدر اللوح لا إله إلا الله وحده، دينه الإسلام.^(١)

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١٢/ ٥٣٠ - ٥٣١؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/ ١٩٨٣.

سورة الأعلى

تسبيحه ﷺ وتذكيره القرآن والتيسير له:

قال تعالى: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ۝ (١) الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ۝ (٢) وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ۝ (٣) وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى ۝ (٤) فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى ۝ (٥) سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى ۝ (٦) إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى ۝ (٧) وَنُيِّسِرُكَ لِلْيُسْرَى ۝ (٨) فَذَكَرْ إِن نَّفَعْتَ الذِّكْرَى ۝ (٩) سَيَذَكِّرُ مَنْ يَخْشَى ۝ (١٠) وَيُجَنِّبُهَا الْأَشْقَى ۝ (١١) الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى ۝ (١٢) ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى ۝ (١٣)﴾ [الأعلى].

عن عقبة بن عامر الجهني رضي الله عنه لما نزلت ﴿سبح اسم ربك الأعلى﴾ قال ﷺ: ((اجعلوها في سجودكم)).^(١) ولذلك يقال في السجود: سبحان ربي الأعلى.

عن ابن عباس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان إذا قرأ ﴿سبح اسم ربك الأعلى﴾ قال: سبحان ربي الأعلى.^(٢)

وكان علي بن أبي طالب وابن عباس رضي الله عنهما يفعلون ذلك.^(٣)

(١) سنن أبي داود، كتاب الصلاة، باب ما يقول الرجل في ركوعه وسجوده، ص ١٥٣،

حديث رقم: ٨٦٩؛ سنن ابن ماجه، كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها، باب التسبيح في الركوع والسجود، ج ١/٢٨٧، حديث رقم: ٨٨٧؛ مسند الإمام أحمد، ج ٤/١٥٥.

(٢) انظر: الإمام أحمد في مسنده، ج ١/٢٣٢؛ سنن أبي داود، كتاب الصلاة، باب الدعاء في الصلاة، ص ١٥٥، حديث رقم: ٨٨٣.

(٣) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١٢/٥٤٢ - ٥٤٦؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٩٨٥.

سورة الغاشية

الحديث عن الغاشية (القيامة):

قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ۝١ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ۝٢ عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ ۝٣ تَصَلَّى نَارًا حَامِيَةً ۝٤ تُشَفَّى مِنْ عَيْنٍ أَيْنِقٍ ۝٥ لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ ۝٦ لَا يُسَمِّنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ ۝٧﴾ [الغاشية].

الغاشية: من أسماء يوم القيامة؛ لأنها تغشى الناس وتعمهم. وقوله تعالى: ﴿وجوه يومئذ خاشعة﴾ أي ذليلة. وعن ابن عباس ؓ: تخشع ولا ينفعها عملها. وقوله تعالى: ﴿عاملة ناصبة﴾ أي قد عملت عملاً كثيراً، ونصبت فيه، وصليت يوم القيامة ناراً حامية.

وقد مر عمر بن الخطاب ؓ بدير راهب، قال: فناداه يا راهب، فأشرف قال: فجعل عمر ينظر إليه ويبكي، فقليل له: يا أمير المؤمنين ما يبكيك من هذا؟ قال: ذكرت قول الله تعالى في كتابه: ﴿عاملة ناصبة تصلى ناراً حامية﴾ فذاك الذي أبكاني.^(١)

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١٢/ ٥٥٠ - ٥٥٣؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/ ١٩٨٨. (وانظر: ابن الجوزي، مناقب عمر بن الخطاب، ص ١٧٦؛ كتابي، شهيد المدينة الفاروق عمر بن الخطاب ؓ ص ٣٧٩)

سورة الفجر

إخبار ﷺ بمصير عاد رغم قوتهم عند كفرهم:

قال تعالى: ﴿وَالْفَجْرِ ۝١ وَلَيْلٍ عَشْرِ ۝٢ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ۝٣ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ۝٤ هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرِ ۝٥ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرْمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۝٧ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ۝٨ وَثُمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخَرَ بِالْوَادِ ۝٩ فَرَعُونَ ذِي الْاَوْنَادِ ۝١٠ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ۝١١ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ۝١٢ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۝١٣ إِنَّ رَبَّكَ لِبَاسٍ لِّلْمُرْصَادِ ۝١٤﴾ [الفجر].

أما الفجر فمعروف وهو الصبح. وقيل المراد به فجر يوم النحر خاصة. وهو خاتمة الليالي العشر. وقيل المراد صلاة الفجر. والليالي العشر المراد بها عشر ذي الحجة.

عن ابن عباس رضي الله عنه مرفوعاً "ما من أيام العمل الصالح أحب إلى الله فيهن من هذه الأيام، يعني عشر ذي الحجة. قالوا: ولا الجهاد في سبيل الله؟ قال: ولا الجهاد في سبيل الله إلا رجلاً خرج بنفسه وماله، ثم لم يرجع من ذلك بشيء".^(١)

عن جابر رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: ((إن العشر عشر الأضحى، والوتر يوم

(١) انظر: رواية البخاري في صحيحه، كتاب العيدين، باب فضل العمل في أيام التشريق، ج ٧/٢: سنن أبي داود، كتاب الصيام، باب في صوم العشر، ص ٤٢٨، حديث رقم: ٢٤٣٨.

عرفة، والشفع يوم النحر)).^(١)

وقوله تعالى: ﴿والشفع والوتر﴾ الوتر يوم عرفة؛ لكونه التاسع، وأن الشفع يوم النحر؛ لكونه العاشر.

كان عبد الله بن الزبير رضي الله عنه يخطب الناس، فقام إليه رجل فقال: يا أمير المؤمنين أخبرني عن الشفع والوتر، فقال رضي الله عنه: الشفع قول الله تعالى: ﴿فمن تعجل في يومين فلا إثم عليه﴾، والوتر قوله تعالى: ﴿ومن تأخر فلا إثم عليه﴾ [البقرة: ٢٠٣]. وفي رواية عن ابن الزبير رضي الله عنه قال: الشفع أوسط أيام التشريق والوتر آخر أيام التشريق.

عن عمران بن حصين رضي الله عنه ﴿والشفع والوتر﴾ قال: هي الصلاة المكتوبة، منها شفع ومنها وتر.

وقوله تعالى: ﴿والليل إذا يسر﴾ حين يذهب بعضه بعضاً، ويسير. وقيل إذا أقبل، وقيل: ﴿والليل إذا يسر﴾ قيل: ليلة المزدلفة.

وقوله تعالى: ﴿هل في ذلك قسم لذي حجر﴾ أي لذي عقل ولب ودين. وإنما سمي العقل حجراً؛ لأنه يمنع الإنسان من تعاطي ما لا يليق به من الأفعال والأقوال، ومنه حجر البيت؛ لأنه يمنع الطائف من اللصوق بجداره الشامي. وحجر الحاكم على فلان إذا منعه التصرف. وهذا القسم هو بأوقات العبادة وبنفس العبادة من حج وصلاة، وغير ذلك من أنواع القرب التي يتقرب بها إليه تعالى عباده المتقون المطيعون له، الخائفون منه المتواضعون لديه، الخاضعون لوجهه الكريم.

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده، ج ٣/٣٢٧؛ وانظر: الحاكم، المستدرک، ج ٤/٢٤٥، كتاب الأضاحي، حديث رقم: ٧٥١٧.

ولما ذكر هؤلاء وعبادتهم وطاعتهم قال تعالى بعده: ﴿ألم تر كيف فعل ربك بعاد﴾ وهؤلاء كانوا متمردين عتاة جبارين خارجين عن طاعته مكذبين لرسله جاحدين لكتبه. فذكر تعالى كيف أهلكهم ودمرهم وجعلهم أحاديث وعبراً، فقال تعالى: ﴿ألم تر كيف فعل ربك بعاد إرم ذات العماد﴾ وهؤلاء عاد الأولى، وهم الذين بعث الله فيهم رسوله هودا عليه السلام، فكذبوه وخالفوه. فأنجاه الله من بين أظهرهم ومن آمن معه منهم. وقوله تعالى: ﴿إرم ذات العماد﴾ للتعريف بهم.

وقوله تعالى: ﴿ذات العماد﴾؛ لأنهم كانوا يسكنون بيوتاً ترفع بالأعمدة الشداد. وقد كانوا أشد الناس في زمانهم خلقاً وأقواهم بطشاً.

وقال تعالى هاهنا: ﴿التي لم يخلق مثلها في البلاد﴾ أي القبيلة التي لم يخلق مثلها في بلادهم؛ لقوتهم وشدتهم وعظم تركيبهم. وقيل: إرم أمة قديمة، يعني عاداً الأولى. وقيل: إرم بيت مملكة عاد.

وقوله تعالى: ﴿التي لم يخلق مثلها في البلاد﴾ قيل: لم يخلق مثل تلك القبيلة في البلاد في زمانهم، أو تلك البلدة.

المراد هو الإخبار عن إهلاك القبيلة المسماة بعاد، وما أحل الله بهم من بأسه، الذي لا يرد ولا يكفي الإخبار عن مدينة أو إقليم.

﴿وثمود الذين جابوا الصخر بالواد﴾ يعني يقطعون الصخر بالوادي، ينحتونها ويخرقونها. واجتأب الثوب إذا فتحه. ومنه الجيب أيضاً.

كانوا في بلاد العرب ومنزلهم بوادي القرى، والمعروفة بمدائن صالح. وقد مر بها ﷺ أثناء غزوة تبوك.^(١)

(١) انظر: رواية البخاري في صحيحه وشرحها، فتح الباري، ج ١٦/٢٥٥؛ وانظر كتابي "رسول الله وخاتم النبيين"، ج ٣/٨١٨.

وقوله تعالى: ﴿وَفَرَعُونَ ذِي الْأَوْتَادِ﴾ عن ابن عباس رضي الله عنه: الأوتاد الجنود الذين يشدون له أمره. وقيل إنه كان له مطال وملاعب يلعب له تحتها من أوتاد وحبال.

وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفُسَادَ﴾ أي تمردوا وعتوا وعاثوا في الأرض بالإفساد والأذية للناس، ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾ أي أنزل عليهم جزاً من السماء وأحل بهم عقوبة، لا يردها عن القوم المجرمين.

وقوله تعالى: ﴿إِنْ رَبُّكَ لَبَالِغُ الْأَعْيَادِ﴾ يسمع ويرى يعني يرصد خلقه فيما يعملون ويجازي كلا بسعيه في الدنيا والآخرة. وستعرض الخلائق كلهم عليه سبحانه فيحكم تعالى فيهم بعدله، ويقال كلا بما يستحقه، وهو سبحانه المنزه عن الظلم الجور.^(١)

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١٢/ ٥٥٩ - ٥٧٢؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/ ١٩٩٠ - ١٩٩٤.

سورة البلد

مكة محل الرسول ﷺ:

قال تعالى: ﴿لَا أَقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ ۚ وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ ۚ وَوَإِلْدِ وَمَوْلَدِ ۚ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ ۚ﴾ [البلد].

هذا قسم من الله تعالى بمكة المكرمة أم القرى في حال كون الساكن فيها ﷺ حالاً بها ومقيماً؛ لينبه على عظمة قدرها.^(١)

وقالوا: أحلها الله له ساعة من نهار، كما ورد في الحديث ((إن هذا البلد حرم الله يوم خلق السماوات والأرض، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، لا يعضد شجره ولا يختلى خلاه، وإنما أحلت لي ساعة من نهار. وقد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس. ألا فليبلغ الشاهد الغائب)). وفي لفظ آخر: ((فإن أحد ترخص بقتال رسول الله فقولوا إن الله أذن لرسوله ولم يأذن لكم)).^(٢)

وقوله تعالى: ﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدٍ﴾ عن ابن عباس ؓ: الوالد الذي يلد وما ولد الذي ولد له، وقيل الوالد آدم ﷺ وما ولد ولده. وهذا حسن؛ لأنه تعالى لما

(١) انظر: كتابي، رسول الله وخاتم النبيين، ج ١/١٩١، (موطن الرسول ﷺ).

(٢) انظر: رواية مسلم في صحيحه، كتاب الحج، باب تحريم مكة وصيدها وخلاها وشجرها ولقطتها، إلا لمنشد، على الدوام، ج ٤/١٠٩؛ ورواية البخاري في صحيحه، كتاب جزاء الصيد، باب لا يعضد شجر الحرم، ج ٢/٢١٣؛ وانظر: كتابي "رسول الله وخاتم النبيين"، ج ٣/٨٠١.

أقسم بأُم القرى وهي أم البلدان والمساكن أقسم بعده بالساكن، وهو آدم أبو البشر ﷺ وولده.

وقوله تعالى: ﴿لقد خلقنا الإنسان في كبد﴾ عن ابن عباس ؓ: في كبد شدة، فهو يكابد في كل أحواله. في حياته وطلب معيشة، فهو في مشقة، يكابد أمور الدنيا ويكابد للآخرة.

وقوله تعالى: ﴿أحسب أن لن يقدر عليه أحد﴾ قيل: ابن آدم يظن أن لن يُسأل عن هذا المال من أين اكتسبه، وأين أنفقه. قال الله تعالى: ﴿يقول أهلك ما لا لبداً﴾ أي: يقول ابن آدم أنفقت ما لا لبداً أي كثيراً، ﴿أحسب أن لم يره أحد﴾، فالله ﷻ مطلع عليه.

وقوله تعالى: ﴿ألم نجعل له عينين﴾ أي يبصر بهما ﴿ولسأنا﴾ أي ينطق به فيعبر عما في ضميره ﴿وشفتين﴾ يستعين بهما على الكلام وأكل الطعام وجمالاً لوجهه وفمه.

﴿وهديناه النجدين﴾ الطريقين الخير والشر.^(١)

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١٢/ ٥٨٤ - ٥٩٢؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/ ١٩٩٦ - ١٩٩٧.

سورة الضحى

وعد الله تعالى له للرسول ﷺ بالخير وإياؤه وهدايته:

قال تعالى: ﴿وَالضُّحَىٰ ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَاقَلَىٰ ۝٣ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ۝٤ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ۝٥ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَغَاوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ۝٨ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝١٠ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ۝١١﴾ [الضحى].

روي أن النبي ﷺ اشتكى النبي ﷺ فلم يقم ليلة أو ليلتين. فأتت امرأة أبي لهب أم جميل، فقالت: يا محمد ما أرى شيطانك إلا قد تركك. فأنزل الله تعالى: ﴿وَالضُّحَىٰ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَاقَلَىٰ﴾^(١).

وفي رواية: أبطأ جبريل على رسول الله ﷺ، فقال المشركون: ودع محمداً ربّه، فأنزل الله تعالى: ﴿وَالضُّحَىٰ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَاقَلَىٰ﴾^(٢).

عن ابن عباس ؓ: لما نزل على رسول الله ﷺ القرآن أبطأ عنه جبريل أياماً، فتغير بذلك، فقال المشركون: ودعه ربه وقلاه، فأنزل الله تعالى:

(١) انظر: رواية البخاري في صحيحه، كتاب فضائل القرآن، باب: كيف نزول الوحي، وأول ما نزل، ج ٩٧/٦.

(٢) انظر: رواية مسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب ما لقي النبي ﷺ من أذى المشركين والمنافقين، ج ١٨٢/٥؛ صحيح البخاري، كتاب التهجد، باب ترك القيام للمريض، ج ٤٣/٢.

﴿ما ودعك ربك وما قلى﴾. وهذا قسم منه تعالى بالضحى وما جعل فيه من الضياء. ﴿والليل إذا سجي﴾ أي سكن فأظلم وأدلم وذلك دليل ظاهر على قدرة خالق هذا وهذا سبحانه. وقوله تعالى: ﴿ما ودعك ربك﴾ أي ما تركك ﴿وما قلى﴾ أي وما جفاك.

﴿وللآخرة خير لك من الأولى﴾ أي وللدار الآخرة خير لك من هذه الدار. ولهذا كان رسول الله ﷺ أزهد الناس في الدنيا وأعظمهم لها إطراحاً، كما هو معلوم بالضرورة من سيرته وسنته ﷺ. ولما خير ﷺ في آخر عمره بين الخلد في الدنيا إلى آخرها ثم الجنة وبين الصيرورة إلى الله ﷻ اختار ﷻ ما عند الله على هذه الدنيا الدنية.

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: اضطجع رسول الله ﷺ على حصير فأثر في جنبه. فلما استيقظ جعلت أمسح جنبه، وقلت: يا رسول الله ألا آذنتنا حتى نبسط لك على الحصير شيئاً؟ فقال رسول الله ﷺ: ما لي وللدنيا. إنما مثلي ومثل الدنيا. كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها.^(١)

وقوله تعالى: ﴿ولسوف يعطيك ربك فترضى﴾ أي في الدار الآخرة يعطيه حتى يرضيه في نفسه وأمته، وفيما أعده له من الكرامة، ومن جملة نهر الكوثر الذي حافته قباب اللؤلؤ المجوف وطينه مسك.

ثم قال تعالى يعدد نعمه على عبده ورسوله محمد ﷺ: ﴿ألم يجدك يتيماً فآوى﴾، وذلك أن أباه توفى وهو حمل في بطن أمه، ثم توفيت أمه آمنة بنت

(١) سنن الترمذي، كتاب الزهد، باب (٤٤)، ج ٤/٥٨٨، حديث رقم: ٢٣٧٧، سنن ابن ماجه، كتاب الزهد، باب مثل الدنيا، ج ٢/١٣٧٦، حديث رقم: ٤١٠٩؛ والإمام أحمد في مسنده، ج ١/٣٩١.

وهب وله من العمر ست سنين، ثم كان في كفالة جده عبدالمطلب إلى أن توفى وله من العمر ثمان سنين.^(١)

فكفله عمه أبو طالب، ثم لم يزل يحوطه وينصره ويرفع من قدره ويوقره، ويكف عنه أذى قومه، بعد أن ابتعثه الله على رأس أربعين سنة من عمره. هذا وأبو طالب على دين قومه من عبادة الأوثان. وكل ذلك بقدر الله وحسن تدبيره إلى أن توفى أبو طالب قبل الهجرة بقليل. فأقدم عليه سفهاء قريش وجهالهم، فاختار الله تعالى له الهجرة من بين أظهرهم إلى طيبة الطيبة، بلد الأنصار من الأوس والخزرج. كما أجرى الله تعالى سنته على الوجه الأتم الأكمل، فلما وصل إليهم ﷺ آووه ونصروه وحاطوه وقاتلوا بين يديه رضي الله عنهم أجمعين. وكل هذا من حفظ الله سبحانه له وكلاءته وعنايته به ﷺ.

وقوله تعالى: ﴿ووجدك ضالاً فهدى﴾ فما كان يدري ما الكتاب ولا الإيمان، ولكن هداه الله لنوره ﷺ. ولم يكن من عنده ﷺ، بل هو هدى من عند الله.

وقوله تعالى: ﴿ووجدك عائلاً فأغنى﴾ أي كنت فقيراً ذا عيال فأغناك الله عمن سواه، فجمع له بين مقامي الفقير الصابر، والغني الشاكر صلوات الله وسلامه عليه.

ثم قال تعالى: ﴿فأما اليتيم فلا تقهر﴾ أي كما كنت يتيماً فأواك الله فلا تقهر اليتيم، أي لا تذله وتهره وتهنه، ولكن أحسن إليه وتلطف

(١) انظر: كتابي، رسول الله وخاتم النبيين، ق ٢١٢/١، بعنوان (يتيماً آواه الله).

به. فكان ﷺ لليتيم كالأب الرحيم. ﴿وَأَمَّا السَّائِلُ فَلَا تَنْهَرْ﴾ أي وكما كنت ضالاً فهداك الله فلا تنهر السائل في العلم المسترشد.

كما أن من معاني ﴿وَأَمَّا السَّائِلُ فَلَا تَنْهَرْ﴾ أي فلا تكن جباراً ولا متكبراً ولا فحاشاً ولا فظاً على الضعفاء من عباد الله، ورد المسكين برحمة ولين. ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ أي وكما كنت عائلاً فقيراً فأغناك الله فحدث بنعمة الله عليك. كما جاء في الدعاء المأثور النبوي: ((واجعلنا شاكرين لنعمتك متنين بها عليك قابليها وأتمها علينا)).^(١) ومن شكر النعم أن يُحدث بها.

روي عن النبي ﷺ قال: ((لا يشكر الله من لا يشكر الناس)).^(٢)

ومن نعم الله تعالى عليه ﷺ النبوة التي أعطاه ربه، وما جاءك الله من نعمة وكرامة من النبوة فحدث بها واذكرها، وادع إليها. قال: فجعل رسول الله ﷺ يذكر ما أنعم به عليه من النبوة.^(٣)

(١) انظر: رواية ابن حبان في صحيحه، ترتيب ابن لبان، ج ٣/٢٧٧، ح برقم ٩٩٦؛ أبو داود في سننه، ص ١٦٨، حديث برقم: ٩٦٩.

(٢) انظر: الرواية عند الترمذي في سننه، كتاب البر والصلة، باب ما جاء في الشكر لمن أحسن إليك، ج ٤/٣٣٩، حديث رقم: ١٩٥٤؛ الإمام أحمد في مسنده، ج ٣/٣٢.

(٣) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١٢/٦٢١ - ٦٢٥؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/٢٠٠٥ - ٢٠٠٧.

سورة الشرح

شرح تعالى صدره ﷺ ورفع ذكره:

قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ ﴿٨﴾﴾ [الشرح].

يقول تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ يعني أما شرحنا لك يا محمد ﷺ صدرك أي نورناه وجعلناه فسيحاً رحيباً واسعاً. وكما شرح الله صدره كذلك جعل شرعه فسيحاً واسعاً سمحاً سهلاً، لا حرج فيه ولا إصر ولا ضيق. وقيل: المراد بقوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ شرح صدره ليلة الإسراء ولا منافاة، فإن من جملة شرح صدره الذي فعل بصدرة ليلة الإسراء، وما نشأ عنه من الشرح المعنوي وارتياح البال.

وقوله تعالى: ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ﴾ بمعنى ﴿ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر﴾ ﴿الذي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ﴾ أي أثقلك. وقوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ لا يذكر الله تعالى إلا ذكر معه أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله، فرفع الله ذكره في الدنيا في كافة أنحاء الأرض، وفي كل الأزمنة ذكره ﷺ مرتفع. وفي الآخرة كذلك، فليس خطيب ولا متشهد ولا صاحب صلاة إلا ينادي بأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله.

وقد رفع الله ذكره في الأولين والآخرين ونوه به حين أخذ الميثاق على

جميع النبيين أن يؤمنوا به، وأن يأمرُوا أممهم بالإيمان به. والملوك ينتهي ذكرهم في زمانهم. وهو ﷺ يُذكر على مر الأزمان وفي كل مكان.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ أخبر تعالى أن مع العسر يوجد اليسر ثم أكد هذا الخبر.

عن الحسن قال: كانوا يقولون لا يغلب عسر واحد يسرين اثنين.

وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾ أي: إذا فرغت من أمور الدنيا وأشغالها وقطعت علائقها فانصب إلى العبادة وقم إليها، نشيطاً فارغ البال وأخلص لربك النية والرغبة. ومن هذا القبيل قوله ﷺ في الحديث: ((لا صلاة بحضرة الطعام، ولا وهو يدافعه الأخبثان)).^(١)

وقوله ﷺ: ((إذا أقيمت الصلاة وحضر العشاء فابدؤوا بالعشاء)).^(٢)

وعن ابن مسعود رضي الله عنه: إذا فرغت من الفرائض فانصب في قيام الليل.

وفي رواية عن ابن مسعود رضي الله عنه: ﴿فانصب وإلى ربك فارغب﴾ بعد فراغك من الصلاة وأنت جالس.

عن ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ﴾، يعني في الدعاء. وقيل: ﴿فَإِذَا

(١) انظر: الرواية عند صحيح مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب كراهة الصلاة بحضرة الطعام الذي يريد أكله في الحال، وكراهة الصلاة مع مدافعة الأخبثين، ج ٢/ ٧٩؛ مسند الإمام أحمد، ج ٦/ ٧٣؛ سنن أبي داود، كتاب الطهارة، باب أَيْصَلِي الرجل وهو حاقن، ص ٢٠، حديث رقم: ٨٩.

(٢) انظر: الرواية عند صحيح مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب كراهة الصلاة بحضرة الطعام الذي يريد أكله في الحال، وكراهة الصلاة مع مدافعة الأخبثين، ج ٢/ ٧٨.

فرغت ﴿أي من الجهاد﴾ فانصب ﴿أي في العبادة﴾ وإلى ربك فارغب ﴿اجعل نيتك ورغبتك وعملك لله ﷻ﴾.^(١)

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١٢/٦٢٦ - ٦٣٠؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/٢٠٠٧ - ٢٠٠٩.

سورة العلق

إقراءه ﷺ وتعليمه:

قال تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝٣ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾ [العلق].

عن عائشة رضي الله عنها قالت: أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح. ثم حبيب إليه الخلاء، فكان يأتي حراء فيتحنث فيه - وهو التعبد - الليالي ذوات العدد، ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها حتى فجأه الوحي وهو في غار حراء. فجاءه الملك فيه فقال اقرأ: قال رسول الله ﷺ: فقلت ما أنا بقارئ. قال: فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني، فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ، فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني، فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطني الثالثة ثم أرسلني فقال: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ حتى بلغ ﴿ما لم يعلم﴾. قال: فرجع بها ترجف بوادره، حتى دخل على خديجة فقال ﷺ: "زملوني زملوني"، فزملوه حتى ذهب عنه الروع، فقال: يا خديجة ما لي؟ وأخبرها الخبر وقال: قد خشيت على نفسي.

فقالت له: كلا! أبشر فوالله لا يخزيك الله أبداً. إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكل، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق. ثم انطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى بن

قصي، وهو ابن عم خديجة أخي أبيها. وكان امرءاً قد تنصر في الجاهلية. وكان يكتب الكتاب العربي. وكتب بالعربية من الإنجيل ما شاء الله أن يكتب. وكان شيخاً كبيراً قد عمي، فقالت خديجة: أي ابن عم؛ اسمع من ابن أخيك. فقال ورقة: ابن أخي ما ترى؟ فأخبره رسول الله ﷺ بما رأى، فقال ورقة: هذا الناموس الذي أنزل على موسى. ليتني فيها جذع ليتني أكون حياً حين يخرجك قومك. فقال رسول الله ﷺ: أو مخرجي هم؟ فقال ورقة: نعم. لم يأت رجل قط بما جئت به إلا عودي. وإن يدركني يومك أنصرك نصرًا مؤزرًا.^(١)

ثم لم ينشب ورقة أن توفي، وفتر الوحي فترة حتى حزن رسول الله ﷺ مكان يصعد على رؤوس الجبال، فكلما أوفى بذروة جبل تبدى له جبريل فقال: يا محمد إنك رسول الله حقًا، فيسكن بذلك جأشه وتقر نفسه فيرجع. فإذا طالت عليه فترة الوحي غدا لمثل ذلك، فإذا أوفى بذروة الجبل تبدى له جبريل.^(٢)

فأول شيء نزل من القرآن هذه الآيات الكريمات المباركات. وهن أول رحمة رحم الله بها العباد، وأول نعمة أنعم الله بها عليهم. وفيها التنبيه على ابتداء خلق الإنسان من علقه، وأن من كرمه تعالى أن علم الإنسان ما لم يعلم. فشرفه وكرمه بالعلم وهو القدر الذي امتاز به أبو البشرية آدم ﷺ على الملائكة. والعلم تارة يكون في الأذهان، وتارة يكون في اللسان، وتارة يكون في الكتابة بالبنان، ذهني ولفظي ورسمي. والرسمي يستلزمهما من

(١) انظر: الرواية عند البخاري في صحيحه، كتاب بدء الوحي، ج ١/٣؛ وابن أبي شيبة، المغازي، ص ١٠٣؛ وانظر: كتابي "رسول الله وخاتم النبيين"، ج ١/٢٤٧ - ٢٤٨.

(٢) انظر: كتابي "رسول الله وخاتم النبيين"، ج ١/٢٥٣ - ٢٥٥.

غير عكس، فلهذا قال تعالى: ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ وفي الأثر: قيدوا العلم بالكتابة، وفيه أيضاً: من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يكن يعلم.^(١)

الوعيد على الطغاة وعصيانه لهم ﷺ.

قال تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظٍ ۚ (٦) أَن رَّاهُ اسْتَفْتَىٰ (٧) إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ ۚ (٨) أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ (٩) عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ (١٠) أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَىٰ الْهُدَىٰ (١١) أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ (١٢) أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ (١٣) أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ (١٤) كَلَّا لَئِنْ لَّمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ (١٥) نَاصِيَةٍ كَذِبَةٍ خَاطِئَةٍ (١٦) فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ (١٧) سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ (١٨) كَلَّا لَا نَطَعُهُ وَأَسْجُدْ وَاقْتَرِبْ (١٩)﴾ [العلق].

يخبر تعالى عن الإنسان أنه ذو فرح وأشر وبطر وطغيان، إذا رأى نفسه قد استغنى وكثر ماله. ثم تهدده وتوعده ووعظه فقال تعالى: ﴿إِنْ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ﴾ أي إلى الله المصير والمرجع، وسيحاسبك على مالك من أين جمعته، وفيم صرفته. وستنتهي حياتك وتلقى الله.

روي مرفوعاً إلى رسول الله ﷺ: ((منهومان لا يشبعان طالب علم وطالب دنيا)).^(٢)

ثم قال تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ﴾ نزلت في أبي جهل لعنه الله، توعده النبي ﷺ على الصلاة عند البيت، فوعظه تعالى بالتقوى هي أحسن أولاً فقال: ﴿أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَىٰ الْهُدَىٰ﴾ أي فما ظنك إن كان هذا الذي تنهاه على الطريق المستقيمة في فعله، ﴿أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ﴾ وأنت تزجره وتوعده على صلاته. ولهذا قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ﴾ أي أما علم هذا

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١٢/ ٦٤٤ - ٦٤٦؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/ ٢٠١٠ - ٢٠١١.

(٢) انظر: الحاكم، المستدرک، کتاب العلم، ج ١/ ١٦٩، حديث رقم: ٣١٢.

الناهي لهذا المهتدي أن الله ﷻ يراه ويسمع كلامه ، وسيجازيه على فعله أتم الجزاء.

ثم قال تعالى متوعداً ومتهدداً: ﴿كَلَّا لئن لم ينته﴾ أي لئن لم يرجع عما هو فيه من الشقاق والعناد ﴿لنسفعا بالناصية﴾ أي لنسمنها سواداً يوم القيامة ، ثم قال تعالى: ﴿ناصية كاذبة خاطئة﴾ يعني ناصية أبي جهل كاذبة في مقالها خاطئة في أفعالها ، ﴿فليدع ناديه﴾ أي قومه وعشيرته ، أي ليدعهم يستتصر بهم ، ﴿سندع الزبانية﴾ وهم ملائكة العذاب ، حتى يعلم من يغلب أحزبنا أو حزبه؟

عن ابن عباس ؓ قال: قال أبو جهل لئن رأيت محمدًا يصلي عند الكعبة لأطأن على عنقه. فبلغ النبي ﷺ فقال: لئن فعل لأخذته الملائكة.^(١)

عن ابن عباس ؓ قال: كان رسول الله ﷺ يصلي عند المقام فمر به أبو جهل بن هشام ، فقال: يا محمد ألم أنك عن هذا؟ وتوعده فأغلظ له رسول الله ﷺ وانتهره ، فقال: يا محمد بأي شيء تهددني؟ أما والله إني لأكثر هذا الوادي نادياً. فأنزل الله تعالى: ﴿فليدع ناديه سندع الزبانية﴾. وقال ابن عباس ؓ: لو دعا ناديه لأخذته ملائكة العذاب من ساعته.^(٢)

عن أبي هريرة ؓ قال: قال أبو جهل: هل يعفر محمد وجهه بين

(١) رواه البخاري في صحيحه ، كتاب التفسير ، باب: (كَلَّا لئن لم ينته لنسفعا بالناصية. ناصية كاذبة خاطئة) ، ج ٦/ ٨٩.

سنن الترمذي ، كتاب تفسير القرآن ، باب (ومن سورة اقرأ باسم ربك) ، ج ٥/ ٤٤٤ ، حديث رقم: ٣٣٤٩ ؛ مسند الإمام أحمد ، ج ١/ ٢٥٦.

(٢) سنن الترمذي ، كتاب تفسير القرآن ، باب (ومن سورة اقرأ باسم ربك) ، ج ٥/ ٤٤٤ ، حديث رقم: ٣٣٤٩ ؛ وانظر: ابن أبي شيبة ، المغازي ، ص ١٠٩.

أظهركم؟ قالوا: نعم، قال: فقال واللات والعزى لئن رأيته يصلي كذلك لأطأن على رقبتة، ولأعفرن وجهه في التراب. فأتى رسول الله ﷺ وهو يصلي ليظاً على رقبتة، قال: فما فجأهم منه إلا وهو ينكص على عقبيه ويتقي بيديه. قال: فقليل له: ما لك؟ فقال: إن بيني وبينه خندقاً من نار، وهولاً وأجنحة. قال: فقال رسول الله ﷺ: "لو دنا مني لاختطفته الملائكة عضواً عضواً".^(١)

وقوله تعالى: ﴿كَلَّا لَا تَطْعَهُ﴾ يعني يا محمد لا تطعه فيما ينهاك عنه من المداومة على العبادة وكثرتها، وصلّ حيث شئت، ولا تباليه فإن الله حافظك وناصرك، وهو يعصمك من الناس. ﴿واسجد واقترب﴾ أن رسول الله ﷺ قال: ((أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، فأكثروا الدعاء)).^{(٢) (٣)}

(١) صحيح مسلم، كتاب القيامة والجنة والنار، باب قوله تعالى: (إن الإنسان ليطغى) ❖ أن رآه استغنى)، ج ٨/١٣٠.

(٢) انظر: الرواية عند مسلم في صحيحه، كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود، ج ٢/٤٩ - ٥٠.

(٣) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١٢/٦٤٦ - ٦٥٠؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/٢٠١١ - ٢٠١٢.

سورة البينة

تلاوته ﷺ (القرآن) المنزل من السماء:

قال تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ۖ رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً ۚ فِيهَا كُتِبَ قِيمَةٌ ۖ﴾ [البينة].

أما أهل الكتاب فهم اليهود والنصارى والمشركون عبدة الأوثان والنيران من العرب ومن العجم، لم يكونوا ﴿منفكين﴾ يعني منتهين حتى يتبين لهم الحق، ﴿حتى تأتيهم البينة﴾ أي هذا القرآن الكريم. ولهذا قال تعالى: ﴿لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين حتى تأتيهم البينة﴾. ثم فسر تعالى البينة بقوله تعالى: ﴿رسول من الله يتلوا صحفًا مطهرة﴾ يعني محمدًا ﷺ وما يتلوه من القرآن العظيم، الذي هو مكتتب في الملائ الأعلى في صحف مطهرة. وقوله تعالى: ﴿فيها كتب قيمة﴾ في الصحف المطهرة كتب من الله قيمة عادلة مستقيمة، ليس فيها خطأ لأنها من عند الله ﷻ.

قال قتادة: ﴿رسول من الله يتلوا صحفًا مطهرة﴾ يذكر القرآن بأحسن الذكر، ويثني عليه بأحسن الثناء.

وقوله تعالى: ﴿وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم البينة﴾ يعني بذلك أهل الكتب المنزلة على الأمم قبلنا. بعد ما أقام الله عليهم الحجج والبيّنات تفرقوا واختلفوا في الذي أراد الله من كتبهم، واختلفوا اختلافًا كثيرًا.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَمْرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ ولهذا قال تعالى: ﴿حَنَفَاءَ﴾ أي متحنفين بعيدين عن الشرك من أهل التوحيد، ﴿وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ وهي أشرف عبادات البدن، ﴿وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ﴾ وهي الإحسان إلى الفقراء والمحاويج من الخلق، ﴿وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ﴾ أي الملة القائمة العادلة أو الأمة المستقيمة المعتدلة. وقد استدل كثير من الأئمة بهذه الآية الكريمة أن الأعمال داخلية في الإيمان، ولهذا قال تعالى: ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حَنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ﴾.^(١)

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١٢/ ٦٥٥ - ٦٥٨؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/ ٢٠١٩ - ٢٠٢٠.

سورة القارعة

الحديث عن القارعة (القيامة):

قال تعالى: ﴿الْقَارِعَةُ ١ مَا الْقَارِعَةُ ٢ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ٣ يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ٤ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ ٥ فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ٦ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ٧ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ٨ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ٩ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَةٌ ١٠ نَارُ حَامِيَةٍ ١١﴾ [القارعة].

القارعة من أسماء يوم القيامة، كالحاقة والطامة والصاخة والغاشية، وغير ذلك.

ثم قال تعالى معظماً أمرها ومهولاً لشأنها: ﴿وما أدراك ما القارعة﴾ ثم فسر سبحانه ذلك بقوله تعالى: ﴿يوم يكون الناس كالفراش المبثوث﴾ أي في انتشارهم وتفرقهم وذهابهم ومجيئهم من حيرتهم مما هم فيه، كأنهم فراش مبثوث. وقوله تعالى: ﴿وتكون الجبال كالعهن المنفوش﴾ يعني قد صارت كأنها الصوف المنفوش، الذي قد شرع في الذهاب والتمزق.

ثم أخبر تعالى عما يؤول إليه عمل العاملين وما يصيرون إليه من الكرامة والإهانة بحسب أعمالهم، فقال تعالى: ﴿فأما من ثقلت موازينه﴾ أي رجحت حسناته على سيئاته ﴿فهو في عيشة راضية﴾ يعني في الجنة. ﴿وأما من خفت موازينه﴾ أي رجحت سيئاته على حسناته ﴿فأما هاهو﴾ ساقط هاهو بأم رأسه

في نار جهنم. وعبر عنه بأمه يعني دماغه، يهوي في النار على رأسه. وقيل معناه ﴿فأمه﴾ التي يرجع إليها ويصير في المعاد إليها ﴿هاوية﴾ وهي اسم من أسماء النار. فهي مأواه التي يرجع إليها ويأوي إليها وقرأ ثم قال تعالى مفسراً للهاوية: ﴿وما أدراك ما هيه نار حامية﴾. أي حارة شديدة الحرق قوة اللهب والسعير.

عن أبي هريرة رضي الله عنه يقول: سمعت أبا القاسم عليه السلام يقول: ((نار بني آدم التي توقدون جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم. فقال رجل: إن كانت لكافية؟ فقال: لقد فضلت عليها بتسعة وستين جزءاً حراً فحراً)).^(١)

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: ((إن أهون أهل النار عذاباً من له نعلان يغلي منهما دماغه)).^{(٢) (٣)}

(١) صحيح مسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب في شدة حر نار جهنم، وبعد قعرها، وما تأخذ من المعذبين، ج ٨/١٤٩ - ١٥٠.

(٢) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب أهون أهل النار عذاباً، ج ١/١٣٥.

(٣) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١٢/٦٥٩ - ٦٦٤؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/٢٠٢٤ - ٢٠٢٦.

سورة الفيل

تذكيره ﷺ بحادثة الفيل وفضل الله تعالى على أهل مكة المكرمة:

قال تعالى: ﴿الَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ۚ (١) أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ (٢) وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ (٣) تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ (٤) فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ (٥)﴾ [الفيل].

تذكير لمحمد ﷺ وللناس معه بواحدة من النعم التي امتن الله بها على قريش فيما صرف عنهم من أصحاب الفيل، الذين كانوا قد عزموا على هدم الكعبة، ومحو أثرها من الوجود، فأبادهم الله وأرغم أنوفهم وخيب سعيهم وأضل عملهم، وردهم بشر خيبة. وكانوا قومًا نصارى ودينهم إذ ذاك أقرب حالاً مما كانت عليه قريش من عبادة الأوثان.

وكان هذا من باب الإرهاص والتوطئة لمبعث رسول الله ﷺ، فإنه في ذلك العام ولد على أشهر الأقوال. ويفهم منه: لم ننصركم يا معشر قريش على الحبشة لخيرتكم عليهم، ولكن صيانة للبيت العتيق الذي يشرفه ويعظمه الله ﷻ والحدث قرب بعثة النبي الأمي ﷺ خاتم الأنبياء.

وقصة أصحاب الفيل باختصار.

أن الحبشة استقلوا بملك اليمن بزعامة أبرهة. وشرع في بناء كنيسة هائلة بصنعاء رفيعة البناء عالية الفناء مزخرفة الأرجاء سمىها العرب (القليس) لارتفاعها لأن الناظر إليها تكاد تسقط قلنسوته عن رأسه من ارتفاع بنائها.

وعزم أبرهة الأشرم على أن يصرف حج العرب إليها، كما يُحج إلى الكعبة بمكة المكرمة. ونادى بذلك في مملكته فكرهت العرب العدنانية والقحطانية ذلك.

وغضبت قريش لذلك غضباً شديداً حتى قصدوا بعضها بعضهم وتوصل إلى أن دخلها ليلاً، فأحدث فيها وكر راجعاً. فلما رأى السدنة ذلك الحدث رفعوا أمره إلى ملكهم أبرهة، وقالوا له: إنما صنع هذا بعض قريش؛ غضباً لبيتهم الذي ضاهيت هذا به. فأقسم أبرهة ليسيرن إلى بيت مكة وليخربنه حجراً حجراً.

فتأهب أبرهة لذلك، وسار في جيش كثيف عرمرم لئلا يصدّه أحد عنه، واستصحب معه فيلاً عظيماً كبير الجثة لم ير مثله، يقال له محمود. ويقال كان معه أيضاً ثمانية أفيال جاء بها من الحبشة، يتوجه بها لمكة المكرمة ليهدم به الكعبة المشرفة فلما سمعت العرب بمسيره أعظموا ذلك جداً، ورأوا أن حقاً عليهم الحاجة دون البيت ورد من أراد به بكيده.

فلما اقترب من أرض الطائف خرج إليه أهلها ثقيف، وصانعوه خيفة على بيتهم الذي عندهم الذي يسمونه اللات، فأكرمهم، وبعثوا معه أبا رغال دليلاً. فلما انتهى أبرهة إلى المغمس وهو قريب من مكة المكرمة - معروف باسمه اليوم - نزل به.

وأغار جيشه على سرح أهل مكة المكرمة من الإبل وغيرها فأخذوه. وكان في السرح مئتا بعير لعبد المطلب.

وبعث أبرهة حناطة الحميري إلى مكة المكرمة وأمره أن يأتيه بأشرف قريش وأن يخبره أن الملك لم يجئ لقتالكم، إلا أن تصدوه عن البيت. فجاء

حناطة فذُل على عبدالمطلب بن هاشم وبلغه عن أبرهة ما قال، فقال له عبدالمطلب: واللّه ما نريد حربه وما لنا بذلك من طاقة، هذا بيت الله الحرام وبيت خليله إبراهيم، فإن يمنعه منه فهو بيته وحرمة، وإن يخلي بينه وبينه فواللّه ما عندنا دفع عنه، فقال له حناطة: فاذهب معي إليه، فذهب معه.

فلما رآه أبرهة أجله. وكان عبدالمطلب رجلاً جسيماً حسن المنظر. ونزل أبرهة عن سريرته وجلس معه على البساط، وقال لترجمانه: قل له ما حاجتك؟ فقال لترجمان: إن حاجتي أن يرد علي الملك مئتي بغير أصابها لي. فقال أبرهة لترجمانه: قل له لقد كنت أعجبتي حين رأيته، ثم قد زهدت فيك حين كلمتني، أتكلمني في مئتي بغير أصبتها لك وتترك بيتاً هو دينك ودين آبائك قد جئت لهدمه لا تكلمني فيه؟ فقال له عبدالمطلب: إني أنا رب الإبل وإن للبيت رباً سيمنعه.

قال: ما كان ليمتع مني. قال: أنت وذاك. ويقال إنه ذهب مع عبدالمطلب جماعة من أشراف العرب فعرضوا على أبرهة ثلث أموال تهامة على أن يرجع عن البيت، فأبى عليهم، ورد أبرهة على عبدالمطلب إبله. ورجع عبدالمطلب إلى قريش فأمرهم بالخروج من مكة والتحصن في رؤوس الجبال؛ خوفاً عليهم من معرة الجيش. ثم قام عبدالمطلب فأخذ بحلقة باب الكعبة، وقام معه نفر من قريش يدعون الله ويستتصرون على أبرهة وجنده. فقال عبدالمطلب وهو آخذ بحلقة باب الكعبة:

لاهم إن المرء يمنع رحله فامنع حلالك

لا يغلبن صليبيهم ومحالهم أبداً محالك

ثم أرسل عبدالمطلب حلقة الباب، ثم خرجوا إلى رؤوس الجبال. فلما

أصبح أبرهة تهيأ لدخول مكة وهيأ فيله، وكان اسمه محموداً. وعبأ جيشه. فلما وجهوا الفيل نحو مكة برك، وضربوا الفيل ليقوم فأبى، فضربوا في رأسه بالطبرزين وأدخلوا محاجن لهم في مراقه فنزعه بها؛ ليقوم فأبى. فوجهوه راجعاً إلى اليمن فقام يهرول، ووجهوه إلى الشام ففعل مثل ذلك، ووجهوه إلى المشرق ففعل مثل ذلك، ووجهوه إلى مكة المكرمة فبرك.

وأرسل الله تعالى عليهم طيراً من البحر أمثال الخطاطيف والبلسان، مع كل طائر منها ثلاثة أحجار يحملها: حجر في منقاره وحجران في رجليه أمثال الحمص والعدس، ولا يصيب منهم أحداً إلا هلك.

وليس كلهم أصابت، وخرجوا هاربين يبتدرون الطريق. وكانت قريش وعرب الحجاز ينظرون ماذا أنزل الله بأصحاب الفيل من النعمة.

وعبد المطلب وجماعة من أشراف مكة ينظرون ما الحبشة يصنعون، وماذا يلقون. وقيل ليس كلهم أصابه العذاب في الساعة الراهنة، بل منهم من هلك سريعاً، ومنهم من جعل يتساقط عضواً عضواً وهم هاربون. وكان أبرهة ممن تساقط عضواً عضواً حتى مات ببلاد خثعم.

فلما بعث الله محمداً ﷺ كان فيما يعد به على قريش من نعمته عليهم وفضله ما رد عنهم من أمر الحبشة لبقاء أمرهم ومدتهم. فقال تعالى: ﴿ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ألم يجعل كيدهم في تضليل وأرسل عليهم طيراً أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل فجعلهم كعصف مأكول﴾. والأبابل الجماعات، ولم تتكلم العرب بواحدة. والسجيل الشديد الصلب،

والعصف ورق الزرع الذي لم يقضب واحدته عصفه.^(١)

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١٢/٦٩١ - ٦٩٩؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/٢٠٣٠ - ٢٠٣٢؛ وانظر: ابن هشام السيرة النبوية، ج ١/٣٤؛ ابن سعد، السيرة النبوية، ١/٩٢؛ وكتابي "رسول الله وخاتم النبيين"، ج ١/١٩٥.

سورة الماعون

تحذير المكذب بالدين:

قال تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالْإِيمَانِ ۚ فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ ۚ وَلَا يُحِضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ۚ﴾ [الماعون].

يقول تعالى: أرايت يا محمد الذي يكذب بالدين وهو المعاد والجزاء والثواب، ﴿فذالك الذي يدع اليتيم﴾ أي الذي يقهر اليتيم ويظلمه حقه ولا يطعمه ولا يحسن إليه، ﴿ولا يحض على طعام المسكين﴾ يعني الفقير الذي لا شيء له يقوم بأوده وكفايته.

ثم قال تعالى: ﴿فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون﴾ يعني المنافقين الذين يصلون في العلانية ولا يصلون في السر. ولهذا قال تعالى: ﴿للمصلين﴾ الذين هم من أهل الصلاة وقد التزموا بها، ثم هم عنها ساهون، إما عن فعلها بالكلية، وإما عن فعلها في الوقت المقدر لها شرعاً، فيخرجها عن وقتها بالكلية. وإما عن أدائها بأركانها وشروطها على الوجه المأمور به. وإما عن الخشوع فيها والتدبر لمعانيها، فاللفظ يشمل ذلك كله. ومن اتصف بشيء من ذلك قصد من هذه الآية. ومن اتصف بجميع ذلك فقد تم له نصيبه منها. وكمل له النفاق العملي. وقال بعضهم: الحمد لله الذي قال: ﴿عن صلاتهم ساهون﴾ ولم يقل في صلاتهم ساهون.

كما ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: ((تلك صلاة المنافق، تلك

صلاة المنافق، تلك صلاة المنافق، يجلس يرقب الشمس حتى إذا كانت بين قرني الشيطان قام فنقر أربعاً لا يذكر الله فيها إلا قليلاً^(١). فهذا آخر صلاة العصر التي هي الوسطى، كما ثبت به النص إلى آخر وقتها، وهو وقت الكراهة. ولهذا قال ﷺ: لا يذكر الله فيها إلا قليلاً، ولعله إنما حمله على القيام إليها مراعاة الناس لا ابتغاء وجه الله، فهو كما إذا لم يصل بالكلية. وقال تعالى هاهنا: ﴿الذين هم يراؤون﴾.

عن ابن عباس ؓ عن النبي ﷺ قال: إن في جهنم لوادياً تستعيز جهنم من ذلك الوادي في كل يوم أربع مئة مرة، أعد ذلك للمرأتين من أمة محمد لحامل كتاب الله وللمصدق في غير ذات الله وللحاج إلى بيت الله وللخارج في سبيل الله^(٢).

والنهي عن الرياء وردت فيه أحاديث مختلفة.

وروي عن علي ؓ: الماعون الزكاة، والمعنى من يمنع زكاة ماله. وفي لفظ صدقة ماله^(٣). ويدخل فيه منع الطعام عن المحتاجين.

(١) صحيح مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب استحباب التبكير بالعصر، ج ١١٠/٢.

(٢) انظر: الهيثمي، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، كتاب الزهد، باب ما جاء في الرياء، ج ٢٢٢/١٠.

(٣) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٧٠٥/١٢ - ٧١٥؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢٠٣٥/٢ - ٢٠٣٦.

سورة الكوثر

إعطاؤه ﷺ الكوثر من الجنة:

قال تعالى: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ۝٢ إِنَّتَ شَانِئُكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ۝٣﴾ [الكوثر].

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: أغفى رسول الله ﷺ، فرفع رأسه متبسماً إما قال لهم وإما قالوا له: لم ضحكت؟ فقال رسول الله ﷺ: إنه أنزلت علي أنفاً سورة، فقرأ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم إنا أعطيناك الكوثر﴾ حتى ختمها، فقال: هل تدرون ما الكوثر؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: هو نهر أعطانيه ربي ﷻ في الجنة عليه خير كثير، ترد عليه أمتي يوم القيامة، آنيته عدد الكواكب يختلج العبد منهم، فأقول يا رب إنه من أمتي، فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك.^(١)

وقد ورد في صفة الحوض يوم القيامة أنه يشخب فيه ميزابان من السماء من نهر الكوثر وأن آنيته عدد نجوم السماء.^(٢)

(١) صحيح مسلم، كتاب الصلاة، كتاب السنة، باب حجة من قال: البسملة آية من أول كل سورة، سوى براءة، ج ٢/١٢؛ سنن أبي داود، باب في خلق الجنة والنار، ص ٨٥٨، حديث رقم: ٤٧٤٧؛ سنن الترمذي، كتاب تفسير القرآن، باب (ومن سورة الكوثر)، ج ٥/٤٤٩، حديث رقم: ٣٣٥٩.

(٢) صحيح مسلم، كتاب الفضائل، باب اثبات حوض نبينا ﷺ وصفاته، ج ٧/٦٦؛ أخرجه أحمد في مسنده، ج ٥/١٤٩ باختلاف يسير؛ انظر: سنن أبي داود، كتاب السنة، باب في الحوض، ص ٨٥٨، حديث رقم: ٤٧٤٧.

عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((دخلت الجنة فإذا أنا بنهر حافتاه خيام اللؤلؤ، فضربت بيدي إلى ما يجري فيه الماء فإذا مسك أذفر، قلت: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا الكوثر الذي أعطاكه الله ﷻ)).^(١)

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: لما عُرج بالنبي ﷺ إلى السماء قال: ((أتيت على نهر حافتاه قباب اللؤلؤ المجوف فقلت: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا الكوثر)).^(٢)

عن عائشة رضي الله عنها أجابت عن قوله تعالى: ﴿إنا أعطيناك الكوثر﴾ قالت: "نهر أعطيه نبيكم ﷺ، شاطئاه عليه در مجوف، آنيته كعدد النجوم".^(٣)

وقوله تعالى: ﴿فصل لربك وانحر﴾ أي كما أعطيناك الخير الكثير في الدنيا والآخرة، ومن ذلك النهر الذي تقدمت صفته فأخلص لربك صلاتك المكتوبة والنافلة ونحرك فاعبده وحده لا شريك له، وانحر على اسمه وحده لا شريك له. عن ابن عباس رضي الله عنه وغيره يعني بذلك نحر البدن ونحوها.

وهذا بخلاف ما كان عليه المشركون من السجود لغير الله، والذبح على غير اسمه.

المراد بالنحر ذبح المناسك، ومنها الأضاحي، ولهذا كان ﷺ يصلي العيد ثم ينحر نسكه، ويقول: من صلى صلاتنا ونسك نسكنا فقد أصاب

(١) انظر: روايات متعددة عن الحوض في صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب في الحوض، ج ٢٠٧/٧.

(٢) صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب تفسير سورة: (إنا أعطيناك الكوثر)، ج ٩٢/٦.

(٣) صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب تفسير سورة: (إنا أعطيناك الكوثر)، ج ٩٢/٦ - ٩٣.

النسك. ومن نسك قبل الصلاة فلا نسك له. فقام أبو بردة بن نيار فقال: يا رسول الله إني نسكت شاتي قبل الصلاة، وعرفت أن اليوم يوم يُشْتَهَى فيه اللحم. قال: شاتك شاة لحم. قال: فإن عندي عناقاً هي أحب إلي من شاتين أفتجزئ عني؟ قال: تجزئك ولا تجزئ عن أحد بعدك.^(١)

وقوله تعالى: ﴿إِنْ شَانَتْكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ أي إن مبغضك يا محمد ومبغض ما جئت به من الهدى والحق والبرهان الساطع والنور المبين هو الأبتر الأقل الأذل المنقطع ذكره. قال ابن عباس رضي الله عنهما وغيره: نزلت في العاص بن وائل، حيث كان إذا ذكر رسول الله ﷺ يقول: دعوه فإنه رجل أبتر لا عقب له، فإذا هلك انقطع ذكره، فأنزل الله هذه السورة. وقيل: نزلت في عقبة بن أبي معيط.

وقيل في كعب بن الأشرف وجماعة من كفار قريش. وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قدم كعب بن الأشرف مكة فقالت له قريش: أنت سيدهم، ألا ترى إلى هذا الصبي المنبتر من قومه؟ يزعم أنه خير منا ونحن أهل الحجيج وأهل السدانة وأهل السقاية، فقال: أنتم خير منه، قال فنزلت: ﴿إِنْ شَانَتْكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾. وقيل نزلت في أبي لهب، وذلك حين مات ابن لرسول الله ﷺ فذهب أبو لهب إلى المشركين فقال: بُتر محمد الليلة، فأنزل الله في ذلك: ﴿إِنْ شَانَتْكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾.

﴿إِنْ شَانَتْكَ﴾ يعني عدوك، الأبتر الفرد. وورد كانوا إذا مات ذكور الرجل قالوا بُتر. فلما مات أبناء رسول الله ﷺ قالوا بتر: محمد، فأنزل الله

(١) رواه البخاري في صحيحه، كتاب العيدين، باب: كلام الإمام والناس في خطبة العيد، وإذا سئل الإمام عن شيء وهو يخطب، ج ١٠/٢.

تعالى: ﴿إِنْ شَأْنُكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾، فتوهموا لجهلهم أنه إذا مات بنوه انقطع ذكره، وحاشا وكلا، بل قد أبقى الله ذكره على رؤوس الأشهاد، وأوجب شرعه على رقاب العباد، مستمراً على دوام الآباد، إلى يوم المحشر والمعاد، ﷺ. ولا تُستبعد كل تلك الروايات. والآية فيها دفاع عن رسول الله ﷺ ضد كل من ينتقده ويسبهه إلى يوم القيامة.^(١)

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١٢/٧١٦ - ٧٢٦؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/٢٠٣٧ - ٢٠٤٠.

سورة الكافرون

البراءة من الكفار وشركهم وما يعبدون:

قال تعالى: ﴿قُلْ يَتَّيِّهَا الْكَافِرُونَ ۝ (١) لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝ (٢) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۝ (٣) وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ ۝ (٤) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۝ (٥) لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ۝ (٦)﴾ [الكافرون].

هذه السورة سورة البراءة من العمل الذي يعمله المشركون، وهي آمرة له ﷺ ولأمته بالإخلاص في الله ﷻ. فقله تعالى: ﴿قل يا أيها الكافرون﴾ يشمل كل كافر على وجه الأرض، ولكن المواجهين بهذا الخطاب هم كفار قريش. وقيل إنهم من جهلهم دعوا رسول الله ﷺ إلى عبادة أوثانهم سنة، ويعبدون معبوده سنة. فأنزل الله هذه السورة، وأمر رسوله ﷺ فيها أن يتبرأ من دينهم بالكلية، فقال: ﴿لا أعبد ما تعبدون﴾ يعني من الأصنام والأنداد ﴿ولا أنتم عابدون ما أعبد﴾ وهو الله وحده لا شريك له. فما هاهنا بمعنى من، ثم قال: ﴿ولا أنا عابد ما عبدتم ولا أنتم عابدون ما أعبد﴾ أي ولا أعبد عبادتكم أي لا أسلكها ولا أقتدي بها وإنما أعبد الله وحده على الوجه الذي يحبه ويرضاه. ولهذا قال تعالى: ﴿ولا أنتم عابدون ما أعبد﴾ أي لا تقتدون بأوامر الله وشرعه في عبادته، بل قد اخترعتم شيئاً من تلقاء أنفسكم.

فتبرأ منهم في جميع ما هم فيه. فإن العابد لا بد له من معبود يعبد وعبادة يسلكها إليه. فالرسول ﷺ وأتباعه يعبدون الله بما شرعه. ولهذا كان

كلمة الإسلام لا إله إلا الله محمد رسول الله أي لا معبود إلا الله ولا طريق إليه إلا ما جاء به الرسول ﷺ. والمشركون يعبدون غير الله عبادة لم يأذن بها الله. ولهذا قال لهم الرسول ﷺ: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾. يقال: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ﴾ الكفر ﴿وَلِيَ دِينِ﴾ الإسلام وتوحيد الله.

لا أعبد ما تعبدون الآن ولا أجيبكم فيما بقي من عمري ولا أنتم عابدون ما أعبد.

ومما حكاه المفسرون أن المراد ﴿لا أعبد ما تعبدون ولا أنتم عابدون ما أعبد﴾ في الماضي، ﴿ولا أنا عابد ما عبدتم ولا أنتم عابدون ما أعبد﴾ في المستقبل؛ وذلك تأكيد، كما يعني نفي الفعل؛ لأنها جملة فعلية ﴿ولا أنا عابد ما عبدتم﴾ ونفي قبوله لذلك بالكلية مع نفي الوقوع ونفي الإمكان الشرعي أيضاً.

وقد استدلل الإمام الشافعي وغيره بهذه الآية الكريمة ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ على أن الكفر ملة واحدة، تورثه اليهود من النصارى وبالعكس، إذ كان بينهما نسب أو سبب يتوارث به؛ لأن الأديان ما عدا الإسلام كلها كالشيء الواحد في البطلان.^(١)

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١٢/٧٢٧ - ٧٢٨؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/٢٠٤١ - ٢٠٤٢.

سورة النصر

وعند الله بنصره وانتشار دينه وتمام دوره:

قال تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۖ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۚ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ۝﴾ [النصر].

عن ابن عباس ؓ قال: كان عمر ؓ يدخلني مع أشياخ بدر، فكأن بعضهم وجد في نفسه، فقال: لِمَ يدخل هذا معنا ولنا أبناء مثله؟ فقال عمر ؓ: إنه ممن قد علمتم. فدعاهم ذات يوم فأدخلني معهم فما رأيت أنه دعاني فيهم يومئذ إلا ليريهم، فقال: ما تقولون في قول الله ﷻ: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾؟ فقال بعضهم: أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا. وسكت بعضهم فلم يقل شيئاً. فقال لي: أكذلك تقول يا ابن عباس؟ فقلت: لا، فقال: ما تقول؟ فقلت: هو أجل رسول الله ﷺ أعلمه له. قال تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾، فذلك علامة أجلك ﴿فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً﴾ فقال عمر بن الخطاب ؓ: لا أعلم منها إلا ما تقول.^(١)

وعن ابن عباس ؓ قال: لما نزلت ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ قال رسول الله ﷺ: ((نعت إلي نفسي، فإنه مقبوض في تلك السنة)).^(٢)

(١) رواه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب قوله تعالى: (فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً)، ج ٩٤/٦.

(٢) رواه الإمام أحمد في مسنده، ج ٢١٧/١.

وهكذا يتبين إنها تذكر بقرب أجل رسول الله ﷺ^(١).

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١٢/ ٧٢٩ - ٧٣٢؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/ ٢٠٤٢.

سورة الإخلاص

فضل الله ﷻ وصفته:

قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ ۝ (٢) لَمْ يَكِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ (٣) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۝ (٤)﴾ [الإخلاص].

وضع البخاري في صحيحه باب فضل قل هو الله أحد. ^(١)

عن أبي بن كعب رضي الله عنه أن المشركين قالوا للنبي ﷺ: يا محمد ((انسب لنا ربك، فأنزل الله تعالى: ﴿قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد﴾. ^(٢)

وورد أنه لما قالت اليهود: نحن نعبد عزيزاً ابن الله، وقالت النصارى: نحن نعبد المسيح ابن الله، وقالت المجوس: نحن نعبد الشمس والقمر، وقال المشركون: نحن نعبد الأوثان أنزل الله على رسوله ﷺ ﴿قل هو الله أحد﴾ يعني هو الواحد الأحد الذي لا نظير له ولا وزير ولا ند ولا شبيه ولا عدل. ولا يطلق هذا اللفظ على أحد في الإثبات إلا على الله ﷻ؛ لأنه الكامل في جميع صفاته وأفعاله.

و﴿الصمد﴾ الذي لم يلد ولم يولد؛ لأنه ليس شيء يولد إلا سيموت، وليس

(١) صحيح البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب فضل: (قل هو الله أحد)، ج ١٠٥/٦.

(٢) رواه الإمام أحمد في مسنده، ج ١٣٤/٥؛ والترمذي في سننه، كتاب تفسير القرآن، باب

(ومن سورة الأخلاص)، ج ٤٥١/٥، حديث رقم: ٣٣٦٤.

شيء يموت إلا سيورث، وإن الله سبحانه لا يموت ولا يورث. ﴿ولم يكن له كفواً أحد﴾ ولم يكن له شبيه ولا عدل وليس كمثلته شيء.

وقال الحسن أيضاً ﴿الصمد﴾ الحي القيوم الذي لا زوال له. وهو الذي لم يلد ولم يولد، كأنه جعل ما بعده تفسيراً له، وهو قوله تعالى: ﴿لم يلد ولم يولد﴾.

وقوله تعالى: ﴿الله الصمد﴾ عن ابن عباس رضي الله عنه: يعني الذي تصمد إليه الخلائق في حوائجهم ومسائلهم. وهو السيد الذي قد كُمل في سؤدده، والشريف الذي قد كُمل في شرفه، والعظيم الذي قد كُمل في عظمته، والحليم الذي قد كُمل في حلمه، والعليم الذي قد كُمل في علمه، والحكيم الذي قد كُمل في حكمته. وهو الذي قد كمل. والله سبحانه هذه صفته لا تبغي إلا له. ليس له كفاء، وليس كمثلته شيء سبحانه الله الواحد القهار.

وقوله تعالى: ﴿لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد﴾ أي ليس له ولد ولا والد ولا صاحبة.

﴿ولم يكن له كفواً أحد﴾ يعني لا صاحبة له، وهذا كما أنه مالك كل شيء وخالقه فكيف يكون له من خلقه نظير يساميه أو قريب يدانيه تعالى؟

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: ((قال الله تعالى كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك، وشتمني ولم يكن له ذلك. فأما تكذيبه إياي فقولته: لن يعيدني كما بدأني. وليس أول الخلق بأهون عليّ من إعادته. وأما شتمه إياي فقولته: اتخذ الله ولداً وأنا الأحد الصمد لم ألد ولم أولد ولم يكن لي

كفوًّا أحد)).^(١)

عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ بعث رجلاً على سرية، وكان يقرأ لأصحابه في صلاتهم فيختم بقل هو الله أحد. فلما رجعوا ذكروا ذلك للنبي ﷺ فقال: سلوه لأي شيء يصنع ذلك؟ فسألوه فقال الرجل: لأنها صفة الرحمن وأنا أحب أن أقرأ بها فقال النبي ﷺ: ((أخبروه أن الله تعالى يحبه)).^(٢)

عن أنس رضي الله عنه قال: كان رجل من الأنصار يؤمهم في مسجد قباء، فكان كلما افتتح سورة يقرأ بها لهم في الصلاة مما يقرأ به افتتح بقل هو الله أحد، حتى يفرغ منها، ثم كان يقرأ سورة أخرى معها. وكان يصنع ذلك في كل ركعة، فكلمه أصحابه فقالوا: إنك تفتتح بهذه السورة ثم لا ترى أنها تجزئك حتى تقرأ بالآخرى، فإما أن تقرأ بها، وإما تدعها وتقرأ بآخرى، فقال: ما أنا بتاركها، إن أحببتكم أن تؤمكم بذلك فعلت، وإن كرهتم تركتكم. وكانوا يرون أنه من أفضلهم، وكرهوا أن يؤمهم غيره، فلما أتاهم النبي ﷺ أخبروه الخبر فقال: ((يا فلان ما يمنعك أن تفعل ما يأمرك به أصحابك وما حملك على لزوم هذه السورة في كل ركعة)). قال: إني أحبها، قال: ((حبك إياها أدخلك الجنة)).^(٣)

عن أبي سعيد رضي الله عنه أن رجلاً سمع رجلاً يقرأ: ﴿قل هو الله أحد﴾ يرددها، فلما أصبح جاء إلى النبي ﷺ فذكر ذلك له، وكان الرجل يتقالها، فقال النبي ﷺ: ((والذي نفسي بيده إنها لتعدل ثلث القرآن)).^(٤)

(١) انظر: صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب: (وقالوا اتخذ الله ولداً سبحانه)، ج ٥/١٤٩.

(٢) صحيح البخاري، كتاب التوحيد، باب ما جاء في دعاء النبي ﷺ أمته إلى توحيد الله تبارك وتعالى، ج ٨/١٦٥.

(٣) صحيح البخاري، كتاب أبواب الصلاة، باب الجمع بين السورتين في الركعة، ج ١/١٨٨.

(٤) صحيح البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب فضل: (قل هو الله أحد)، ج ٦/١٠٥.

عن أبي سعيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ لأصحابه: ((أعجز أحدكم أن يقرأ ثلث القرآن في ليلة فشق ذلك عليهم وقالوا: أينما يطيق ذلك يا رسول الله. فقال ﷺ: ((الله الواحد الصمد ثلث القرآن)).^(١)

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((احشدوا فإنني سأقرأ عليكم ثلث القرآن))، فحشد من حشد ثم خرج النبي ﷺ فقرأ: ﴿قل هو الله أحد﴾ ثم دخل فقال بعضنا لبعض: قال رسول الله ﷺ: ((فإنني سأقرأ عليكم ثلث القرآن، إنني لأرى هذا خبراً جاء من السماء)). ثم خرج النبي ﷺ فقال: ((إنني قلت سأقرأ عليكم ثلث القرآن إلا وإنها تعدل ثلث القرآن)).

عن أبي هريرة رضي الله عنه يقول: أقبلت مع النبي ﷺ فسمع رجلاً يقرأ قل هو الله أحد، فقال رسول الله ﷺ: ((وجبت. قلت: وما وجبت قال: الجنة)).^(٢)

عن معاذ بن عبد الله بن خبيب عن أبيه قال: أصابنا عطش وظلمة، فانظرنا رسول الله ﷺ يصلي بنا، فخرج فأخذ بيدي فقال: قل: فسكت. قال: قل. قلت: ما أقول؟ قال: قل هو الله أحد والمعوذتين حين تمسي وحين تصبح ثلاثاً، تكفيك كل يوم مرتين.^(٣)

عن بريدة أنه دخل مع رسول الله ﷺ المسجد، فإذا رجل يصلي يدعو يقول: "اللهم إني أسألك بأني أشهد أن لا إله إلا أنت الأحد الصمد الذي لم

(١) صحيح البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب فضل: (قل هو الله أحد)، ج ٦/١٠٥.

(٢) سنن الترمذي، كتاب فضائل القرآن، باب ما جاء في سورة الإخلاص، ج ٥/١٦٧، حديث رقم: ٢٨٩٧.

(٣) سنن أبي داود، كتاب السنة، باب ما يقول إذا أصبح، ص ٩١٩، حديث رقم: ٥٠٨٢.

يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد". قال: ((والذي نفسي بيده لقد سأله باسمه الأعظم الذي إذا سئل به أعطى وإذا دعي به أجاب)).^(١)

عن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: لقيت رسول الله ﷺ فابتدأته فأخذته بيده فقلت: يا رسول الله ﷺ بم نجاة المؤمن؟ قال: يا عقبة أحرص لسانك وليسعك بيتك وابك على خطيئتك قال: ثم لقيني رسول الله ﷺ فابتدأني فأخذ بيدي فقال: يا عقبة بن عامر ألا أعلمك خير ثلاث سور أنزلت في التوراة والإنجيل والزيور والقرآن العظيم؟ قال: قلت بلى جعلني الله فداك. قال: فأقرأني ﴿قل هو الله أحد﴾ و﴿قل أعوذ برب الفلق﴾ و﴿قل أعوذ برب الناس﴾ ثم قال: يا عقبة لا تنسهن ولا تبت ليلة حتى تقرأهن. قال: فما نسيتهن منذ قال لا تنسهن وما بت ليلة قط حتى أقرأهن. قال عقبة: ثم لقيت رسول الله ﷺ فابتدأته فأخذت بيده، فقلت: يا رسول الله أخبرني بفواضل الأعمال فقال: يا عقبة صل من قطعك وأعط من حرملك وأعرض عن ظلمك.^(٢)

قال البخاري رحمه الله عن عائشة رضي الله عنها ((أن النبي ﷺ كان إذا أوى إلى فراشه كل ليلة جمع كفيه ثم نفث فيهما، وقرأ فيهما ﴿قل هو الله أحد﴾، و﴿قل أعوذ برب الفلق﴾، و﴿قل أعوذ برب الناس﴾، ثم يمسح بهما ما استطاع من جسده يبدأ بهما على رأسه ووجهه وما أقبل من جسده، يفعل ذلك ثلاث مرات)).^{(٣) (١)}

(١) سنن الترمذي، كتاب الدعوات، باب جامع الدعوات عن النبي ﷺ، ج ٥/٥١٥، حديث

رقم: ٢٤٧٥؛ سنن أبي داود، كتاب الصلاة، باب الدعاء، ص ٢٥٦، حديث رقم: ١٤٩٣.

(٢) انظر: رواية الإمام أحمد في مسنده، ج ٤/١٥٨؛ سنن الترمذي، كتاب الزهد، باب ما جاء في حفظ اللسان، ج ٤/٦٠٥، حديث رقم: ٢٤٠٦.

(٣) رواه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل القرآن، باب فضل المعوذات، ج ٦/١٠٦؛ سنن أبي داود، كتاب الأدب، باب ما يقول عند النوم، ص ٩١٣، حديث رقم: ٥٠٥٦؛ سنن

الترمذي، كتاب الدعوات، باب ما جاء فيمن يقرأ القرآن عند المنام، ج ٥/٤٧٣، حديث
رقم: ٣٤٠٢؛ مسند الإمام أحمد، ج ٦/١١٦.
(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١٢/٧٤٠ - ٧٤٥؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/٢٠٤٦ - ٢٠٥٠.

سورة الفلق

استعاذته ﷺ بالله من شر الخلق:

قال تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ۝١ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢ وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣ وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ۝٤ وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝٥﴾ [الفلق].

عن ابن عباس ؓ: ﴿الفلق﴾ الصبح، أو الخلق، وقد أمر الله نبيه أن يتعوذ من الخلق كله.

ذكر البخاري رحمه الله في صحيحه وقوله تعالى: ﴿من شر ما خلق﴾ أي من شر جميع المخلوقات، وإبليس وذريته مما خلق. ﴿ومن شر غاسق إذا وقب﴾ غاسق الليل إذا وقب غروب الشمس، والليل إذا أقبل بظلامه.^(١)

عن عائشة ؓ: أخذ رسول الله ﷺ بيدي فأراني القمر حين طلع وقال: ((تعوذي بالله من شر هذا الغاسق إذا وقب)).^(٢)

وقوله تعالى: ﴿ومن شر النفاثات في العقد﴾ يعني السواحر، إذا رقين ونفثن في العقد.

وفي الحديث: ((أن جبريل جاء إلى النبي ﷺ فقال: اشتكيت يا محمد؟

(١) انظر: البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، سورة قل أعوذ برب الفلق، ج ٩٦/٦.

(٢) سنن الترمذي، كتاب تفسير القرآن، باب (ومن سورة المعوذتين)، ج ٥٥٢/٥، حديث رقم: ٣٣٦٦. والإمام أحمد في مسنده، ج ٢٠٦/٦.

فقال. نعم. فقال: باسم الله أرقيك من كل داء يؤذيك، ومن شر كل حاسد وعين، الله يشفيك)).^(١)

ولعل هذا كان من شكواه ﷺ حين سحر، ثم عافاه الله تعالى وشفاه، ورد كيد السحرة الحساد من اليهود في رؤوسهم، وجعل تدميرهم في تدبيرهم وفضحهم. ولكن مع هذا لم يعاتبه رسول الله ﷺ يوماً من الدهر، بل كفى الله وشفى وعافى.

عن زيد بن أرقم قال: سحر النبي ﷺ رجل من اليهود، فاشتكى لذلك أياماً. قال: فجاءه جبريل فقال: إن رجلاً من اليهود سحرك وعقد لك عقداً في بئر كذا وكذا، فأرسل إليها من يجيء بها، فبعث رسول الله ﷺ علياً رضي الله عنه فاستخرجها فجاءه بها فحللها، قال: فقام رسول الله ﷺ كأنما نشط من عقال. فما ذكر ذلك لليهودي ولا رآه في وجهه قط.^(٢)

عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ سحر حتى كان يرى أنه يأتي النساء ولا يأتين. فقال: "يا عائشة أعلمت أن الله قد أفتاني فيما استفتيته فيه؟ أتاني رجلان فقعد أحدهما عند رأسي والآخر عند رجلي، فقال الذي عند رأسي للآخر: ما بال الرجل؟ قال: مطبوب، قال: ومن طبه، قال لبيد بن أعصم رجل من بني زريق حليف اليهود كان منافقاً، قال: وفيم؟ قال: في مشط ومشاطة، قال: وأين؟ قال: في جف طلعة ذكر تحت رعوفة في بئر ذروان [صخرة بارزة أسفل البئر جلس عليها]. قالت: فأتى البئر حتى

(١) انظر: سنن الترمذي، كتاب الجنائز، باب ما جاء في التعوذ للمريض، ج ٣/٢٩٣، حديث رقم: ٩٧٢؛ سنن ابن ماجه، كتاب الطب، باب ما عوذ به النبي ﷺ وما عوذ به، ج ٢/١١٦٤، حديث رقم: ٣٥٢٣.

(٢) رواه النسائي في سننه، كتاب تحريم الدم، الحكم في السحرة، سحرة أهل الكتاب، ج ٧/١١٣؛ الإمام أحمد في مسنده، ج ٤/٣٦٧.

استخرجه فقال: "هذه البئر التي أريتها وكأن ماءها نقاعة الحناء، وكأن نخلها رؤوس الشياطين". قال: فاستخرج فقلت: أفلا تنشرت [عافيته]؟ فقال: أما والله فقد شفاني وأكره أن أثير على أحد من الناس شراً. وفيه قالت حتى كان يخيل إليه أنه فعل الشيء ولم يفعله، وعنده فأمر بالبئر فدفنت.^(١)

ووجد رسول الله ﷺ خفة حين انحلت العقدة الأخيرة، فقام كأنما نشط من عقال. وجعل جبريل عليه السلام يقول: باسم الله أرقيك من كل شيء يؤذيك من حاسد وعين، الله يشفيك. فقالوا: يا رسول الله ﷺ أفلا نأخذ الخبيث نقتله؟ فقال رسول الله ﷺ: "أما أنا فقد شفاني الله وأكره أن أثير على الناس شراً".^(٢)

عن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((ألم تر آيات أنزلت هذه الليلة لم ير مثلهن قط ﴿قل أعوذ برب الفلق﴾ و﴿قل أعوذ برب الناس﴾)).^(٣)

عن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: بينا أنا أقود برسول الله ﷺ في نعب من تلك النقاب إذ قال لي: يا عقبة ألا تركب؟ قال: فأشفقت أن تكون معصية، قال: فنزل رسول الله ﷺ وركبت هنيئة ثم ركب ثم قال: يا عقبة ألا أعلمك سورتين من خير سورتين قرأ بهما الناس؟ قلت: بلى يا رسول

(١) صحيح البخاري، كتاب الطب، باب: هل يُستخرج السحر، ج ٢٩/٧ - ٣٠؛ صحيح مسلم، كتاب السلام، باب السحر، ج ١٤/٧؛ وانظر: الإمام أحمد في مسنده، ج ٦٣/٦.

(٢) انظر: صحيح البخاري، كتاب الطب، باب: هل يُستخرج السحر، ج ٢٩/٧ - ٣٠؛ الطبري، تفسيره، ج ١٢/٧٤٦ - ٧٥١؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/٢٠٥٣ - ٢٠٥٥.

(٣) صحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل قراءة المعوذتين، ج ٢/٢٠٠؛ سنن الترمذي، كتاب فضائل القرآن، باب ما جاء في المعوذتين، ج ١٧٠/٥، حديث رقم: ٢٩٠٢.

الله، فأقرأني ﴿قل أعوذ برب الفلق﴾ و﴿قل أعوذ برب الناس﴾، ثم أقيمت الصلاة فتقدم رسول الله ﷺ فقرأ بهما ثم مر بي فقال: كيف رأيت يا عقبة؟ اقرأ بهما كلما نمت وقمت.^(١)

عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ كان إذا اشتكى يقرأ على نفسه بالمعوذتين وينفث، فلما اشتد وجعه كنت أقرأ عليه بالمعوذات وأمسح بيده عليه رجاء بركتها.^(٢)

عن أبي سعيد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ: كان يتعوذ من أعين الجان وأعين الإنسان، فلما نزلت المعوذتان أخذ بهما وترك ما سواهما.^{(٣) (٤)}

(١) أخرجه النسائي في سننه، كتاب الاستعاذة، ج٨/٢٥٣؛ الإمام أحمد في مسنده، ج٤/١٤٤؛ وانظر: سنن أبي داود، كتاب الصلاة، باب في المعوذتين، ص ٢٥٢، حديث رقم ١٤٦٢.

(٢) رواه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل القرآن، باب فضل المعوذات، ج٦/١٠٥ - ١٠٦؛ صحيح مسلم، كتاب السلام، باب رقية المريض بالمعوذات والنفث، ج٧/١٦.

(٣) سنن الترمذي، كتاب الطب، باب ما جاء في الرقية بالمعوذتين، ج٤/٣٩٥، حديث رقم: ٢٠٥٨؛ سنن ابن ماجه، كتاب الطب، باب من استرقى من العين، ج٢/١١٦١، حديث رقم: ٣٥١١.

(٤) انظر: الطبري، تفسيره، ج١٢/٧٤٧ - ٧٥٤؛ ابن كثير، تفسيره، ج٢/٢٠٥١ - ٢٠٥٣.

سورة الناس

استعاذته ﷺ من الوسواس الخناس:

قال تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ (١) مَلِكِ النَّاسِ (٢) إِلَهِ النَّاسِ (٣) مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ (٤) الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ (٥) مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ (٦)﴾ [الناس].

هذه ثلاث صفات من صفات الرب ﷻ: الربوبية والملك والإلهية، فهو رب كل شيء ومليكه وإلهه، فجميع الأشياء مخلوقة له مملوكة عبيد له. فأمر المستعيز أن يتعوذ بالمتصف بهذه الصفات من شر الوسواس الخناس، وهو الشيطان الموكل بالإنسان، فإنه ما من أحد من بني آدم إلا وله قرين يزين له الفواحش، ولا يألوه جهداً في الخبال، والمعصوم من عصمه الله.

وقد ثبت أنه ﷺ قال: ما منكم من أحد إلا قد وكل به قرينه. قالوا: وأنت يا رسول الله؟ قال: نعم إلا أن الله أعانني عليه، فأسلم فلا يأمرني إلا بخير.^(١)

كما ثبت عن أنس رضي الله عنه في قصة زيارة صفية رضي الله عنها للنبي ﷺ وهو معتكف، وخروجه معها ليلاً ليردها إلى منزلها، فلقى رجلاً من الأنصار. فلما رآها النبي ﷺ أسرع، فقال رسول الله ﷺ: على رسلكما إنها صفية بنت حيي. فقالا: سبحان الله يا رسول الله. فقال: إن الشيطان يجري من ابن آدم

(١) صحيح مسلم، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب تحريش الشيطان، وبعثه سراياه لفتنة الناس، وأن مع كل إنسان قريناً، ج ٨/١٣٩.

مجرى الدم، وإني خشيت أن يقذف في قلوبكما شيئاً - أو قال شراً.^(١)

عن أبي المليح عن رجل قال: كنت رديف النبي ﷺ قال: عشر بالنبي ﷺ حمارة فقلت: تعس الشيطان، فقال النبي ﷺ: ((لا تقل تعس الشيطان فإنك إذا قلت: تعس الشيطان تعاضم وقال: بقوتي صرعته، وإذا قلت: باسم الله تصاغر حتى يصير مثل الذباب وغلب)).^(٢)

عن ابن عباس ؓ في قوله تعالى: ﴿الوسواس الخناس﴾ قال: الشيطان جائم على قلب ابن آدم، فإذا سها وغفل وسوس، فإذا ذكر الله خنس، وذكر أن الشيطان أو الوسواس ينفث في قلب ابن آدم عند الحزن وعند الفرح، فإذا ذكر الله خنس. عن ابن عباس ؓ في قوله تعالى: ﴿الوسواس﴾ قال: هو الشيطان يأمر.

وقوله تعالى: ﴿الذي يوسوس في صدور الناس﴾ ولا يختص هذا ببني آدم كما هو الظاهر، بل يعم بني آدم والجن؟ فيه قولان، ويكون الجن قد دخلوا في لفظ الناس تغليباً. وقوله تعالى: ﴿من الجنة والناس﴾، هو تفصيل لقوله: ﴿الذي يوسوس في صدور الناس﴾ ثم بينهم سبحانه فقال تعالى: ﴿من الجنة والناس﴾. وهذا تفسير للذي يوسوس في صدور الناس من شياطين الإنس والجن.

عن أبي ذر ؓ قال: أتيت رسول الله ﷺ وهو في المسجد فجلست، فقال: "يا أبا ذر هل صليت؟" قلت: لا "قال: قم فصل" قال: فقممت فصليت ثم

(١) صحيح البخاري، كتاب الاعتكاف، باب هل يخرج المعتكف لحوائجه إلى باب المسجد، ح ٢٥٧/٢.

(٢) رواه الإمام أحمد في مسنده، ج ٥/٥٩: سنن أبي داود، كتاب الأدب، باب (٨٦)، ص ٩٠١، حديث رقم: ٤٩٨٢.

جلست، فقال: "يا أبا ذر تعوذ بالله من شر شياطين الإنس والجن". قال: فقلت يا رسول الله وللإنس شياطين؟ قال: "نعم". قال: فقلت يا رسول الله الصلاة؟ قال: "خير موضوع من شاء أقل ومن شاء أكثر؟" قلت: يا رسول الله فالصوم؟ قال: "فرض مجزئ وعند الله مزيد". قلت: يا رسول الله فالصدقة؟ قال: "أضعاف مضاعفة". قلت: يا رسول الله فأيتها أفضل؟ قال: "جهد من مقل أو سر إلى فقير". قلت: يا رسول الله أي الأنبياء كان أول؟ قال: "آدم". قلت: يا رسول الله ونبياً كان؟ قال: "نعم، نبي مكلم". قلت: يا رسول الله كم المرسلون؟ قال: "ثلاثمائة وبضعة عشر جمًّا غفيراً" وقال مرة: "خمسة عشر". قلت: يا رسول الله أيما أنزل عليك أعظم، قال: آية الكرسي ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾.^(١)

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله إني لأحدث نفسي بالشيء لأن آخر من السماء أحب إلي من أن أتكلم به قال: فقال النبي ﷺ: ((الله أكبر الحمد لله الذي رد كيده إلى الوسوسة)).^{(٢) (٣)}

(١) انظر: رواية الإمام أحمد في مسنده، ج ١٧٩/٥؛ وانظر: الهيثمي، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، باب ذكر الأنبياء ﷺ، ج ٢١٠/٨؛ ابن حجر، المطالب العالمة، ج ٢٢٠/١٤ برقم ٣٤٤٢.

(٢) سنن أبي داود، كتاب الأدب، باب رد الوسوسة، ص ٩٢٥، حديث رقم: ٥١١٢.

(٣) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١٢/٧٥٢ - ٧٥٤؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/٢٠٥٥ - ٢٠٥٦.

خاتمة:

الحمد لله الذي بعث نبيه محمداً ﷺ رحمة للعالمين، والصلاة والسلام على رسول الله خاتم النبيين، الذي وجهه الله ﷻ في قوله: ﴿بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [الزمر].

وعلى آله الطيبين، وصحابته الميامين: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَنٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة].

وبعد: فقد ختم الله الرسل والأنبياء لأهل الأرض بالمصطفى ﷺ كما قال ﷺ: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ [الأحزاب].

وقد انقطع الوحي من الخالق لخلقه بوفاته ﷺ. والقرآن الكريم آخر الكتب السماوية المنزلة على رسل الله ﷻ. وفيه حديث عن المصطفى ﷺ وإليه فيه الكثير من الآيات القرآنية الكريمة المرتبطة ببعضها ببعض.

ومن خلال البحث لاحظت ارتباط حياته ﷺ بالقرآن الكريم، وتعليمه وتأديبه من خلال الآيات الكريمة، وكذلك الإشارة إلى كثير من الحوادث في حياته، وإرشاده للإجابة عن أسئلة الناس حوله مسلمهم وكافرهم، فيما يقارب ألفين وخمسمئة وأربعين (٢٥٤٠) آية قرآنية، ذات ارتباط به ﷺ وبحياته وأخباره، ودعوته وتوجيهه، وعصمته وأخلاقه وغزواته، وحديث عن

بيت النبوة، وسيرته ومراحل حياته حتى وفاته ﷺ. الكثير منها ارتبط بآيات ذات صلة به ﷺ أو استكمالاً لها نزلت في مناسبات متعددة، فيما يقارب ثلث الآيات القرآنية. موزعة على سورته المختلفة تنزلت عليه في أوقات مختلفة.

وقد شُرحت تلك الآيات وما يرتبط بها وأسباب نزولها وتفسيرها في كتب التفسير والآثار المتعددة، كما أشارت لذلك كتب التفسير والحديث من الصحاح والسنن.

وقد ارتبطت الآيات بعضها ببعض، وبما سبقها في كثير من الأحيان أو ما تلاها، وذلك مما يزيد الفهم والترابط.

ومعرفة تلك الآيات وفهمها يعين على فهم سُنَّة الرسول ﷺ وسيرته، وظروف حياته ﷺ، وما يرتبط بها من أصحابه وآل بيته وأعدائه من مشركين ومنافقين وأهل كتاب، والمعاصرين له عموماً. ومن خلال تلك المعرفة تزيد محبتنا له ﷺ والإيمان به وتتجلى لنا معلومات مهمة ترتبط به وبحياته ﷺ، بل وبآخرته وما وعده الله من الدرجات العلى والمكانة الرفيعة في الجنة.

ولا شك في أهمية الصلاة على النبي ﷺ في كل موضع ورد فيه ذكره، مع الترضي عن أصحابه ﷺ ورضي الله عنهم. ولعل هذا البحث يزيدنا صلاة وسلاماً عليه ﷺ، مع معرفة مكانته عند الله وصالح المؤمنين، وخصائصه، وما له على العباد من حقوق. ويكون عوناً لنا على تطبيق قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب]. ففي كل أعماله المقربة إلى الله يوجد لنا أسوة فيه ﷺ.

المصادر والمراجع

أولاً، المصادر:

- ابن آدم، يحيى القرشي (ت، ٣٠٣هـ).
- الخراج - بيروت: دار المعرفة (د. ت).
- ابن الأثير الجزري، المبارك بن محمد بن عبد الكريم، أبو السعادات (ت، ٦٠٦هـ).
- النهاية في غريب الأثر، تحقيق محمد الراوي ومحمود الطناحي - بيروت: المكتبة الإسلامية (د. ت).
- ابن الأثير، عز الدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني (ت، ٦٣٠هـ / ١٢٣٨م).
- الكامل في التاريخ - بيروت: دار صادر ١٣٨٥هـ.
- أبو داود، سليمان بن الأشعث السجستاني (ت، ٢٧٥هـ).
- سنن أبي داود، حكم على أحاديثه وآثاره وعلق عليه العلامة المحدث محمد ناصر الدين الألباني، ط ٢ - الرياض: مكتبة المعارف للنشر والتوزيع ١٤٢٧هـ / ٢٠٠٧م.
- الأزرقي، أبو الوليد محمد بن عبد الله بن أحمد (ت، ٢٥٠هـ).
- أخبار مكة، تحقيق رشدي الصالح ملحس - بيروت: دار الثقافة ١٣٩٩هـ.
- ابن إسحاق، محمد بن إسحاق بن يسار المظلي (ت، ١٥١هـ).
- سيرة ابن إسحاق، المسماة بكتاب المبتدأ والمبعث والمغازي، تحقيق محمد حميد الله، ط ٢ - قونية تركيا: الوقف للخدمات الخيرية ١٤٠١هـ.

ابن أبي شيبه، أبو بكر عبدالله بن محمد (ت، ٢٣٥هـ).
 - المصنف، تصحيح عبدالخالق الأفغاني - كراتشي: دار الفرقان ١٤٠٦هـ.
 - المغازي، تحقيق عبدالعزيز بن إبراهيم العُمري، ط ١ - الرياض: دار
 إشبيليا ١٤٢١هـ.

الأصبهاني، أحمد بن عبدالله (ت، ٤٣٠هـ)
 - دلائل النبوة - القاهرة: ١٣٩٧هـ.
 الأصبهاني، عبدالله بن محمد بن جعفر بن حيان (ت، ٣٦٩هـ).
 - أخلاق النبي وآدابه، تحقيق مجدي محمد الشهاوي، ط ١ - عالم الكتب
 ١٤٢٦هـ / ٢٠٠٥م.

الألوسي، محمود شكري (ت، ١٣٤٢هـ).
 - بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، شرح وتصحيح محمد بهجة الأثري،
 ط ٢ - بيروت، لبنان: دار الكتب العلمية (د. ت).
 البخاري، الحافظ أبي عبدالله إسماعيل بن إبراهيم (ت، ٢٥٦هـ).
 - صحيح البخاري (الجامع الصحيح)، ط ١ - الرياض: دار إشبيليا - بيروت:
 دار الفكر ١٤١١هـ. (بالصفحات).
 الرياض، دار السلام ١٤١٧هـ (بالأرقام) حسب المعجم المفهرس.
 - الأدب المفرد - بيروت: مؤسسة الكتب الثقافية ١٤٠٦هـ.
 برنابا.

- إنجيل برنابا، ترجمة خليل سعادة، تحقيق أحمد حجازي السقا، ط ١ -
 إربد الأردن: دار الأمل ٢٠٠٥هـ.

البیهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين (ت، ٤٥٨هـ).
 - دلائل النبوة، تحقيق عبدالمعطي قلعجي، ط ١ - بيروت: دار الكتب
 العلمية ١٤٠٥هـ.

- الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة. (ت، ٢٧٩هـ).
- الجامع الصحيح (سنن الترمذي)، تحقيق أحمد محمود شاكر - بيروت: دار إحياء التراث العربي (د. ت).
- شمائل النبي ﷺ، تحقيق ماهر ياسين فحل، ط ١ - بيروت: دار الغرب الإسلامي ١٤٢٣هـ.
- مختصر الشمائل المحمدية، اختصار وتحقيق محمد ناصر الدين الألباني - عمان الأردن: المكتبة الإسلامية - بالرياض: مكتبة المعارف ١٤٢١هـ.
- أوصاف النبي، تحقيق سميح عباس، ط ١ - بيروت: دار الجيل (د. ت).
- التيمي، إسماعيل بن محمد [قوام السنة] (ت، ٥٣٥هـ).
- دلائل النبوة، تحقيق محمد الحداد، ط ١ - الرياض: دار طيبة ١٤٠٩هـ.
- ابن جماعة، عز الدين أبي محمد عبدالعزيز بن بدر الدين أبي عبدالله (ت، ٧٦٧هـ).
- المختصر الصغير في سيرة رسول الله ﷺ، ط ١ - القاهرة: عين للبحوث والدراسات ٢٠٠٥م.
- ابن الجوزي، جمال الدين أبو الفرج عبدالرحمن بن علي (ت، ٥٩٧هـ).
- المنتظم في أخبار الأمم - حيدر آباد: دار المعارف العثمانية ١٣٥٨هـ.
- تلقيح فهوم أهل الأثر في عيون التاريخ والسير - القاهرة: مكتبة الآداب (د. ت).
- رسائل ورسل رسول الله ﷺ إلى الملوك والأشراف، تحقيق محمد عبدالرحيم، ط ١ - دمشق: دار سعد الدين ١٤٢٥هـ.
- الوفاء بأحوال المصطفى - بيروت: دار الكتب العلمية (د. ت).

الحاكم، أبو عبدالله الحاكم محمد بن عبدالله النيسابوري (ت، ٤٠٥هـ).
- المستدرك على الصحيحين بذيله التلخيص للذهبي - القاهرة: مكتبة
المطبوعات الإسلامية ١٣٩٠هـ.

ابن حبان، محمد بن أحمد التميمي البستي (ت، ٣٥٤هـ).
- السيرة النبوية وأخبار الخلفاء، ط ١ - بيروت: مؤسسة الكتب الثقافية
١٤٠٧هـ.

- صحيح ابن حبان بترتيب ابن لبان، علاء الدين علي بن لبان الفارسي،
تحقيق شعيب الأرناؤط، دار الرسالة العالمية، دمشق وبيروت، ١٤٣٢هـ
ابن حبيب، أبو جعفر محمد بن حبيب بن أمية بن عمرو الهاشمي
البغدادي (ت، ٢٤٥هـ).

- كتاب المحبر، تحقيق ايلزه ليختن شتير، - بيروت: دار الآفاق (د. ت).
ابن حبيب، الحسن بن عمر (ت، ٧٧٩هـ).
- المقتضى من سيرة المصطفى، تحقيق مصطفى الذهبي - القاهرة: دار
الحديث ١٤١٦هـ.

ابن حبيب، محمد البغدادي (ت، ٢٤٥هـ).
- كتاب المنق في أخبار قریش، تحقيق خورشيد أحمد عالم - حيدر آباد:
الهند.

ابن حجر، شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد العسقلاني
(ت، ٨٥٢هـ).

- فتح الباري "شرح صحيح البخاري"، مراجعة عبدالرؤوف سعد وآخرين -
القاهرة: مكتبة الكليات الأزهرية ١٣٩٨هـ.

- ابن أبي حديدة، محمد بن علي بن أحمد الأنصاري (ت، ٧٨٣هـ).
- المصباح المضي في كُتَاب النبي الأُمي ورُسله إلى ملوك الأرض من عربي وعجمي، تعليق أحمد فريد المزيدي - بيروت: دار الكتب العلمية ١٤٢٦هـ.
- ابن حزم، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد (٣٨٤ - ٤٥٦هـ).
- جمهرة أنساب العرب، راجعه لجنة من العلماء، ط١ - بيروت: دار الكتب العلمية ١٤٠٣هـ.
- حجة الوداع، تحقيق عبدالحق التركماني - بيروت: دار ابن حزم ١٤٢٩هـ.
- جوامع السيرة النبوية - بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٠٣هـ.
- الحلبي، علي بن برهان الدين (ت، ٩٧٥هـ).
- السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون، (إنسان العيون) - بيروت: دار المعرفة ١٤٠٠هـ.
- حماد بن إسحاق القاضي (ت، ٢٦٧هـ).
- تركة النبي ﷺ والسبل والتي وجهها فيها، تحقيق ودراسة أكرم ضياء العمرى، ط١ - المدينة المنورة: ١٤٠٤هـ.
- الحموي، شهاب الدين أبو عبدالله ياقوت بن عبدالله (ت، ٦٢٦هـ).
- معجم البلدان - بيروت: دار الكتاب العربي (د. ت).
- الحميري، محمد بن عبد المنعم (ت، ٩٠٠هـ).
- الروض المعطار في خبر الأقطار، ط٢ - بيروت: مكتبة لبنان ١٩٨٤م.
- ابن حنبل، الإمام أبي عبدالله أحمد (ت، ٢٤١هـ).
- مسند الإمام أحمد - بيروت: المكتبة الإسلامية ١٣٩٨هـ.

الخزاعي، أبو الحسن علي بن محمد التلمساني (ت، ٧٨٩هـ).
 - تخريج الدلالات السمعية على ما كان في عهد الرسول ﷺ من الحرف
 والصنائع والعمالات الشرعية، تحقيق أحمد محمود أبو سلامة، ط ١ -
 القاهرة: المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ١٤٠١هـ.
 الخُشني، أبو ذر مصعب بن محمد بن مسعود (ت، ٦٠٤هـ).
 - شرح السيرة النبوية، تحقيق بولس برونله - بيروت: دار الكتب العلمية
 (د. ت).

خليفة بن خياط، ابن أبي هُبيرة الليثي العصفري (١٦٠ - ٢٤٠هـ).
 - تاريخ خليفة بن خياط، تحقيق أكرم ضياء العُمري، ط ٢ - بيروت:
 مؤسسة الرسالة ١٣٩٨هـ.

الخيضري، محمد بن محمد بن عبد الله.
 - اللفظ المكرم بخصائص النبي ﷺ، تحقيق محمد الأمين الجكني، ط ١
 - المدينة المنورة وبريدة: دار البخاري ١٤١٥هـ.
 الدارمي، أبو عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل بن بهرام (ت، ٢٥٥هـ).
 - سنن الدارمي، عناية محمد أحمد دهمان، (د. م) و (د. ت).
 الدولابي، محمد بن أحمد بن حماد (ت، ٣١٠هـ).
 - الذرية الطاهرة النبوية، تحقيق سعد المبارك الحسن، ط ١ - الكويت:
 الدار السلفية ١٤٠٧هـ.

ابن الديبع، عبد الرحمن بن علي الشيباني (ت، ٩٤٤هـ).
 - حقائق الأنوار ومطالع الأسرار في سيرة النبي المختار، تحقيق عبد الله
 الأنصاري، ط ٢ - مكة المكرمة: المكتبة المكية ١٤١٣هـ.

- الدينوري، أبو حنيفة أحمد بن داود (ت، ٢٨٢هـ).
- الأخبار الطوال، تحقيق عبدالمنعم عمار، مراجعة جمال الدين الشيال - بغداد: مكتبة المثنى (د. ت).
- الذهبي، الحافظ شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان (ت، ٨٤٧هـ).
- سير أعلام النبلاء، تحقيق شعيب الأرنؤوط وآخرون، ط ٢ - بيروت: مؤسسة الرسالة ١٤٠٢هـ.
- السيرة النبوية، تحقيق حسام الدين القدسي - بيروت: دار ومكتبة الهلال.
- ابن رجب، أبو الفرج عبدالرحمن الحنبلي (ت، ٧٩٥هـ).
- مجالس في سيرة النبي، تحقيق ياسين محمد السواس ومحمود الأنأؤوط، ط ١ - دمشق: دار ابن كثير ١٤٠٨هـ.
- ابن زبالة، محمد الحسن (ت، ١٩٩هـ).
- منتخب من كتاب أزواج النبي، تحقيق د. أكرم العُمري ط ١ - المدينة المنورة: الجامعة الإسلامية ١٩٨١م.
- الزبيدي، أبو الفيض محمد مرتضى (ت، ١٢٠٥هـ).
- تاج العروس من جواهر القاموس، ط ١ - القاهرة: المكتبة الخيرية ١٣٠٦هـ.
- ابن الزبير، عروة بن الزبير بن العوام (ت، ٩٣هـ).
- مغازي رسول الله ﷺ (أول سيرة في الاسلام)، جمع سلوى مرسى الطاهر، ط ١ - بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر ١٩٩٥م.
- الزبيدي، أبو عبدالله المصعب بن عبدالله بن المصعب (١٥٦ - ٢٣٦هـ).
- نسب قریش، تحقيق ليفي بروفنسال، ط ٣ - القاهرة: دار المعارف ١٩٨٢م.

الزبير بن بكار، أبو عبدالله الزبير بن بكار بن عبدالله بن مصعب بن ثابت بن عبدالله بن الزبير بن عوام الأسدي القرشي (ت، ٢٥٦هـ).

- الأخبار الموفقيات، تحقيق سامي مكّي العاني، ط ٢ - بيروت: عالم الكتب ١٤١٦هـ / ١٩٩٦م.

الزرقاني، محمد بن عبد الباقي (ت، ١١٢٢هـ).

- شرح المواهب اللدنية، تحقيق محمد عبدالعزيز الخالدي - بيروت: دار الكتب ١٤١٧هـ.

ابن زكريا، أبي الحسين أحمد بن فارس (ت، ٣٩٥هـ).

- سيرة النبي ﷺ المختصرة، تحقيق محمد كمال الدين عز الدين، ط ١ - بيروت: عالم الكتب ١٤٠٩هـ.

ابن زنجويه، حميد بن مخلد بن قتيبة الأذري (ت، ٢٥١هـ).

- الأموال، تحقيق شاكر ديب فياض، ط ١ - الرياض: مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات ١٤٠٦هـ.

الزهري، محمد بن مسلم بن عبيد الله بن شهاب (ت، ١٢٤هـ).

- مرويات الإمام الزهري في المغازي النبوية، جمع محمد بن محمد عواجي، ط ١ - المدينة المنورة: عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية ١٤٢٥هـ.

ابن سعد، محمد بن منيع الزهري (ت، ٢٣٠هـ).

- السيرة النبوية من الطبقات الكبرى، ط ١ - القاهرة: الزهراء للإعلام العربي ١٤٠٩هـ.

- سنن النبي ﷺ وأيامه استخرجه ورتبه عبدالسلام محمد عمر علوش،

ط ١ - المكتب الإسلامي ١٤١٦هـ / ١٩٩٥م.

- الطبقات الكبرى - بيروت: دار صادر (د. ت).

- السمعاني، أبو سعد عبدالكريم بن محمد بن منصور (ت، ٥٦٢هـ).
- الأنساب، تحقيق عبدالرحمن يحيى العلمي، ط ١ - بيروت: نشر محمد أمين دمج ١٤٠٠هـ.
- السمهودي، نور الدين علي بن أحمد (ت، ٩١١هـ).
- وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد، ط ٣ - بيروت: دار إحياء التراث العربي ١٤٠١هـ.
- السهيلي، عبدالرحمن بن عبدالله بن أحمد الخثعمي (ت، ٥٨١هـ).
- الروض الأنف في تفسير السيرة لابن هشام، ضبط طه عبدالرؤوف سعد - بيروت: دار المعرفة ١٣٩٨هـ.
- ابن سيد الناس، محمد بن محمد بن محمد بن عبدالله بن يحيى (ت، ٧٣٤هـ).
- عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير، تحقيق لجنة إحياء التراث العربي، ط ٢ - دار الآفاق الجديدة ١٤٠٠هـ.
- السيوطي، عبدالرحمن بن أبي بكر، أبو الفضل (ت، ٩١١هـ).
- الخصائص الكبرى (كفاية الطالب اللبيب في خصائص الحبيب) - بيروت: دار الكتب العلمية (د. ت).
- الرياض الأنيفة في أسماء خير الخليقة، تحقيق محمد السعيد بسيوني - بيروت: دار الكتب العلمية.
- مسانيد أمهات المؤمنين، تحقيق محمد غوث الندوي - الهند: الدار السلفية ١٤٠٣هـ.
- ابن شبة، أبو زيد عمر بن شبة النميري البصري (ت، ٢٦٤هـ).
- تاريخ المدينة، تحقيق فهد شلتوت - المدينة المنورة: نشرة السيد حبيب محمود أحمد ١٣٩٣هـ.

الصالحى الشامى، محمد بن يوسف (ت، ٩٤٢هـ).

- سبل الهدى والرشاد فى هدى خير العباد ، تحقيق مصطفى عبدالواحد وآخرون - القاهرة: المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ١٣٩٢هـ - ١٣٩٩هـ.
- أزواج النبي ﷺ ، تحقيق محمد نظام الدين الفتيح ، ط ١ - دمشق: دار ابن كثير ١٤١٣هـ.

الطبرانى، أبو القاسم سليمان بن أحمد (ت، ٦٣٠هـ).

- المعجم الأوسط، تحقيق طارق عوض الله ومحمد الحسنى، ط ١ - الرياض: دار الحرمين ١٤١٥هـ.

الطبرى، أبو جعفر محمد بن جرير (ت، ٣١٠هـ).

- السيرة النبوية تحقيق جمال بدران، ط ١ - الدار المصرية اللبنانية ١٤١٤هـ / ١٩٩٤م.

- تفسير الطبرى، جامع البيان فى تفسير القرآن، ط ١ - بيروت: دار الكتب العلمية ١٤١٢هـ.

- تاريخ الأمم والملوك - بيروت: دار الفكر (د. ت).

ابن طولون، محمد بن علي الدمشقي (ت، ٩٥٣هـ).

- إعلام السائلين عن كتب سيد المرسلين، ضمن كتاب المصباح المضيء فى كتاب النبي لابن أبي حديدة، تعليق أحمد فريد المزيدي، ط ١ - بيروت: دار الكتب العلمية ١٤٢٦هـ.

العباسي، أحمد بن عبد الحميد.

- عمدة الأخبار فى مدينة المختار، ضبط محمد الطيب الأنصاري وحمد الجاسر، ط ٤ - المدينة المنورة: المكتبة العلمية بالمدينة المنورة (د. ت).

ابن عبد البر، يوسف بن عبد الله النمري القرطبي (ت، ٤٦٣هـ).
- الدرر في اختصار المغازي والسير - مكة المكرمة: دار الباز للنشر والتوزيع (د. ت).

عبدالرزاق، أبي بكر عبدالرزاق بن همام (ت، ٢١١هـ).
- مصنف عبدالرزاق، تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي، ط ٢ - بيروت: المكتب الإسلامي ١٤٠٣هـ.

ابن عبد البر، يوسف النمري (ت، ٤٦٣هـ).
- الدرر في اختصار المغازي والسير، تحقيق شوقي: ضيف، ط ٢ - القاهرة: دار المعارف ١٩٩١م.

- ابن عبد الوهاب، محمد (ت، ١٢٠٦هـ).
- مختصر سيرة الرسول - بيروت: دار العربية للطباعة والنشر (د. ت).
ابن عساكر، أبو القاسم علي بن الحسن (٤٩٩ - ٥٧١هـ).
- تاريخ دمشق، صورة من نسخة المكتبة الظاهرية بدمشق مكملة من القاهرة وإسطنبول - المدينة المنورة: صورة أولى مكتبة الدار ١٤٠٧هـ.
- تاريخ دمشق (تراجم النساء)، تحقيق سكيئة الشهابي، ط ١ - دمشق: المجمع العلمي ١٩٨٢م.

العصامي، عبد الملك بن حسن المكي (ت، ١١١١هـ).
- سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي، ١٣٨٠هـ.
ابن العماد الحنبلي، أبو الفلاح عبد الحي (ت، ١٠٨٩هـ).
- شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ط ٢ - دار المسيرة ١٣٩٩هـ.
ابن فارس، أحمد بن فارس بن زكريا (ت، ٣٩٥هـ).
- أسماء النبي ﷺ ومعانيها - الرياض: عالم الكتب ١٤٠٨هـ.

- الفاكهي، أبو عبدالله أحمد بن إسحاق (٢٧٩هـ تقريباً).
- أخبار مكة في قديم الدهر وحديثه، تحقيق عبد الملك بن عبدالله بن دهيش، ط ١ - مكة المكرمة: مكتبة النهضة الحديثة ١٤٠٧هـ.
- الضريابي، جعفر بن محمد (ت، ٣٠١هـ).
- دلائل النبوة، ومعه المستخرج على دلائل النبوة، تحقيق عامر حسن صبري، ط ١ - مكة المكرمة: دار حراء ١٤٠٦هـ.
- ابن فهد، النجم عمر بن فهد بن محمد بن محمد بن محمد فهد (٨١٢ - ٨٨٥هـ).
- إتحاف الوري بأخبار أم القرى، تحقيق فهد شلتوت، ط ١ - مكة المكرمة: جامعة أم القرى ١٤٠٣هـ.
- الفيروزآبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب (ت، ٨١٦هـ).
- القاموس المحيط، ط ٢ - القاهرة: مكتبة مصطفى البابي الحلبي ١٣٧١هـ.
- القاري، علي بن سلطان الملا علي (ت، ١٠١٤هـ).
- شرح الشفا في شمائل صاحب الاصفاء، تحقيق عبدالله محمد خليلي - بيروت: دار الكتب العلمية.
- القرطبي، أبو عبدالله بن محمد بن فرج المالكي (ت، ٤٩٧هـ).
- أقضية رسول الله ﷺ - الدوحة: مطابع قطر الوطنية (د. ت).
- القرطبي، محمد بن أحمد بن أبي بكر (ت، ٦٧١هـ).
- الجامع لأحكام القرآن، تحقيق عبدالله بن عبد المحسن التركي، ط ١ - بيروت: مؤسسة الرسالة ١٤٢٧هـ.

القسطلاني، أحمد بن محمد (ت، ٩٢٣ هـ).

- المواهب اللدنية، تحقيق مأمون محي الدين الجنان، ط ١ - بيروت: دار الكتب العلمية ١٤١٦ هـ.

القسطيني، أبي العباس أحمد بن الخطيب الشهير بابن قنفذ (ت، ٨١٠ هـ).

- وسيلة الإسلام بالنبي ﷺ، ط ١ - بيروت: دار الغرب الإسلامي ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤ م.

القلقشندي، أبو بكر عبدالله بن محمد بن إسماعيل (ت، ٨٦٧ هـ).

- الأسراء والمعراج - القاهرة: ١٣٥٧ هـ.

ابن القيم، محمد بن أبي بكر الزرعي الدمشقي (ت، ٧٥١ هـ).

- جلاء الأفهام في فضل الصلاة على خير الأنام، تحقيق عبدالقادر وشعيب الأرنؤوط، ط ٢ - الرياض: مكتبة المؤيد.

- زاد المعاد في هدي خير العباد - بيروت: المكتبة العلمية (د. ت).

- أعلام الموقعين عن رب العالمين، تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد - بيروت: دار الفكر العربي (د. ت).

- الطب النبوي، تحقيق عبدالغني عبدالخالق وآخرون - الرياض: مكتبة الرياض الحديثة (د. ت).

ابن كثير، إسماعيل بن كثير، أبو الفداء الدمشقي (ت، ٧٧٤ هـ).

- حجة الوداع، تحقيق خالد أبو صالح، ط ١ - الرياض: دار الوطن ١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م.

- السيرة النبوية، تحقيق مصطفى عبدالواحد - بيروت: دار المعرفة ١٣٩٦ هـ.

- الفصول في اختصار سيرة الرسول، تحقيق محمد العيد الخطراوي

- ومحي الدين مستو، ط ١ - دمشق: مؤسسة علوم القرآن ١٣٩٩هـ.
- تفسير القرآن العظيم، ط ٢ - الرياض: دار كنوز إشبيليا ١٤٣٠هـ.
- البداية والنهاية، ط ٣ - بيروت: مكتبة المعارف ١٩٧٨م.
- ابن ماجه، الحافظ أبي عبدالله محمد بن يزيد القزويني (٢٠٧ - ٢٧٥هـ).
- سنن ابن ماجه، تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي - القاهرة: ١٣٧٣هـ.
- مالك بن أنس، الامام (ت، ١٧٩هـ).
- الموطأ، مراجعة فاروق سعد، ط ٨ - بيروت: دار الآفاق الجديدة ١٤٠١هـ.
- الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد (ت، ٤٥٠هـ).
- أعلام النبوة - بيروت: دار الكتب العلمية (د. ت).
- الأحكام السلطانية - بيروت: دار الفكر (د. ت).
- ابن المثنى، أبو عبيدة معمر (ت، ٢٠٩هـ).
- أزواج النبي ﷺ، تحقيق يوسف علي بديوي - بيروت: مكتبة التربية ١٤١٠هـ.
- المحب الطبري، أبو جعفر أحمد بن عبدالله (ت، ٦٩٤هـ).
- الرياض النضرة في مناقب العشرة، ط ٢ - القاهرة: مكتبة الخانجي ١٣٧٢هـ.
- مسلم، الإمام أبو الحسن مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري (ت، ٢٦١هـ).
- الجامع الصحيح - بيروت: دار الآفاق الجديدة (د. ت).
- المقدسي، عبدالغني بن عبدالواحد الجماعيلي الحنبلي (ت، ٦٠٠هـ).
- الدرر المضيئة في السيرة النبوية (سيرة النبي وأصحابه العشرة)، حققه خالد عبدالرحمن بن حمد الشايع، ط ٢ - دار بلنسية ١٤٢١هـ.
- مختصر منهاج القاصدين - بيروت: دار الكتب العلمية ١٩٩٥هـ.

المقريزي، أحمد بن علي (ت، ٨٤٥هـ).

- المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار (القول الإبريزي) - القاهرة: مطبعة التوفيق ١٨٩٨م.

- إمتاع الأسماع بما للرسول ﷺ من الأنباء والأموال والحفدة والمتاع، حققه محمود محمد شاكر - القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر.
ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم الإفريقي المصري (ت، ٧١١هـ).

- لسان العرب - بيروت: دار صادر (د.ت).

الموسوي، محمد بن عبدالله الحسيني الشهير بـ (كبريت).

- رحلة الشتاء والصيف، تحقيق محمد سعيد طنطاوي، ط ٢ - بيروت: المكتب الإسلامي ١٣٨٥هـ.

ابن النجار، الحافظ محمد بن محمود.

- أخبار مدينة الرسول، تحقيق صالح محمد جمال، ط ٣ - مكة المكرمة: دار الثقافة ١٤٠١هـ.

ابن النديم، أبو الفرج يعقوب بن اسحق المعروف بالوراق (ت، ٣٨٠هـ).

- الفهرست - بيروت: مكتبة خياط (د.ت).

النسائي، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي (٢١٤ - ٣٠٣هـ).

- كتاب الوفاة، وفاة النبي ﷺ، تحقيق دار الفتح ط ١ - الشارقة: دار الفتح ١٤١٥هـ.

- سنن النسائي، بشرح جلال الدين السيوطي وحاشية الامام السندي -

بيروت: دار إحياء التراث العربي ١٤٠١هـ.

- ابن النفيس، علي علاء الدين بن أبي الحزم القرشي.
- الرسالة الكاملة في السيرة النبوية، تحقيق عبدالمنعم عامر وأحمد هريدي - القاهرة: وزارة الأوقاف المصرية ١٤٠٨هـ.
- النووي، أبو زكريا يحيى بن شرف (ت، ٦٧٦هـ).
- شرح صحيح مسلم، إعداد مجموعة من الأساتذة بإشراف علي عبدالحميد أبو الخير، ط٣ - دمشق: دار الخير ١٤١٦هـ.
- النويري، شهاب الدين أحمد بن عبدالوهاب (٦٧٧ - ٧٣٣هـ).
- نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم وآخرون - الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٣٩٥هـ.
- ابن هشام، أبو محمد عبدالملك المعافري (ت، ٢١٨هـ).
- السيرة النبوية، حققها مصطفى السقا وإبراهيم الإبياري وعبدالحفيظ شلبي - القاهرة: دار الكنوز الأدبية (د. ت).
- الهمذاني، عبدالجبار بن أحمد (ت، ٤١٥هـ).
- تثبيت دلائل النبوة - شبرا، القاهرة: دار المصطفى ٢٠٠٦م.
- الهيثمي، شهاب الدين أحمد بن حجر (ت، ٩٧٤هـ).
- أشرف الوسائل إلى فهم الشمائل، تحقيق أبي الفوارس أحمد بن فريد المزيدي، ط١ - بيروت: دار الكتب العلمية ١٤١٩هـ.
- الهيثمي، نور الدين علي بن أبي بكر (ت، ٨٠٧هـ).
- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد - بيروت: دار الكتب العلمية ١٤٠٨هـ.
- الواحدي النيسابور، الإمام أبو الحسن علي بن أحمد (ت، ٤٦٨هـ).
- أسباب النزول، تحقيق كمال بسيوني زغلول - بيروت: دار الكتب العلمية ١٤١١هـ.

- الواقدي، محمد بن عمر (ت، ٢٠٧هـ).
- المغازي، تحقيق مارسدن جونس - بيروت: عالم الكتب (د. ت).
- اليحصبي، القاضي عياض بن موسى (ت، ٥٤٤هـ).
- الشفا بتعريف حقوق المصطفى - بيروت: دار الكتب العلمية (د. ت).
- اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب (ت، ٢٨٢هـ).
- تاريخ اليعقوبي - بيروت: دار صادر ١٣٧٩هـ.
- أبو يوسف، يعقوب بن إبراهيم (ت، ١٨٢هـ).
- كتاب الخراج، تحقيق قصي الدين الخطيب، ط ٥ - القاهرة: المطبعة السلفية ١٣٩٦هـ.

ثانياً: المراجع:

- إبراهيم، محمد إبراهيم محمد.
- الجانب الإعلامي في خطب الرسول ﷺ، ط ١ - بيروت: المكتب الإسلامي ١٤٠٦هـ.
- ابن إدريس، عبد الله بن عبد العزيز.
- مجتمع المدينة في عهد الرسول ﷺ - الرياض: جامعة الملك سعود ١٤٠٢هـ.
- إسحاق، رشيد محمد هارون.
- صحيفة المدينة، رسالة ماجستير - الرياض: جامعة الملك سعود ١٤٠٥هـ.
- أحمد، إبراهيم خليل.
- محمد في التوراة والإنجيل والقرآن - الكويت: دار المنار ١٤٠٩هـ.
- الأسطل، علي رضوان.
- الوفود في العهد المكي وأثرها الإعلامي، ط ١ - الزرقاء، الأردن: مكتبة المنار ١٤٠٤هـ.

- أرمسترنج، كارين.
- سيرة النبي محمد، ترجمة د. فاطمة نصر د. محمد عناني، ط ٢ - القاهرة: شركة سطور ١٩٩٧م.
- أرنولد، سير توماس.
- الدعوة إلى الإسلام، ترجمة حسن إبراهيم حسن وآخرين - القاهرة: ١٩٧٠م.
- الأعظمي، محمد مصطفى.
- كُتَّاب النبي، ط ١- بيروت: المكتب الإسلامي ١٤٠١هـ.
- الآغا، مسعود يحي.
- الإقطاع الإسلامي في العصر النبوي، ط ٢ - السعودية الرياض: الجمعية التاريخية ١٤٢٧هـ / ٢٠٠٦م.
- الألباني، محمد ناصر الدين
- صحيح الجامع الصغير وزيادته (الفتح الكبير)، ط ٣- بيروت: ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.
- الألمعي، زاهر بن عواض.
- مع المفسرين والمستشرقين في زواج النبي ﷺ بزَيْنَب بنت جحش دراسة تحليلية، ط ٤ - الرياض: مطابع الفرزدق ١٤٠٣هـ.
- الألوسي، محمود شكري.
- بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، مراجعة محمد بهجة الأثري، ط ٢ - بيروت: دار الكتب العلمية (د. ت).
- الأنصاري، إسماعيل.
- الإسراء والمعراج من تفسير ابن كثير، (تجريد وترتيب وتعليق) - الرياض: دار الصميعي ١٤٢٨هـ.

- الأنصاري، عبدالقدوس.
- طريق الهجرة النبوية، ط١- جدة: مطابع الروضة ١٣٩٨م.
- الأنصاري، ناجي محمد حسن.
- عمارة وتوسعة المسجد النبوي عبر التاريخ، ط١ - المدينة المنورة: النادي الأدبي ١٤١٦هـ.
- أنيس، د. إبراهيم، وآخرون.
- المعجم الوسيط، إعداد مجمع اللغة العربية القاهرة - اسطنبول: المكتبة الإسلامية (د.ت).
- بارتولد، فاسيلي فلاديمير.
- تاريخ الحضارة الإسلامية، ترجمة حمزة طاهر، ط٤ - القاهرة: دار المعارف ١٩٦٦م.
- باشميل، محمد أحمد.
- غزوة بدر الكبرى - بيروت: دار الفكر ١٩٧٤م.
- من معارك الإسلام الفاصلة: غزوة أحد، تقديم محمود شيت خطاب، ط٢ - القاهرة: المطبعة السلفية ١٤٠٥هـ.
- غزوة الأحزاب - بيروت: دار الفكر ١٩٨٧م.
- غزوة بني قريظة - الطبعة الأولى - دار الفكر: بيروت ١٩٧٦م.
- صلح الحديبية. تقديم عبدالله التل - بيروت: دار الفكر ١٩٨٣م.
- غزوة خيبر، ط٣ - بيروت: دار الفكر ١٣٩١م.
- غزوة مؤتة - بيروت: دار الفكر ١٩٧٤م.
- فتح مكة - بيروت: دار الفكر ١٣٩٤هـ.
- العرب في الشام قبل الإسلام، ط١ - بيروت: دار الفكر ١٣٩٣هـ.
- غزوة حنين، ط١ - بيروت: دار الفكر ١٩٨٣م.
- غزوة تبوك - بيروت: دار الفكر ١٩٧٨م.

الباكري، حسين بن أحمد.

- مرويّات غزوة أُحُد. جمع وتحقيق ودراسة، رسالة ماجستير مقدمة لقسم الدراسات العليا، شعبة السنة، - المدينة المنورة: الجامعة الإسلامية ١٣٩٩هـ - ١٤٠٠هـ.

بامدحج، محمد بن عيظة بن سعيد.

- غزوة أحد دارسة دعوية، ط ١ - الرياض: دار إشبيليا ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م.

باوزير، أحمد محمد العليمي.

- مرويّات غزوة بدر، ط ١ - مكتبة طيبة ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م.

بدران، عبدالقادر (ت، ١٣٤٦هـ).

- تهذيب تاريخ دمشق، لابن عساكر، ط ٢ - بيروت: دار الفكر ١٣٩٩هـ.

بردويل، فرنان.

- البحر المتوسط في المجال والتاريخ، ترجمة يوسف شلب الشام - دمشق:

وزارة الثقافة السورية ١٩٩٠م.

البستاني، بطرس.

- معارك العرب في الشرق والغرب - بيروت: دار مارون عبود ١٩٨٧م.

البستي، أبي حاتم محمد بن أحمد التميمي.

- السيرة النبوية وأخبار الخلفاء صححه وعلق عليه الحافظ السيد عزيز

بك وجماعة من العلماء، ط ١ - مؤسسة الكتب الثقافية ١٤٠٧هـ /

١٩٨٧م.

بفانمولر، جوستاف.

- سيرة النبي في تصورات الغربيين، ترجمة محمود حمدي قنديل، ط ١ -

البحرين: مكتبة ابن تيمية ١٤٠٦هـ.

أبو بكر، علي الشيخ أحمد.

- معالم الهجرتين إلى أرض الحبشة، ط ١ - الرياض: مكتبة الشريعة ١٤١٣هـ.

البلادي، عاتق بن غيث.

- على طريق الهجرة، رحلات في قلب الحجاز - مكة: دار مكة ١٣٩٨م.
- معالم مكة التاريخية والأثرية، ط ٢ - مكة: دار مكة.
- معجم قبائل الحجاز - مكة المكرمة: دار مكة للنشر والتوزيع ١٣٩٩هـ.
- معجم المعالم الجغرافية في السيرة النبوية، ط ١ - دار مكة ١٤٠٢هـ.
- أودية مكة المكرمة، ط ١ - دار مكة: ١٤٠٥هـ.

البوطي، محمد سعيد رمضان.

- فقه السيرة - دمشق: دار الفكر ٢٠٠٨م.
- لبيتي، عبدالعزيز بن عمر.
- الإدارة الدستورية في عهد النبوة - المدينة المنورة: الجامعة الإسلامية ١٤١٦هـ.

الترمانيني، عبدالسلام.

- أزمنة التاريخ الإسلامي، الجزء الأول، المجلد الأول (أهم أحداث التاريخ الإسلامي) - الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون ١٤٠٢هـ.

التميمي، محمد بن خليفة بن علي.

- حقوق النبي على أمته في ضوء الكتاب والسنة - الرياض: أضواء السلف ١٤١١هـ.

الشعالبي، عبدالعزيز.

- محاضرات في تاريخ الأديان - بيروت: دار الغرب الإسلامي ١٩٨٧م.

- معجزة محمد رسول الله، مراجعة محمد اليعلاوي - بيروت: دار الغرب الإسلامي ١٩٨٩م.
جاد، محمد عبدالسميع.
- الوفود في العهد النبوي وأثرها في الدعوة الإسلامية، رسالة دكتوراه مقدمة إلى قسم الدعوة بكلية أصول الدين بالأزهر - القاهرة: ١٩٧٤م.
جاد، أحمد.
- وفاة الحبيب وما كان في الأيام الأخيرة من حياة الرسول ﷺ القاهرة: دار الغد ٢٠٠٣م.
الجبري، عبدالمتعال محمد.
- السيرة النبوية وأوهام المستشرقون - القاهرة: مكتبة وهبة ١٩٨٩م.
جريس، غيثان بن علي.
- افتراءات المستشرق كارل بروكلمان على السيرة النبوية - نادي أبها الأدبي ١٤١٣هـ.
الجزائري، أبو بكر.
- هذا الحبيب محمد رسول الله ﷺ يا محب - المدينة المنورة: مكتبة العلوم والحكم ٢٠٠١م.
- منهاج المسلم - الرياض: دار السلام ١٤٢٣هـ.
الجعوان، محمد بن ناصر بن عبدالرحمن.
- فتح مكة وآثارها التشريعية في الفقه الإسلامي - المدينة المنورة: الجامعة الإسلامية (د. ت).
جمجوم، سميرة محمد عمر.
- المعوقون للدعوة الإسلامية في عهد النبوة وموقف الإسلام منهم - جدة: دار المجتمع ١٩٨٧م.

جمعة، أحمد خليل.

- نساء أهل البيت، ط٢ - دمشق: دار اليمامة ١٩٩٦م.

الجميل، إبراهيم محمد حسن.

- زوجات النبي ﷺ وأسرار الحكمة في تعددهن - القاهرة: مكتبة وهبة ١٩٨٣م.

الجميل، أحمد عبدالغني النجولي.

- هجرة الرسول وصحابته في القرآن والسنة - المنصورة: دار الوفاء ١٤٠٩هـ.

الجميل، محمد بن فارس.

- النبي ﷺ ويهود المدينة، ط١ - الرياض: مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية. ٢٠٠٢م.

- رحلة الرسول إلى الشام ومقابلة بحيرا الراهب - بحث غير منشور (في حينه).

الجويني، مصطفى الصاوي.

- معارف من السيرة النبوية - الإسكندرية: منشأة المعارف ١٤٠٨هـ.

حافظ، عبدالسلام هاشم.

- سيرة نبي الهدى والرحمة - مكة المكرمة: رابطة العالم الإسلامي ١٤٠٢هـ.

الحداد، أحمد عبدالعزيز بن قاسم.

- أخلاق النبي ﷺ في القرآن والسنة - بيروت: ط٢ - دار الغرب الإسلامي ١٤١٦هـ / ١٩٩٦م.

الحديثي، نزار عبداللطيف.

- الأمة والدولة في سياسة النبي والخلفاء الراشدين - بغداد: دار الحرية ١٩٨٧م.

- أبو بكر الصديق، بالاشتراك مع خالد الجنابي، ط ١ - العراق: دار الشؤون الثقافية العامة ١٩٨٩م.
- الحربي، علي بن جابر.
- منهج الدعوة النبوية في المرحلة المكية، ط ١ - القاهرة: الزهراء للإعلام العربي ١٤٠٦هـ.
- الحربي، محمد بن أحمد بن ناصر.
- اقرأ باسم ربك، ط ١ - جازان: نادي جازان الأدبي ١٤٢٣هـ.
- حركات، إبراهيم.
- السياسة والمجتمع في العصر النبوي - بيروت: دار الآفاق الجديدة ١٩٩٠م.
- الحسيني، محمود أبو الفيض المنوي.
- سيرة سيد المرسلين صاحب الشريعة ورسول الله محمد - القاهرة: دار نهضة مصر ١٩٧١م.
- حسيني، مولوي س. أ. ق.
- الإدارة العربية، ترجمة إبراهيم العدوي، مراجعة عبدالعزيز عبدالخالق - القاهرة: مكتبة القاهرة (د. ت).
- الحليسي، نواف بن صالح.
- رحلة الشتاء والصيف، ط ١ - الرياض: (د. م) ١٤١٤هـ / ١٩٩٣م.
- حمادة، فاروق.
- مصادر السيرة النبوية وتقويمها، ط ١ - دمشق: دار القلم ١٤٢٥هـ.
- الوصية النبوية للأمة الإسلامية في حجة الوداع - بيروت: دار القلم ١٤٢٣هـ.
- خطبة الفتح الأعظم "فتح مكة المكرمة" - مكة: دار الثقافة ١٩٨٣م.

- العلاقات الإسلامية النصرانية في العهد النبوي والخلافة الراشدة، ط ١ - دمشق: دار الفكر ١٤٢٦هـ.
- مراجع مختارة عن حياة الرسول ﷺ - الرياض: دار العلوم ١٩٨٢م. الحمّد، محمد بن إبراهيم.
- الحوار في السيرة النبوية - الكويت: وزارة الأوقاف ١٤٢٩هـ. حمدان، نذير.
- الرسول في كتابات المستشرقين، ط ٢ - جدة: دار المنارة ١٤٠٦هـ. ابن حميد، صالح بن عبدالله وعبدالرحمن بن ملوح - إشراف -، مع مجموعة من المختصين.
- نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم ﷺ، ط ٢ - جدة: دار الوسيلة ١٤٣١هـ. حميد الله، محمد.
- مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، ط ٤ - بيروت: دار النفائس ١٤٠٣هـ. خاطر، خليل إبراهيم ملا.
- محبة النبي ﷺ بين الإنسان والجماد - حلب: دار القلم العربي ١٤١٨هـ. الخالدي، عبدالله بن صالح وعبداللطيف بن محمد الحسن.
- محبة النبي ﷺ وتعظيمه، ط ١ - الرياض: دار البيان ١٤٢٦هـ. الخراشي، عبدالله.
- النشاط الاقتصادي في منطقة المدينة في العهد النبوي، رسالة دكتوراه، كلية الآداب - الرياض: جامعة الملك سعود ١٤١٨هـ.

الخشاب، يحيى.

- التقاء الحضارتين الفارسية والعربية - القاهرة: جامعة الدول العربية ١٩٦٩م.

- تفسير أقدم نص عن النظم الفارسية قبل الإسلام - القاهرة: (د. ت). خطاب، محمود شيت.

- غزوة بدر الكبرى، ط ١ - دمشق: دار قتيبة ١٩٩٠م.

- الوسيط في رسالة المسجد في الإسلام - بيروت: دار القرآن ١٤٠١هـ.

- السفارات النبوية - بغداد: المجمع العلمي ١٩٨٦م.

- المصطلحات العسكرية في القرآن الكريم، ط ١ - بيروت: دار الفتح ١٣٨٦م.

- الرسول القائد ط ٢ - القاهرة: دار مكتبة الحياة ومكتبة النهضة ١٩٦٠م.

- دروس عسكرية من السيرة النبوية، ط ٦ - بيروت: دار الفكر ٢٠٠٢م. الخطراوي، محمد العيد.

- المدينة في العصر الجاهلي، الحياة الاجتماعية والسياسية والثقافية والدينية - جدة: مؤسسة علوم القرآن ١٤٠٣هـ.

الخطيب، عبد الكريم.

- النبي محمد إنسان الإنسانية ونبي الأنبياء - بيروت: دار المعرفة ١٩٧٥م.

الخطيب، علي أحمد.

- عمر بن الخطاب، حياته علمه وأدبه - بيروت: عالم الكتب ١٤٠٦هـ.

- التفسير الإعلامي للسيرة النبوية - بيروت: دار الجيل ١٩٩٢م.

أبو خليل، شوقي.

- الهجرة حدث غير مجرى التاريخ - بيروت: دار الفكر ١٩٨٠م.
- غزوة مؤتة - دمشق: دار الفكر ١٩٨٢م.
- غزوة الخندق - دمشق: دار الفكر ١٩٨٢م.
- غزوة أحد - دمشق: دار الفكر ١٩٨٢م.
- بدر الكبرى - دمشق: دار الفكر ١٩٨٢م.
- غزوة تبوك - دمشق: دار الفكر ١٩٨٢م.
- أطلس السيرة النبوية - دمشق: دار الفكر ١٤٢٣هـ.
- صلح الحديبية - دمشق: دار الفكر ١٩٨٣م.
- غزوة خيبر - دمشق: دار الفكر ١٩٨٣م.
- فتح مكة - دمشق: دار الفكر ١٩٨٣م.
- حنين والطائف - دمشق: دار الفكر ١٩٨٣م.

خليل، عماد الدين.

- دراسة في السيرة، ط ١٥ - بيروت: مؤسسة الرسالة ١٤٢٢هـ.
- المستشرقون والسيرة - الدوحة: دار الثقافة ١٤١٠هـ.

ابن خميس، عبدالله.

- معجم اليمامة، ط ٢ - الرياض: دار اليمامة ١٤٠٠هـ.

الخميس، عثمان محمد.

- كنوز السيرة، ط ٢ - الكويت: غراس للنشر والتوزيع ١٤٢٨هـ.

الخولي، محمد عبدالعزيز.

- الأدب النبوي، ط ١ - بيروت: دار القلم ١٤٠٦هـ.

الخيارى، أحمد ياسين الخيارى.

- تاريخ ومعالـم المدينة المنورة قديماً وحديثاً، تحقيق عبيد الله كردي،
ط ١ - المدينة المنورة: النادي الأدبي ١٤١٠هـ.

خيـاط، عبد الله.

- حـكم وأحكام من السيرة النبوية - الرياض: دار الرفاعي ١٩٨١م.

أبو داهش، د. عبد الله بن محمد.

- شعراء حول الرسول ﷺ، ط ١ - الدمام: نادي المنطقة الشرقية الأدبي
١٤١٧هـ / ١٩٩٧م.

داود، عبد الأحد.

- محمد كما ورد في كتاب اليهود والنصارى، ترجمة حمد فهد الزين
ط ١ - الرياض: مكتبة العبيكان ١٤١٨هـ.

الدرع، محمد خير.

- نبي الإسلام: شخصية - حياته - رسالته، ط ١ - دمشق: دار الفكر
٢٠٠٢م.

دروزة، محمد عزة.

- سيرة الرسول ﷺ مقتبسة من القرآن الكريم - بيروت: المكتبة العصرية
(د. ت.).

- عصر النبي وبيئته قبل البعثة، ط ٢ - بيروت: دار اليقظة ١٣٨٤هـ.

درمنغم، إميل.

- حياة محمد، ترجمة عادل زعيتر، ط ٢ - القاهرة: دار إحياء الكتب
العربية ١٩٤٩م.

الدملوجي، فاروق.

- تاريخ الأديان الإلهية وتاريخ الآلهة - بيروت: الأهلية للنشر والتوزيع
٢٠٠٣م.

الدمنهوري، عادل عبدالغفور عبدالغني.

- مرويّات السيرة النبوية في العهد المكي إلى نهاية حديث الإسراء والمعراج
رسالة ماجستير - المدينة المنورة: الجامعة الإسلامية ١٤٠٩هـ.

- مرويّات عروة بن الزبير في السير والمغازي جمع ودراسة، رسالة دكتوراه
- المدينة المنورة: الجامعة الإسلامية ١٤١٤هـ.

الدمياطى، شرف الدين أبو محمد عبدالمؤمن بن خلف.

- السيرة النبوية، تحقيق أسعد محمد الطيب - حلب: دار الصابوني
١٤١٦هـ.

الدميري، مصطفى.

- العلاقات العامة في عصر النبوة - مكة المكرمة: مكتبة المنارة ١٩٨٨م.
ابن دهبش، منيرة عبدالملك.

- دور المسجد في القرن الأول الهجري، ط١ - مكة المكرمة: مكتبة
الأسدي ١٤٢٥هـ.

ديدات، أحمد.

- ماذا يقول الكتاب المقدس عن محمد، ترجمة إبراهيم خليل أحمد،
موقع. (www.4shared.com).

ديورانت، ول.

- قصة الحضارة، ج ٢ م ١ (الشرق الأدنى القديم)، ترجمة أحمد بدران،
ط٢ - القاهرة: ١٩٦١م.

- دينيه، فونس اتين (ناصر الدين).
- محمد رسول الله، تقديم شيخ الأزهر - القاهرة: ١٩٥٦م.
- الرافعي، مصطفى بن محمد بن عبد الله العلوي.
- إتحاف المؤمنين بتاريخ مسجد خاتم المرسلين - المدينة المنورة: المكتبة العلمية ١٤٠٤هـ.
- الراوي، محمد.
- المدينة المنورة في عهد الرسالة من حديث القرآن الكريم وبيان السنة المطهرة، ط ٢ - الرياض: العبيكان ١٤٢٧هـ.
- الرحيلي، سليمان بن ضفيدع.
- الطريق النبوي إلى بدر معالم وعبر - المدينة المنورة: ١٤١٩هـ.
- رزق الله، أحمد مهدي.
- السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، ط ١ - الرياض: مركز الملك فيصل ١٤١٢هـ.
- صفوة السيرة النبوية في سيرة خير البرية، ط ١ - دار إمام الدعوة ١٤٢٧هـ.
- رستم، أسد.
- الروم في سياستهم وحضارتهم ودينهم وثقافتهم وصلاتهم بالعرب، ط ١ - بيروت: دار الكشوف ١٩٥٦م.
- الرشيد، عبد الله محمد.
- القيادة العسكرية في عهد الرسول، الرياض: دار المعارف ١٩٨٧م.
- رضا، محمد رشيد.
- خلاصة السيرة المحمدية - القاهرة: دار النشر للجامعات ١٤٣٠هـ.
- محمد رسول الله - بيروت: دار الكتب العلمية ٢٠٠٢م.

- السيرة النبوية تربية أمة وبناء دولة - بيروت: الكتاب الإسلامي ١٩٨١م.
- الوحي المحمدي - القاهرة: دار المنار ١٣٦٧هـ.
- الرفاعي، صالح بن حامد سعيد.
- الأحاديث الواردة في فضائل المدينة، ط١ - المدينة المنورة: الجامعة الإسلامية - مجمع المصحف ١٤١٣هـ.
- الرفاعي، عبدالعزيز.
- الرسول كأنك تراه، حديث أم معبد - دار الرفاعي ١٤٠٣هـ.
- أبوزهرة، محمد.
- خاتم النبیین، طبع على نفقة الشيخ خليفة بن حمد آل ثاني - قطر: ٢٠٠٨م.
- الزید، زید بن عبد الكريم.
- فقه السيرة، ط٣ - الرياض: دار التدمرية ١٤٢٨هـ.
- زيدان، جورجی.
- العرب قبل الإسلام، مراجعة وتعليق حسين مؤنس - القاهرة: دار الهلال (د.ت).
- الزین، سمیح عاطف.
- خاتم النبیین محمد، ط٢ - بيروت: دار الكتب العلمية ١٤٠٦هـ.
- زينو، محمد بن جميل.
- قطوف من الشمائل المحمدية، وزارة الأوقاف الكويتية - الكويت: إدارة الثقافة الإسلامية ٢٠٠٩م.
- سالم، زهير.
- الطريق إلى تبوك - عمان: دار عمار للنشر والتوزيع ١٩٠٠م.

- سالم، عبدالله نجيب.
- ابتسامات نبوية، ط١- الكويت: دار اقرأ ١٤٢٧هـ.
- سالم، عطية محمد.
- وصايا الرسول - الأردن: دار الجوهرة ١٤٢٦هـ.
- السامرائي، ثائر حامد محمد و خليل إبراهيم السامرائي.
- المظاهر الحضريّة للمدينة النبوية في عصر النبوة (١ - ١١هـ) - الموصل: مطبعة الزهراء الحديثة ١٤٠٥هـ.
- السباعي، مصطفى.
- السيرة النبوية دروس وعبر، ط٧ - القاهرة: دار السلام ١٤٢٨هـ.
- السحار، عبدالحميد جودة.
- محمد رسول الله والذين معه - القاهرة: ١٩٦٥م، (وهو عدة أجزاء).
- عام الوفود - القاهرة: مكتبة مصر ١٩٧٧م.
- وفاة الرسول - القاهرة ١٩٦٥م.
- مولد الرسول - القاهرة ١٩٦٥م.
- سرور، محمد جمال.
- قيام الدولة العربية الإسلامية في حياة محمد - القاهرة: دار الفكر العربي ١٩٨٣م.
- سنزكين، محمد فؤاد.
- تاريخ التراث العربي، المجلد الأول الجزء الأول (علوم القرآن والحديث) والمجلد الثاني الجزء الثاني (التدوين التاريخي)، ترجمة محمد فهمي حجازي - الرياض: جامعة الإمام ١٤٠٣هـ.

- سعادة، خليل.
- إنجيل برنابا، ترجمة من الإنجليزية، تعليق أحمد حجازي السقا - الأردن: دار الأمل ٢٠٠٥م.
- السعداوي، محمد حمزة.
- أولاد النبي، ط١ - مكتبة القرآن للنشر والتوزيع ١٩٨٧م.
- السعود، سليمان.
- أحاديث الهجرة، جمع وتحقيق ودراسة - برمنجهام بريطانيا: مركز الدراسات الإسلامية ١٤١١هـ.
- السقا، أحمد حجازي.
- نبوة محمد في الكتاب المقدس، ط١ - القاهرة: دار الفكر العربي ١٣٩٨هـ.
- سكاكيني، وداد.
- أمهات المؤمنين وبنات الرسول ﷺ - القاهرة: ١٩٤٥م.
- السلفي، محمد لقمان.
- الصادق الأمين ﷺ، ط١ - الرياض: دار الداعي ١٤٢٧هـ.
- سليمة، محمد موفق.
- حديث الإفك - دمشق: دار الفتح ١٤٠٩هـ.
- بنات النبي - دمشق: دار الهدى للنشر والتوزيع ١٤١٩هـ.
- السندي، أكرم حسين.
- مرويات تاريخ يهود المدينة في عهد النبوة، رسالة ماجستير، كلية الحديث - المدينة المنورة: الجامعة الإسلامية ١٤٠٠هـ.

السندي، عبدالقادر بن حبيب الله.

- الذهب المسبوك في تحقيق روايات غزوة تبوك - الكويت: مكتبة المعلا ١٤٠٦هـ.

السنيدي، عبدالرحمن بن علي.

- التفقه في الدين والاندماج في أمة الإسلام عند القبائل المجاورة للمدينة في العهد النبوي - المدينة المنورة: بحث منشور في مجلة مركز بحوث ودراسات المدينة المنورة، العدد (٤).

- السيرة النبوية عند البيهقي، مع دراسة مقارنة لأبرز مؤرخي السيرة المعاصرين له في المشرق خلال القرن الخامس الهجري - الرياض: جامعة الإمام - عمادة البحث العلمي ١٤٢٦هـ.

السويكت، سليمان بن عبدالله.

- محنة المسلمين في العهد المكي - الرياض: مكتبة التوبة ١٤١٢هـ.

الشافعي، عبدالسلام محمود.

- موقعة مؤتة - بيروت: المكتبة العصرية ١٩٧٥م.

شاكر، محمود.

- السيرة النبوية، ط ٣ - بيروت: المكتب الإسلامي ١٤٠٥هـ.

- التاريخ الإسلامي (قبل البعثة)، ط ٣ - بيروت: المكتب الإسلامي ١٤٠٥هـ.

- مع الهجرة إلى الحبشة - بيروت: المكتب الإسلامي ١٩٨٧م.

الشامي، صالح.

- أضواء على دراسة السيرة، ط ١ - بيروت: المكتب الإسلامي ١٤١١هـ.

- من معين السيرة، ط ١ - بيروت: المكتب الإسلامي ١٤٠٥هـ.

- من معين الشمائل، ط ١ - بيروت: المكتب الإسلامي ١٤١٨هـ.
- شراب، محمد محمد حسن.
- المعالم الأثيرة في السنة والسير - دمشق: الدار الشامية ١٩٩١م.
- الشراري، نايف.
- دومة الجندل منذ ظهور الإسلام حتى نهاية الدولة الأموية، ط ١ - الرياض: دار الملك عبدالعزيز ١٤٢٦هـ.
- الشرقاوي، عبدالرحمن.
- محمد رسول الحرية - القاهرة: دار الشروق ١٤١٠هـ.
- الشريف، أحمد إبراهيم.
- مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول - القاهرة: دار الفكر العربي (د. ت).
- دولة الرسول في المدينة، ط ١ - بيروت: دار الفكر العربي ١٩٩٨م.
- الشريف، محمود.
- الرسول في القرآن - القاهرة: دار ومكتبة الهلال ١٩٨٦م.
- الشعيب، أحمد قائد.
- وثيقة المدينة المضمون والدلالة، سلسلة كتاب الأمة، ط ١ - الدوحة، قطر: وزارة الأوقاف ١٤٢٦هـ.
- شقرة، محمد إبراهيم.
- السيرة النبوية العطرة في الآيات القرآنية المسطرة، ط ١ - الرياض: مكتبة المعارف ١٤١٨هـ.
- شلبي، أحمد.
- الرسول في بيته صلوات الله وسلامه عليه - القاهرة: دار النهضة ١٩٩٠هـ.

- الشنقيطي، أحمد بن محمد الأمين.
- البعوث والغزوات النبوية - القاهرة: دار الآفاق العربية ٢٠٠٦م.
- الشنقيطي، محمد الأمين عوض الله.
- السيرة النبوية عند ابن حجر في فتح الباري - الكويت: ١٤١٤هـ.
- أبو شهبه، محمد بن محمد.
- السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة، ط٧ - دمشق: دار القلم ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٣م.
- الشهري، عوض بن أحمد.
- مرويات غزوة خيبر، (جمع وتحقيق ودراسة) رسالة ماجستير - المدينة المنورة: الجامعة الإسلامية ١٤١٠هـ.
- الشيبياني، محمد شريف.
- الرسول في الدراسات الاستشراقية المنصفة - بيروت: دار الحضارة ١٩٨٨م.
- الصابوني، محمد علي.
- شبهاث وأباطيل حول تعدد زوجات الرسول، (د. م) ١٩٨٠م.
- أبو صالح، خالد مصطفى.
- مرض النبي ووفاته وأثر ذلك على الأمة، ط١ - الرياض: دار الوطن ١٤١٤هـ / ١٩٩٣م.
- الصلابي، علي بن محمد بن محمد.
- أصح الكلام في سيرة خير الأنام (السيرة النبوية)، ط٣ - دمشق: دار ابن كثير ١٤٢٦هـ / ٢٠٠٥م.
- الصواف، محمد محمود.
- زوجات النبي الطاهرات وحكمة تعددهن - عمان: مطبعة الحرية ١٩٦٤م.

الصوياني، محمد.

- السيرة النبوية كما جاءت في الأحاديث الصحيحة، ط ٣ - الرياض: مكتبة العبيكان ١٤٣٠هـ.

- القصيمية "دراسة نقدية لنصوص السيرة النبوية" - الرياض: دار طيبة ١٤٠٩هـ.

آل بو طامي، أحمد بن حجر.

- الإسلام والرسول في نظر منصفى الشرق والغرب - الدوحة: مكتبة الثقافة ١٣٩٧هـ.

طرهوني، محمد بن رزق.

- صحيح السيرة النبوية المسماة السيرة الذهبية، ط ١ - الرياض: دار ابن تيمية ١٤١٠هـ.

الطهطاوي، محمد عزت.

- محمد في التوراة والإنجيل والقرآن - القاهرة: مكتبة النور ١٤٠٦هـ. طويلة، عبدالوهاب عبدالسلام.

- بشارات الأنبياء بمحمد ﷺ - الرياض: دار السلام ١٩٩٨م.

- وجاء النبي المنتظر، ط ٢ - المدينة المنورة: الجامعة الإسلامية، ١٤٠٥هـ. الظاهري، أبو تراب.

- ذهول العقول بوفاة الرسول - جدة: دار القبلة ١٤٠٤هـ.

عامري، سامي.

- محمد ﷺ في كُتب اليهود والنصارى والبوذيين والمجوس والهندوس والسيخ، ط ١ - القاهرة: مركز التنوير الإسلامي ١٤٢٦هـ / ٢٠٠٦م.

العبادي، عبدالله الرحيم.

- خصائص لسيد المرسلين، ط ١ - الدوحة قطر: دار الثقافة ١٤٢٧هـ.

- عبدالرحمن، عائشة (بنت الشاطئ).
- نساء النبي ﷺ - القاهرة: دار الريان ١٤٠٧ هـ.
- مع المصطفى - القاهرة: دار المعارف ١٩٩٢ م.
- أم النبي - الإسكندرية: مكتبة الإسكندرية ٢٠٠٩ م.
- بنات النبي - القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠١٠ م.
- عبدالرزاق، أبو بكر بن همام الصنعاني.
- المصنف، تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي، ط٢ - بيروت: المكتب الإسلامي ١٤٠٣ هـ.
- عبدالرزاق، يوسف.
- معالم دار الهجرة - المدينة: عالم النهضة الحديثة ١٤٠١ هـ.
- عبدالغني، محمد إلياس.
- بيوت الصحابة حول المسجد النبوي الشريف، ط٢ - المدينة: مركز طيبة ١٤١٨ هـ.
- العبد اللطيف، عبدالحليم إبراهيم.
- حديث الإفك، ط١ - بريدة: نادي القصيم الأدبي ١٤١٠ هـ - ١٩٩٠ م.
- عبد اللطيف، عبدالعزيز بن محمد بن إبراهيم.
- أمهات المؤمنين ﷺ، دراسة حديثة، رسالة دكتوراه - المدينة المنورة: الجامعة الإسلامية ١٤٠٥ هـ.
- عبدالوهاب، محمد فهمي.
- محمد رسول الإسلام في نظر فلاسفة الغرب ومشاهير علمائه وكتابه - القاهرة: دار الاعتصام ١٩٧٩ م.
- العبودي، محمد ناصر.
- المعجم الجغرافي للبلاد السعودية (بلاد القصيم) - الرياض: دار اليمامة ١٣٩٩ هـ.

- عتر، حسن ضياء الدين.
- نبوة محمد ﷺ في القرآن، ط ١ - بيروت: دار البشائر الإسلامية ١٤١٠هـ.
- العتوم، علي.
- تجربة مؤتة - عمان الأردن: مكتبة الرسالة الحديثة ١٤٠٦هـ.
- عثمان، عثمان عبد.
- السياسة الخارجية للدولة الإسلامية والاستراتيجية العليا في إدارة الصراع الدولي كما جدد قيادتها الرسول ﷺ، ط ١ - بيروت: دار مكتبة الهلال ١٩٩٤م.
- العجلان، عبدالعزيز بن محمد.
- أبو المعتمر سليمان التيمي ومروياته في السيرة النبوية، رسالة ماجستير - الرياض: مقدمة لقسم التاريخ والحضارة بجامعة الإمام، للعام الجامعي ١٤٢٢هـ (غير منشورة).
- العربي، محمد ممدوح.
- دولة الرسول في المدينة - الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٨م.
- عرجون، محمد الصادق إبراهيم.
- محمد رسول الله ﷺ - بيروت: دار العلم ١٤٠٥هـ.
- عساف، أحمد محمد.
- قبسات من حياة الرسول - دار إحياء العلوم ١٤٠٥هـ.
- العسكر، محمد بن صالح.
- العلاقة بين دولة الرسول ﷺ والقبائل العربية المقيمة حول المدينة (١-١١هـ) رسالة دكتوراه - مقدمة لقسم التاريخ بكلية الآداب جامعة الملك سعود ١٤٢٢هـ (غير منشورة).

- عيسى، أحمد عبدالرحمن.
- كتاب الوحي، ط ١- الرياض: دار اللواء ١٤٠٠هـ.
- عطية، عصام بن محمد.
- لماذا نحب محمداً - الرياض: الندوة العالمية للشباب الإسلامي ١٤٢٨هـ.
- العقاد، عباس محمود.
- عبقرية محمد - القاهرة: دار النهضة مصر ١٩٨٠م.
- عقيل، عقيل حسين.
- محمد ﷺ من وحي القرآن ط ١- دمشق: دار ابن كثير ١٤٣٢هـ.
- العقيلي، محمد أرشيد.
- السفارات النبوية إلى ملوك العالم وأمراء أطراف الجزيرة العربية - دار إحياء العلوم ١٤٠٦هـ.
- العلي، إبراهيم.
- صحيح السيرة النبوية، ط ٢ - بيروت: دار النفائس ١٤١٦هـ.
- علي، جواد.
- المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام - بيروت: دار العلم للملايين ١٩٧٦م.
- علي، خالد سيد.
- رسائل النبي ﷺ إلى الملوك والأمراء والقبائل - الكويت: دار التراث ١٤٠٧هـ.
- العلي، صالح أحمد.
- تنظيمات الرسول الإدارية في المدينة المنورة - بغداد: ١٩٦٩م.
- الدولة في عهد الرسول - مجلة المجمع العلمي العراقي ١٩٨٩م.

العُمري، بريك بن محمد أبو مايلة.

- السرايا والبعوث النبوية حول المدينة ومكة، ط١ - الدمام: دار ابن الجوزي ١٤١٧هـ.

- غزو مؤتة، ط١ - المدينة المنورة: الجامعة الإسلامية ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٤م.

- بدر الكبرى المدينة والغزوة، ط ١ - دار القبلة للثقافة الإسلامية ١٤١٥هـ / ١٩٩٤م.

العُمري، أكرم ضياء.

- الرسالة والرسول، ط١ - ١٤١٠هـ (د.م).

- المجتمع المدني في عهد النبوة الجهاد ضد المشركين، ط١ - المدينة المنورة: الجامعة الإسلامية ١٤٠٤هـ.

- الحياة الاجتماعية والاقتصادية في عصر النبوة، ط١ - الرياض: دار إشبيليا ١٤١٧هـ.

- المجتمع المدني في عهد النبوة خصائصه وتنظيماته الأولى، ط١ - المدينة المنورة: الجامعة الإسلامية ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م.

- السيرة النبوية الصحيحة، ط٣ - المدينة المنورة: مكتبة العلوم والحكم ١٤٢٥هـ.

العُمري، عبدالعزيز بن إبراهيم.

- أبعاد إدارية واجتماعية واقتصادية وتقنية في السيرة النبوية - الرياض: مطبعة سفير ١٤٢٦هـ.

- مبادئ التخطيط والإدارة في السيرة النبوية، ط١ - الرياض: مطبعة سفير ١٤٢٨هـ.

- الحرف والصناعات في الحجاز في عصر الرسول ﷺ، ط ٣ - الرياض: دار إشبيليا ١٤٢٠هـ.
- رسول الله وخاتم النبيين - دين ودولة - ط ١ - بيروت: مطبعة قيسان ١٤٣٢هـ - ٢٠١١م.
- الفتوح الإسلامية عبر العصور، ط ٢ - الرياض: دار إشبيليا ١٤١٩هـ.
- موسوعة شمائل المصطفى ﷺ، ط ١ - الكويت: ١٤٤٤هـ - ٢٠٢٣م.
- العواجي، محمد بن محمد.
- مرويات الإمام الزهري في المغازي، ط ١ - المدينة المنورة: عمادة البحث العلمي للجامعة الإسلامية ١٤٢٥هـ.
- أهمية دراسة السيرة والعناية بها في حياة المسلمين، بحث ضمن أعمال ندوة عناية المملكة بالسنة والسيرة النبوية - المدينة المنورة: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف ١٤٢٥هـ.
- العودة، سليمان بن حمد.
- السيرة النبوية في الصحيحين وعند ابن إسحاق، ط ١ - الرياض: جامعة الإمام ١٤١٩هـ.
- الهجرة الأولى في الإسلام (فقه المرويات)، ط ١ - الرياض: دار طيبة ١٤١٩هـ.
- قضايا ومباحث في السيرة النبوية، ط ١ - الرياض: دار المسلم ١٤١٦هـ.
- عوض الله، السيد أحمد أبو الفضل.
- مكة في عصر ما قبل الإسلام ط ١ - الرياض: دار الملك عبدالعزيز ١٩٨١م.

العياري، شفيق إبراهيم.

- الدولة الإسلامية في المدينة في عصر الرسول ﷺ - القاهرة: كلية دار العلوم جامعة القاهرة ١٤١٨هـ.

العايشي، إبراهيم بن علي.

- المدينة بين الماضي والحاضر - المدينة المنورة: المكتبة العلمية ١٣٩٢هـ.

- غزوة بدر الكبرى - المدينة المنورة: النادي الأدبي ١٩٨١هـ.

عيسى، د. أحمد عبدالرحمن.

- كتاب الوحي، ط١ - الرياض: دار اللواء ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م.

محمد بن عبدالله غبان.

- شهداء غزوة بدر الكبرى، ط١٥ - الرياض: الجمعية التاريخية السعودية

١٤٢٤هـ / ٢٠٠٣م.

- مرويّات الوثائق المكتوبة من النبي ﷺ وإليه جمعاً ودراسة (رسالة

دكتوراه) - المدينة المنورة: الجامعة الإسلامية (د. ت).

الغزالي، محمد.

- فقه السيرة، ط٧ - القاهرة: دار الكتب الحديثة ١٩٧٦هـ.

الغضبان، منير محمد.

- المنهج الحركي للسيرة النبوية، ط٢ - الزرقاء، الأردن: مكتبة المنار

١٤٠٦هـ.

- فقه السيرة النبوية، معهد البحوث - مكة المكرمة: جامعة أم القرى

١٩٨٩م.

الغلاييني، مصطفى.

- لباب الخيار في سيرة المختار، ط٣ - القاهرة: المكتبة الرحمانية ١٣٤١هـ.

- أبو فارس، محمد عبدالقادر.
- في ظلال السيرة النبوية، الإسراء والمعراج - عمّان الأردن: دار الفرقان للنشر والتوزيع ١٤٠٨هـ.
 - في ظلال السيرة النبوية، الصراع مع اليهود - دار الفرقان ١٤٠٩هـ.
 - في ظلال السيرة النبوية، الهجرة النبوية ط ١ - عمّان: دار الفرقان ١٤٠٢هـ.
 - غزوة الحديبية - عمان الأردن: دار الفرقان للنشر والتوزيع ١٤٠٤هـ.
- فاشا، سهيل.
- لمحات من تاريخ نصارى العراق - بغداد: مطبعة شفيق ١٩٨٢م.
- الفالوذة، أبو إبراهيم محمد بن إلياس.
- الموسوعة العلمية في صحيح السيرة النبوية، ط ١ - الصفا: ١٤٢٣هـ
- فرج، بسام عطية.
- نبينا رأي العين، ط ٢ - عمّان الأردن: دار الفاروق ١٤٣١هـ.
- الفتيسان، سعود بن عبدالله.
- غزوة الأحزاب في ضوء القرآن الكريم ط ١ - دار إشبيليا ١٤١٨هـ / ١٩٩٧م.
- مرويات أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها في التفسير - الرياض: مكتبة التوبة ١٤١٣هـ.
- الفهيد، محمد عبدالعزيز.
- غزوات الرسول صلّى الله عليه وآله الرياض: المؤلف ١٤١٤هـ.
- الفوزان، صالح بن فوزان.
- حقوق النبي بين الإجلال والإخلال، ط ١٠ - الرياض: دار البيان ١٤٢٦هـ.
- الفيومي، محمد إبراهيم.
- تاريخ الفكر الديني الجاهلي - القاهرة: دار المعارف ١٩٨٢م.

قاسم، عون الشريف.

- نشأة الدولة الإسلامية على عهد رسول الله ﷺ، دراسة في وثائق العهد النبوي، ط٢ - بيروت: دار الكتاب اللبناني ١٤٠١هـ.

القرضاوي، يوسف.

- الرسول المعلم، ط٤ - بيروت: مؤسسة الرسالة ١٤٠٤هـ.

القريبي، إبراهيم بن إبراهيم.

- مرويات غزوة بني المصطلق وهي "غزوة المريسيع" - المدينة المنورة: الجامعة الإسلامية (د. ت).

- مرويات غزوة حنين وحصار الطائف، ط١ - المدينة المنورة: عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية ١٤١٢هـ.

قطب، محمد علي.

- قبسات من الرسول - بيروت: دار الشروق ١٩٨٤هـ.

- غزوات رسول الله وسجل الشهداء - بيروت: المكتبة العصرية ١٤٢٥هـ.

قلعه جي، محمد رواس.

- دراسة تحليلية لشخصية الرسول محمد ﷺ من خلال سيرته الشريفة، ط١ - بيروت: دار النفائس ١٩٨٨هـ.

- قراءة جديدة للسيرة النبوية - الكويت: دار البحوث العلمية ١٩٨٤م.

- قراءة سياسية، للسيرة النبوية، ط٢ - بيروت: دار النفائس بيروت ١٤٢٠هـ.

- محمد في الكتب المقدسة - حلب: المكتبة العربية ١٣٩٢هـ.

القيسي، نوري حمودي.

- مواقف من السيرة النبوية - بيروت: عالم الكتب ١٩٨٥م.

كامل، عبدالعزيز.

- دروس من غزوة أحد - القاهرة: دار المعارف ١٩٧٩هـ.

الكتاني، عبدالحى بن عبدالكبير.

- نظام الحكومة النبوية المسمى التراتيب الإدارية - بيروت: دار الكتب العلمية (د. ت).

كحالة، عمر رضا.

- معجم المؤلفين - دار إحياء التراث العربي (د. ت).

- معجم قبائل العرب القديمة والحديثة، ط٢ - بيروت: مؤسسة الرسالة ١٣٩٨هـ.

كجك، مروان.

- تهذيب سيرة ابن هشام - الرياض: دار طيبة ١٤١٩هـ.

الكردي، راجح عبد الحميد.

- شعاع من السيرة النبوية في العهد المكي - الأردن: دار الفرقان ١٤٠٦هـ.
كلزية، عبد الوهاب.

- الشرع الدولي في عهد الرسول ﷺ - بيروت: دار العلم للملايين ١٩٨٤م.
الكليب، عبد الملك.

- علامات النبوة - دمشق: وحي القلم ٢٠٠٨م.

الكداني، أديب.

- فن تعامل النبي ﷺ في الحياة الزوجية - دمشق: دار البشائر الإسلامية ١٤٢٥هـ.

كوئن، محمد فتح الله.

- الرسول ﷺ قائداً: التنظير والتطبيق - اسطنبول: دار النيل ١٤٢٥هـ.

- اللحام، حنان.
- هدي السيرة النبوية في التغيير الاجتماعي، ط٢- بيروت: دار الفكر ١٤٢٣هـ.
- المالكي، حسن جبر.
- وفود القبائل على الرسول وانتشار الإسلام في جزيرة العرب، ط١- الكويت: وزارة الإعلام ١٩٨٧م.
- ماهر، سعاد.
- مساجد في السيرة النبوية - القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٧م.
- لوبون، غوستاف.
- حضارة العرب، نقله إلى العربية عادل زعيتر، ط٣ - دار إحياء التراث العربي ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م.
- لوقا، نظمي.
- محمد في حياته الخاصة - القاهرة: دار الهلال ١٩٦٩م.
- محمد، الرسالة والرسول - القاهرة: دار الكتب الحديثة ١٩٥٩م.
- المباركفوري، صفي الرحمن.
- الرحيق المختوم - المنصورة: دار الوفاء (د.ت).
- المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية.
- الفهرس الشامل للتراث العربي الإسلامي المخطوط (السيرة والمدائح النبوية) - مؤسسة آل البيت ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م.
- محمد، قطب إبراهيم.
- السياسة المالية للرسول - القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٨م.

- المدخلي، إبراهيم بن محمد.
- مرويّات غزوة الخندق، عمادة البحث العلمي - المدينة المنورة: الجامعة الإسلامية ١٤٢٤هـ.
- مرزوق، عبدالصبور.
- السيرة النبوية في القرآن الكريم - مكة المكرمة: رابطة العالم الإسلامي (د. ت).
- المرصفي، سعد.
- الهجرة النبوية ودورها في بناء المجتمع الإسلامي - الكويت: دار الفلاح ١٤٠٢هـ.
- مستو، محيي الدين ديب.
- مناهج التأليف في السيرة النبوية خلال القرون الأربعة الأولى - جامعة الكويت ١٤٠٨هـ.
- المسند، عبدالعزيز بن عبدالرحمن.
- النهج المحمدي - الرياض: النادي الأدبي ١٤٠٠هـ.
- المصري، د. جميل عبدالله.
- أثر أهل الكتاب في الفتن والحروب الأهلية في القرن الأول الهجري - المدينة المنورة: مكتبة الدار ١٤١٠هـ.
- معدّي، الحسيني الحسيني.
- الرسول ﷺ في عيون منصفة، ط١ - القاهرة: دار الكتاب العربي ٢٠٠٦م.
- المغلوث، سامي بن عبدالله بن أحمد.
- الأطلس التاريخي لسيرة النبي ﷺ، ط٢ - الرياض: مكتبة العبيكان ١٤٢٤هـ.

- المكي، نجم الدين أبي القاسم عمر محمد بن فهد الهاشمي.
- الدر الكمين بذيّل العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين، تحقيق عبد الملك بن عبد الله بن دهيش، ط ٢ - مكة المكرمة: مكتبة الأسد ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٤م.
- المليحي، عاطف قاسم أمين.
- أسماء النبي في القرآن والسنة - القاهرة: عالم الفكر ١٤١٩هـ.
- المنجد، صلاح الدين.
- معجم ما أُلّف عن رسول الله - بيروت: دار الكتاب الجديد ١٩٨٢م.
- مؤنس، حسين.
- التاريخ الصحي للرسول ﷺ - القاهرة: دار المعارف ٢٠٠٠م.
- النجار، زغلول.
- خواطر في معية خاتم الأنبياء ﷺ، ط ٣ - القاهرة: نهضة مصر ٢٠٠٨م.
- النجار، عبد الوهاب
- قصص الأنبياء - القاهرة: دار التراث (د. ت).
- النحوي، عدنان علي رضا.
- النبي العظيم والرحمة المهداة - الرياض: دار النحوي ٢٠٠٦م.
- الندوي، أبو الحسن علي الحسني.
- السيرة النبوية، تقديم: د. يوسف القرضاوي، ط ٣ - دار القلم ١٤٢٧هـ.
- الندوي، محمد لقمان الأعظمي.
- مجتمع المدينة المنورة في عهد الرسول ﷺ، دار الاعتصام ١٩٨٩م.
- نيازي، عبد الكريم عبد الله.
- لعلّي لا ألقاكم بعد عامي هذا - بيروت: مركز الصف الإلكتروني، ١٤٠٧هـ.

هارون، عبدالسلام.

- تهذيب سيرة ابن هشام - بيروت: مؤسسة الرسالة ١٤٠٥هـ.

هارت، مايكل.

- أعظم مئة رجل في التاريخ، ترجمة أنيس منصور، ط ٩ - القاهرة: المكتب المصري ١٩٩٧م.

الهاشمي، عبدالمنعم.

- محاولات اغتيال النبي ﷺ، ط ١ - الكويت: مكتبة البخاري ١٤١١هـ.

- النبي ﷺ والنساء ط ١ - الكويت: مكتبة المعارف المتحدة ١٤٢٩هـ.

- أبناء النبي ﷺ وأحفاده، ط ١ - الكويت: مكتبة ابن كثير ١٤٢٩هـ.

- أزواج النبي ﷺ، ط ١ - الكويت: مكتبة ابن كثير ١٤٢٥هـ.

- قادة النبي ﷺ - دمشق: دار ابن كثير ١٤١٤هـ.

- أصهار رسول الله - الرياض: دار الهجرة للطباعة والنشر ١٤٠٨هـ.

الهاشمي، محمد علي.

- شخصية الرسول ودعوته في القرآن الكريم، ط ١ - بيروت: عالم الكتب ١٤٠٣هـ.

هايد، ف.

- تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطى، ترجمة أحمد محمد رضا، مراجعة عز الدين فودة - القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٥م.

هلال، إبراهيم إبراهيم.

- حديث هرقل وكتاب الرسول إليه - القاهرة: دار الصحوة ١٩٩٨م.

الهلابي، عبدالعزيز.

- ما حقيقة رحلة قريش إلى الشام - الرياض: مجلة دار الملك عبدالعزيز، المجلد ٢٢، العدد ٤، لسنة ١٩٩٦م.

الهواري، سيد.

- الإدارة بالأهداف، ط٤ - القاهرة: مكتبة عين شمس ١٩٩٩م.
- الإدارة والأصول والأسس العلمية - القاهرة: دار المعارف ١٩٧٦م.

هيكل، محمد حسين.

- حياة محمد - القاهرة: دار المعارف ١٩٨١م.
- في منزل الوحي - بيروت: دار الكتب العلمية ٢٠٠٧م.

وتر، محمد ضاهر.

- فن الحرب في عهد الرسول ﷺ - دمشق: دار الفكر ١٤٠٥هـ.
- وجدي، محمد فريد.

- دائرة معارف القرن العشرين، ط٣ - بيروت: دار المعرفة ١٩٧١م.
- الوكيل، محمد السيد.

- المدينة المنورة عاصمة الإسلام الأولى، ط١ - دار المجتمع ١٤٠٦هـ
- تأملات في سيرة الرسول - جدة: دار المجتمع ١٩٩٥م.
- الحركة العلمية في عصر الرسول ﷺ وحلفائه، ط١ - جدة: دار المجتمع ١٤٠٦هـ.

ولد أباه، محمد أباه.

- موكب السيرة النبوية رسول الهجرة - الدوحة: دار الثقافة ١٩٨٥م.
- ولد داه، محمد.

- جزيرة العرب مصير أرض وأمة قبل الإسلام، ط١ - الرياض: مطابع الفرزدق ١٤٠٧هـ.

ولفنسون، إسرائيل.

- تاريخ اليهود في بلاد العرب - القاهرة: ١٩٢٧م.

اليامي، زيدان بن عبدالرحمن.

- بيان الحقيقة في الحكم على الوثيقة (وثيقة المدينة)، ط ١ - الرياض:

مكتبة المعارف ١٤٠٨هـ.

يمانى، محمد عبده.

- علموا أولادكم محبة رسول الله ﷺ - جدة: دار القبلة ١٩٩٢م.

- بدر الكبرى، المدينة والغزوة، ط ١ - جدة: دار القبلة ١٤١٥هـ.